

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي

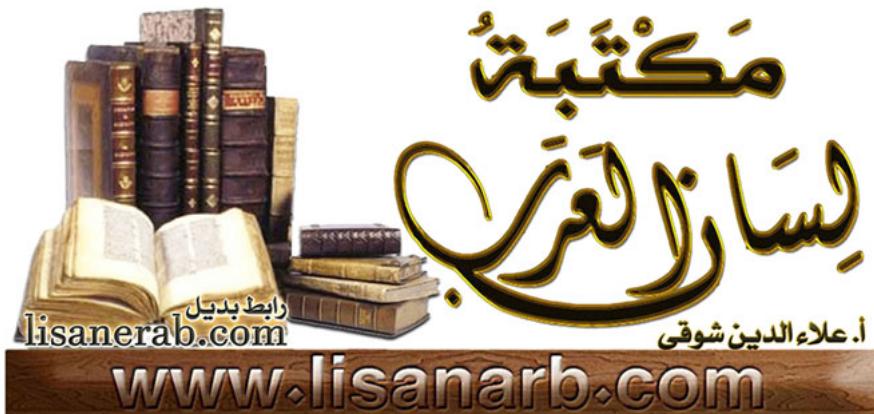
التاريخ الروماني



تقديم وتحقيق
أ.د. حسان حلاق



دار النهضة العربية



التاريخ الروماني

التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

التاريخ الروماني

التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري

الأستاذ الدكتور

عبد اللطيف أحمد علي

أستاذ التاريخ القديم السابق في

جامعة القاهرة وجامعة بيروت العربية

العميد السابق لكلية الآداب - جامعة القاهرة

تقديم وتحقيق

أ.د. حسان حلاق

دار النهضة العربية

رقم الكتاب: 19160
اسم الكتاب: التاريخ الروماني
المؤلف: د. عبد اللطيف احمد علي
الموضوع: تاريخ
رقم الطعة: الأولى
سنة الطبع: 2011 م.
القياس: 24 × 17:
عدد الصفحات: 335:

منشورات : دار النهضة العربية
بيروت - لبنان

بيروت - شارع الجامعة العربية - مقابل كلية طب الاسنان
بنية اسكندراني رقم 3 - الطابق الأرضي والاول

تلفون: + 961 - 1 - 854161 :
فاكس: + 961 - 1 - 833270 :
ص ب: 0749 - 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 - لبنان
بريد الكتروني: darnahda@gmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة

ISBN 978-614-402-387-7

تقديم

بقلم: أ. د. حسان حلاق

يعتبر الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي - رحمه الله - أستاذ التاريخ القديم في جامعة القاهرة، وعميد كلية الآداب الأسبق فيها، من أهم أساتذة التاريخ القديم لا سيما التاريخ اليوناني والروماني، وله العديد من الكتب والمؤلفات والدراسات في موضوع تخصصه. إنه لشرف عظيم أحظى به، عندما اختارتني دار النهضة العربية في بيروت المحروسة لأقدم لهذا الكتاب، ولأستاذي الفاضل المرحوم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، الذي تتلمذت عليه في كلية الآداب - قسم التاريخ - جامعة بيروت العربية في مرحلة الاجازة الجامعية لا سيما عندما كنت في السنة الرابعة في العام الدراسي 1970 - 1971 مسبوقة بالعام الدراسي 1969 - 1970 عندما قام بالتدريس في قسم التاريخ كأستاذ زائر من جامعة القاهرة، وقد استمر معارًّا للجامعة مدة أربع سنوات للأعوام 1970 - 1974. ولا يمكن أن أنسى في هذا المجال أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي الذي سبق أ.د. أحمد عبد اللطيف علي في الأعارة لجامعة بيروت العربية في التخصص ذاته، فلهما مني الوفاء والتقدير والاعتزال. لقد كانت مذكرات ومحاضرات أ. د. عبد اللطيف أحمد علي بمثابة كتب علمية موثقة توثيقاً علمياً، مع حرصه على الاعتماد على مصادر ومراجع لاتينية وعربية فضلاً عن مصادر ومراجع أجنبية متنوعة. وكان هذا الكتاب الذي بين

أيدينا قد طبعته دار النهضة العربية عام 1974، وصدر عنها كمذكرة لطلاب السنة الثانية - قسم التاريخ، وحاول العديد من الأساتذة من ذوي الاختصاص الحصول على نسخة منها ولكن دون جدوى إلى أن وُفق الزميل الدكتور أحمد سميح حسن بالحصول على نسخة من أحد الأساتذة في جامعة القاهرة، د. رجب سلامة عمران، فصورها لي مشكوراً، وحرصاً من دار النهضة العربية ومني على تكريم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، وعلى تخليه، وعلى احياء علومه والاستفادة منها نظراً لأهميتها، لهذا كان هذا الكتاب - الذي بين أيدينا - بحلته الجديدة، متنيناً للقارئ وللباحث العربي الاستفادة منه على قاعدة حديث الرسول محمد ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينفع به، أو ولد صالح يدعو له».

لقد ترك لنا العلامة المرحوم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي الصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح. وبالممناسبة، فإنني أتوجه بالشكر الجزيل لدار النهضة العربية، وأخص بالذكر السيدة الفاضلةلينا مصطفى كريدية، والسيدة الفاضلة نسرين كريدية، مترحماً في الوقت نفسه على روح والدهما المؤسس للدار المرحوم السيد مصطفى كريدية.

11/5/2009 بيروت المحروسة في

أ. د. حسان حلاق
أستاذ التاريخ في الجامعة
اللبنانية وجامعة بيروت العربية

الفصل الأول

جغرافية إيطاليا

وأثرها في تطورها التاريخي

تشق إيطاليا جبال الألب، وتحدها من الشمال جبال الألب ويحيط البحر بجوانبها الأخرى وهو بمثابة قنطرة بين أوروبا وساحل أفريقيا الشمالي، وتشمل إيطاليا منطقتين مختلفتين في التضاريس اختلافاً بيّنا. فالشمالية تتبع القارة الجنوبية شبه جزيرة. والثانية أكبر من الأولى قليلاً في الساحة، ومساحتهما معاً حوالي 91,200 ميل مربع. وتشمل المنطقة الشمالية السلسلة الجنوبية من جبال الألب والسلسلة الشمالية من جبال الألب والسهل المنخفض الواقع بينهما. ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب حوالي 320 ميلاً ولا يزيد طولها من الشمال إلى الجنوب عن 70 ميلاً. وتمتد الألب على هيئة هلال غير منتظم لمسافة تبلغ 1200 ميل من مدينة نيس على البحر الأبيض المتوسط إلى تريستا على البحر الأدرياتي. وترتفع ارتفاعاً فجائياً من ناحية الجانب الإيطالي، ولكنها تنحدر إنحداراً تدريجياً من ناحية القارة حيث تهيء وديان الأنهر مرتفع سهلاً إلى الممرات التي تخترق الجبال إلى السهل الذي يقع تحتها. ويتراوح ارتفاع هذه الممرات بين 6000 و 7000 قدم ولا تكسوها الثلوج في الفترة ما بين مايو وسبتمبر. ويوجد في الغرب ممر عند نهاية السلسلة الألبية على ساحل الريفيرا. ومعنى هذا أن الألب لم تكن سداً منيعاً في وجه الغزاة أو المهاجرين إلى إيطاليا، حتى لقد قيل أن تاريخ

إيطاليا مرتبط بتاريخ غزاتها كل الارتباط. غير أن هذا القول لا يتضمن في الواقع سوى جانب من الحقيقة وينبغي ألا تقاس صعوبة اجتياز جبال الألب بمقدار ارتفاعها فقط. ذلك أن عرض الألب يبلغ في بعض الجهات ما بين 150 و 180 ميلاً، فضلاً عن أن كثيراً من الممرات كانت وعراً خطرة وهي في حالتها الطبيعية قبل أن يشق فيها المهندسون الرومان مختلف الطرق. كما أن هلال الألب المريض الذي يحتضن شمال إيطاليا يعطى المدافعين عنها ميزة القتال من (خطوط داخلية) وهي ميزة كانت لها أهميتها البالغة عندما وقعت غزوة الكلمبي والتيتون. إذ أنها أتاحت للقائد الروماني ماريوس أن يتغلب على هجومهم المشترك من الغرب (أي من ناحية الألب البحرية) ومن الشمال (عند ممر برينو). كانت الألب إذن بوجه عام درعا واقيا لإيطاليا، عندما كانت تحتاج إليه. وإليها يرجع الفضل في تقليل عدد الغزوات الكبرى التي لم تزد في الفترة السابقة لقيام الإمبراطورية الرومانية عن أربع وهي: غزوة الغال حوالي سنة 390 ق.م. غزوة هانيبال في سنة 318 وغزوة أخيه هسدروبال سنة 207. وغزوة الكلمبي (Cimbri) سنة 101⁽¹⁾.

ويشغل السهل وادي نهر البو (Padus) أعظم أنهار إيطاليا الذي ينبع من غرب الألب ويجري شرقاً مسافة 360 ميلاً حتى البحر الأدربياني وتتصل به في الطريق فروع عديدة. وما كان سهل البو قد تكون من الرواسب الطمية للأنهار، فقد أصبحت أرضه خصبة. غير أن الطمي ينجرف إلى البحر ويسد المصب ويجعل الساحل يتوجّل في البحر باستمرار. وعن هذا الطريق دلتا البو الملائمة بالمستنقعات والبرك التي نشأت فوقها مدينة البندقية. غير أن أنهار الألب تحد السهل بمقادير وفيرة من المياه على مدار السنة مما يزيد من صلحيته للزراعة. وكانت هذه المنطقة في الأصل مكسوة بالغابات والمستنقعات واحتاجت على مر العصور إلى مجهودات مضنية حتى أزيلت الأدغال وجفت مياه الأوحال

وتشمل المنطقة الجنوبية شبه جزيرة ضيقة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بين البحرين المتوسط والأدربياني وتنتهي «بالحذاء الإيطالي». ويبلغ طول شبه الجزيرة 650 ميلًا ولا يزيد عرضها في أي مكان عن 125 ميلًا. وعلى عكس الحال في سهل البو تخلل المنطقة الجنوبية من إيطاليا سلاسل جبال الأبنين المتوازية والتي تقسمها إلى تلال ووديان لا حصر لها وتجعل الاتصال صعباً بين الساحلين الغربي والشرقي وبين شبه الجزيرة وحوض البو. ولا يزيد متوسط ارتفاع هذه الجبال (الأبنين) التي تعتبر بمثابة «العمود الفقري لظهر شبه الجزيرة عن حوالي 4000 قدم بل أن أقصى ارتفاع وهو 9500 قدم يقع تحت خط الجليد الدائم⁽²⁾، وتبلغ سلسلة الأبنين أقصى ارتفاعها في جانبها الشرقي حيث تقترب من الأدربياني، فلا ترك سوى شريط ساحلي ضيق تقطعه سيول جارفة عديدة. والجانب الغربي من الجبال منخفض وبينه وبين البحر مساحة فسيحة تحتوي على منخفضات أو سهول ثلاثة هي: أتروريا ولاتيوم وكمانيا، وتجري أيضاً في غرب الأبنين أنهار متوسطي الطول صالحة للاحثة السفن الصغيرة مثل نهر أرنو (Arnos) ونهر التير (Tiberis) ونهر ليريس (Liris) وفولتونوس (Volturnus) التي تربط وديانها الساحل بالمناطق الجبلية في الداخل.

البراكيين

كان الساحل الغربي لإيطاليا قدماً ولا يزال إلى اليوم هو والجزر المتأخمة له مسرحاً لنشاط بركاني عظيم. ففي شمال نهر التير وجنوبه توجد براكيين خامدة وان كانت توجد إلى الجنوب من ذلك ثلاث قمم بركانية لا تزال نشطة وهي فيزوف على مقربة من خليج نابولي⁽³⁾ وأسترومبولي في جزر الليباري، ثم أتنا (Etna) في صقلية وهو أعظم بركان في أوروبا، وعلى الرغم مما أحدثه هذه البراكين من

اضرار جسيمة مؤقتة فانها عادت بالنفع مع مرور الزمن على هذه المنطقة فازدادت خصوبه تربتها بفضل الرماد والصخور البركانية المتفتتة وجعلتها صالحة لزراعة الكروم بوجه خاص.

أما عن جزر صقلية (Sicilia) وسردينا (Sardinia) وكورسيكا (Corsica) فإن موقعها الجغرافي يبرر تسميتها جميعاً بالمنطقة الثالثة في إيطاليا ويرتبط تاريخها بشبه الجزيرة ارتباطاً وثيقاً⁽⁴⁾. وصقلية جزيرة كبيرة مثلثة الشكل يفصلها عن طرف الحذاء الإيطالي مضيق مسانا (Messana) وهو مسينا حاليا الذي لا يزيد عرضه في أوسع جزء عن أربعة أميال، ويفصلها عن الساحل الأفريقي بحر عرضه حوالي 80 ميلاً. والجزيرة في الواقع امتداد لسلسلة جبال الأبنين. وكانت في العصور الجيولوجية الأولى جزءاً من اليابسة التي تصل إيطاليا بأفريقيا. ولم تست الجزر الصغيرة مثل مالطة (Melita) وبنتيليريا (Pentelleria) الواقعة جنوب صقلية أو جزر الليباري (Lipari) الواقعة شمالها ليست إلا رؤوس جبال بارزة غمرها البحر. أما سردينيا وكورسيكا الواقعتان في غرب البحر التيراني فهما جزيرتان وعرتان. في التضاريس ومتشعبتان من سلسلة الجبال الإيطالية، والأولى تقع شمالى الثانية وأكبر منها في المساحة.

وسواحل إيطاليا، على نقىض سواحل اليونان غير متعرجة، فهي منتظمة انتظاماً واضحاً، ولا تحتوي برغم طولها البالغ حوالي 2000 ميل إلا على قليل من الخلجان العميقه أو المرافئ الجيدة وكلها قريباً تقع على الساحلين الجنوبي والغربي. فليس على الساحل الشرقي المطل على الأدربياتى سوى ميناء برنديزي الذي يقع على «كعب الحذاء» الإيطالي. وقد بلغ من قرب المسافة بين برنديزي وبين بلاد الاغريق أن تين قرطاجنة - كما يروي كاتو - كان يصل طازجاً إلى روما، وأن يوليوس قيصر قطع المسافة في ليلة واحدة أثناء تعقبه لخصمه بومبي في أواخر عام 49.

ويقع على الساحل الجنوبي ميناء تارنتوم (Tarentum) عند رأس الخليج الذي يحمل الاسم نفسه⁽⁵⁾. ومن تارنتوم تبدأ غالباً رحلات السفن المتجهة إلى بلاد الاغريق والشرق الأوسط. وعلى الساحل الغربي يوجد ميناء نيابوليس. (Neapolis) وهو نابلي الحديثة، ويتاخمها ميناء بوتيتولي (Puteoli) الذي ازدهر في عصر الامبراطورية⁽⁶⁾. وعلى خليج جنوه نشاً ميناء جنوه (Genua) الذي لم تظهر أهميته إلا في الحقبة الأخيرة من التاريخ الروماني. وأهم موانئ صقلية هي سيراكوزاي Syracusae - الشهيرة بسراقوسة - التي تقع على الساحل الشرقي، وبانورموس Panormaus (بالرمي حالياً) التي تقع على الساحل الشمالي، ثم دريبانوم Drepanum التي تقع على الساحل الغربي للجزيرة. ولما كانت سفن العصور القديمة لا تحتاج إلى موانئ عميقه، فقد كان في وسعتها أن ترسو في مصبات الأنهار الخالية من التيارات الشديدة والرواسب الطميّة والكتبان الرملية. ولهذا السبب نشأت مدن كثيرة مثل روما على بعد حوالي 16 ميلاً من البحر لا على الساحل مباشرة. على أن معظم البضائع الواردة إلى روما من وراء البحار كانت تفرغ عند المصب وتنقل على ما يشبه المواعين التي تسحبها الثيران إلى أرصفة المدينة. وأما ميناء أوستيا Ostia (التي قامت على الساحل مباشرة فلم تكن سوى مرسى على الساحل المكتشف ويصعب الوصول إليها بسبب حاجز كونه طمى النهر، ولم تصبح أوستيا ميناء صالحة مزودة بالأحواض إلا منذ عصر الامبراطور كلوديوس 41م).

وكان مزايلا الساحل الإيطالي المطل على البحر الأبيض كسهوله الخصبة وأنهاره وموانئه ومواجهته الجنوب ما جعله أكثر ملاءمة من الساحل الأدرياتي لاستقبال السفن، وجعله أسبق مناطق شبه الجزيرة في الأخذ بأسباب الحضارة. ومع ذلك فلا ينبغي أن ننسى أن المياه المتاخمة لإيطاليا كانت بها ثلاثة مراكز من

مراكز الاضطراب في البحر المتوسط وهي خليج الأسود وبحر الليباري والبحر الأدربياني الذي يكاد يخلو من الموانئ. ولعل هذه الظروف غير المؤاتية تفسر الحقيقة المتناقضة ألا وهي انتزاع الرومان السيادة في غرب البحر المتوسط من القرطاجيين وانتصارهم في أكبر معركتين بحريتين وهما ميلائي (Mylae) سنة 260 ومعركة اكتنوموس (Ecnomus) سنة 256 ومع هذا فإنهم (أي الرومان) لم ينشئوا أسطولاً بحرياً مستديماً إلا في عصر أغسطس (27 ق.م - 14 م) وتركوا لغيرهم ميدان أعمال النقل التجاري في البحر المتوسط. ومع هذا فإن اتصالات إيطاليا مع الأقطار الأجنبية كانت تتم معظمها عن طريق البحر، وأصبحت روما برغم عدم اقبال أهلها على الأعمال البحرية مركزاً نشطاً لتجارة البحر المتوسط في العالم القديم.

ومع أن مناخ إيطاليا كمناخ أوروبا وشمال أفريقيا قد تعرض في العصور قبل التاريخية لتقلبات شديدة إلا أنه لم يتغير على الأقل منذ القرن الخامس قبل الميلاد حتى اليوم تغيراً محسوساً. وهو بوجه عام مناخ البحر الأبيض المتوسط، ويتميز بارتفاع معدل درجة الحرارة وعدم اشتداد الحر أو البرد⁽⁷⁾. والشتاء المطير والصيف الجاف. ومع هذا فالمناناخ يختلف في مكان عن الآخر تبعاً لموقع المكان في الشمال أو الجنوب تبعاً لأنخفاضه أو ارتفاعه، قربه أو بعده عن البحر. فمناخ حوض البو يشبه مناخ وسط القارة الأوروبية إذ الفرق كبير بين درجتي الحرارة في الصيف والشتاء. والربيع والخريف فصلان متميزان عن بقية الفصول وتكثر الثلوج والأمطار في الشتاء وتقل في الصيف.

فإذا اتجهنا جنوباً في شبه الجزيرة نجد الشتاء أكثر دفئاً والصيف أشد حرارة، ويقل سقوط المطر السنوي (فترة الجدب في روما شهران في السنة ومتوسط درجة الحرارة في يناير 8 درجات مئوية وفي يوليه 24 درجة مئوية). ويزداد الصيف جفافاً حتى ليكاد ينعدم المطر خلاله في جنوب إيطاليا

وصقلية. وتقتصر فترة الانتقال بين الفصول وتنقطع الشمس فترات طويلة حتى في فصل الأمطار. وليس المناخ الإيطالي صحيًا فحسب، بل إنه باعث على النشاط. وكانت إيطاليا قد يها وما تزال أحياناً تعاني من وباء الملاريا التي تعزى إلى كثرة المستنقعات في أودية الأنهر وعلى امتداد الساحل. وقد تكونت معظم المستنقعات بسبب الطمي الذي تجرفه المياه معها مما يهيء الظروف الملائمة لتوالد بعوض الملاريا. وقد تفاوتت الأضرار التي نجمت عن الوباء بتفاوت التقدم الحضاري وطأتها عندما استصلاحت هذه المناطق الموبوءة وصرفت مياهها، واشتدت عندما أهمل شأنها.

الغابات

تمتاز إيطاليا عن معظم أقطار البحر المتوسط بوفرة غاباتها التي تكثر على السفوح الجنوبية للألب وفي وادي البو وعلى الأبنين وبخاصة على الساحل الليجوري (في الشمال الغربي) وفي جنوب أتروريا ووديان التير وفروعه ولا تيوم. واشتهرت كورسيكا بكثافة غاباتها كما كانت جبال «الحذاء الإيطالي» مكسوة بالأشجار الضخمة حتى أن شجرة واحدة منها كانت كافية لبناء صاري سفينة من أضخم سفن العالم القديم (وهي التي بناها هيرون الثاني (Hieron II)، ملك سيراكوز 265 - 215). وإلى جانب الغابات كانت توجد أدغال كثيفة وشجيرات قصيرة جافة كالغار والأس وغيرها من الأشجار الصغيرة. وقد اشتد الاقبال على الأخشاب الإيطالية لبناء سفن القرطاجيين والاتروسكيين والاغريق والرومان أنفسهم. ولم تكن تستخدم في بناء المنازل حيث استخدم الطوب والحجر والبلاط. ومن هذه الغابات كان يستخرج القار والراتنج. ومن أشجار البلوط والزان كان يستمد العلف لتغذية قطعان الخنازير. وكانت إيطاليا حتى العصر المسيحي غنية بالغابات، ولو أن معظمها كان قد أزيل قبل ذلك

العصر بفترة طويلة لأن الناس دأبت على قطعها لاستعمالها في المنازل كوقود أو لاستغلال أرضها في الزراعة أو رعي الماشية. ولم تكن الغابات تزرع ثانية بعد إزالتها إلا في القليل النادر مما أدى إلى أن أمطار الشتاء كانت تكتسح التربة الرقيقة بعد تعريها قبل اكتمال نمو النباتات الجديدة، فإذا ما بدأت تنمو من جديد فسرعان ما كانت تلتهمها قطعان الماعز التي ترعى في الغابات فتحدث - كشأنها دائمًا - أشد التلف بكل أنواع النباتات.

النحاس

لم تكن ثروة إيطاليا المعدنية كبيرة. كانت أهم معادنها قديما هي النحاس والحديد، وقد استخرج النحاس من مناجم إتروريا وليجوريا وسردينيا. واستخرج الحديد من مناجم جزيرة ألبا (Elba)، والذهب من اتروريا، والفضة من سردينيا. كذلك كان الاوبسيبيديان (Obsidian) يستخرج من محاجر سردينيا وبعض أماكن أخرى⁽⁸⁾. وأما الملح فكان يجلب من سردينيا ومن مستنقعات مصب نهر التير.

مواد البناء

أهم من ذلك فإن إيطاليا كانت غنية بمواد بناء من مختلف الأنواع ولا سيما الحجر الجيري المعروف باسم الحجر التيبوري (Tiburtinus) (نسبة إلى بلدة تيبور Tibur) التي تقع بالقرب من روما. ويسمى ذلك الحجر الآن ترافرتينو (Travertino) وكذلك الحجر البركاني المعروف باسم بوتزولانا Bozzolana الذي كان يستخدم لعمل الخرسانة وهي التي مكنت الرومان من تشييد الأقواس والأقبية وهي من خدماتهم التي أسدوها للفن المعماري. ولا ننسى الرخام الفاخر الذي كان يستحضر من محاجر كرارا Carrara في ليجوريا.

وكانت توجد في لاتيوم واتوروريا وغيرها أصناف جيدة من الطمي لعمل الطوب والآجر والفخار.

الزراعة

كانت إيطاليا قديماً كشأنها الآن بلاداً زراعية وغنية بالملاعي. ففي المناطق الواطئة كانت تزرع بوفرة مختلف الحبوب كالذرة والقمح والشعير وكافة البقول كالفول والبازلاء والفاصولياء وغيرها. وقد مرت بإيطاليا فترات تدهورت أثناءها الزراعة، ولكن ذلك كان يرجع إلى عوامل سياسية وخاصة بسبب اقفار الريف من الرجال الذين كانوا يجندون في الجيش أثناء الحروب الكثيرة فيما وراء البحر وإحلال العبيد من أسرى الحروب مكانهم. ولم يكن هؤلاء العبيد يعملون في الأرض بنفس النشاط والهمة، فضلاً عن أنهم كانوا يفتقرن إلى الخبرة الزراعية، ويعملون مكرهين في ظروف بالغة القسوة والوحشية. كان هذا التدهور الزراعي إذن يرجع إلى عوامل سياسية وليس إلى قحل التربة. كذلك لا ينهض اعتماد روما على استيراد القمح الأجنبي دليلاً على قلة الحاصلات الإيطالية لأن مشكلة تموين العاصمة نشأت عن صعوبة المواصلات. وقد تبين أن نقل الحبوب بالسفن من الولايات أيسر من نقلها براً من الريف الإيطالي إلى روما على ظهور الدواب. وكانت الفلاحة في كافة مراحل التاريخ الروماني هي المصدر الرئيسي للثروة. وليس هناك دليل على أن التدهور الزراعي الذي حدث فيما بعد يرجع إلى اقفار التربة اقفاراً شاملاً.

الخصوصية

إن الارتفاع النسبي لدرجة خصوبة الأرض في إيطاليا هو السبب الجوهرى في كثرة عدد سكانها منذ القدم بالقياس إلى غيرها من دول البحر

المتوسط. ولقد قدر عدد سكان إيطاليا بها في ذلك العبيد (دون سكان الجزر) بحوالي 14 مليون نسمة استناداً إلى التعداد الذي أجراه الامبراطور أغسطس قبل وفاته مباشرة في عام 14م، والذي قدر فيه عدد اللائقين للخدمة العسكرية بحوالي 5 مليون أو أقل (4,937,000). والدليل على أن هذا العدد الضخم من السكان لم ينشأ عن فتوحات خارجية بل كان أحد العوامل التي حفظت روما على هذه الفتوحات هو أن عدد المحاربين الذين استطاعت روما أن تجندتهم من شبه الجزيرة وحدها في عام 225ق.م. بلغ 770 ألف من المشاة والفرسان، كما ورد عند المؤرخ الشهير بوليبيوس Polybius (203 - 120).

واشتهرت كمبانيا بخصب أرضها حتى منه كان من الممكن زراعتها ثلاث مرات في السنة. وظلت صقلية فترة طويلة من أهم صوامع الغلال في حوض البحر المتوسط. كما ازدهرت أيضاً زراعة الكروم والتين والزيتون وصارت بمرور الزمن أربح من زراعة الحبوب. وكان من بين المحاصلات الأخرى التفاح والكمثرى والجوز. ولكن الليمون والبرتقال كالأرز لم تدخل زراعتهما إيطاليا إلا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية. وكانت المنخفضات الساحلية في فصل الصيف تصبح مراعي جيدة للأغنام والماعز والماشية والخيول. وكانت تربية الماشية تلي الزراعة في الأهمية كمهنة للسكان.

لقد عاقت التضاريس شبه جزيرة إيطاليا عن الوحدة السياسية أكثر مما ساعدت عليها. ومع هذا فإن سلسلة جبال الألبين التي تسير بموازاة شبه الجزيرة لم توقف حائلاً جسيماً دون تلك الوحدة. ولا يمكن مقارنتها بشبكة الجبال المتقطعة في بلاد الإغريق ولا بتعرجات سواحلها. وبعد أن اندمجت إيطاليا كلها في دولة واحدة تحت سيطرة روما (وقد ساعد على هذا الاندماج تلك الجهود التي بذلها مهندسو الطرق الرومان للتغلب على وعورة أرض الريف الإيطالي وتعبيدها).

بعد أن تم الإندماج ساعد موقعها المتوسط على بسط النفوذ الروماني في اتجاه حوض البحر الأبيض المتوسط. لكن لما كانت إيطاليا أبعد من بلاد الاغريق عن مراكز الحضارة القديمة في مصر والشرق الأدنى، فلم تتأثر إلا قليلاً بتلك الحضارة. وترتب على ذلك أنها تأخرت عن بلاد الاغريق ومنطقة بحر ايجه في مسيرة موكب الحضارة. وما كان الساحل الشرقي لإيطاليا يكاد يكون خلوا من الموانئ، وكان الساحل الغربي من بلاد الاغريق يكاد هو الآخر يخلو منها فكأن كلًا منها كانت تولي ظهرها للأخرى. ومن ثم فقد سلكت كل منها في تطورها طريقاً مختلفاً عن الأخرى، فاتجهت اليونان نحو الشرق وإيطاليا نحو الغرب ولم تقم بينهما علاقات سياسية إلا بعد مرور خمسة قرون من تأسيس روما أي في حوالي سنة 228 ق.م.

وكانت القرية *Vicus* في إيطاليا كبلاد اليونان هي محللة السكنى الطبيعية في عصر ما قبل التاريخ. وغالباً ما كانت تقوم على مقربة من مجراه مائي. وظلت هي الظاهرة الشائعة في مارتفاعات الأبنين حتى نهاية عصر الجمهورية سنة 27 ق.م. كما استمرت المقاطعة *Pagus* - وهي مجموعة من القرى - هي الوحدة السياسية الطبيعية حتى نهاية ذلك العصر. غير أن المدن بدأت كما حدث في بلاد اليونان تظهر في الفترة قبل التاريخية. وسرعان ما ألف الناس تحت تأثير المهاجرين الاغريق والاتروسكيين الاقامة فيها. وكان الإيطاليون كالاغريق يفضلون اقامة المدن في موقع تتوسطها هضبة مرتفعة منحدرة لتشييد قلعة فوقها وبشرط أن تكون قريبة من المنطقة المنزرعة وجدوا لو كانت تقع على لسان من الأرض المرتفعة الواقعة عند مصب أحد الأنهر التي استعملت كوسيلة للدفاع عن المدن نظراً لعدم جفافها. لكن بينما اختيرت مواقع المدن الإيطالية ملitzاتها الدفاعية، فقد انشئت مجموعة هامة من البلدان وهي المستعمرات الرومانية (*Coloniae*) في

السهول أو في أسفل التلال أو عند معابر الأنهرأو نهاية ممرات الجبال. وكان المقصود منها أن تكون مراكز للمواصلات وقواعد للجيوش أكثر منه حصوناً أو معاقل يأوي إليها الناس.

وقد شابهت المدن الإيطالية في تطورها السياسي دويلات الاغريق (Poleis) وما تارikh إيطاليا حتى توطيد السيادة الرومانية في جوهره إلا تاريخ مدنها الرئيسية. على أن لسهولة التضاريس من ناحية بالقياس إلى تضاريس بلاد الاغريق الوعرة انعكس في ذلك التعارض الواضح بين المصالح السياسية والاقتصادية المتضاربة (مصالح سكان السهول ومصالح سكان التلال الذين لم تنقطع الحرب بينهم في العصور الأولى من التاريخ الروماني). ويظهر ذلك فيما يسمى «بالحرب السمينة الثانية» (327 - 304) التي كانت في حقيقتها صراعاً بين المقاطعات الجبلية المؤتلفة وبين مدن السهول المتحالفة. وقد زاد من حدة العداء بين سكان جبال الألبين وسكان السهول الساحلية انقسام المراعي في إيطاليا إلى مراع صيفية ومراع شتوية مما كان يحمل الناس على التنقل بقطعنهم بين الجبال والسهول، فكان هذا بدوره يساعد على الاحتكاك بين أهالي المنطقتين.

تأثير الظروف الجغرافية

أثرت الظروف الجغرافية في أساليب القتال الرومانية. ففي فصل الشتاء كانت أرض إيطاليا كأرض اليونان (حتى بعد إنشاء الطرق) تمتليء بالأوحال التي تعوق سير العمليات العسكرية. وقد أدرك الرومان ذلك كما أدركه هنريبال نفسه (218 - 202) بعد أن تكبّد بعض الخسائر لتجاهله ناموس الطبيعة ومحاولته القتال شتاء. وتشتمل إيطاليا على مناطق جبلية فسيحة أكثر ملاءمة لتحركات القوات خفيفة العدة منه للقوات ثقيلة العدة. ولم يفطن الرومان إلى هذه الحقيقة في أول الأمر. ولكنهم تعلموا بعد أن لحقت بهم الخسائر في جبال إقليم سمنيوم

(Sammium) - أن يحموا تقدم فرقهم كاملة العدة بستار من الجنود الذين يقومون بالمناوشات، وأدركوا ضرورة مراعاة طبيعة التضاريس فقسموا الفرق إلى وحدات (أو فصائل) تسمى كل منها Manipulus وكل منها يتكون من 60 جندي. وكانت كل وحدة منها تقاتل مستقلة إذا تطلبت الأرض ذلك. على أن الرومان أخذوا بنظرية اليونان العسكرية في الاعتماد على الفرقة (Legio) المتراسة صفوفها جنبا إلى جنب على غرار الفيلق الاغريقي (Phalanx) لأن جانباً كبيراً من الأراضي الإيطالية كان يلائم في الواقع ذلك التشكيل العسكري. ولكنهم أخطأوا في عدم اهتمامهم بسلاح الفرسان الذي كان في امكانه إذا درب تدريباً حسناً أن يرجح كفة القتال في الأراضي المنبسطة المكشوفة على نحو ما أثبته كل من بيروس اليوناني (Pyrrhus) في معركة هرقلية عام 270 ق.م. وهنيبال القرطاجي (Hanibal) في معركة كناي عام 216 ق.م. وكانت مواقع المدن في إيطاليا (كما هو الحال في بلاد الاغريق) حصينة بطبيعتها مما جعلها عسيرة المನال على المحاصرين. ولئن كنا لا نصدق أن حصار مدينة فيي (Veii) الاتروسکية استغرق عشر سنوات (انتهت عام 396 ق.م) فمما لا شك فيه أنه كبد الرومان خسائر فادحة. ومع أن هنيبال استطاع أن يجلِّي الجيوش الرومانية عن ميادين القتال إلا أنه لم يستطع تتويع انتصاره بالاستيلاء على المدن. ولعل صعوبة الحصار في إيطاليا قد يفسر إلى حد ما لماذا كان الرومان ينحون أعداءهم المنهزمين شروطاً سخية في كثير من الأحيان.

أما عن اسم إيطاليا نفسه Italia فهو مشتق من الكلمة Vitelliu أي «أرض العجل» لوفرة العجول الصغيرة فيها، وهي الكلمة أوسكتية الأصل (والاؤسكيون شعب ايطالي قديم). وقد أطلقها الاغريق من القرن الخامس ق.م. على الجزء الواقع في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة المتاخم لجزيرة صقلية. وسرعان ما اكتسبت هذه التسمية أهمية أكبر حتى صارت لفظة إيطاليا يقصد

بها جغرافيا وسياسيا (قبل نهاية القرن الأول ق.م.). كل شبه الجزيرة حتى جبال الألب شمالا. كما عرفت إيطاليا باسم قديم آخر وهو أوينوتريا (Oenotria) أي أرض النبيذ. وكان الاغريق يعرفون كل شبه الجزيرة باسم هسبريا (Hesperia) أي «الأراضي الغربية» (غربية بالنسبة لليونان). ومن أسمائها الأخرى «أوسونيا» (Ausonia) وتللوس ساتورنوس Tellus Saturnia أي «أرض ساتورنوس» (Saturnus)، وهو إله قديم للزراعة وحبوب (القمح).

هوامش ومراجع الفصل الأول

- 1 - التواريХ كلها قبل الميلاد ما عدا المتبوعة بما يفيد غير ذلك.
- 2 - وهي هضبة أبروزي Abruzzi الشاهقة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية وأعلى قمة هي جران ساسو إيطاليا Gran Sasso d'Italia التي يبلغ ارتفاعها 9700 قدم.
- 3 - ثار بركان فيزوف في عام 79 م في عهد الامبراطور تبتوس وغطت حممه مدینتي هركولانيوم Herinlaneum وبومبي Pompeii. وعن هذه الكارثة أنظر: بلينيوس الأصغر، الرسالة السادسة، الفصل 16. حيث يروي لنا كيف لقي عمه بلينيوس الأكبر مصرعه.
- 4 - المنطقة الأولى هي سهل البو (لومبارديا)، والثانية هي شبه الجزيرة الإيطالية جنوب ذلك السهل.
- 5 - تسمى حالياً «ترانتو».
- 6 - ويسمى حالياً بوتزولي Pozzuoli.
- 7 - يشيد الشاعر الروماني فرجيل باعتدال مناخ إيطاليا. انظر «الأشعار الريفية» Georgica - الكتاب الثاني - بيت 149 وما بعده.
- 8 - كان الأوبسيديان Obsidian (وهو حجر بركاني بلوري أسود لامع) لشدة صلابته يقوم كالصوان مقام المعادن في العصر الحجري.

الفصل الثاني

إيطاليا قبل التاريخ

العصر النيوليتي (الحجري الحديث):

إيطاليا شبه جزيرة ذات سواحل طويلة. وقد عرضها موقعها الجغرافي وطول سواحلها للمؤثرات الآتية من وراء البحر، لأن البحر الأبيض المتوسط لم يكن عامل انفصال بقدر ما كان عامل إتصال بين شعوب العالم القديم. لذلك وفد إليها المهاجرون بحراً من جهات الجنوب والغرب والشرق. ومع أن سواحلها ليست غنية بالموانئ كبلاد اليونان إلا أن الساحل الغربي لا يخلو من بضعة خلجان صالحة جداً لرسو السفن. كذلك تقع أخصب سهولها في الجانب الغربي وتواجهه الغرب. وترتبط إيطاليا بالغرب والجنوب عن طريق جزيرة صقلية التي لا يفصلها عنها سوى مضيق مسينا، ولا يفصلها عن الساحل الشمالي لأفريقيا إلا مسافة قصيرة. وترتبط بالغرب كذلك عن طريق ساحل خليج ليجوريا. وكان ارتباط إيطاليا بالشرق وثيقاً. إذ أن نهر البو يجري شرقاً ليصب في البحر الأدربيطي. كما توجد سلسلة من الجزر تربط ساحلها الشرقي بالساحل الغربي لبلاد اليونان. وكان خليج تارنتوم مفتوحاً على مصراعيه لاستقبال السفن القادمة من خليج كورنثيا. كذلك وفد إلى إيطاليا مهاجرون من الشمال وعلى الأخص من حوض الدانوب لأن جبال الألب والغابات والمستنقعات لم تقف أي منها حائلاً دون بلوغ المهاجرين شبه الجزيرة حاملين معهم التيارات الحضارية من وسط أوروبا.

وكانت ثروة إيطاليا الطبيعية، ومناخها المعتدل، ومحاصيلها الوفيرة هي

التي اجتذبت إليها هؤلاء المهاجرين. وبينما كانت مراعيها الغنية تغري رعاة وفلاحي وسط أوروبا بالبحث عن موطن فيها، كان ملاحو الشرق والمهاجرون منه يقصدون موائلها الجنوبيّة المؤدية إلى سهل كمبانيا المليء بالخيرات، ووديان الأنهر الخصبة في الجنوب، وغاباتها البكر على التلال المتاخمة، وهي غابات كانت غنية بالأخشاب اللازم لبناء السفن. وبالاجمال كانت إيطاليا ملتقى شعوب آتية من الشرق والجنوب والغرب عن طريق البحر، وشعوب أخرى آتية من الشمال عن طريق البر (عبر ممرات الألب). وكان كل شعب من هذه الشعوب يحمل معه خصائصه الجنسية واللغوية والثقافية فيصبح الحياة، في إيطاليا بصبغته الخاصة. ويرجع تاريخ أولى الهجرات إلى عصر قديم جداً. ولم تنقطع هذه الهجرات حتى بداية الفترة التاريخية التي نجد فيها إيطاليا مأهولة بشعوب مختلفة الجنس واللغة والنظم والحضارة.

حوالي عام 5000 ق.م.⁽¹⁾ وفد إلى إيطاليا مهاجرون من شمال إفريقيا واقتحموها من الجنوب عن طريق صقلية. وقد نزلوا أيضاً بسردينيا وكورسيكا. ويبدو أن مهاجرين آخرين وفدوا عن طريق إسبانيا فساحل فرنسا الجنوبي، واستقروا بمنطقة ليجوريا في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الإيطالية. وقد وافق مجيء هؤلاء المهاجرين الجدد بداية العصر الحجري الحديث (النيوليسي) إذ أحضروا معهم حضارة تتميز بأسلوب جديد في صنع الأدوات والآلات الحجرية، وهو صقل الحجر (غالباً الصوان) أو شحذه بدلاً من الاقتصار على تشظيته وشطشه كما كان الحال في العصر الحجري القديم (الباليوليسي) وبذلك أمكنهم الانتفاع بطائفة متنوعة من الأحجار كالحجر الرملي والجادي والصوان. وصنعوا أيضاً أشكالاً كان من العسير الحصول عليها من قبل كالمطارق والفؤوس والأزاميل والهراوات والخناجر ورؤوس الحراب المصنوعة من الصوان (Flint) والأوبسيديان (Obsidian)⁽²⁾. واستخدمو الأقواس كسلاح في القتال أو في

الصيد. وكانت مجتمعات العصر الحديث في الشرق الأدنى قد انتقلت منذ زمن بعيد (بين 5000 - 7000) من مرحلة جمع الطعام، عن طريق التقاط الثمار إلى مرحلة انتاج الطعام بفضل معرفتها بالزراعة (أو ما يسمى بالثورة الزراعية)، أي زراعة النباتات الغذائية، واستئناس وتربيبة مختلف الحيوانات للحصول على القوت. ومن الشرق الأدنى انتقل الاقتصاد الزراعي غرباً على امتداد سواحل البحر المتوسط، وشمالاً عبر وسط أوروبا. وقد تعرض أثناء انتقاله من شعب لآخر أو نقله على يد المهاجرين، لعدة تغييرات. ومن المحتمل أنه بلغ صقلية وجنوب إيطاليا حوالي عام 3500، وأنه انتشر في أرجاء إيطاليا وحوض البو وجزيرتي سردينيا وكورسيكا حوالي عام 2500. وكان انتشاره في إيطاليا من الجنوب إلى الشمال بوجه عام، لكن من الجائز أنه دخل الشمال الشرقي من شبه الجزيرة على يد شعوب مهاجرة من منطقة الدانوب. وقد ترتب على بلوغ «الثورة الزراعية» إيطاليا نتيجتان هامتان وهما: نشأة الجماعات المستقرة في قرى تحيط بها الحقول والمرعى، وتضخم عدد السكان نتيجة لتوافر الغذاء بصورة منتظمة.

وكشفت الحفائر الأثرية عن قيام عدة مراكز حضارية مختلفة في إيطاليا حوالي عام 2000 قرب نهاية العصر النيوليسي وهي الشمال الغربي حيث كان سكان ليجوريا لا يزالون يعيشون في كهوف وكانوا يدافعون أيضاً موتاهم. وفي شرق وادي البو (جنوي النهر) نشأت عدة قرى مكشوفة يستدل على وجودها من بقايا أساسات أكواخها المسماة الآن في الإيطالية باسم فونده دي كبانه Fondi di capanne فيها فضلات الطعام المتفحمة والنفايات والمهملات والأواني الفخارية المستغنی عنها. غالبية الأكواخ مستديرة الشكل أو ناقصة الاستدارة، ولها جدران تتركب هياكلها من قوائم خشبية ومقواة بأغصان صغيرة متتشابكة، أو هي من قش، ومطلية بالطين. ويوجد في وسط كل كهف ما يشبه الحوض لاستقبال مياه

الأمطار التي كانت تنفذ إلى الكوخ من فتحة في سقفه. وليس من المستبعد أن هذا الحوض كان النموذج الأول لقاعة الأatrium والImpluvium التي تميز بها البيوت الرومانية في العصور اللاحقة. كذلك أمكن التمييز في الجنوب بين حضارتَيِن الأولى في صقلية حيث نشأت جماعات كانت بعضها يسكن في كهوف، وببعضها الآخر يسكن في قرى مكشوفة؛ والثانية في جنوب شرق إيطاليا حيث كان الناس يستخدمون كمساكن لهم الكهوف والقرى العارمة بالأكواخ على السواء.

وكانت شعوب العصر النيوليسي في إيطاليا لا تعتمد في الحصول على القوت على الزراعة بقدر اعتمادها على تربية المواشي كالثيران والأغنام ولاماعز والخنازير. ولم يكن للزراعة وقتئذ ما للرعي من أهمية وان زرعت عدة أنواع من الحبوب وكذلك الكتان. وكان الصيد لا يزال مورداً هاماً من موارد القوت، وعلى الأخص صيد الغزلان والخنازير والأرانب البرية. وإلى جانب صناعة الأدوات والأسلحة الحجرية كانت الصناعتان الرئيسيتان في إيطاليا أثناء العصر النيوليسي هما الأواني الفخارية والنسيج. وكلتاهما لم تكن معروفة في العصر الحجري القديم. وكانت الأواني الفخارية تصنع باليد (لا بعجلة الفخاري) وتتجفف في نيران مكشوفة في العراء. وكانت الأواني على أشكال وأحجام متنوعة وتناسب بحاجات المنزل ومستلزمات دفن الموتى. واقتصرت زخارف هذه الأواني الفخارية على الأشكال الهندسية المحفورة على السطح أو المرسومة عليه. وتعتبر الجبانات العديدة أحد المصادر إليها مة التي نستقي منها معلوماتنا عن إيطاليا في عصرها النيوليسي. وقد لوحظ أنه كان يسود إيطاليا - ب رغم وجود اختلافات محلية - عادات واحدة في الدفن. فكان الموتى يدفون دائماً في وضع متقلص تثنى فيه الذراعان على الصدر مع شد الركبتين إلى الجسد. وكان الموتى يدفون أما في أرضية الكهوف أو في أخدود أو في حفر بالعراء. وجرت العادة على تجريد

عظام الجثث من اللحم أو إعادة دفن العظام بعد أن يبلى اللحم، ثم طليها بمغرة حمراء. وكانت ملابس الموق وأدوات زينتهم تدفن معهم في العادة، فضلاً عن الأسلحة والأواني التي كانوا يستعملونها أثناء حياتهم. ونجد القبور أحياناً مبطنة بألواح حجرية أو مغطاة بها، ونجدتها أحياناً أخرى مكدسة بالحجارة لوقاية عظام الموق. وجدير بالذكر أن أهل حضارة العصر النيوليسي في إيطاليا توصلوا إلى معرفة الملاحة، واستخدمو المراكب المسيرة بالمجاذيف والأشرعة. وكان ذلك - على ما يظن - هو الذي أتاح لهم الهجرة من إفريقيا إلى صقلية وإيطاليا ثم إلى سardinia وكورسيكا اللتين كانتا غير مأهولتين بالسكان حتى بداية العصر النيوليسي. كما ساعدتهم الملاحة على عقد صلات مع أقطار أخرى. وبدأ تجار هذه الأقطار بمنطقة البحر المتوسط يتذدون على سواحل إيطاليا. وترتب على ذلك نشأة التجارة، وتبادل الأفكار والخبرات مما كفل اطراح التقدم الحضاري.

وفيما عدا المظاهر الحضارية التي كشفت عنها أطلال مساكن هؤلاء القوم ومقابرهم، فإن معلوماتنا عن شعوب إيطاليا في العصر النيوليسي ما تزال طفيفة جداً. ويسمى بعض علماء الآثار حضارة إيطاليا في ذلك العصر بالحضارة الليجورية لكنها لم تكن مقصورة على ليجوريا بل كانت منتشرة في كل إيطاليا وغيرها من أقطار غرب أوروبا. ولم يكن لهؤلاء القوم - على ما يبدو - اسم مشترك. ولكن من المؤكد أنهم كانوا منقسمين إلى عدد كبير من الوحدات السياسية الصغيرة. ولم يتبق من لغتهم إلا بعض أسماء لأماكن وأنهار وجبال انتقلت إلى لغات الشعوب التي سكنت إيطاليا في العصور التالية. ومن دراسة هذه الأسماء يتبين أنها كانت لغة مختلفة عن اللغات الهندية - الأوروبية التي سادت إيطاليا فيما بعد. وأما عن الخصائص البدنية فإن هؤلاء القوم كانوا - على ما يبدو - ينتمون إلى سلالة البحر الأبيض المتوسط، وهي فرع من المجموعة القوقازية، وقد استقرت على شواطئ البحر المتوسط وجزره منذ العصر النيوليسي. وتتميز

هذه السلالة بالبشرة السمراء، والشعر الأسود، والرأس غير العريضة، والقامة المعتدلة أو القصيرة. وما يزال إنسان هذه السلالة سائداً في إيطاليا وأقطار البحر المتوسط حتى اليوم، بعد استيعابه خصائص السلالة الألبية المستديرة الرأس، الصفراء الشعر، والسلالة النوردية ذات الرأس الطويلة، وهما سلالتان جاءت بهما إلى إيطاليا هجرات لاحقة.

العصر الخالكوليسي (الحجر والنحاس):

لم يلبث سكان إيطاليا في العصر الحجري الحديث أن توصلوا بفضل الاتصالات بالعالم الخارجي إلى معرفة النحاس، وهو أول معدن استعمله الإنسان كبديل أفضل من الحجر. وفي أغلب الظن أن هذا المعدن استحضر لأول مرة إلى إيطاليا بحرا من جزيرة قبرص الغنية بالنحاس، عبر طريق تجاري كان يمر بكريت وجزر البحر الإيجي، ومنها إلى جنوب إيطاليا فضولية وسردينيا وكورسيكا وليجوريا. ومن الجائز أيضاً أن النحاس جلب من وادي الدانوب الأوسط الذي كان على اتصال بشمال إيطاليا، وكذلك استورد من إسبانيا التي كانت على اتصال بالجزر المتاخمة لساحل إيطاليا الشمالي الغربي. وكانت كلتا المنطقتين غنية بالنحاس ومصدراً اضافياً لهذا المعدن. وأما خامات النحاس المحلية (في إيطاليا) فكانت لا تزال غير مستغلة. وجدير بالذكر أن دخول النحاس إلى إيطاليا لم يبطل استعمال الأدوات الحجرية حيث أن كميات النحاس الميسورة كانت محدودة، فضلاً عن أنه لم يكن أكثر ملاءمة من الحجر في صناعة بعض الأدوات. ولهذا السبب يسمى العلماء عصر الحضارة الجديدة «بالعصر الخالكوليسي» أي عصر النحاس والحجر، وقد بدأ في إيطاليا حوالي عام 2200. وكانت أهم الآلات المعدنية هي الخناجر والأزاميل التي كانت تصنع من النحاس الخالص. ولم يستمر استعمال الأدوات الحجرية بعد ظهور النحاس فقط، بل أن من صناعتها بلغ أيضاً ذروته في تلك

الحقبة التي تتمثل أوجود منتجاتها في رؤوس البلط والمطارق ذات الثقوب.

وليس هناك ما يدل على أن حركة الهجرة إلى إيطاليا كانت نشطة أو واسعة خلال «عصر الحجر والنحاس». ولم تقدم الحضارة أثناءه إلا تقدماً بطيئاً وإن كان مطرداً حتى ليتعذر أحياناً أن تميّز بين آثار العصر الحجري الحديث وآثار العصر الحجري النحاسي. وفي جنوب إيطاليا ووسطها والجزر المتاخمة تأثر الناس باستعمال الكهوف الطبيعية فحفروا مقابرهم في الجروف وجوانب التلال الصخرية. وقد نشأ عن المقابر الأخدودية المبطنة بالأحجار شكل من المقابر الضخمة المبنية فوق الأرض في جنوب إيطاليا وصقلية وسardinia. وكانت بعض هذه المقابر في شكل قاعة يتكون كل جانب منها وسقفها أيضاً من كتلة واحدة حجرية ضخمة. ويسمى الأثريون هذا النوع من المقابر باسم دولمن Dolmen. وترتبط بهذه القاعات المقبرية، أحجار ضخمة كانت تنصب عمودية فوق الأرض في شكل دائري، ويسمى بها علماء الآثار باسم منهير Menhir. وقد استعملت معظم المقابر من نوع «الدولمن» هي والمقابر الكبيرة المنحوتة في الصخر كمدافن جماعية خلال أجيال عديدة، ومن أمثلتها البارزة ما يعرف «بمقابر العمالقة» في سardinia، وهي قاعات طويلة تشبه «الدولمن» ولها جدران حجرية وأسقف من ألواح حجرية مستوية.

عصر البرونز:

حوالى عام 1800 هبط إيطاليا قوم جدد وافدون من الشمال عن طريق ممرات جبال الألب السويسرية. واستقروا أولاً قرب بحيرة ماجيوري الحالية (Maggiore) وبعدها توسعوا غرباً وسكنوا حول البحيرات الشمالية الأخرى (في حوض البو). وكانوا يحملون معهم لوناً جديداً من الحضارة يختلف كل الاختلاف عن حضارة سكان وادي البو السابقين، ويشبه إلى حد كبير حضارة

سويسرا (القديمة) وحوض الدانوب الأعلى. ولا يتبيّن من مستعمراتهم المبكرة أي دليل على وجود الأدوات المعدنية. ولكن مستعمراتهم التالية تكشف عن وفرة من الأدوات البرونزية التي تنتمي إلى مرحلة متقدمة جدًا من مراحل تطور حضارة «عصر البرونز»، وتشبه مساكن هؤلاء المهاجرين الوافدين من الشمال مساكن بحيرات سويسرا شبهًا شديدًا، إذ كانت تبني على شواطئ البحيرات المليئة بالمستنقعات والتي تغمرها المياه خلال فصل الأمطار. ولهذا السبب كان هؤلاء القوم يقيمون أكواخهم فوق مصاطب من ألواح خشبية سميكّة ترتكز على أوتاد طويلة أو «خوازيق» مغروسة في القاع الرخو تحت الماء. ويطلق الأثريون الآن على هذا النوع من المساكن أو المستعمرات اسم «بلافيته» (Palafitte) وهي الكلمة الإيطالية الحديثة معناها صف من الأوتاد. وكان أهل قرى «حضارة البلافيته» يمارسون مهن القنص والصيد والزراعة، ويصنعون جنادل أو زوارق خشبية مقعرة لاستخدامها في عبور البحيرات، ويظهرون شواطئ البحيرات من الأوحال لاستخدامها في الزراعة. وكانت أهم محاصيلهم القمح والدخن (نوع من الذرة)، ومن بين حيواناتهم الأليفة الشيران والأغنام والكلاب، ثم الخيول في فترة متأخرة. وأما أوانיהם الفخارية فكانت لا تزال تصنع باليد (لا بعجلة الفخاري) من الطفل العادي، وتزخرف بأشرطة أفقية محفورة في السطح تحصر بينها أشكالًا دائرية أو متعرجة. وتشهد بقايا فلكات مغازلهم وبقايا أقمشتهم على براعتهم في فن النسيج. وكانوا يستعملون بلطًا ذات رؤوس مثقوبة مصنوعة من الحجر، فضلًا عن بلط عادية وخناجر مصنوعة من البرونز. ولدينا بعض قرائن تشير إلى أنهم كانوا يألفون استعمال العربات. وكان أهل «حضارة البلافيته» يختلفون عن سباقיהם من سكان حوض البو في أنهم كانوا يحرقون جثث موتاهم (Cremation) بدلاً من أن يدفنوها في الأرض كما هي. وكانوا يضعون الرماد المتخلّف في قوارير من الفخار الرمادي اللون مع أدوات (Inhumation).

الزينة ومقتنيات الراحلين البسيطة. وقد ظلت «حضارة قرى البحيرات» - كما تسمى أحياناً - قائمة في شمال إيطاليا حتى حوالي عام 1000 ق.م. فكأنها استمرت حوالي ثمانية قرون في عصر البرونز (1800 - 1000 ق.م).

وتتمثل حضارة عصر البرونز في جماعة أخرى كانت تسكن القرى التي اشتهرت عند الأثريين باسم «قرى تيراما». وقد ظهرت في الجزئين الأوسط والشرقي من وادي البو في وقت يوافق المراحل المتأخرة من «حضارة بلافيته» (حوالي 1500 ق.م.). وقد أرشد علماء الآثار إلى أماكن هذه القرى تلك التربة السوداء الخصبة التي اكتسبت تلك الصفة من تجمع الطين فيها نتيجة لبقاءها مأهولة بالسكان حقبة طويلة. وتعرف هذه التربة في اللهجة الإيطالية المحلية الحديثة باسم «تيراما»، وهو اسم يطلق الآن - كما أسلفنا - على هذه القرى نفسها والحضارة التي كشفت عنها. وقد ثبت الآن أن قرى «تيراما» لم تبن وفقاً لخطة منتظمة أو مطردة. كانت بيوتها عبارة عن أكواخ مستديرة الشكل في أول الأمر ثم بيتاً منتظماً أو مطردة. وكانت جدرانها من الأغصان المضغوطة والطين، ومقاومة بأعمدة خشبية لا يزال بعض أجزائها السفلية قائمةً في مكانه حتى اليوم. ولدينا ما يدل على أن هذه المساكن كانت - في أحوال قليلة فقط - تبني فوق مصاطب مرتكزة على أوتاد مغروسة في الأرض وكانت قرى «تيراما» على خلاف قرى «بلافيته» مشيدة على أرض جافة بل مرتفعة في بعض الأحيان. غير أن مثل هذه القرى كانت متأخرة زمنياً، وترجع - على ما يبدو - إلى أن المنطقة كانت تخمرها المياه فترات طويلة. وكانت القرى تحصن أحياناً بأسوار من الطين النيء وبالخنادق، وأحياناً أخرى بأسوار وتدية. ولا جدال في أن حضارة سكان قرى تيراما (*Terramaricoli*) كانت أرقى من «حضارة بلافيتي». وتشابه حضارتهم من وجوه عديدة حضارة عصر البرونز المعاصرة لها في بعض أجزاء سهل المجر بحوض الدانوب الأوسط.

كان هؤلاء الغزاة الوافدون من الشمال يمارسون في إيطاليا مهنتي الزراعة والرعي بوجه خاص، ولو أنهم كانوا في الوقت ذاته صيادين ونساجين مهرة، وذوي خبرة كبيرة بصنع الأدوات الخشبية والبرونزية. وكانوا يزرعون الكتان وبعض القحول وصنفين من القمح. وقد استخدموا الخيول والثيران والأغنام والخنازير والكلاب في مختلف ماربهم. وتتسنم كل أوانيهم الفخارية غير المصقولة، وألاتهم وأسلحتهم البرونزية، وأدوات زينتهم بطبع خاص يناسب أصله إلى منطقة وسط أوروبا. وقد شاع بينهم - إلى جانب الفؤوس ورؤوس الحراب والخناجر المصنوعة من البرونز - استعمال السيوف القاطعة ذات الحدين أو السكاكين الطويلة البرونزية. ويبدو أنهم عرفوا استعمال العربات. وكان من بين آلاتهم الموسيقية البوق المصنوع من البرونز. وفي المراحل الأخيرة من «حضارة» تيرامارا، إن لم يكن في المراحل الأولى، درج القوم على حرق جثث موتاهم ووضع الرماد المختلف في قبور تعرف الآن باسم قبور عظام الموتى (Ossuaries) أو قوارير رماد الموتى (Cinerary urns). وكانت هذه القبور أو القوارير توضع أول الأمر في صفوف متراصة بجنبات متاخمة للقرى، لكنها عزلت فيما بعد الواحدة عن الأخرى بألواح حجرية. وأخيراً بدأ كل فرد من سكان «تيرامارا» يبني لنفسه قبراً خاصاً. وفي فترة معينة كان الموتى يحرقون وعليهم ملابسهم دون أن يدفن مع رمادهم أي شيء من مقتنياتهم الدينية. لكن لم تثبت أن نشأت مع الاتّراد في استعمال الحفر أو اللوحات المنفصلة موازاة قوارير رماد الموتى - نشأت عادة وضع الأسلحة وأدوات الزينة والآنية الفخارية معها. وبازدياد الثروة، وارتفاع النزعة الفردية، وبتأثير السكان القدامى الذين بدأوا ينشئون معهم علاقات ودية سواء كرعايا خاضعين أو جيران مستقلين، تغير طابع البساطة الأولى في شعائر دفن الموتى عند سكان «قرى تيرامارا» وصارت طقوسهم الجنائزية أكثر تنوعاً وتعقيداً.

وليس لدينا حتى الآن فكرة واضحة من أصول حضارات عصر البرونز في إيطاليا. لكن لا شك في أن هذا العصر هو الذي تسللت أثناءه شعوب جديدة بأعداد غفيرة أتاحت لهم أن ينشروا في شبه الجزيرة الإيطالية التي اقتلعت اللغة القديمة من كل المنطقة عند بداية الفترة التاريخية. ولم يتبق من تلك اللغة القديمة إلا آثار طفيفة جداً. كانت اللهجات الإيطالية تنتمي إلى أسرة اللغات الهندية - الأوروبية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة اليونانية واللغة الكتليلية. ومن ثم ينبغي أن نفسر ظهورها في إيطاليا كنتيجة لحركة الانتشار العام التي قامت بها الشعوب المتكلمة باللغات الهندية - الأوروبية (والمسماة أحياناً بالأرية) واتجهت منها نحو الجنوب والغرب. ويمكن أن نتبع سيرها من إيران عبر أعلى بلاد الرافدين فأسيا الصغرى إلى شبه جزيرة البلقان خلال الفترة الممتدة بين عامي 2000 و 1000 ق.م. ولعل أهل حضاري «فلافيته» و «تيِّاماً» كانوا ينتمون أصلاً إلى تلك الشعوب الهندية - الأوروبية. غير أنهم كانوا بمعزل عن مجرى التيار الرئيسي للشعوب التي دخلت شبه الجزيرة الإيطالية مجتازة المنطقة الواقعة حول رأس البحر الأدريatic أو عابرة هذا البحر من الليريا (غرب البلقان) إلى شبه الجزيرة الإيطالية. ولا نستطيع الآن قبول الرأي القائل بأن أهل «حضارة تيرِّاماً» قد هاجروا من وادي نهر البو في الشمال إلى جنوب شبه الجزيرة، ولا الرأي القائل بأنهم الأجداد الأوائل للشعب اللاتيني التاريخي. إن احتلال «الإيطاليين» Italici لمعظم شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية حدث - على ما يرجح - في أواخر عصر البرونز، وتم حوالي عام 900 ق.م.

وقد تقدمت حضارة عصر البرونز في صقلية وسardinia وجنوب إيطاليا تقدماً ملحوظاً بفضل المؤثرات الوافدة من كريت وبلاط اليونان. ولعلها كانت أسبق في الظهور هناك من نظيرتها في شمال إيطاليا. وقد أنشأ أهالي حضارة عصر البرونز في الجهات الثلاث المذكورة علاقات تجارية مع مراكز الحضارة المنيوية في

كربت منذ بداية ذلك العصر (1800)، ومرانز «الحضارة الميكينية» (بعد عام 1600)، كما يتبيّن من محتويات مقابر عصر البرونز في صقلية. ولنذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - السيوف الطويلة المستدقة الأنصال، والبلط الصغيرة البرونزية، والخناجر الميكينية الطازان، وأدوات الزينة من مختلف الأنواع. وفي ذلك العصر كان مستوى الرخاء المادي والتقدم الحضاري في صقلية أرقى منه في جنوب إيطاليا، حتى أن حضارة صقلية وقتذاك تركت تأثيراً قوياً في إيطاليا بوجه عام. وفي عصر البرونز أيضاً بلغت سردينيا ذروة حضارتها. ولم يتوقف فيها بناء المقابر الحجرية الضخمة المسماة «مقابر العمالقة». لكن أغرب منها وأشد انطباعاً في النفس منظر تلك القلاع الحجرية الضخمة المسماة نوراجي (Nuraghi) والتي يبدو أنها استخدمت كحصون دفاعية.

عصر الحديد:

حدث الانتقال من «عصر البرونز» إلى «عصر الحديد» في إيطاليا في أعقاب هجرات تلك الجماعات الهندية - الأوروبية المتكلمة باللهجات الإيطالية سواء من منطقة حوض الدانوب الأوسط أو من شبه جزيرة البلقان. ويختلف تاريخ ظهور فجر «عصر الحديد» في إيطاليا من إقليم إلى آخر، فقد ظهر في صقلية حوالي عام 1000 ق.م. بينما لم يظهر في وسط إيطاليا وشماليها إلا حوالي 800 ق.م. على ما يرجح. وقد استغرق التطور المبكر من عصر الحديد (وهو طور ينتمي إلى ما قبل التاريخ في إيطاليا)، استغرق حوالي قرنين من الزمان أي من عام 800 حتى عام 600 على وجه التقرير. وتتميز تلك المرحلة بنشأة حضارات إقليمية في جهات مختلفة من حوض البو وشبه الجزيرة الإيطالية. وكانت شعوب بعض هذه الحضارات تمارس عادة حرق جثث الموتى شأنها في ذلك شأن شعوب حضاري «بلافيتة» و «تيرامارا» في عصر البرونز. وقد انتشرت هذه العادة في منطقة أيميليا

بالجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة (جنوبي وادي البو)، وفي اتروريا إلى الشمال من نهر التiber، وفي لا تيوم إلى الجنوب من ذلك النهر. ولكن عادة دفن الجثث كما هي كانت تمارس أيضاً في الأقلميين الآخرين (أتوريا ولا تيوم). وكانت هذه هي العادة السائدة في بقية أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية وفي الجزر المجاورة لها. وقد تأخرت سردينيا وكورسيكا عن إيطاليا وصقلية في الانتقال من «عصر البرونز» إلى «عصر الحديد». وفي الحق أن عصر الحديد في سردينيا يتميز بتدحره عام في الحضارة.

ويمكن اعتبار «حضارة فيلانوفا» Villanova نسبة إلى قرية بالقرب من بولونيا - نموذجاً لما كانت عليه الحضارة في جميع شمال إيطاليا في فجر «عصر الحديد»، كانت المستعمرات فيها عبارة عن قرى مكشوفة غير منتظمة تتناثر فيها الأكواخ المستديرية وكان أهل هذه الحضارة - التي اصطلاح على تسميتها «بحضارة فيلانوفا» - يستعملون في أول الأمر قوارير من الفخار - وبعدها من البرونز - غريبة ذات شكل مخروطي مزدوج لكي يودعوا فيها رماد الموتى وعظامهم. وكانت هذه القوارير تدفن في حفر مغطاة بألواح حجرية Tombe a (Tombe a fossa). وكانت أسلحتهم هي (pozzo) أو في قبور مستطيلة الشكل مبطنة بالحجر (Tombe a fossa). وكانت أسلحتهم هي السيوف والحراب والبلط المصنوعة من الحديد (الذي استوردوه - على ما يظن - أولاً من حوض الدانوب، وبعدها من جزيرة البا الغنية بهذا المعدن). وعرفوا من أدوات الزينة الخواتم والأساور الذهبية والدبابيس ذات الرؤوس الزجاجية الملونة، والخرز الكهرياني⁽³⁾. وكانوا يضعون ملابسهم من الصوف، ويصلون أجزاءها بعضها بالبعض الآخر بمسابك برونزية دقيقة الصنع. وقد طرأ - في عصر فجر الحديد - على صناعة البرونز تحسن كبير نتيجة لابتکار طريقة لصنع الصفائح الرقيقة من البرونز بعد طرقه. وقد ساعدت هذه الطريقة على صناعة الخوذات البرونزية والدروع والترюس، وكذلك الصناديق وغيرها من الأدوات المنزلية.

لقد توقفت الهجرات في عصر البرونز المتأخر من حوض الدانوب الشرقي ومن الليريا حوالي عام 900 ق.م. وفي القرون التالية مباشرة وفد إلى إيطاليا من الشرق شعبان آخران عن طريق البحر، واستقرا بالساحل الغربي لإيطاليا وجزيرة صقلية. كان أحدهما هم الأتروسكيين (Etrusci) والآخر هم الاغريق (Graeci) وقد وطد الأتروسكيون أقدامهم على الساحل الغربي إلى الشمال من مصب نهر التiber، وأسس الاغريق مستعمراتهم في الجنوب الغربي والجنوب من خليج نابولي حتى خليج تارنتوم. وحدثت هجرة الأتروسكيين في أوائل القرن الثامن ق.م. وأما هجرة الاغريق فاستغرقت فترة امتدت بين منتصف القرن الثاني (بعد حوالي 750 ق.م.) و منتصف القرن السادس (550 ق.م.)، بل انهم أسسوا بعض مستعمرات بعد هذا التاريخ وكان للمستعمرات الأتروسکية والاغريقية أهمية كبيرة لأنها وثقت صلات إيطاليا بحضارة العالم القديم شرق البحر المتوسط. وعن طريق التجارة مع قرطاجة الفينيقية أخذ الأتروسكيون يجلبون إلى إيطاليا السلع الشرقية، ومعها المؤثرات الشرقية، كما ساعدوا المستعمرات الاغريقية في الجنوب - بطريق غير مباشر - على نشر الحضارة والثقافة اليونانية في شبه الجزيرة. ولم تثبت شعوب إيطاليا أن تخلصت - تحت تأثير هذه الصلات الجديدة - الواحدة بعد الأخرى من البدائية والبربرية، وأقبلت على الحياة المدنية، وانبثق فجر تاريخها، إذ إن الاغريق - في الواقع - هم أول من دونوا تاريخ إيطاليا وأخبار شعوبها.

شعوب إيطاليا في القرن السادس ق.م:

لقد وافق فجر «عصر الحديد» في إيطاليا فترة تكوين الشعوب المختلفة التي قامت بأدوار هامة في تاريخها اللاحق. ومنذ بداية القرن السادس ق.م. يصبح من الميسور أن نستعرض تاريخ تطور هذه الشعوب السياسي والاقتصادي

والحضاري على نحو متصل، وإن يكن مجملًا فقط في بعض الفترات. فإذا استعرضنا الوضع في إيطاليا في القرن السادس ق.م. نجد أنها قد أصبحت مأهولة - كنتيجة للهجرات السالفة الذكر

- بشعوب مختلفة ويمكن تقسيم هذه الشعوب إلى مجموعتين:

1 - الأمبريون - السابليون واللاتين وهم من يطلق عليهم في العادة اسم الإيطاليين Italici تمييزاً لهم عن شعوب المجموعة الأخرى غير المتجانسة.

2 - مجموعة غير الإيطاليين التي تشمل الليجوريين واللاليريين والأتروسكين والاغريق.

وكان الأمبريون - السابليون (Sabelli) - Umbri ينتظرون عدداً كبيراً من الجماعات أو القبائل المعروفة بالشجاعة وشدة المراس كالأومبريين (Umbri) والسابينيين (Sabrni) والآيكويين (Aequi) والمارسيين (Marsi) والفولسكين (Volsci) والفستينيين (Vestini) والفرنثانيين (Frentani) والسمنيين (Sannites) أو السابلين (Sabelli). وكانوا يسكنون في وديان جبال الأبينين الوسطى. لكنهم لم يقتصروا على سكنا المناطق الجبلية إذ توسعوا خلال القرن السادس نحو الساحل الغربي في جنوب لاتيوم، ونحو وسط الساحل الأدريatic في الشرق. بل انهم توغلوا خلال القرنين الخامس والرابع في الجنوب وأقصى الجنوب الغربي على حساب الشعوب المجاورة كسكان أقاليم كمبانيا ولوكانيا وبروتيم.⁽⁴⁾ وفي الحق أن الفرع الشمالي منهم هو الذي عرف باسم «الأومبريين» بينما عرف الفرع الجنوبي باسم «السابليين»⁽⁶⁾، وأما اللاتين (Latini) - الذين قدر لهم أن يسودوا إيطاليا بعد سنين - فكانوا يسكنون في منطقة وسطى بين هذين الفرعين أي في سهل لاتيوم (Latium) الذي يقع جنوب المجرى الأدنى لنهر التiber. وكان «الأومبريون - السابليون» واللاتين ينحدرون جميعاً من أصل واحد، ويتكلمون لغات مشتقة من أصل مشترك،

وتشكل الفرع القديم من أسرة اللغات الهندية - الأوروبية، فكان الأومبريون يتكلمون اللغة الأومبرية⁽⁷⁾، والسابلليون وسائر القبائل المنتسبة إليهم يتكلمون اللغة «الأوسكية» بلهجاتها المختلفة⁽⁸⁾. وأما اللاتين فكانوا يتكلمون لغة تعرف «باللاتينية». وبينما تؤلف الأومبرية والأوسكية شعبة واحدة من اللغات الإيطالية القديمة، تؤلف اللاتينية شعبة أخرى متميزة عنهما. وجدير بالذكر أن الشعب اللاتيني قد تكون من امتزاج الغزاة الذين كانوا يتكلمون لغة هندية... أوروبية ويمارسون عادة حرق جثث الموق، بسلالة سكان العصر النيوليسي الذين كانوا يقلون عنهم عدداً ويمارسون عادة دفن جثث الموق كما هي. وقد اختلطت بهذين العنصرين (عند بداية القرن السادس ق.م). نسبة ضئيلة من العنصر الاتروسي⁽⁹⁾.

وأما عن «الشعوب غير الإيطالية» فكانت موزعة في إيطاليا خلال القرن السادس ق.م. على النحو التالي:

أ - الليجوريون *Ligures*: كانوا يقطنون الركن الشمالي الغربي من إيطاليا الذي يشمل وادي البو على امتداده شرقاً حتى نهر «تيكينوس» وكذلك الساحل على امتداده جنوباً حتى نهر «أرنو». وكانوا سلالة منحدرة من سكان العصر النيوليسي لم تمتزج بالمهاجرين الذين وفدوا في العصور التالية. لكنهم كانوا يتكلمون لغة هندية - أوروبية في بداية الفترة التاريخية، وإن كانت ظروف اكتسابهم هذه اللغة لا تزال غير معروفة⁽¹⁰⁾.

ب - الالليريون: ويقصد بهم الشعوب الالليدية الأصل. وكانت تسكن في منطقتين رئيسيتين، وقد عرفت بأسماء مختلفة تبعاً لذلك. ففي الجزء الشرقي من إيطاليا الممتد من نهر البو إلى جبال الألب شمالاً ومن بحيرة جاردا حتى شبه جزيرة هستريا، كان يسكن الفينيتيون (Veneti) الذين كانت لغتهم كلغة الالليريين هندية - أوروبية. وفي الجزء الواقع إلى الشمال والغرب من موطن الفينيتيين،

تحت سفوح الألب ووديانها، كان يقطن شعب يسمى بالرايتين (Raeti) الذين كانت لغتهم خليطاً من عناصر الليرية وغير الليرية. ومن هذين الجزئين تتألف المنطقة الرئيسية الأولى التي كانت الشعوب الالليرية الأصل تسكنها في الشمال. وأما المنطقة الرئيسية الثانية لهم فكانت في الجنوب حيث كان عدد من القبائل الالليرية الأصل تعيش في جزء من إقليم أبوليا (على الساحل الجنوبي الشرقي)، وفي إقليم كلابريا القديمة⁽¹¹⁾ (كعب الحذاء الإيطالي) على امتداد الساحل الأدرياتي وخليج تادنتوم في الجنوب. وكانت هذه القبائل تحمل أسماء مختلفة. لكن غالباً ما يطلق عليها كلها اسم اليابيجيين (Iapygi) وكانت قد استقرت في تلك الجهات حوالي عام 900 ق.م. وطغت على سكانها القدماء الأصليين.

ح - شعوب الجنوب المختلطة بالالليريين: كانت الغالبية العظمى من هذه الشعوب تنحدر من سكان العصر النيوليسي المختلطين عرقياً بالألليليين. وكانوا يسكنون في إقليم كمبانيا ولوكانيا وبروتيم (مقدمة الحذاء الإيطالي)، ويحملون أسماء قبلية مختلفة كالاؤسكيين والأوبيكين.

وتجدر باللحظة أن أجزاء كثيرة من المناطق التي ذكرناها قد احتلها الاتروسكييون في القرن السادس ق.م. على نحو ما سنرى بعد قليل.

د - الاتروسكيون: وفروا إلى إيطاليا - على نحو ما ذكرنا - في أوائل القرن الثامن ق.م. ونزلوا بالمنطقة الواقعة غربي جبال الأبينين الرئيسية والمحصورة بين نهر الأرنو في الشمال ونهر التiber في الجنوب. وقد عرفت المنطقة باسم اتروريا (Etruria). وكان السواد الأعظم من سكان هذا السهل خليطاً من سلالة سكان العصر النيوليسي والمهاجرين إلى إيطاليا منذ أواخر عصر البرونز الذين كانوا يتكلمون لغة هندية - أوروبية ويتفوقون عليهم عدداً وحضارة. ولما جاء الاتروسكيون احتلوا المنطقة وطغوا على هؤلاء السكان السابقين الذين

كانوا يختلفون عنهم لغة وحضارة. ولكن الأتروسكيين أخذوا يتسعون في إيطاليا منذ القرن السادس ق.م. وسيطروا على عدة مناطق متباعدة: ففي الشمال وضعوا أيديهم على الأجزاء الوسطى والشرقية من وادي البو، محتلين المنطقة الواقعة بين موطن الليجوريين وموطن الفنتييين. واجتاحوا القطاع الساحلي الممتد من نهر البو حتى مدينة أريينوم على الأدرياتي. ثم وطدوا أقدامهم في عدة مراكز باقليم لاتيوم في وسط شبه الجزيرة. وانحدروا جنوباً وأسسوا بعض المستعمرات في اقليم كمبانيا. كذلك عبر الأتروسكيون البحر وأسسوا مستعمرات في جزيرتي ألبَا وكورسيكا المتاخمتين لاتروريا. وفي الحق أن البحر في تلك المنطقة قد عرف بالبحر «التيراني» نسبة إليهم لأنهم كانوا يعرفون عند اليونان باسم التيرينيين (Tyrrhenoi)، وعرفت بلادهم باسم تيرينيا (Tyrrhenia). كذلك يسمون أحياناً «بالتوسكيين» (Tusci)، أو «الاتروريين».

هـ - الاغريق: وهؤلاء هاجروا إلى جنوب إيطاليا وجنوبها الغربي واحتلوا المناطق الساحلية وأسسوا عدداً كبيراً من المستعمرات ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م. (أو بعده بقليل) حتى منتصف القرن السادس ق.م.

وجدير باللحظة أنه حتى نهاية القرن السادس ق.م. لم يكن قد ظهر أي أثر لتحرك السابلليين من أواسط الأربعين نحو جنوب شبه الجزيرة واحتلال مواقع فيه.

و-سكان الجزر: كان سكان صقلية، قبل الاستعمار الاغريقي، يمتنون بصلات نسب قوية بسكان مناطق جنوب إيطاليا المتاخمة لجزيرتهم. وكانوا يعرفون باسم الصقلين (Suculi) أو السيكانيين (Siculi). ويرجع الطابع الهندي - الأوروبي في لغتهم إلى صلاتهم بالالبيين. ولم يأت القرن السادس ق.م. حتى كان الساحلان الشرقي والجنوبي، وأجزاء من الشمالي قد وقعت في يد

الاغريق الذين توغلوا أيضاً في قلب الجزيرة. غير أن الطرف الغربي الأقصى من الجزيرة فقد أنشأ فيه القرطاجيون عدداً قليلاً من المستعمرات.

وأما سردينيا فكان معظمها في يد سكانها القدامى الذين استوطنوها منذ العصر النيوليثي وعصر البرونز، ولو أن القرطاجيين وطدوا أقدامهم في الساحل الجنوبي للجزيرة.

وبالمثل كان العنصر القديم من السكان في كورسيكا يسيطر على الجزيرة فيما عدا قطاع على الساحل الشرقي سيطر عليه الأنتروسكيون.

يتبين مما سبق أنه في فجر التاريخ الروماني كانت الشعوب الإيطالية وغير الإيطالية لا تزال غير مترابطة بل كانت جماعات متنافرة، على الرغم من امتزاج بعض عناصرها المتباعدة في وقت مبكر وغبلة اللهجات الهندية - الأوروبية. لكن يلاحظ أن هذه اللهجات كانت متميزة الواحدة عن الأخرى. ولم ينشأ بينها أدب مشترك يساعد على التقريب بين هذه اللهجات وثقافاتها على نحو ما قربت الملاحم الهوميرية بين الاغريق الأوائل برغم اختلاف لهجاتهم. ولا ساعدت على الربط بينهم عبادة دينية مشتركة. وكانت آلهتهم متباعدة أشد التباين ومصتبغة بصبغة محلية واضحة. ولم يكن لدى هذه الشعوب أعياد دينية مشتركة كتلك الأعياد الهلنلية العامة التي أسهمت في بناء القومية الاغريقية. وقد نشبت بينها الحروب بسبب المنازعات على الحدود. وقد ظل العداء دفينا فترة طويلة بين سكان السهول وسكان التلال القريبة. إذ دأب الآخرون على الاغارة على السهول الخصبة طمعاً في خيراتها وللسيل والنهب وعلى الأخص في بلد إيطاليا ينقسم انقساماً واضحاً إلى مناطق جبلية وسطى (على امتداد الأبنين) وسهول ساحلية متاخمة لها كإترويا ولاتيوم وكمانيا.

ونخلص من توزيع شعوب إيطاليا عند نهاية القرن السادس ق.م. إلى أنه لم يكن هناك وحدة جنسية أو ثقافية بين أنحائها المختلفة. وكان ذلك الوضع

يشكل عقبة أخرى إلى جانب العوائق الجغرافية التي وضعتها الطبيعة في طريق قيام وحدة سياسية وتكونين أمة إيطالية.

وما كان الاتروسكيون من ناحية، والاغريق من ناحية أخرى هما الشعبين اللذين كان لهما تأثير بالغ الأهمية في الرومان وحضارتهم، فمن الملائم أن نتحدث عن كل منهما بشيء من التفصيل.

هوامش ومراجع الفصل الثاني

- 1 - التواریخ کلها قبل المیلاد إلا إذا قرنت بما یفید غير ذلك.
- 2 - حجر صخري برکانی أسود لامع كالزجاج شديد الصلابة، واشهرت به جزيرة میلوس في البحر الایجي.
- 3 - كان الكهeman يستورد من منطقة بحر البلطيق. ولعل ذلك يدل على قيام تبادل تجاري عبر القارة الأوروبيّة مع الشمال. وقد ظل هذا التبادل قائماً بصورة متقطعة حتى القرن الثالث ق.م.
- 4 - كانوا في جوهرهم يمثلون السلالة الباقيّة من سكان العصر النيوليسي بعد امتزاجها امتزاجاً شديداً بالغزة الذين وفدوا من الشمال وأدخلوا في لغتهم عنصراً هندياً
- 5 - كان أغلب سكان لوکانيا وبروتیوم (في الجنوب الغربي) ينحدرون من سكان العصر النيوليسي المختلطين بالليرين الذين صبغوا لهجاتهم المحلية بصبغة هندية - أوروبية. وكانوا وثيقـي الصلة بأهل كمبانيا، ويحملون أسماء قبلية مختلفة كالاؤسکین Osci والأوبکین Opici وغير ذلك من الأسماء.
- 6 - كانت المنطقة المحصورة بين الساحل الشرقي للأدرياتي (حتى جنوب مدينة أنکونا) وهضبة أبروزي Abruzzi الشاهقة في جبال الأنبيين يحتلها قوم يسمون بیکنطیس Picentes اشتهروا بالشجاعة وحب القتال. ويرجح أنهم كانوا سلالة منحدرة من أصل نیوليسي، وان امتزج بهم - على ما يبدو - عنصر الليري امتزاجاً طفيفاً. وقد استطاعوا صد اغارات أهل حضارة فیلانوفا في الشمال. وكانوا يمارسون - على نقیضهم - عادة دفن جثث الموتى كما هي. ويرتبط تاريخهم المبكر بتاريخ ساحل الليريا المواجه لهم في غرب البلقان. وأما تاريخهم اللاحق فيرتبط باغريق جنوب إيطاليا الذين تبادلوا معهم التجارة عن طريق البر.

7 - إن معرفتنا «باللغة الأومبرية» مستمدّة كلها تقريباً من «ألواح اجوفيوم» (Tabulae Iguviae). واجوفيوم هي بلدة جوبيو (Gubbio) الحديثة في إقليم أومبريا. وبعض هذه الألواح البرونزية مكتوب بالأبجدية الأومبرية، وهي مقتبسة (عن طريق الأتروسكيّة) من اليونانية. وأما بقية الألواح فمكتوبة بالأبجدية اللاتينية. وترجع أقدم هذه الألواح إلى حوالي عام 400 ق.م. وأحدثها إلى ما قبل عام 90 ق.م. ويتضمن النص المدون على هذه الألواح محضًاً أعمال هيئة أو جماعة أخيوية كهنوتية مختصة بالطقوس والعبادات، وهي شبّهه «بجماعات الأخوة الأرفاليس» الرومانية. وفي المحضر قواعد تنظيمية لتطهير اجوفيوم تطهيرًا دينيًّا، وبعض قرارات إدارية أخرى. وتفوق ألواح اجوفيوم في شمولها ومضمونها وقدمها كل الوثائق الأخرى المتعلقة بدراسة الديانة الإيطالية القديمة، فضلًاً عن كونها المصدر الرئيسي لمعرفتنا باللغة الأومبرية.

8 - غالباً ما يقتصر مفهوم «اللهجات الإيطالية القديمة» على الأومبرية «والاؤسكيّة» وهما اللهجتان الرئيسيتان غير اللاتينيتين في هذا الفرع الإيطالي القديم من أسرة اللغات الهندية - الأوروبيّة. وقد وجدت النقوش المدونة بالأوسكيّة في أقاليم سمنيوم وكمبانيا وأبوليا ولوكانيا وبروتينوم. وأقدمها عبارة عن كتابات مرسومة على العملة (450 - 350 ق.م.) وأحدثها عبارة عن نقوش عابرة أو ما يسمى عادة بـ graffiti - مدونة على جدران شوارع مدينة بومبي Pompeii - قرب نابولي - (بعد عام 63م). ومعظمها مكتوب بالأبجدية الأوسكيّة المقتبسة من اليونانية (السائلة في شبه جزيرة خالكيدiki) عن طريق الأتروسكيّة. غير أن قليلاً منها مدون بالأبجدية اللاتينية (ويشتمل على أطول نص أوسكي، وهو المدون على «لوحة بانتيا Tabula Bantina» المودعة الآن بمتحف نابولي)، وتتضمن قواعد خاصة بتنظيم الشؤون البلدية في مدينة بانتيا في حوالي عام 125 ق.م؛ والبعض الآخر الذي اكتشف في الجنوب مدون بالأبجدية اليونانية. ولم تكن الأوسكيّة مجرد لهجة محلية أو إقليمية، بل كانت هي اللغة الرئيسية في إيطاليا الوسطى حين كانت اللغة اللاتينية لا تزال مقصورة على روما ولاتيوم.

9 - كانت هناك على تخوم لاتيوم عدة قبائل صغيرة كالفاليسكين (Falisci) والهرنيكين (Hernici) قُتلت بصلة قرابة وثيقة لللاتين ولا تختلف عنهم في الجنس أو اللغة أي اختلاف جوهري. ومن ثم يمكن ادراجهم تحت اسم «اللاتين».

10 - كان جانب كبير من سكان جزيرة كورسيكا ليجوري الأصل.

11 - من الغريب أن اسم كالابريا Calabria صار يطلق - حتى منذ العصر الروماني - على «مقدمة الحذاء» الإيطالي أي على إقليم بروتيوم (Bruttium) بدلاً «من كعب الحذاء».

الأتروسكيون والاغريق

الأتروسكيون

كان الأتروسكيون في الواقع هم أول من أتاحوا للسلالة الإيطالية فرصة الظهور كأمة قوية في حوض البحر المتوسط. ولكي نفهم كيف تم ذلك ينبغي أن نلقي نظرة على خريطة وسط إيطاليا تمننا بصورة واضحة لارتفاعات هذه المنطقة من شبه الجزيرة. ويتبين من دراسة هذه الخريطة أن التiber، وهو النهر الوحيد ذو الأهمية التاريخية، يقسم ساق إيطاليا الطويلة قسمين عند منتصفها على وجه التقرير. ويتألف هذا النهر من عدة فروع تنحدر من وسط جبال الألبين، لكنها تتجمع في نهر سريع غير عريض المجرى يندفع من تلك المنطقة الجبلية التي تبعد عن البحر حوالي خمسة وعشرين ميلًا إلى اقليم لاتيوم «كمبانيا الحالية»⁽¹⁾. ويدور النهر حول الحافة الشمالية لهذه المنطقة المستوية نوعاً ما، ويصب في البحر التيراني عند منتصف الساحل الغربي تقريرًا لشبه الجزيرة دون أن ينشئ ميناء طبيعياً. وقد نشأت في شمال النهر والسهل عدة مدن، وفيها كان يسكن الأتروسكيون الذين لم يعرف بعد أصلهم على وجه اليقين. فما يزال الخلاف قائماً بين الباحثين حول أصل الأتروسكيين. وفي الحق أن المؤرخين القدامى أنفسهم اختلفت روایاتهم حول هذا الموضوع. وأيًّا كان الأمر، فالبعض يرى مع هيرودوت⁽²⁾ أن الأتروسكيين جاؤوا من الشرق أي من ليديا بآسيا الصغرى أو من جزيرة ملنوس في شمال البحر الابيجي. ويرى البعض الآخر مع ديونيسيوس

إلها ليكرناسى⁽³⁾، أنهم شعب قديم نشا في إيطاليا. وثمة رأي ثالث يقول إنهم مهاجرون وفروا إلى إيطاليا من وراء شمال الألب أو من أراضي الدانوب أو كانوا مزيجاً من هؤلاء المهاجرين والسكان الأصليين. غير أن القرائن اللغوية ترجح الرأي القائل بأن الاتروسكيين كانوا دخلاء كالاغريق جاؤوا إلى إيطاليا بحراً من شرق البحر المتوسط، وفي أكبر الظن من إحدى جهات آسيا الصغرى المتاخمة لساحلها الغربي.

وما كان الاتروسكيون من ناحية، والإغريق من ناحية أخرى هما الشعبين اللذين كان لهما تأثير بالغ الأهمية في الرومان وحضارتهم، فمن الملائم أن نتحدث عن كل منهما بشيء من التفصيل.

ويتبين أن نؤكد في الوقت نفسه أن الحضارة الاتروسكية (في العصر التاريخي) نشأت في أتروريا نفسها ولم تجلب من الخارج.

كذلك لا يزال الجدال محتدماً حول تاريخ استقرار الاتروسكيين في إيطاليا. وقد ساد الاعتقاد فترة من الزمن بأنهم ربما يكونون شعب «تورشا» المذكور بين «شعوب البحر» التي أغارت على مصر بحراً حوالي عام 1226 ق.م. لكن هذا على ما يبدو الآن اعتقاد خاطئ. ومن الأصوب - في ضوء الكشوف الأثرية الحديثة - أن نؤرخ نزولهم في إيطاليا بالشطر الأول من القرن الثامن ق.م. أي قبل استعمار الإغريق لجنوب إيطاليا وصقلية بفترة غير طويلة. ومن المرجح أيضاً أن الاستعمار الاتروسكي لم يكن حركة غزو واسع النطاق بقدر ما كان حركة تسلل تدريجي، قامت بها جماعات صغيرة وفدت في أعقاب التجار الاتروسكيين الأوائل باحثة عن مصادر غنية بالحديد والنحاس.

ولم يكن عددهم كبيراً لكن حضارتهم كانت أرقى من حضارة الأهالي الوطنيين وكانوا متفوقين في السلاح والتنظيم العسكري. وساعدتهم ذلك في الاستيلاء على المراكز الحيوية القريبة من الساحل وبخاصة على مدینتی

تاركوبيني (Tarquinii) وكابيري (Caere)، وفي التوغل - بعد ذلك - في شبه الجزيرة والسيطرة على مراكز عمرانية أخرى كانت قائمة منذ فجر عصر الحديد. وقد ترتب على ذلك أن نشأت عدة مدن أتروسكية في المنطقة الواقعة بين «الأنزو» و «التير». وكانت كل منها عاصمة لإمارة أو مملكة صغيرة. وقد اندمجت أقوى هذه المدن، وعدها اثنتا عشرة، فيما يشبه العصبة بقصد الاحتفال المشترك بالأعياد الدينية. لكن المدن ظلت كل منها محفظة باستقلالها السياسي. وكان يحكم كل منها ملك يعاونه مجلس من زعماء الأسر الشريفة (Lucumones). لكن حدث بعد مرور فترة من الزمن أن سقطت الملكيات وقامت على أنقاضها حكومات أرستقراطية. ولم يكن الأتروريون الأصالة يشكلون سوى أقلية صغيرة بين السكان في مدن أتروريا وظلوا هم الفئة الأرستقراطية المسيطرة. ومع أنه كان بوسعهم أن يفرضوا لغتهم على رعاياهم الإيطاليين إلا أنهم لم يندمجوا معهم بل أخضعوهم لسيطرتهم واستغلوهم لتحقيق أهدافهم الخاصة.

وعند نهاية القرن السابع ق.م. عبر الأتروسكيون نهر التير واجتازوا جانباً كبيراً من إقليم لاتيوم، واحتلوا روما وموقع أخرى هامة. وفي أوائل القرن السادس زحفوا جنوباً واحتلوا الأرضي المنخفضة الخصبة في كمبانيا حيث أصبحت مدينة كابوا (Capua) مركزاً رئيسياً لهم. واستطاعوا بمعونة القرطاجيين إرغام الأغريق على إخلاء مستعمرة الآلايا (Alalia) في جزيرة كورسيكا حوالي عام 536 ق.م. وألت إلى الأتروسكيين كل الغابات الفسيحة في الجزيرة، وإن لم يحتلوا أبداً سوى قطاع ضيق على امتداد ساحلها الشرقي. وقرب نهاية القرن السادس اجتاز الأتروسكيون الأندين ونزلوا في وادي البو حيث غزوا المنطقة الوسطى التي تقع بين موطن الليجورين (Felsina) وموطن الفينيتيين وتمتد من الساحل الأدريatic حتى جبال الألب شمالاً. وكانت فلسينا

القريبة من بولونيا الحديثة هي مدینتهم الرئيسية في شمال الألبين. وقد اشتق البحر الأدريرياني اسمه من اسم ميناء أدریا (Adria) الذي أسسه الأتروسكيون شمالي مصب نهر البو مباشرة، في أراضي الفينيقيين⁽⁴⁾.

هكذا أصبح الأتروسكيون في القرن السادس ق.م. أقوى جماعة سياسية في إيطاليا، وإن كانت مقاومة الاغريق لهم في كمبانيا قد حالت دون توحيد إيطاليا تحت السيادة الأتروسكسية. ولم يقم مركز الأتروسكيين على أساس وطيد إذ عجزوا عن بناء نظام سياسي مستقر. وكانت فتوحاتهم داخل أتروريا وخارجها قد تمت على يد جماعات محاربة صغيرة لا يوجد بينها أي تنسيق أو تعاون وثيق. وقد أنشأت ولايات منفصلة لا ترابط بينها أو حلف متين. ولم تكن تعرف بأي سلطة مركبة ولو أنها كانت تتبادل المساعدات في وقت الحرب. كذلك أدت قسوة الأتروسكيين في معاملة رعاياهم إلى انعدام روح الولاء والنفور بين هؤلاء الرعايا. وترتب على ذلك أنه كلما توسع الأتروسكيون في فتوحاتهم ازداد حكمهم تعرضاً للأخطار.

ولم تثبت أن تدهورت قوة الأتروسكيين. وكانت أول ضربة تلقوها في إقليم لاتيوم حيث ثار أهل روما وطردوا الملك الأتروسكي تاركوبينيوس «المتغطّر»، وألغوا الملكية عام 510 وأقاموا الجمهورية في العام التالي 509 ق.م. وتمردت بعض المدن اللاتينية الأخرى وألحقت الهزيمة - بالتعاون مع أرسطوبيوس، حاكم كوماي الاغريقي - بجيش اتروسكي عند بلدة أريكيا (Aricia)⁽⁵⁾ حوالي عام 505. وقد حاول الأتروسكيون بعد فترة قصيرة دعم مركزهم المتزعزع فشنوا هجوماً كبيراً على كوماي (Cumae) من البر والبحر. لكن هيرون الأول (Hieron I، ملك سراقوسة 478 - 466) - وهي سيراكيوس (Syracuse) أعظم مدن صقلية - خفّ لنجدوة كوماي الاغريقية، ودمّر الأسطول الاتروسكي في معركة كبرى عام 474. وتحطمت

قوة الاتروسكيين البحرية. وأغارت سفن سراقوسة على جزيرتي كورسيكا وألبا وساحل أرتوريا ذاتها. وتواترت هذه الاغارات في مطلع القرن الرابع على يد ديونيسيوس الأول (Dionysius I، طاغية سراقوسة 406 - 367)، إذ قام هذا العاهم الكبير بتعزيز جيشه بالمرتزقة وبناء أسطول قوي، وشرع في سياسة التوسيع العسكري، واضعاً نصب عينيه طرد القرطاجيين من صقلية. فسيطر على معظم مدن صقلية، وبسط نفوذه على مدن «بلاد الاغريق العظمى» في جنوب وجنوب غرب ايطاليا، مؤسساً أول دولة عظمى ذات طابع اغريقي نشأت في الغرب⁽⁶⁾. ولم يظهر ديونيسيوس الأول البحر التيراني من القرصنة الاتروسكيين فقط بل استولى كذلك على الموانئ الاتروسكية المطلة على البحر الأدريري (مثلاً أدرنيا وأنكونا) وإن كانت الأدلة على ذلك غير قاطعة. وأما في كمبانيا فقد أدى تدفق السمنيين من الأبنين الوسطى بغية التوسيع في الجنوب إلى انهيار الحكم الاتروسكي الذي انتهى هناك بسقوط كابوا في أيديهم عام 438. ولم يكن ضياع كابوا هو آخر النكبات التي حلّت بالاتروسكيين إذ هبطت قبائل الغاليين أو الغال (Galli) من ممرات جبال الألب إلى وادي البو حوالي عام 400 وسرعان ما اجتاحوا الأراضي التي كان الاتروسكيون قد احتلوها في شمال شبه الجزيرة. ومنذ ذلك الحين أصبح الاتروسكيون محصورين داخل حدود اتروريا الأصلية. وأما تاريخهم اللاحق فيرتبط بتاريخ روما وتوسعها في شبه الجزيرة والذي أدى إلى اندماج الاتروسكيين في الدولة الرومانية. غير أن تدهور قوة الاتروسكيين لم يتربّ عليه تدهور حضارتهم التي ظلت مزدهرة بل إنها بلغت أوجها تحت السيادة الرومانية. وفي الحقيقة أن اتروريا لم تنهَ حضارياً أو اقتصادياً إلا في القرن الأول ق.م نتيجة لفوضى الحروب الأهلية الرومانية وتفشي الملاريا في أنحائها الساحلية.

الحضارة الاتروسكية:

ويتبين من الكشوف الأثرية أن الحضارة الاتروسكية كانت منذ القرن السابع ق.م. وخلال القرون التالية خليطاً من العناصر التي أحضروها معهم إلى إيطاليا والعناصر الأصلية للشعوب الإيطالية التي أخضعوها. كذلك احتوت على قدر من العناصر الاغريقية التي تولدت عن الاتصالات التجارية مع المستعمرات الاغريقية في جنوب شبه الجزيرة. وكانت هذه الحضارة ترتكز على الزراعة والصناعة والتجارة، تلك الحرف التي نشطت كلها بتأثير الاتروسكيين نشاطاً كبيراً. كان الاتروسكيون يزرعون الكروم والزيتون والحبوب للتصدير، ويعانون بتربية الخيول عناء شديدة. وقد حفروا الانفاق وأقاموا السدود على نطاق واسع لزيادة رقعة الأرضي المنزرعة ووقف تأكل التربة. واستغلوا إلى أقصى حد الموارد الاقتصادية في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم، وروجوا المصنوعات الحديدية في اترووريا، وجذّوا في التنقيب عن الحديد في أترووريا ذاتها كما استخرجوه من مناجم جزيرة ألبًا. كذلك استغلوا نحاس كورسيكا وقصدوا اترووريا. واكتسبت مصنوعاتهم البرونزية، وعلى الأخص المرايا والشمعدانات، شهرة واسعة في أثينا خلال القرن الخامس ق.م. وكان الصناع الاتروسكيون يصيغون من الذهب والفضة حلية وأدوات للزينة باللغة الدقة تكشف عن مهارة فنية فائقة. وقد ارتقت صناعة الفخار الأسود المعروف باسم *Buichero nero* بعد الاحتلال الاتروسكي، وتوسيع صناعة الخزف بإنتاج أوان مقلدة عن الأواني الاغريقية المستوردة.

شعب بحري:

كان الاتروسكيون ملتحين قبل مجئهم إلى إيطاليا، وظلوا شعباً بحرياً قوياً فترة طويلة. وقد أنشأوا علاقات تجارية مع القرطاجنيين منذ البداية. وعند

نهاية القرن السابع ق.م. نشطت تجارتهم مع بلاد الاغريق كما يتبيّن من محتويات مقابرهم والأثر الاغريقي في حضارتهم بوجه عام. وقد تبادلوا التجارة مع أثينا مباشرة في القرن السادس وكان الجانب الأكبر من هذه السلع التجارية ينقل - فيما يبدو - على مراكب اتروسقية. لكن تجارة الأتروسكيين مع المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا كانت على نطاق أوسع. ولقد استقرت جماعات من التجار الاغريق في المواني الاتروسقية على ساحل البحر التيراني وساحل البحر الأدريatic. ولم يلبث ازدياد حجم التجارة أن أدى إلى دخول العملة. ففي أواخر القرن السادس انصرف الأتروسكيون عن نظام المقايضة حيث كانوا يستعملون كتلا من النحاس كوسيلة للتبدل. وأخذوا يستعملون نقود المدن الأيونية الاغريقية. وبعد عام 500 بدأ بعض المدن الاتروسقية في إصدار عملة من الذهب والفضة والنحاس. وقد التزمت أو اتبعت في أول الأمر قاعدة نقدية مقتبسة من ليديا. لكنها لم تثبت أن تخلت عنها واتبعت قاعدة النقد الاغريقية التي كانت شائعة في جزيرة يوبويا وكمبانيا، وكان الأتروسكيون وكذلك القرطاجنيون ينظرون بعين القلق والخوف من التوسيع الاغريقي في غرب البحر المتوسط حتى أن هذين الشعبيين تحالفوا في عام 536 على طرد المستعمرين الاغريق من جزيرة كورسيكا. وتوطدت سيادة الأتروسكيين في البحر التيراني منذ ذلك الحين. ولعل ذلك هو ما أدى إلى اشتهرارهم بالقرصنة في الأوساط الاغريقية.

إن معلوماتنا عن الحضارة الاتروسقية مستمدّة في جوهرها من أطلال مدنهم ومن مقابرهم. لقد درج الأتروسكيون أثناء فتوحاتهم في إيطاليا على احتلال المستعمرات الوطنية القديمة التي كان أغلبها مشيداً فوق قمم التلال أو في موقع آخر يسهل الدفاع عنها. ولم تثبت هذه المستعمرات أو القرى المنيعة أن تضخت تحت الحكم الاتروسكي وصارت مدنًا غنية محصنة بأسوار من الطين الذي قد يكسى جانب منه بالحجر. وكانت المعابد هي أهم المباني العامة

في المدن. كان المعبد الاتروسيكي النموذجي بناءً في شكل المربع تقريباً ويرتكز على قاعدة مرتفعة، ومدخله عبارة عن رواق ذي أعمدة (Portico) مساحته لا تقل عن مساحة قاعة المعبد الداخلية الرئيسية (Cella). وكانت جدران المعبد تبني من الطوب (الآجر) المرتكز على أساس في شكل صفوف أفقية من الحجر. وأما الأعمدة وممرات السقف (الشديد الانحدار) فكانت من الخشب. وكانت الأجزاء الخشبية في المعبد تطلّ بالطين النضيج الملون، كما كان السقف يزخرف بأشكال خزفية. غالباً ما كانت المنازل الخاصة تبني من الخشب أو الآجر، وكانت يتوسطها أحياناً فناء مكشوف على نمط الفناء الاغريقي المحاط بالأعمدة (Peristylon). وقد عزا الرومان إلى الاتروسكيين فضل ابتكار طرز متميزة من الأعمدة، والردهة المنزليّة التي أصبحت مألوفة في البيوت والمسمّاة بالأترويووم (Atrium). وقد تعلم الرومان من الاتروسكيين بناء العقود والأقبية.

إحراق الجثث:

وأما عن الطقوس الجنائزية فإن الاتروسكيين كانوا يمارسون عادتي دفن المدّق كما هم (Inhumation) واحراق جثثهم (Cremation) وكانت قبور الفقراء منهم لحوذاً أو حفراً تودع فيها توابيت المدّق أو قوارير رماد جثثهم. وأما مقابر النبلاء التي تشكل أغرب آثار الحضارة الاتروسكية فكانت على أنواع مختلفة، فهي تارة ركام من تراب (Tumulus) يحوي حجرة الدفن، وتارة أخرى قبو حجري مستدير (Tholos) منحوت في سفح التل، أو سراديب يحتوي على حجرات كثيرة محفورة في الصخر. ويبدو أن المقابر السردابية الضخمة كانت مدافن عائلية. وكثيراً ما تكون جدرانها الصخرية مزخرفة بنقوش محفورة أو بآثار مزينة بصور ملونة. ومن هذه الزخارف نستقرئ معظم معلوماتنا عن ملامح الاتروسكيين وأزيائهم وعاداتهم. وتنهض كثرة الحلى الذهبية وغيرها من

الأدوات النفيسة التي اكتشفت في مقابرهم المؤرخة بالقرنين السابع وال السادس دليلا على إثراء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة عندهم⁽⁷⁾.

الفن الاتروسي:

ويظهر الفن الاتروسي في أشكال مختلفة: كصور مرسومة على الأواني الفخارية وعلى جدران المقابر، وكرسم محفورة على الصناديق والمرايا البرونزية، وكماثيل كبيرة وصغيرة والفخار، ونقوش بارزة أو غائرة في شواهد القبور، وكتوابيت، وقوارير برونزية رائعة (Situlae)، وزخارف معمارية فخارية أو حلى من الذهب والفضة. وقد نشط عندهم الانتاج الفني نشاطاً عظيماً نتيجة للاتصال بالاغريقي في القرن السادس ق.م. وقد أصبح الفن الاغريقي منذ ذلك الحين مصدر إلهام مستمر للفنانين الاتروسكيين. ويبدو أن بعض الفنانين الاغريقي استقروا باتروريا، وأنشأوا مدارس فنية هناك. لكن الفنانين الاتروسكيين لم يقلدوا الأصول أو النماذج الاغريقية تقليداً أعمى. لقد اقتبسوا من الفن الاغريقي الأشكال والأفكار والأساليب التطبيقية، لكنهم لم يتخلوا عن مفاهيم الفن الأساسية عندهم وبذلك نجحوا في ابداع فن قومي خاص بهم. ومع أن الفن الاتروسي يفتقر إلى كثير من خصائص الفن الاغريقي كالمثالية والجمال والتناسق والتحفظ، إلا أنه يتميز بالواقعية والقوة والحيوية، وصدق التعبير عن نظرية الاتروسكيين إلى الحياة الدنيا والآخرة. ولعل أشهر آثار فن النحت الاتروسي هي مجموعة التماثيل الزخرفية الصغيرة من الطين النضيج (Sigilla) والمسماة بمجموعة «التنافس على الآلة المقدسة». وقد اكتشفت في مدينة فيي (Veii) وترجع إلى أواخر القرن السادس ق.م. ومع أن هذه المجموعة تكشف عن التأثير الاغريقي في اختيار الموضوع وطريقة معالجته، إلا أن التمثال الرئيسي فيها، وهو «تمثال للإله أبواللون»، يتميز بخصائص اتروسكسية واضحة.

وليس من المستبعد أن تكون بعض هذه الخصائص وليدة تقاليد فنية كانت سائدة في المنطقة قبل مجيء الأتروسكيين. ومن أشهر آثارهم الفنية الأخرى «خيمايرا أبروزو» و«ذئب اللاتيران» و «المحاربون الثلاثة» (في متحف نيويورك) والمرأة «المضطجعة» (في الدنمرك) و «خطيب تراسيمينوس».

الدين:

وكان للدين دور بارز في حياة الأتروسكيين الذين كانوا يعبدون عدة آلهة، ويؤمنون بأرواح قوية (غالباً شريرة) تهيمن على الحياة الأخرى. وفي سعيهم إلى التعرف على مشيئة الآلهة وإلى درء الشرور التي قد تصيبهم، فقد ابتدعوا طريقة بل نظاماً محكماً للتنبؤ والرجم بالغيب عن طريق فحص أكباد الأضاحي (أي الحيوانات التي تنحر كقربانين) وتأويل معنى مضات البرق، وغيره من نذر الشر أو بشائر الخير. وهو ما يسمى بالعرفة (Divinatio). وربما تنهض العرفة عن طريق فحص كبد الذبيحة دليلاً على ارتباط الأتروسكيين بشعوب غرب آسيا. ولم يلبث الأتروسكيون أن أدمجوها في زمرة آلهتهم آلهة إيطالية وآلهة أغريقية، واقتبسوها مع الأخيرة طائفة كبيرة من الأساطير الاغريقية. وكان من بين الآلهة الكبار ثالوث له في قلوبهم منزلة خاصة ويتألف من تينيا (Tinia)⁽⁸⁾، وجونو (Juno)⁽⁹⁾ ومنيرفا (Minerva) ⁽¹⁰⁾. وكانت الإلهتان الأخيرتان تعبدان أيضاً في روما. وما كان الأتروسكيون يحرصون حرصاً شديداً على تكرييم موتاهم وتحقيق الخلود لهم في الحياة الأخرى، فقد ساد بينهم الاعتقاد بضرورة التضحية بأرواح بعض الأحياء وتقديمهم كقربانين للآلهة. ولعل ذلك يفسر سبب إقامة «مصارعات المجالدين» في احتفالات دفن الموق، وربما يفسر أيضاً عادة ذبح أسرى الحرب عند الأتروسكيين.

وأما عن اللغة الاتروسكية فما تزال لغزاً عسيراً الحل. ومعلوماتنا الطفيفة عنها مستمدّة من حوالي 9000 نقش معظمها اهداءات رثائية (مرات) مقتضية مدونة على شواهد القبور. وهي مكتوبة بأبجدية اقتبسها الاتروسكيون من الأبجدية الاغريقية التي كانت مستعملة في الغرب أي في مدينة كومايمي التي اتصلوا بها بعد استقرارهم في إيطاليا، أو لعلهم اقتبسوها - على نحو ما يرى الآن بعض الباحثين - من أغريق شرق البحر المتوسط في تاريخ سابق على هجرتهم إلى إيطاليا. وقد ظلت اللغة الاتروسكية مستعملة كلغة تخاطب في بعض جهات إيطاليا حتى القرن الثاني الميلادي. ولا بد أن الامبراطور الروماني كلوديوس (41-54م) قد توافت لديه مصادر كثيرة مدونة بهذه اللغة عندما ألف مجلداً من عشرين جزءاً عن التاريخ والحضارة الاتروسكية، وهو مجلد اندر وله يصلنا منه شيء. وعلى الرغم من أننا نعرف الآن شيئاً عن نطق حروف الهجاء الاتروسكية، وتوصلنا إلى فهم معنى عدد كبير من الألفاظ، ولدينا فكرة عن قواعدها النحوية، فقد أخفقت كل الجهود التي بذلت حتى الآن لترجمة نصوص هذه اللغة. ومع هذا فثمة قرائن كثيرة تشير إلى أن اللغة الاتروسكية تمت بصلة قرابة للغات غرب آسيا الصغرى السابقة على اللغات الهندية - الأوروبية. وباستثناء سكان المستعمرات الاغريقية وسكان المنطقة التي تغلغل فيها نفوذهم الثقافي، فإن جميع شعوب إيطاليا قد اقتبست نظام الكتابة من الاتروسكيين بطريق مباشر أو غير مباشر. والانطباع العام الذي نخرج به من هذه الدراسة هو أن الاتروسكيين كانوا شعباً ثرياً، محباً للترف، لكنهم لم يكونوا - كما يصورهم بعض الكتاب الاغريق - شعباً منغساً في الملذات والشهوات.

وقد تبأّت المرأة في المجتمع الأتروسكي مكانة مرموقة. كانت النساء الاتروسكيات يتمتعن بقدر كبير من الحرية في الحياة الاجتماعية. غالباً ما كان الأبناء ينسبون إلى الأمهات لا إلى الآباء.

كان الأتروسكيون شعباً ملحاً يقدر انجازات غيره من الشعوب ويعرف قيمتها ويبادر إلى محاكاتها أو الاقتباس منها. لكنهم أنفسهم لم يوهبوا ملكة الأصالة كاملة. وتتسم طباعهم بالقسوة كما يتضح من ديانتهم وعلى الأخص في طقوسهم الجنائزية الخاصة بتكرير الموتى. وكانوا شعباً جريئاً جم الحيوية كما تشهد بذلك فتوحاتهم لكنهم مع هذا كانوا يفتقرن إلى روح الطاعة والنظام، والتعاون، والمقدرة على إنشاء كيان سياسي مستقر.

لقد كان الأتروسكيون بوجه عام عاماً فعالاً في تقدم الحضارة في الفترة المبكرة من تاريخ إيطاليا. وقد أثروا في كل الشعوب الإيطالية التي اتصلوا بها اتصالاً وثيقاً وعلى الأخص شعوب وسط إيطاليا وشمالها. وكان هذا التأثير عميقاً في مجالات: تخطيط المدن، والمعمار، والفن، وال الحرب، والنظام السياسي، والدين.

الاغريق:

نشط الاغريق في تأسيس مستعمرات خارج بلادهم خلال قرنين يتدان من حوالي منتصف الثامن إلى منتصف السادس، وتسمى هذه الفترة (550 - 750) بعصر الاستعمار الاغريقي لأنّه شمل معظم سواحل البحر المتوسط. وقد أنشأت دويلات المدن الافريقية المختلفة عدداً كبيراً من المستعمرات التي ازدهرت ثم استقلت عن أمهاطها في الوطن الأصلي. وكان من بين المناطق التي

امتلأت بهذه المستعمرات منطقة جنوب وجنوب غرب إيطاليا وصقلية. فقد أسس الأغريق مستعمرات كثيرة على سواحل صقلية الشرقية والجنوبية وعلى امتداد ساحل إيطاليا الجنوبي والجنوبي الغربي من تارنتوم (وهي أحدى مستعمراتهم) إلى خليج نابولي (وهي أيضاً مستعمرة أغريقية). ثم وطدوا أقدامهم عند مصب نهر الرون (مرسيليا) وفي ساحل الريفيرا (موناكو). لكن مقاومة القرطاجيين لهم حالت دون قيام أي مستعمرات تذكر سواء في غرب صقلية أو في إسبانيا⁽¹¹⁾. كما حالت مقاومة الاتروسكيين دون إنشائهم أي مستعمرات عبر الساحل الإيطالي شمالي نهر التiber. وأدى تحالف القرطاجيين والاتروسكيين إلى ابعاد الأغريق عن جزيرتي سردينيا وكورسيكا.

وفي القرن الخامس كانت المدن الأغريقية في صقلية وجنوب إيطاليا وجنوبها الغربي قد بلغت ذروة قوتها ورخائها. ففي صقلية لم يلتزم الأغريق بالساحل (كعادتهم) بل توغلوا في قلب الجزيرة حيث أخضعوا لسيطرتهم الأهالي الوطنيين. وقد تصدى لهم القرطاجيون ووقفوا لهم بالمرصاد. لكن انتصار جيلون Gelon⁽¹²⁾، طاغية جيلا ثم سراقوصة (491 - 478)، الذي كان أول من أنشأ أقوى دولة أغريقية في الغرب، على القرطاجيين في معركة هيميرا Himera الشهيرة (قرب ساحل صقلية الشمالي) عام 480 جعل من أغريق صقلية سادة على الجزء الأكبر من صقلية، وجعلهم أيضاً في مأمن من خطر الغزو القرطاجي زهاء سبعين عاماً⁽¹³⁾. ولم يلبث أخوه وخليفته هيرون الأول، ملك سراقوصة - الذي مر بنا ذكره - أن أنزل بالأسطول الاتروسكي هزيمة ساحقة في معركة كبرى عند كوماي Cumae) في عام 474، جاعلاً بذلك المدن الأغريقية في جنوب إيطاليا آمنة من العدوان الاتروسكي. لكن يلاحظ - أن الأغريق لم يسيطروا سيطرة كاملة إلا على الطرف الأقصى من جنوب غرب شبه الجزيرة (وهو ما سموه بايطاليا) وكانت مستعمراتهم على السواحل، ولم يتغلبوا في داخل إيطاليا

سواء مقاومة الاتروسكيين أو القبائل الإيطالية المحلية.

وفي هذه المنطقة، جنوب إيطاليا وجنوبها الغربي، اتصل الرومان بمواطني المدن الاغريقية وأطلقوا عليهم اسم الاغريق (Graeci) نسبة إلى الجرایین (Graioi) وهم احدى قبائل بلاد اليونان التي أسهمت في تأسيس مستعمرة كوماًي (750 - 725 ق.م) لكن الاغريق كانوا يسمون أنفسهم بالهلينيين (Hellenes) الذين عرفتهم الشعوب الشرقية باسم اليونانيين (وهو تحريف للايونيين، اغريق أيونيا حيث اتصل بهم سكان المدن الفينيقية). وليس أدل على رسوخ قدم الاغريق في جنوب إيطاليا، ومدى تغلغل ثقافتهم في أرجائه من أن هذه المنطقة (جنوب وجنوب غرب إيطاليا) أطلق عليها اسم «هللاس الكبرى» أي «بلاد الاغريق الكبرى» (Magna Graecia).

غير أن الاغريق في هذه المنطقة لم تقم بينهم أي وحدة أو اتحاد سياسي بل أن ترابطهم كان أضعف من ترابط الاتروسكيين. كانت كل مستعمرة تعتبر نفسها دولة مدينة، مستقلة ذات سيادة، ولا تدين بأي ولاء سياسي للمدينة الأم (في الوطن الأصلي). هكذا انعكست على «بلاد الاغريق الكبرى» صورة بلاد الاغريق الأصلية بكل خلافاتها وانقساماتها وتمزقها السياسي. ولم تكن هذه المستعمرات الاغريقية تتخلّى عما بينها من حزارات وأحقاد، وتوحد قواتها إلا في ساعات الخطر المشترك الداهم. وأما القوى السياسية الكبرى كالتي أنشأها بعض طغاة سراقوسة باخضاع غيرها من المدن فكانت قوى موقوتة ببقاء هؤلاء الطغاة، ولم تثبت أن زالت سريعاً بعد زوالهم. كذلك كان من العوامل التي أضعفـت المدن الاغريقية بالمنطقة احتدام الصراع الأهلي والتطاحن الحزبي داخل أسوارها. وقد أدى ذلك التفكك إلى الحد من قدرة الاغريق على التوسيـع. ولسوف يهدـي في آخر الأمر لسقوط هذه المدن الاغريقية الواحدة تلو الأخرى في يـد «البرابرة الإيطاليـن»، أي في يـد الرومان.

وقد بدأ تدهور اغريق الغرب حتى قبل نهاية القرن الخامس. ففي إيطاليا تعرضت مدنهم لللاغارات المستمرة من جانب الشعوب السمنية (السابللية) الراحفة من جبال الابنين الوسطى. وسقطت كوماً في يد السمنيين عام 421. ومنذ ذلك الحين كانت المدن الاغريقية في صراع من أجل البقاء مع سكان لوكانيا وبروتيم - (وهم فرع من سلالة السمنيين). وفي صقلية عاد القرطاجيون من جديد إلى مهاجمة الاغريق في عام 408. ولا جدال في أن ديونيسيوس الأول، طاغية سراقوصة، الذي نوهنا به من قبل، استطاع أثناء عهده (406 - 367)، أن يوحد مدن صقلية وجنوب إيطاليا تحت لواء دولة أو امبراطورية استطاعت أن تصد هجمات العدو وتوقفه عند حده. لكن امبراطورية ديونيسيوس الأكبر لم تنشأ في الواقع إلا على حساب الاغريق إذ سلبت المدن الاغريقية حريتها وحطمت قوتها المعنوية. فما أن قضى نحبه حتى وجدت هذه المدن نفسها أضعف مما كانت، وأقل ترابطاً وأكثر انقساماً عن ذي قبل. ومضت فترة تخللتها حروب. لكن حوالي عام 339 كان القرطاجيون قد أحكموا قبضتهم تماماً على النصف الغربي من صقلية، وأما في جنوب إيطاليا فلم تستطع إلا قلة من المدن الاغريقية كتارنتوم (Tarentum) وتوريي (Thurii) وريجيوم (Rhegium) أن تحافظ على كيانها بصعوبة بالغة ضد عدوان الإيطاليين المتتصاعد. غير أن صراع هذه المدن الأخيرة من أجل البقاء، ثم سقوطها في يد الرومان، ينبغي إرجاء الحديث عنه إلى موضع آخر.

أثر الاغريق على الرومان:

كان مجئ الاغريق إلى الغرب هو الذي هيأ لإيطاليا الظهور على مسرح التاريخ وجعلها على اتصال بحضارة أرقى، وهي حضارة شرق البحر المتوسط. ومن الجغرافيين والمؤرخين الاغريق نستمد أول معلوماتنا عن الشعوب الإيطالية.

وكان هؤلاء الكتاب الأغريق أنفسهم هم الذين نسجوا الأساطير التي حسبت - مدة طويلة - لأنها تاريخ إيطاليا المبكر. وقد أعطى وجود المدن الأغريقية في إيطاليا دفعة قوية لتطورها الثقافي عن طريق الاتصال المباشر وغير المباشر (بواسطة الأتروسكين) ولقد لعبت كوماي وهي في أقصى شمال الجزء الجنوبي، وأقدم المستعمرات الأغريقية، دوراً بالغ الأهمية في نشر الثقافة اليونانية بالمنطقة. ولقيت نظم الأغريق السياسية والعسكرية المتقدمة، والفن والأدب والميثولوجيا الأغريقية، رواجاً سريعاً بين الشعوب الإيطالية، وكانت عاملًا عميقاً الأثر من عوامل تقدمهم السياسي والفكري. وكان هذا التأثير الأغريقي أظهر ما يكون في روما ذاتها. وقدر للسيطرة الثقافية التي فرضتها بلاد الأغريق على روما منذ وقت مبكر، أن تبقى حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية.

هوامش ومراجع الفصل الثالث

- 1 - ويعرف إقليم لاتيوم حالياً في الإيطالية باسم كمبانيا الرومانية *Campagna Romana* وهو غير إقليم كمبانيا القديمة *Campania* (الذي يقع إلى جنوب لاتيوم).
- 2 - عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (424 - 484).
- 3 - عاش في القرن الأول قبل الميلاد (60 - 70).
- 4 - تسمى «أدريَا» أو خطأً «هدريَا» (*hadria*)، والصحيح «أترِيا» (*Atria*). وتقع على بعد حوالي 13 ميلاً من الساحل بين مصب الأدريج ومصب البو.
- 5 - أريكيَا بلدة في لاتيوم تقع أسفل جبل ألبَا (*Alba*) على بعد 16 ميلاً جنوب شرق روما. وكانت قد أسهمت في طرد الملك الأترو斯基 تاركويينيوس من روما عام 510. وأصبحت بعد ذلك مركزاً «للعصبة اللاتينية». وقامت بدور بارز في معركة بحيرة رجيللوس *Regillus* حوالي عام 496 (حيث انتصرت روما على العصبة اللاتينية)، وفي «معاهدة كاسيوس» التالية (حوالي عام 493). ثم اشتراك أريكيَا في «الحرب اللاتينية» التي نشببت بسبب تمرد العصبة على روما. وقد حصلت المدينة بعد الحرب على حقوق المواطنة الرومانية، وأصبحت مدينة مستقلة

استقلالاً ذاتياً municipium على جانب من الرخاء، وأريكيما هي مسقط رأس أتيا Atia، والدة أكتافيانوس (أغسطس). وقد اشتهرت البلدة بمعبد其ا الفاخر، وهو معبد الربة ديانا Diana Nemorensis، المتأخر لغاية (Nemi). مقدسة) لا تزال آثارها باقية بالقرب من بحيرة نيمي.

6 - كان ديونيسيوس الأول كسلفه هيرون الأول محباً للثقافة اليونانية ودعا إلى قصره عدداً من الأدباء وال فلاسفه الغريق كان من بينهم أفلاطون. وقد دعا ابنه ديونيسيوس الثاني (الأصغر) هذا الفيلسوف أفلاطون إلى بلاطه مرتين (366)، ليستشيره في إقامة دولة مثالية على أسس فلسفية. لكن التجربة فشلت وانتهت بطرد أفلاطون من سراقوصه.

7 - كانت المصنوعات الذهبية من بلدة فيتولونيا Vetulonia تضارع أجود مصنوعات أيونيا نفسها.

8 - وهو الذي اعتبر مناظراً للإله يوبير أو جوبير Jupiter فيما بعد. وجوبير عند الرومان يقابل زيوس عند اليونان. 9 - جونو عند الرومان تناظرها هيرا عند اليونان.

10 - ميزفا الرومانية هي أثينة عند اليونان.

11 - لم يؤسس الاغريق في الساحل الشرقي لاسبانيا سوى مستعمرتين.

12 - بالتعاون مع ثيرون Theron، طاغية أكراجاس Acragas أو أجريجتون Agrigentum على الساحل الجنوبي من صقلية (488 - 472).

13 - وافق هجوم القرطاجيين على صقلية حينئذ هجوم الفرس على بلاد الاغريق وانتصار الآخرين في معركتي سلاميس البحرية وبلاتيا (479) على ملك الفرس خشيارشاي Xerxes.

الفصل الرابع

«الآلهة الرومانية»

مقدمة: الآلهة اليونانية:

كان اليونان على خلاف الرومان - شعب خصب الخيال. وقد ابتدعوا وفرة من الأساطير بأنواعها المختلفة: خرافات عن الكون والآلهة والعبادات الدينية (Myths) وقصص بطولية متواترة تمتزج فيها الحقيقة التاريخية بالخيال (Saga) وحكايات شعبية (Marchen). ولعل أعظم قصصهم البطولية المتواترة هي الألياذة التي تروي قصة «الحرب الطروادية»، وهي ملحمة شعرية (Epic) تجمع بين العناصر أو الأنواع الثلاثة من الأساطير سالف الذكر. ومع أن الاغريق أنشأوا - على نحو ما رأينا - مستعمرات كثيرة في جنوب إيطاليا منذ القرن الثامن قبل الميلاد، فإن الرومان لم يتصلوا بهم اتصالاً وثيقاً إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن. ذلك لأن روما نفسها - إن صح تاريخ تأسيسها المتواتر وهو 753 ق.م. - كانت لا تزال طفلاً عندما وضع الاغريق أقدامهم على الساحل الإيطالي. ولذلك لم يتعرف الرومان على الميثولوجيا (أي الأساطير) الاغريقية إلا منذ القرن الثالث ق.م. ولم يكن للرومان - على ما يبدو - أساطير من صنعهم أو كان لهم منها قدر ضيئل. كانت الآلهة والإلهات - في تصور الرومان - كائنات أهم ما تميز به هو أنها تملك قوة خارقة للطبيعة. وكانت هذه القوة الخارقة تعرف في لغتهم - وهي اللغة اللاتينية - بلفظ نومن (Numen). وكانت الآلهة تستخدم هذه القوة أو الروح في مساعدة المتعبدين لها بالابتهاج والصلوات وممارسة الشعائر الصحيحة.

فكانت كيريس (Ceres)، وهي ربة القمح - على سبيل المثال - تجعل الأرض تنبت الغلال عن طريق أدعية معينة وطقوس محددة. كذلك كان مارس (Mars) إله الحرب، له اختصاص آخر، إذ كان في وسعه أن يدراً عن المتعبدين له مختلف الشرور... وهكذا كان الحال مع بقية الآلهة. وأما عن أشخاص هذه الآلهة، وكيف كان شكلها، وهل كانت ذكوراً أم أناثاً، والأوصاف العديدة الأخرى التي خلعها الاغريق عليها، فهي أسئلة لم يشغل الرومان بالهم بمحاولة الاجابة عليها، لأنها كانت تحتاج إلى خيال خصب واسع، وهو ما لم يتصف به الرومان. واكتفوا بما سمعوه أو نقلوه عن اليونان من قصص وأساطير. لكنهم لم يتصوروا آلتهم تماماً كما تصورها اليونان. فالآلهتهم تملك تلك القوة الخارقة للطبيعة التي أشرنا إليها، ولكل منها وظائف محددة، ويكتنفها شيء من الغموض والابهام. لكنها لم تكن - كالآلهة أوليمبوس تنجذب أطفالاً أو تنغمس في علاقات غرامية مع إلهات وأدميات أو تعقد صداقات مع البشر، أو تفعل هذه الأشياء الغريبة التي نسبها خيال الاغريق إليها. غير أن إعجاب الرومان بثقافة الاغريق وقدرتهم على الابتكار، وخيالهم المشرق البهيج كان كبيراً بقدر ما كان احتقارهم كبيراً للاغريق الذين التقوا بهم وهزموهم في ميادين القتال. لذلك تقبلوا أساطير الاغريق وخرافاتهم بترحاب. ورافقهم نظرية الاغريق عن تجسيد الآلهة أي تصورها في شكل البشر، واقتبسوا كثيراً من أساطيرهم وآلتهم. وقد ساعد أيضاً على ذلك ما كان يسود الشعوب القديمة من اعتقاد أو افتراض بأنهم كانوا جمِيعاً يعبدون نفس الآلهة مع اختلاف فقط في أسمائها.

وعلى ذلك فقد شبه الرومان آلهة الاغريق بآلهتهم، إذ اعتبروا كرونوس، وهو إله اغريقي قديم انحدرت من صلبة الآلهة، اعتبروه مماثلاً تماماً لإلههم ساتورنوس (Saturnus) وهو إله غير معروف الأصل والاختصاص. لكن لعل وجه المقارنة يرجع إلى أن عيده المسمى ساتورناليا (Saturnalia) كان يشبه

عيد الإله اليوناني كرونوس المسمى «كرونيا» من بعض الوجوه إذ كان مثله يسوده الفرح والمرح وتزول فيه مؤقتاً ما بين السادة والعبيد من فوارق فيجلسون معاً ويأكلون سويا، وإن كان العيد اليوناني يوافق وقت الحصاد في الصيف (يوليو) بينما كان العيد الروماني ميعاده في الشتاء (ديسمبر). وكما تصور اليونان عصر كرونوس كعصر ذهبي كانت تسوده الفضيلة والبراءة والسعادة والخيرات الوفيرة التي تغنى حتى عن الكد والعمل، كذلك كان تصور الرومان لعصر ساتورنوس. وشبّهت زوجة الإله اليوناني المسمى ريا (Rhea) بزوجة الإله الروماني المسمى أوبس (Ops)، ربة الخصب والوفرة، ولو أن الربة الرومانية لوا (Lua) هي التي كانت تقرن غالباً بساتورنوس في العبادة.

وكان للإله اليوناني كرونوس وزوجته ريا - كما هو معروف - ذرية من بينها ستة أبناء: ثلاثة منهم ذكور وهم هاديس، وبوسيدون، وزيوس، وثلاث إناث هن هستيا، وديميتي، وهيرا.

وتزوج زيوس (وهو أصغر أخوه وفقاً لرواية هيسيود، وأكبرهم وفقاً لهوميروس) من أخته هيرا. ثم استوى على العرش بعد التخلص من أبيه. ولم ينجُب زيوس من هيرا سوى إله أوليمبي واحد هو أوييس. وأنجب من نساء منحدرات من صلب الجبابرة أربعة أبناء هم أثينا وأبوللون وأرتميس وهرمس.

وأما أفرودitiي فقد أنجبها من عشيقة أو زوجة سابقة على هيرا تدعى ديوني، وإن كان غير هوميروس ينسبونها إلى كرونوس نفسه أو لأورانوس، إله السماء.

هكذا أصبحت الأسرة الإلهية فوق أوليمبوس تتألف من زيوس وإخوته الخمسة وأبنائه الستة، وابن هيرا وحدها المسمى هيفايستوس، غير ان الاغريق درجوا على تقدير عددهم باثني عشر إلهًا وإلهة. وكانوا يتحدثون دائمًا عن الآلهة الأولمبية الاثني عشر. ويقيمون المعابد للآلهة الاثني عشر، ويقسمون

اليمين بالاثني عشر ومنذ القرن الرابع ق.م. أصبح كل واحد منهم يقترب من الأبراج السماوية الاثني عشر، بل إن أفلاطون اقترح أن يقرن كل واحد من هؤلاء الآلهة الاثني عشر بشهر من شهور السنة. وهذا الفرق في الحساب (بين 13، 12) يرجع إلى أن اليونان غالباً ما كانوا يسقطون من القائمة هاديس، إله العالم السفلي أو عالم الموتى، الذي كان إليها رهيباً بغضاً خفياً إذ لم يكن يعيش مع أسرته فوق جبل أوليمبوس بل كان يعيش محتجباً في مملكته بباطن الأرض. وفي بعض الأحيان كان يسقط اسم إله آخر من بين الثلاثة عشر، معبقاء العدد ثابتاً عند الاثني عشر. في الحق أن تحديد أسماء الاثني عشر إليها كان متروكاً لكل مدينة حسب أهوائها. ففي أثينا - مثلاً - كان اسم هستيا، منذ القرن الخامس ق.م. يسقط من القائمة ويوضع بدلاً منه اسم ديونيسوس (باخوس)، وهو إله النبيذ، الذي صعد نجمه فحل مكان هستيا كعضو في أسرة آلهة أوليمبوس. ولعلها تخلت له عن مكانها عن طيب خاطر لأنها كانت - كما يتبيّن من اسمها - ربة موقد البيت. ونادرًا ما كانت تغادر بيتها مع بقية الأسرة سواء لحضور الحفلات الكثيرة الصاخبة أو المشاركة في الموكب التي اعتاد زيوس أن يقودها عبر السماء.

جوبير:

ومضي الرومان في تشبيه آلهتهم بآلهة أوليمبوس اليونانية. فاعتبروا زيوس، وهو رب الآلهة والناس، وإله السماء والفضاء والظواهر الجوية من ضوء وسحب ورعد وبرق وصاعقة ومطر، اعتبروه بحق كفواً لكبير آلهتهم جوبير⁽¹⁾، الذي كان معبده الرئيسي فوق تل الكابيتول، أحد تلال روما السبعة. وهناك قام ثالوث الهي يتألف من جوبير وجونو ومينوفا. وفي الحق أن اسمه معناه في اللاتينية «رب السماء» لكن جوبير كان له ألقاب أخرى حيث أن الرومان قرنوه بالقمر عندما يكون بدرا، وبالحجر القديم، وكذلك

بالشجر. فكان منتصف كل شهر (يوم 13 أو 15) يعتبر مقدساً له وكان يعبد في هذا الوقت على الأخص. وكان من ألقابه الأخرى «جوبيتر العلي الأعظم» (Jupiter Optimus Maximus). وإلى معبده فوق الكابيتول اعتاد القادة الرومان أن يتوجهوا فور عودتهم منتصرين من الحملات العسكرية. وكانت الأعياد الكابيتولينية (Ludi Capitolini) التي يحتفل بها في يوم 15 أكتوبر من كل عام هي أقدم أعياده. لكن جوبيتر كانت له أعياد سنوية أخرى، وأعظمها هي:

أ - الألعاب الرومانية: (Ludi Romani)، وكانت تقام بين من 4 - 19 سبتمبر.
ب - ألعاب العامة (أي طبقة العامة): (Ludi Plehei)، وكانت تقام من 4 - 17 نوفمبر.
وكان يصاحب هذه الأعياد اقامة ولائم دينية رسمية تسمى بولائم جوبيتر (Epula Jovis)، التي أنشئت منذ عام 196 ق.م.

كانت هذه الأعياد أو المهرجانات الدينية تجري داخل روما، وأما في خارجها فكان أشهر عيد هو العيد اللاتيني (Feriae Latinae) الذي كان يقام له بوصفه إلها لللاتين (Jupiter Latiraris). وكان يحتفل به سنويًا عند جبل ألبًا (على بعد بضعة أميال من روما) في تاريخ غير محدد. وكان هذا العيد في الواقع عيداً قدیماً جداً، ولذلك كان اللبن لا النبیذ هو السائل الذي يصب عند تقديم القرابین. وكان يحضر الاحتفال بهذا العيد اللاتيني مندوبون من كل المدن اللاتينية ليطالبوا بنصيب مدنهم من لحم القرابین وللمشاركة في المراسم الدينية التي كانت تجري - كالعادة - بمنتهى الدقة.

وبواسع الدولة الرومانية اتسع اختصاص جوبيتر وشمل مجالى الأخلاق والسياسة فلم يعد يرتبط بالحرب فقط بل أيضاً بالمعاهدات وجميع أشكال القسم (حلف اليمين). ذلك أن جوبيتر كان بوصفه ربا للسماء، ربا للصاعقة. وقد اعتقد

الروماني أن الصاعقة تتجسد في أشكال مختلفة من الحجر القديم (النيوليسي). وكان هذا الحجر بمثابة تجسيد لجوبيتر نفسه (Jupiter Lapis) ولذلك كان يستعمل عند أداء القسم. ومن ثم نفهم لماذا كان جوبيتر هو الإله الذي يتولى عقاب من يحتشون باليمين أو ينقضون العهد أو ينتهكون المعاهدات. وهذا يفسر وجود تلك الهيئة الرسمية إلها مة من الكهنة المعروفيين باسم «فتاليسيس» (Fetiales) في روما منذ القدم. كانت هذه الهيئة المؤلفة من عشرين كاهنا هي التي تهيمن على العلاقات الدولية كالمعاهدات واعلان الحرب. إذ كانت روما ترسل اثنين من هؤلاء الكهنة ليحضران عقد المعاهدة ويستمعا إلى نصوصها بحضور كهنة الطرف الآخر. وعندئذ يدعوان بنزول اللعنة على روما إذا كانت هي البادئة في خرق المعاهدة، مؤكدين دعاءهما بنحر خنزير بواسطة حجرة من تلك الأحجار القديمة المقدسة (النيوليسيّة). وفي حالة وقوع اعتداء على روما من جانب دولة أخرى، كان أحد الكهنة الفتاليسي يجتاز الحدود (ما بين ممتلكات روما والدولة الأخرى)، معلنًا أولاً (ورأسه مغطى بدثار من الصوف) عن شخصيته أو الغرض من حضوره، داعيًا جوبيتر، بل مناديًا الحدود ذاتها لتسمعه، ومقسماً تعويضاً أو ترضية كافية خلال مدة أقصاها ثلاثة وثلاثين يوماً، أعلن الكاهن الروماني رسميًا إدانة الدولة المعتدية مشهداً كل الالهة على ذلك. ويقفل راجعاً إلى روما. ويطرح القنصلان (رئيساً الدولة) الأمر على السناتو (مجلس الشيوخ)، فإذا اقترب على ضرورة التعويض باعلان الحرب العادلة الحقة، عاد الكاهن مرة أخرى إلى الحدود، وأعلن رسميًا قيام الحرب لحضور ثلاثة رجال راشدين. ثم يرمي بحربة عبر الحدود أو بوتد خشبي ذي طرف مسنن ومقسى بالنار. وفي حالة الحرب مع دولة بعيدة عن ايطاليا، كان الكاهن يقذف بالحربة فوق قطعة من الأرض⁽²⁾ كانت تعتبر - بحيلة قانونية - بمثابة أرض معادية.

واعتبرت هيرا، زوجة زيوس الرسمية عند اليونان، صنوا للربة جونو زوجة جوبير، التي كانت - على الرغم من عدم ارتباطها به في الأصل - تشابه هيرا اليونانية في الاختصاص ولا سيما كربة للزواج المقدس، وراعية للنساء وكل ما يتصل بحياتها الجنسية وعلى الأخص الولادة، فكانت تساعدهن في حالات الوضع. ومن ثم فقد لقبت جونو بلقب «لوكيينا» Lucina أي «ربة النور» لأنها كانت تجعل الأطفال يرون نور الدنيا وبذلك تكون «جونو المنيرة» قد اكتسبت اختصاص ايليثوييا (Eileithyia)، ابنة هيرا والتي كانت عند اليونان بمثابة «الربة القابلة» التي تعين النساء عندما يجيئهن المخاض. ولعل ارتباط جونو بالولادة والنور هو ما جعل بعض القدماء والمحدثين يعتقدون بأنها كانت «ربة القمر» أو كان لها على الأقل صلة بالقمر. وكان من أهم أعيادها عيد ماتروناليا (Matronalia) الذي كان ميعاده أول مارس (آذار) من كل عام، وهو رأس السنة الرومانية (حتى عام 153 ق.م)⁽³⁾ وهو أيضاً يوافق ذكرى تأسيس معبدها كربة للنور. وعلى أي حال فإن أول يوم من كل شهر كان يعتبر مقدساً لجونو. وقد اكتسبت اختصاصاً أوسع وصارت إلهة كبرى للدولة، وعلى الأخص في مدينة لانوفيوم (باقليم لاتيوم) حيث كانت تعبد بلقب «سوسيبيتا» (Sospita) أي المنقذة أو المخلصة، وكانت ترسم مسلحة مرتدية جلد الماعز، لكنها كانت تلقب أيضاً في روما «بجونو الملكة» (Iuno Regina) بوصفها قرينة لجوبير ملك الآلهة، وعضوًا في الثالوث الالهي فوق الكابيتول (المؤلف من جوبير وجونو ومينفرا). وكان من أطرف أعيادها عيد «كابروتيناي» (Campus Caprotinae) أي «عيد شجرة التين»، الذي كان يحتفل به في ساحة مارس Martius) - خارج سور المدينة - في يوم 7 يوليو (تموز) من كل عام وفيه كانت تقوم معركة

صورية (عند شجرة التين القديمة) بين الخادمات اللائي كن يتقاذفن بالأحجار ويتنابذن بالفاظ بدئية ويأتين أفعالاً فاضحة. وكانت السيدات الحرائر يقدمن القرابين لجذونو بوصفها ربة التين (كابروتينا). ويبدو أن هذه كانت شعيرة دينية قديمة متصلة بالخصوصية (خصوصية الأرض والمرأة)، إذ كان من المعتقد أن عصارة التين لها مفعول اللبن (في الرضاعة) أو تساعد النساء على الحمل.

بلوتو ونبتونوس وفستا وكيريس:

وبينما كان زيوس إله السماء والفضاء والضوء، كان أخوه هاديس - على نحو ما ذكرنا - إله العالم السفلي المظلم الموحش حيث كانت تذهب أرواح الموتى. وكان اليونان يلقبونه أحياناً باسم بلوتون أي «الثري» أو «واهب الثروة» نظراً لأنه كان خازناً لما في باطن الأرض من خصب لواله ما أثير شجر أو أينع زهر أو انبثقت سنابل قمح. كما كان هاديس أيضاً زوجاً للفتاة «كوري»؟ ابنة ديميتير، ربة القمح نفسها، والتي لقيت بعد زواجهها من هاديس وتبؤتها معه عرش مملكة الموتى، باسم برسيفوني. هذا الإله المزدوج الاسم عند اليونان، اكتفى الرومان أحياناً باقتباس لقبه الثاني فسموه بلوتو (Pluto) بحذف النون تمثياً مع طبيعة لغتهم، أو ترجموه أحياناً أخرى إلى اللاتينية بكلمة ديس (Dis)، وهي صورة مدغمة لكلمة ديفيس Dives بمعنى «الثري». وأما بوسيدون، إله البحر عند اليونان، فقد اعتبره الرومان نظيراً للإله نبتونوس (Neptunus)، وهو إله للمياه العذبة غير خطير الشأن عندهم.

وكانت هستيا، أخت زيوس العذراء، ربة موقد البيت وناره المقدسة. وكان الموقد - الذي تلتف الأسرة حوله عادة - يرمز لتضامن الأسرة، وأما النار فترمز لاستمرار حياة الأسرة جيلاً بعد جيل أو حياة المدينة أو الدولة. هذه الربة التي لم تنسج حولها أساطير كثيرة، اعتبرها الرومان مماثلة تماماً أو هي نفسها

فستا (Vesta) التي كان لها في روما معبد تختار كاهناته من فتيات الأسر العريقة الالتي كن ينذرن أنفسهن لخدمة الربة، ويتبتلن من أجلها متعهדות بالحفظ على عذرتهن حتى يبلغن سنها معينة وإلا تعرضن لعقاب رهيب. ووُجد الرومان في ديمتير، ربة القمح اليونانية، صورة مطابقة لكيريس (Ceres)⁽⁴⁾. ربة القمح عندهم التي كان لها فوق تل الأفنتين معبد منذ القرن الخامس ق.م.

مارس: إله الحرب:

يعادل أries إله الحرب عند اليونان، بمارس (Mars) الروماني الذي كان في الواقع إلهًا أعظم من عديله الاغريقي، وأكثر مهاماً وأوسع نشاطاً، إذ كان يلي جوبير نفسه في المكانة. وقد سمي أحد الشهور (وهو مارس) باسمه وكان أول شهر في السنة الرومانية حتى عام 153 ق.م. كان الرومان شعراً مقاتلاً كثيراً الحروب، ومن ثم نفهم لماذا اكتسب مركزاً مرموقاً بين آلهة الرومان. ففي ثلاثة مناسبات في شهر مارس كانت جماعة الكهنة القديمة المسماة بالساليين (Salii) المختصة بعبادة ثلاثة من كبار آلهة الرومان وهم جوبير ومارس وكويرينوس⁽⁵⁾، تقوم برقصات عسكرية أي وهي حاملة السلاح، وتنشد تراتيل تقليدية لكل الآلهة ومارس بوجه خاص. وكان هذا الاحتفال يعتبر جزءاً من إجراءات الاستعداد للقيام بأي حملة عسكرية. وفي 15 أكتوبر كانت تقام مباراة في سباق العربات «بساحة مارس» (Campus Martius) الكائنة خارج سور روما. وجرت العادة على ذبح الحصان الأئمين في عربة الفريق الظافر في السباق وتقديمه قربانا⁽⁶⁾. وكان يتنازع على رأس الحصان سكان الطريق المقدس (Via Sacra) وسكان ضاحية سوبورا (Suburra). وفي يوم 19 أكتوبر كان يقام احتفال آخر تجري فيه طقوس تطهير أسلحة الجنود قبل ايداعها في المخازن أثناء الشتاء. وللمرة الثالثة من الشهر نفسه كانت جماعة الكهنة القديمة وهم الساليون

يقومون برقصات ملوحين فيها بتروس عتيقة تشبه في شكلها رقم ثمانية الأفرنجي (8) ويسميها الرومان أنكيليا *Ancilia*. وكان على أي قائد روماني قبل الخروج من حملة عسكرية أن يهز «حرباً مارس» المقدسة في قصر الكاهن الأعظم (*Regia*) قائلاً: مارس انتبه!. وكان للإله مارس كاهن كبير مختص بعبادته يسمى *Flamen Martialis* شأنه في ذلك شأن جوبير، كبير الآلهة، وكويرينوس، الإله القديم الذي نشأت عبادته منذ وقت مبكر فوق تل كويرينال، أحد تلال روما السبعة. وكان حيوانه المقدس هو «الذئب»، وطائره هو «ناقر الخشب». ليس بغرير إذن أن يعتبر الرومان مارس إله للحرب، و يجعلونه صنواؤ لأريس، إله الحرب اليوناني. لكن مما يستلفت النظر أن مارس كان له أيضاً اختصاص آخر بعيد عن الحرب، وهو الزراعة. فقد كانت لهذا الإله بعض أعياد في روما يستدل من مواعيدها وطقوسها على أنها كانت زراعية. وهناك ثلاثة آراء لتفسير اختصاص «مارس» بالزراعة: أحدها يقول أنه كان في الأصل إله للحرب، وبالتالي كان المتعبدون له يتوجهون إليه بالدعاء لكي يحرس حقولهم من الأعداء المنظوريين وغير المنظوريين. والرأي الثاني يقول أن مارس كان في الأصل إله من آلة باطن الأرض، أي كان له صلة بالملوكي، وبالتالي صار إله للحرب، ولو أنه كان في الأصل يرتبط بخصوصية تربة الأرض. وأما الرأي الثالث - وهو الأرجح - فيقول أن مارس كان إلهًا كبيراً ولا يوجد تميز واضح بين اختصاصاته لدى شعب كالروماني كان مشتبكاً في حروب مستمرة، ومشغلاً بالزراعة ويعتمد عليها في تحصيل قوته وصناعاته الأساسية.

فولكانوس ومييرفا:

وقوبيل هيفايسitos بن هيرا وحدها، القمر الأعلى، بالإله الروماني

فولكانوس (Vulcanus) الذي يبدو أنه بدأ حياته - كنظيره اليوناني، كإله لنار البراكين ثم للحدادة وعلى الأخص صناعة الأسلحة. وأما أثينية ابنة زيوس العذراء، التي قيل أنه ابتلع أنها وهي حامل فيها، ثم ابنتها هي من رأسه بعد فترة مدرجية بالدرع الشهير والحربة وصارخة صرخة الحرب المدوية، فكانت أثيرة إلى قلب أبيها، بل أحب أبنائه إليه، وتلية في الأهمية. وقد رأى فيها الرومان صورة طبق الأصل من مينوفا (Minerva) التي كانت - كأختها اليونانية - ربة للحرف المنزلي كالغزل والنسيج وصناعة الفخار. وغدت - كنظيرتها أيضاً (وبعد أن تهذبت طباع الرومان الريفية الخشنة) ربة للثقافة والفنون والعلم والحكمة، وان لم تفقد أي منهما روحها القتالية وصفاتها الحربية الأولى، إذ كانت أثينية قدّها ربة القلعة، وحامية القصر في العصر الميكيني، والذائدة عن حياض المدينة (أثينا). لكن مينوفا الرومانية لم تقترب دائماً - مثلما ارتبطت أثينية بالزيتون والشعبان والبومة، وهي تلك الكائنات النباتية والحيوانية التي كانت تنمو أو تعيش في جحور وشقوق صخرة الأكروبول⁽⁷⁾. لكن مينوفا هي وجوبيت وجونو كانوا يؤلفون «ثالوثا إلهيا»، يعبد فوق جبل الكابيتول، على نحو ما ذكرنا.

أبوللون وديانا ومركوريوس:

كان أبوللون إلهها قديماً يلي أثينية في الأهمية بين أرباب أوليمبوس. وإن كان في الأصل ربا للرعاية، فقد صار ربا للرمادية بالقوس والسم، وللشفاء، والموسيقى والشعر. ولا يدرى أحد كيف أصبح إلهه للنبوءة التي كان معبده في دلفي أشهر مراكزها. ففي هذا المعبد كانت كاهنته المسماة بيثيا (نسبة إلى بيثنو وهو اسم آخر لدلфи) تتقمصها روح أبوللون أو تخشاها فتروح في غيبة، وتتنبأ بالغيب بوعي أو إلهام منه. كما لا يدرى أحد كيف أصبح أبوللون مختصا بشعائر التطهير (من دنس جريمة قتل ذوي الأرحام)، ومن ثم حجة ثقة فيما يتصل

بالطقوس الدينية السليمة التي ينبغي للمدينة تأديتها لكي تتجنب عواقب وخيمة قد تنجم عن ندر شؤم أو ترفع نسمة سماوية حلت بها كطاعون أو أي وباء آخر. وكان أبوللون - فوق ذلك - رمزاً للفتوة الناضجة، والاعتدال. كان بالاجمال تجسيداً للمثل اليونانية الحقة، وأكثر الآلهة تمثيلاً للروح الهللينية الصميمة. هذا الإله اليوناني استعاره الرومان كما هو اسم واختصاصاً، لأنهم لم يجدوا عندهم إليها رومانيا أو إيطاليا مشابهاً لها. وعلى ذلك فقد أبقوا على اسمه حاذفين فقط الحرف الأخير مراعاة لطبيعة لغتهم: أبوللو (Apollo)، وأما أخته التوأم أرقميس، ربة الصيد العذراء، التي ولدت مع أخيها في جزيرة ديلوس، فقد جعلها الرومان صنوا لديانا (Diana) نظراً للتشابه بين اختصاص الربتين. وعو德尔 هرميس، رسول زيوس والآلهة الكبار، وحارس أرواح الموتى ومرشدتها إلى هاديس (العالم السفلي) ورب الطرق جميعاً وعلى الأخص مفارقها، وبالتالي رب التجار، عو德尔 بمركوريوس (Mercurius) ما لم يكن مركوريوس، رب التجارة الروماني، هو في الأصل هرميس نفسه مكتبساً لقباً لاتيناً، حيث أن لفظ مركيس Merces يؤدي في اللاتينية معنى «تجارة».

فينوس:

ولا يبقى سوى أفروديت التي ذكرت أنها كانت (وفقاً لرواية هوميروس) ابنة زيوس من ديوني، وهي عشيقة له أو زوجة سابقة على هيرا. لكن هناك رواية أخرى (عند هيسيود) تقول أنها انبثقت من زند البحر الذي اختلط به عضو تساقط من جسم أورانوس، إله السماء، عندما مزقه أبناءه أرباً للتخلص منه. حدث ذلك قرب كيشيرا (جنوب البلوبوينز) حيث خرجت أفروديت من البحر عارية ناضجة الأنوثة فاتنة. لكنها لم تلبث أن رحلت إلى قبرص حيث شيد لها في مدينة بافوس أقدم معبد في كل العالم اليوناني. ويؤيد أصحاب هذه الرواية

رأيهم قائلين بأن اسم افروديتي مشتق من الكلمة «أفروس» اليونانية بمعنى «زبد البحر». غير أن كلتا الروايتين غير صحيحة. والحقيقة التي لا يكاد يرقى إليها الشك هي أن افروديتي ليست إلا عشتار، ربة البابليين والأشوريين، والتي عرفت بعشترت لدى الكنعانيين. ويرد اسمها في التوراة بهذه الصيغة المفردة أو في صيغة الجمع «عشتروت». وعلى ذلك فان اسم افروديتي ما هو إلا تحريف يوناني للاسم السامي عشتروت⁽⁸⁾. وكانت عشتار أو عشتروت عند شعوب الشرق القديم هي ربة الخصب (خشب الأرض وخشب المرأة) وبالتالي ربة الحب، إذ كانت ترمز إلى الدورة الطبيعية في حياة النبات وخصوصية الأرض، وترمز إلى استمرار الحياة عن طريق التناслед. وكانت عشتروت الهة للحرب في الوقت نفسه. وتصور في الأدب والفن القديم متعطشة إلى الدماء ويسرها تذبح الرجال. وكانت ربة متقلبة للأهواء كثيرة العشاق الذين كانت تدنيهم منها ثم تقصيهم عنها فتعذبهم أو يلقون مصارعهم بسببها. وكان عشيقها الذي هامت به هو الإله السومري البابلي «تموز» الذي كان على ما يبدو فتى وسيما غض الاهاب. وتموز كلمة سومرية معناها «ابن المياه العذبة الحقة»، أي ابن الأرض التي أخصبتها المياه العذبة. وكان تموز من أشهر آلهة الخصب والنبات. وقد أطلق السومريون اسمه على أحد شهور السنة. وظل الاسم باقياً في التقويم الأكدي وبعدها عند العبريين والآراميين والعرب. فكان تموز هو الشهر الرابع من السنة التي كانت تبدأ عند هذه الشعوب بشهر نيسان (أبريل وقد عرف تموز عند الكنعانيين باسم «أدون» وهي الكلمة معناها «سيد» في الفينيقية واللو迦ريتية والعبرية. وكانت مدينة جبيل (بيبلوس) بوجه خاص تعبد بهذا الاسم «أدون». وحدث أن قتله خنزير بري فبكته عشتروت وبكته معها كل النساء وظللن يحتفلن بالبكاء عليه كل عام، إذ ساد الاعتقاد بأن «أدون» كان ينزل إلى أرض الموق في كل خريف، فيذبل النبات. ولهذا كان ي يكنى حتى يعود إلى سطح الأرض مع مطلع الربيع، فيزهر النبات من

جديد. وكان من بين ألقابه الغالبة عندهم لقب «حبيب عشرت» و «حبيب ملكة السموات». وكثيراً ما كان ينادي بـ«أودني» أي «يا سيدتي» و بـ«الراعي»، و «سيد البستان».

ولما كانت قبرص هي أقرب جزء في العالم اليوناني إلى الساحل الفينيقي، فقد اقتبس اليونان اسم عشتروت من الشرقيين وحرفوه فصار «افروديتى» التي اشتهرت عند اليونان أيضاً باسم «القبرصية». واقتسبوا كذلك اسم حبيبها «أدون» أو بالأحرى صيغة المندى «أدوني» وجعلوه أدونيس ليتمشى مع طبيعة لغتهم. ونشفع هذا بدليل آخر يؤيد ما نذهب إليه من أن افروديتى ما هي إلا عشتروت: فقد دأب الكتاب اليونان ك (هيرودوت وباؤسنياس) على الاشارة باستمرار إلى أصل افروديتى الشرقي. وثمة قرينة على تعاطفها مع الشرقيين وهي علاقتها الشهيرة بأنخيسيس الطروادى وانجابها منه البطل أيناس ووقفها إلى جانب طروادة والآسيويين في الحرب الطروادية ضد الأخيين الاغريق. وتظهر افروديتى في أساطير اليونان كالهة للخشب والنبات والحب والجمال، وهي عندهم تجسيد الغريزة الجنسية وقوة الحب القاهرة وهذه هي نفس خصائص عشتروت، الـهـةـ السـامـيـنـ. لكن افروديتى لا تظهر مثلها كربة للحرب إلا في القليل النادر. لقد اشتراكـتـ مـرـةـ وـاحـدـةـ فيـ القـتـالـ أـثـنـاءـ الـحـربـ الطـروـادـيـ وـجـرـحتـ فيـ يـدـهـاـ،ـ فـوـلتـ مـوـلـوـلـةـ صـارـخـةـ،ـ وـقـيـلـ لـهـاـ فيـ أـوـلـيـمـبـوسـ أـنـ الـحـربـ لـيـسـ وـظـيـفـتـهـاـ إـنـماـ وـظـيـفـتـهـاـ الـحـبـ وـحـدـهـ.ـ وـمـعـ هـذـاـ فـإـنـ الصـفـةـ الـحـرـيـةـ الـأـصـلـيـةـ لـمـ تـغـبـ عـنـ بـالـ الـأـغـرـيـقـ وـلـمـ يـغـفـلـوـهـاـ،ـ فـقـرـنـواـ أـفـرـوـدـيـتـيـ بـأـرـيـسـ إـلـهـ الـحـربـ الـذـيـ كـانـ يـتـعـطـشـ دـائـماـ إـلـىـ الـمـعـارـكـ وـيـتـهـجـ لـسـفـكـ الدـمـاءـ.ـ كـانـ اـفـرـوـدـيـتـيـ عـلـىـ نـقـيـضـ زـوـجـةـ أـبـيـهـاـ هـيـراـ.ـ وـهـيـ رـبـةـ الزـوـاجـ الـمـقـدـسـ.ـ الـهـةـ ضـحـوـكـاـ لـعـوبـاـ مـاجـنـةـ وـمـتـقـلـبـةـ كـاـخـتـهـاـ الـشـرـقـيـةـ عـشـتـرـوـتـ الـتـيـ يـعـيـرـهـاـ جـلـجـامـشـ عـنـدـمـاـ عـرـضـتـ عـلـيـهـ الزـوـاجـ مـنـهـاـ.ـ يـعـيـرـهـاـ بـقـصـصـ غـرـامـهـاـ الـكـثـيـرـةـ قـائـلاـ:ـ مـنـ عـشـاقـكـ أـحـبـتـ إـلـىـ الـأـبـدـ؟ـ وـمـنـ

عجب أن اليونان زوجوا أفروديتى من هيفايستوس، ابن هيرا وحدها، القمىء الأعرج، إله النار والحدادة. وكان من البديهي أن يزيدها هذا الزواج انحرافاً وعلى الأخص أنها ربة الحب والجمال وقد اتخذت لها عدة عشاق من آلهة خالدين وبشر فانيين. وكان العشيق الذي ارتبطت به أكثر من غيره هو أريس إله الحرب والدمار (وهو مارس عند الرومان). وفي الحق أن أفروديتى توصف بأنها زوجة لأريس في الأساطير المتأخرة. بل إنها عبدت كربة للحرب في اسبرطة وقبرص وكثيراً وغیرها من الأماكن⁽⁹⁾. وكل ذلك يشير إلى اصلها الشرقي حيث أن عشتروت - على نحو ما ذكرت - كانت، إلى جانب كونها ربة للحب، ربة للحرب في الوقت نفسه. ورب سائل يسأل عن سر الجمع بين هاتين الصفتين المتعارضتين. والحقيقة هي أن عشتروت في الأصل كانت تجمع بين صفتى الذكورة والأنوثة. كانت في الأصل نجم الصباح، تارة، ونجمة المساء، تارة أخرى. وإذا كانت قد عبدت كالهة انشى في الشمال، فقد عبدها عرب الجنوب (اليمن) كإله ذكر باسم عشرت (إله نجم الصباح) في الحق أنه كان يكتنفها غموض شديد. لكن لم يلبث أن أزيل هذا التناقض بين صفتى الذكورة والأنوثة بأن اتحدت في شخص عشتراط الهة الحب (جانب الأنوثة) والهة الحرب (جانب الذكورة). ومن الطريف أن هذا أيضاً لم يخف على الاغريق، ويتردد صداه في اسطورة علاقة أفروديتى بإله آخر وهو هرميس، رسول الالهة ومرشد أرواح الموتى إلى «العالم السفلي». كان هذا الإله يشتق اسمه من الكلمة يونانية معناها حجرة أو كومة من حجر. وكان يصور دائماً كتمثال نصفي، له رأساً إنسان منحوت في حجرة لها شكل عضو الذكورة. وفي الحق أن عضو الذكورة كان شعاراً مميزاً لهذا الإله الذي كان معيناً دائماً بالخصوصية. ولعل ذلك يفسر سبب ارتباطه أحياً بأفروديتى، ربة الخصوبة. وكان يربطه بالخصوصية عامل آخر وهو اختصاصه كمرشد لأرواح الموتى إلى العالم السفلي، لقد كان فريداً بين آلهة أوليمبوس في ارتباطه بباطن الأرض وما فوق

الأرض على السواء. واياً كان الأمر، فإن الأسطورة اليونانية تقول أن أفروديتي عاشرت هرميس وأنجبت منه مولودا يجمع بين صفتى الذكورة والأنوثة كما يتبيّن من اسمه هرمافروديتوس (Hermaphroditus) وهو مخلوق خنثى. ويرسم عادة في صورة هرميس له نهدان بارزان، أو في صورة افروديتي مقرونة بأعضاء الذكورة، وعندئذ قد يسمى «افروديتوس»، أي افروديتي الذكر.

وإذا لم تكن الأدلة السالفة مقنعة فإليك قرائن أخرى قاطعة بأن أفروديتي اليونانية هي صورة طبق الأصل من عشتروت السامية. لقد ورد في بعض الأساطير اليونانية - على نحو ما أشرت - أن أفروديتي كانت ابنة لأورانوس، إله السماء عند الاغريق. وكانت تلعب عندهم «بالمتساوية»⁽¹⁰⁾. كذلك كانت عشتروت - قبل أن تصبح ربة للأرض وخصوبتها - «كوكب الزهرة» عند السومريين والأكديين. وكانوا يسمونها أيضاً اينينا (Innina) أي «سيدة السماء» أو «ملكة السماء». وكانت تأتي بعد أبيها «سين» (إله القمر) الذي كان يلقب أيضاً باسم نانا أي «رجل السماء»، وبعد أخيها شمش (إله الشمس). Nanna

وكما قرن الساميون عشتروت بتموز أو «أدون»، قرن الاغريق أفروديتي بأدونيس وجعلوا من أدونيس ابنا لكيينيراس (Cinyras)، ملك قبرص الذي أنجبه من علاقة محمرة بابنته ميرا Myrraha (لبان المر) وهو اسم حرف فيما بعد فصار سميرنا Smyrna وهي «أزمير». وقد صرעה خنزير بري وهو يصطاد - مثلما صرع تموز وأدون - عند نهر يرجح أنه نهر ابراهيم بلبنان، أو قتله هيفايستوس، زوج افروديتي المخدوع أو أرييس، عشيقها الغيور. ومن ثم فقد أصبح هذا النهر يصطبغ سنوياً بلون أحمر كلون الدم القاني الذي سال من جسد الفتى الجميل. وكما بكته نساء الشرق بكنته نساء اليونان حتى يبعث حيّاً من جديد. وكانت له في بلاد اليونان أعياد سنوية تنوح فيها النساء ويندبنه متوجعات عليه. وكن يضربن صدورهن ويمزقن شعورهن، ويقطعن منها خصلاً يعلقونها في المعابد. بل ان

بعضهن وهن أنفسهن لأدونيس وأصبحن عاهرات في معابده، وعلى الأخص في كورنثة. وذلك ما يعرف بالدعارة المقدسة. وفي الحقيقة أن أفروديتي كانت راعية لهؤلاء النساء، ولقبت بربة العاهرات (Porneia) وفي الاسكندرية كان يقام في عهد البطالمة مهرجان فاخر يسمى «أدونيا» (Adoneia). أي عيد أدونيس. وفيه كانت المحتفلات يقمن بتزويج أفروديتي من أدونيس ثم يحملن صورته أو تمثيله إلى ساحل البحر وسط البكاء والعويل. وفي أثينا كانت النساء في احتفال أدونيس - إلى جانب النحيب - يقمن بساتين مؤقتة فوق أسطح المنازل، وفي جزيرة ديلوس كان هناك احتفال يقام لأدونيس منذ القدم. غير أن الاحتفال بأدونيس كان يختلف في المضمون والتاريخ من مكان آخر. لكنه كان يقام بأثينا أثناء القرن الخامس ق.م في شهر يوافق نيسان (أبريل) أي في الشهر الرابع من السنة، وهو نفس ميعاد الاحتفال به عند الأكديين والعربين الذين كان تموز عندهم هو الشهر الرابع من السنة⁽¹¹⁾. وأما في عصر الامبراطورية فكان عيد أدونيس يقام دائمًا في 19 تموز. ولم تطلق المدن اليونانية اسمه على أي شهر. لكن كثيراً من هذه المدن كانت تسمى أحد الشهور باسم أفروديتي.

ومنذ أن فتك الخنزير البري بأدونيس فلقي مصرعه، وبكته أفروديتي بكاء مرا، كان المتعبدون لها وهي مقرونة به، يتقدمون بقرابين من الخنازير. ولقبت أفروديتي بألقاب متصلة به كذات الأزهار (Antheia)، وذات البساتين (en kepois).

وأخيراً فكما تركزت في عشرت الإلهات جميعاً، أصبحت أفروديتي، التي انتشرت عبادتها وعلى الأخص في قبرص (باfos وأماثوس) وكثيراً وكورنث، أصبحت في بعض المدن كأثينة وطيبة وميجالوبوليس، ربة الشعب كلها؟ (Pandemos) وكان ذلك يمثل اسمى فكرة سياسية نشأت حول عبادتها.

وقد عرفت أفروديتي عند الرومان باسم فينيوس (Venus) في العصر الكلاسيكي. لكن فينيوس التي يؤدي اسمها في اللاتينية معنى الجمال البهيج،

لم تكن في أول الأمر سوى ربة ايطالية صغيرة مغمورة الشأن، إذ كانت عبادتها محصورة في طائفة من زارعي البساتين والحدائق. كانت تشبه إحدى هؤلاء الربات المسميات عند الاغريق خاريتييس (Charites) وكن يرمزن للجمال الحسي أو المعنوي الذي يثير النشوة في الجسم أو الابتهاج في النفس، وكن يرتبطن دائمًا بأفروديتي ويشاهدن في صحبتها. كانت فينيوس في نشأتها هي تلك القوة الخارقة أو الروح الخفية (numen) التي تجعل البساتين والحدائق تبدو أكثر رونقاً ونضارة وثمارا. وليس هناك دليل على أنها كانت ربة خصب أو تناسل، لكن لم يلبث الرومان أن شبهوها بأفروديتي اليونانية، وجعلوها صنوا لها في العصر الكلاسيكي. واقتبست فينيوس من أفروديتي معظم خصائصها كربة للخصب والحب والجمال، بل وربة للحظ أيضًا، وقرنوها بمارس، إله الحرب مثلما كانت افروديتي مقتنة بأرييس. وقد زاد من أهمية فينيوس أنها أصبحت - مثل افروديتي - أمًا للينياس، البطل الطرواد الذي أسس هو أو واحد من ذريته روما نفسها، واعتبرت الأم التي انحدرت منها سلالة الرومان، ومن ثم لقبت بفينوس الأم (Venus Genetrix). وكانت عشيرة يوليوس قيصر على الأخص تعتبر نفسها سليلة الربة فينيوس⁽¹²⁾. ولذلك ازدهرت عبادتها في عصر الامبراطورية التي أسسها أكتافيانوس أغسطس الذي ينتمي بالتبني إلى عشيرة يوليوس (Gens Iulia).

ديونيسيوس زاجريوس:

ولقد مر بنا ذكر ديميتير، ربة القمح، التي شبهت عند الرومان بالربة كيريس. وكان ديميتير ابنة وحيدة من زيوس تدعى «كورى»⁽¹³⁾ (Koré) أي «الفتاة العذراء أو البنت البكر». لكنها اشتهرت باسم برسيفوني بعد أن اختطفها عمها هاديس أو بلوتون (وخلالها في الوقت ذاته)، وتزوجها الذي يؤنس بها وحشته في «العالم السفلي» المقبض وقد حزنت عليها أنها حزناً شديداً، وبكتها

بكاءً مراً حتى حزنت الأرض معها وأجدبت ولم تعد تنبت القمح، وهو غذاء لا غناء عنه للبشر. وأخيراً وبعد أن عرفت الأم مكان ابنتها وتم الاتفاق على أن تعيش برسيفوني مع زوجها هاديس في العالم السفلي كملكة على عالم الموت⁽¹⁴⁾، وتعيش أربعة شهور أخرى مع أمها ديميتير على سطح الأرض، وهي توافق شهور نضج القمح وحصاده (من يونيو - سبتمبر). وأما بقية السنة فقد ترك برسيفوني أن تتصرف فيه فيما تشاء وتقضيه على نحو ما تهوى. هذه الربة حرف الرومان اسمها فأصبح ينطق عندهم بروسرينا (Proserpina). لكن برسيفوني (أو بروسرينا) كان لها اسم ثان عند الرومان. ولكي نفهم ذلك لا بد من أن نتحدث أولاً عن إله آخر وهو ديونيسوس، إله النبيذ، الشهير أيضاً باسم باخوس.

ظلت برسيفوني فتاة عذراء (كأثينة وأرتميس). لكنها لم تعد كذلك بعد اختطافها وزواجها من عمها هاديس، إله الموت. ولم تنج برسيفوني منه أبداً، وظل الزواج عقيماً كالموت ذاته إلى أن عاشرها أبوها نفسها زيوس مثلما عاشر من قبل أمها ديميتير. لقد أتتها بوصفه زيوس الباطني «أو» تحت الأرض، متقمصاً شكل الثعبان⁽¹⁵⁾. وبهذه الصفة كان زيوس يلقب بلقب زاجريوس (Zagreus)، وهي كلمة معناها «الصياد العظيم». وقيل بأن ذلك حدث في أحد الكهوف بجزيرة صقلية، بل قيل إنه حدث برضى الأم نفسها. ومخض عن المعاشرة طفل له قرنان يدعى «ديونيسوس تحت الأرض»، ولو أنه اكتسب أيضاً لقب أبيه فأصبح يسمى ديونيسوس - زاجريوس (Dionysus Zagreus).

وكان من الطبيعي أن تحقد هيرا، زوجة زيوس، على الطفل كحقدها دائماً على الأطفال الذين كان زوجها ينجبهم من إلها ت أو نساء آخريات. وتواتأت مع «التيتانيس» وهم الجبابرة أعداء الآلهة، على التخلص منه. وبالفعل استطاع هؤلاء الجبابرة الأشرار اختطاف ديونيسوس ومزقوه إربا ثم أكلوه فيما عدا القلب الذي استطاعت أثينة أن تستخلصه منهم وتحمله إلى زيزس الذي طواه في جوفه.

ذلك هو ديونيسوس «الأول» أو «ديونيسيوس زاجريوس».

ومضت الأيام ووقع زيوس في حب امرأة من البشر اسمها «سيمييلي» أو زيميلي، وهو اسم معناه باطن الأرض ويرمز للخصب والنبات. وكانت سيمييلي ابنة كادموس، ملك طيبة، ابن أجينور، ملك مدينة صور. وقد أتتها زيوس متنكراً في صورة بشر، وجامعها أو أعطاها شراباً من دم قلب الطفل ديونيسوس فحملت منه. وأثار ذلك غيرة هيرا فدبرت مكيدة انتهت بمصرع سيمييلي. لكن زيوس استطاع أن ينتزع الجنين من رحمها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. وأخفى الجنين في فحده. وعندما آن الأوان ولد ديونيسوس «الجديد» من فخذ أبيه. وعهد بالطفل إلى ثلات حاضنات أو أربع لكافالته والعناية به. حدث ذلك كله في مكان بوسط جزيرة صقلية غير بعيد عن المكان الذي كانت برسيفوني قد اختطفت فيه.

وأما عن التيتانيين (Titans) أو الجبابرة فقد أحرقهم زيوس بصاعقة. ومن رمادهم خلق الإنسان، على نحو ما يقول «المذهب الأولي»، وهو مذهب ديني فلسطي ينسب إلى أورفيوس، ويحاول تفسير نشأة الكون وخلق البشر. وخلاصة هذا المذهب في خلق البشر أنه لما كان الإنسان قد نشأ من رماد الجبابرة الأشرار الذين التهموا الطفل الإلهي، فإن الإنسان يولد له طبيعتان: إحداهما تيتانية (أي شيطانية إن جاز التعبير) والأخرى الإلهية، أي يجمع بين صفتين الشر والخير. ويضيف هذا المذهب بأن الجسم (Soma) هو قبر (Sema) الروح، لأن الروح تعاقب على ذنوب الإنسان بأن تظل حبيسة في سجن البدن. ومن الواضح أن الروح تمثل جانب الخير الإلهي في الإنسان بينما يمثل الجسم جانب الشر التيتاني. ومن ثم فقد جاء في أولى تعاليم المذهب الأولي تحريم قتل الحيوان أو أكل لحمه. ولعل التحريم يرجع إلى نجاسة الجسد أو إلى جريمة التيتانيين أو إلى الاعتقاد بتناقض الأرواح. والأخير هو الرأي الأرجح. وقد اعتنق الأوليون فكرة العقاب في العالم السفلي أي العذاب في الآخرة. ومع أن الفكرة ليست فكرتهم وحدهم،

إلا أنها اكتسبت في مذهبهم أهمية خاصة: إذ يدعو المذهب الأورفي إلى التطهر من الاثم في الحياة الدنيا على أمل الخلاص من عقاب الآخرة عن طريق الاشتراك في الطقوس الدينية السرية، والاستقامة والهدي. ومن لا يفعل ذلك فإن مصيره التردي في أوحال العالم السفلي. ومن يهتدى عن طريق الطقوس السرية سوف يعيش في الآخرة في هناء ونعم. وكان أفلاطون أحد القلائل الذين فهموا هذا المذهب كما يتضح من قوله أن الروح تعاقب ببقائها سجينه في البدن. وقد ظهر في بلاد الاغريق، حتى قيل العصر الكلاسيكي، اتجاه يتعارض وأفكار الاغريق الدينية، ومؤداته احتقار الحياة الدنيا. وكان هذا الاتجاه الغيبي أو «التصوف» يتفق مع اتجاه الأورفيين الذين اتخذوا من ديونيسيوس زاجريوس إلههم الرئيسي، ومحوراً لمذهبهم الديني الفلسفي.

ديونيسيوس باكخوس:

ومن رماد الجبابرة أيضاً نبتت ثمار الفواكه وعلى الأخص الكروم، وهي غذاء أفضل من لحم الحيوان النيء أو لحم البشر. وتمثل الكروم في شخص ديونيسيوس. وكان ديونيسيوس - في واقع الأمر - إليها فريجي الأصل (أي من فريجيا بآسيا الصغرى). وكان في الأصل إليها للنبات ولا سيما الحبوب ثم أصبح بعد ذلك (ربما في ليديا) إليها للفواكه وعلى الأخص العنب، وبالتالي إليها للنبيذ وبهذه الصفة اكتسب لقباً آخر بجانب زاجريوس، وهو لقب باكخوس (Bacchus). وكلمة باكخوس ليدية الأصل معناها براعم الكرم المفتحة أو محاليل العنب. وهذا اللقب مشابه جداً أو هو تحريف للقب باكخوس (Bacchus) الذي كان يطلق على ديونيسيوس وهو طفل - بعد ولادته الثانية - أثناء تلك الطقوس السرية التي كانت تمارس في عبادة ديميت، رب القمح، ببلدة اليوسيس (احدى ضواحي أثينا).

ففي هذه البلدة كانت ديميتير قد سمعت أول نبأ هداها إلى مكان اختفاء ابنتها كورى (برسيفوني). ومن ثم فقد باركت الربة هذا المكان، وعلمت أهله الزراعة⁽¹⁶⁾. ونشأت لها فيه عبادة ذات طقوس سرية (Mysteria)، تعتبر أقدم العادات من هذا النوع، وأوسعها انتشاراً، وأطولها بقاء. وكان الاحتفال بها يجري في وقت بذر القمح أي في شهر سبتمبر/أكتوبر من كل عام. ومع أن عبادة ديميتير كانت خاصة أي فردية وليس عمومية أو رسمية (لأنها كانت تعبير عن تحرر الفرد من الأسرة والدولة) فإن دولة مدينة أثينا قد تولت - بعد اندماج اليوسippis في الدولة قبيل عام 600 ق.م - الالشراف على طقوس هذه العبادة السرية الاليوسية (Eleusinia).

كان الاحتفال يبدأ بموكب يخرج من أثينا ويسير حتى اليوسippis التي تبعد عنها حوالي 12 ميلاً. وكان المشتركون في الموكب ممن سمح لهم بالدخول في هذه العبادة، يغتسلون في البحر، ويحملون معهم تلك الأدوات المقدسة أو المقدسات التي سبق أن أحضرت من اليوسippis. وفي اليوسippis كانت تقام الطقوس في المساء بقاعة الأسرار الدينية (Telesterion) المضاءة بعدد كبير من المشاعل. ولا يعلم أحد علم اليقين ما الذي كان يجري داخل قاعة الأسرار الدينية. ذلك أنه كان محظوراً على المشتركون أن يبوحوا بما يشهدونه من أسرار، وإلا حلت عليهم اللعنة. وهناك آراء كثيرة وجيهة حول هذا الموضوع. لكنها لا تخرج عن كونها مجرد افتراضات. ولا تزال الشعائر الرئيسية في هذه العبادة غير معروفة. لكن بعض الكتاب القدماء يحدثوننا عن تراتيل كانت تنشد، وعن أشياء مقدسة كان يظهرها الكهنة للمشترين في العبادة، وعن طقوس تؤدى. وكانت الطقوس على مراحل أو مراتب ثلاث: التعريف بأصول العبادة الأولية

ومراسمها كالادعية والاغتسال والصوم التي ترمي إلى طهارة الجسم، ثم مرحلة التعرف على الأسرار الدينية، وأخيراً مرحلة أو مرتبة رؤية المعبود نفسه والاتحاد به، وهي أسمى المراتب وأشدها إذ تتطلب من المتعبدين اجتياز امتحان عسير، ومعاناة شديدة. ولعل المرتبة الثالثة لم يكن المشترك يبلغها إلا في العام التالي. ومن المرجح أن المقبولين في هذه العبادة كانوا يشهدون تمثيلية دينية تحكي عن قصة حزن ديميتير ومعاناتها بسبب اختطاف ابنتها «كورى» ثم فرحتها بالعثور عليها أو عن ديونيسوس زاجريوس الذي عانى هو الآخر معاناة شديدة عندما مزقه الجبابرة إربا ثم ولد ثانية من فخذ أبيه أي بعث حيا من جديد.

ويلاحظ أن العادات ذات الطقوس السرية (Mysteria) وفي مقدمتها عبادة ديميتير في اليوسيس، تتصل بالآلهة الخصوبة، والدوربة الطبيعية للنبات الذي يذبل ويموت ثم يعود وينمو ويزدهر كل عام من جديد. وكذلك حال الإنسان. ذلك أن هذه العبادة - وغيرها (عبادة ديونيسوس) - ذات الطقوس السرية كانت تعد المشتركين فيها بحياة أخرى بعد الموت، وتمني المطلعين على أسرارها بالنعيم في الحياة الأخرى. ومعنى هذا أنها كانت تنادي بفكرة البعث، وهي فكرة كانت جديدة ودفعت كثيراً من الناس إلى الاقبال عليها ولا سيما أن العبادة اقترنت بعد ذلك بمبادئ أخلاقية مطهرية كالطهارة الروحية والاستقامة وصفاء النية. ولم تعد مقصورة على مراسم أو طقوس شكلية. لذلك ازداد إقبال الناس عليها من كل الطبقات وعلى الأخص الفقراء، منصرفين عن عبادة آلهة أوليمبوس التي كانت شكلية بحتة، جامدة باردة لا تثير في النفوس أي حماس ديني أو مشاعر عميقه. ووجد الناس في عبادة ديميتير ذات الطقوس السرية، فرصة للتعبير عن مشاعرهم الدينية، وأملاً في حياة أخرى بعد الموت قد تكون أفضل من الحياة الدنيا وما فيها من شقاء. وكان من عوامل تهافت الناس على هذه العبادة أنها كانت تهييء الفرصة للمتعبدين لكي يتحدون بالмعبود اتحاداً، ويصيروا جزءاً منه.

ومعنى هذا أنهم كانوا يصبحون خالدين مثله.

الثالثو^ث الالهي في اليوسيس: (ديميتيير وكوري وباكخوس)

(كيريس ولييرا وليبر)

وقد اشتربت مع ديميتير في هذه العبادة باليوسيس ابنتها كوري (برسيفوني).

وما كانت عبادة ديونيسوس أو باكخوس كإله للنبيذ تشبه عبادة ديميتير ذات الطقوس السرية في نقطة أساسية وهي فكرى البعث فلم يلبث أن أشرك هو الآخر مع ديميتير وابنته في عبادة اليوسيس.

ذلك أن ديونيسوس - على نحو ما ذكرنا - كان في الأصل إلهًا في فريجيا بآسيا الصغرى. ثم انتشرت عبادته ووصلت إلى طراقيا. ومنها وفدت إلى بلاد الاغريق. ولقيت عبادته هي الأخرى رواجاً كبيراً بين الناس وعلى الأخص بين النساء والأرقاء والمعدمين. إذ كانت عبادته باسم «باكخوس»، إله النبيذ، تقتربن بطقوس غريبة متطرفة جامحة عreibدة (Orgia)، وتصاحبها مواكب صاخبة تخرج متوجهة إلى قمم الجبال في الليل البهيم. وتتميز بالأشيد والرقص العنيف، والتبدل. وكان أغلب أتباع هذا الإله من النساء. فكانت تخمرهن النشوة، ويغلهن الشوق إليه، ويسرفن في شرب النبيذ، وهو هدية باكخوس إلى البشر، حتى يفقدن الوعي من الشراب والرقص ويقمن بأعمال غريبة خارقة، ثم يرحن في غيبة ويصرن كالمسموسات أو كالمجنونات (Maenades) إذ يتصرعن وكأن روح باكخوس قد تقمصتهن، وأنهن قد اتحدن به تماماً، وتلك كانت أسمى مراتب العبادة. وبذلك يتحقق لهن الخلود، ويتأكدن من البعث بعد الموت، والأمل في حياة أخرى أكثر هناء ونعيمًا من هذه الحياة الدنيا التي يعيشن فيها حبيسات الخدور، مهضومات الحقوق، خاضعات لوصاية الرجل الاغريقي

دون أن يتمتعن بما يتمتع من حرية وانطلاق.

والخلاصة أنه نشأ في عبادة اليوسيس السرية ثلاث الهي يتتألف من ديميتير وكوري وباكخوس. وقد انتشرت عبادتهم انتشاراً كبيراً في العصر الهليني وعصر الامبراطورية الرومانية.

هذا الثالوث الالهي، استعاره الرومان بأسماء أخرى هي: كيريس (= ديميتير) وليرا (= كوري)، ولير (= باكخوس). وكانت ليرا (Libera) هي ولير (Liber) إلهين قدمين لزراعة الكروم وصنع النبيذ عند الرومان.

لكن عبادة باكخوس وحده، انتقلت من جنوب إيطاليا بسرعة إلى الشمال وانتشرت في روما منذ القرن الثاني ق.م. وكسبت هذه العبادة اليونانية الأجنبية (Superstitio) أنصاراً كثيرين وعلى الأخص بين النساء والعبيد الرومان. ونشأت جمعيات سرية (externa) حول عبادته ومارست طقوسها الغريبة العربية. وانزعجت السلطات الرومانية ازعاجاً شديداً حتى أن السناتو (مجلس الشيوخ الروماني) إما حرصاً على التقاليد الدينية الرسمية، أو حماية للأخلاق من التبذل، ومنعاً للشغب والصخب، أو ربما ارتياها في أن يكون وراء هذه الجمعيات الدينية السرية أهداف سياسية فتشجع على الانقلابات أو الثورات، أصدر قراراً بحل جمعيات باكخوس في كل إيطاليا عام 186 ق.م (S.C. de Bachanalibus). وقد نص في هذا القرار الشهير على ضرورة الحصول على ترخيص من البريتور (الحاكم القضائي)، بل وموافقة السناتو، لممارسة طقوس هذه العبادة، وأن تمارس طقوسها علينا لا سراً، وأن لا يجتمع معاً في وقت واحد أكثر من خمسة أفراد (رجلين وثلاث نساء) عند تأدية هذه الطقوس.

فاونوس - سيلفانوس:

وكان عند الرومان إله اسمه فاونوس (Faunus). وهو في الحقيقة

ليس إلهًا بالمعنى الدقيق، بل هو جان أو روح أو عفريت كان يسكن المناطق غير المزروعة وغير المأهولة، ويحوم في الغابات والبراري وما إليها. وكان يشابه إلى حد كبير المعبود اليوناني بان (Pan). ولذلك كان الرومان يعتبرونه مناظرًا له. وكان فاونوس يلقب عند الرومان بلقب سيلفانوس (Silvanus) أي ساكن الغابات التي تقع وراء المزارع. ولذلك اعتبر مرادفًا للقب سيلينوس (Silenos)، وهو لقب كان يحمله «بان» اليوني في بعض الأحيان. وفي الحقيقة أن الجن الرومانية (Fauni) كانت تشبه أحياناً بالساتيري اليونانية (Satyri) التي كانت هي الأخرى أرواحاً للغاب ترمز للخصوبة، وقد تصورها اليونان كمخلوقات بشرية ولكنها شائهة الوجه قبيحة الصورة إذ أن بعضها كان في هيئة الخيل له أذنان كبيرة مدبيان وذيل حصان، وببعضها الآخر في هيئة الجديان متمردة الطبع شديدة الأذى جامحة الشهوة. وكانت تشاهد كثيراً في صحبة ديونيسيوس في الغابات مثلما كانت الحوريات (Mynphae) يشاهدن عادة في رفقة أرتميس (ديانا)، ربة الصبا، إلهة الهمة على وجهها في البراري والتلال.

هيراكليس (هركوليس): هرقل:

ولا يبقى بعد ذلك سوى هيراكليس الذي اعتدنا أن نسميه «هرقل». لم يكن هيراكليس عند اليونان إلهًا بل كان بطلاً، خلد بعد موته وصار يعبد أحياناً كبطل، وأحياناً أخرى كإله. والدليل على أنه بشر هو أن اسمه مشتق من اسم «هيرا» ولا يوجد إله يوناني له اسم مشتق من اسم إله آخر. وكان هيراكليس أكثر الأبطال شعبية وحظيت عبادته بانتشار أوسع مما حظيت به عبادة أي بطل اغريقي آخر. وقد نسبه الاغريق إلى زيوس الذي قيل أنه أنجبه من امرأة آدمية وهي «الكميني» زوجة ملك طيبة، التي كانت حفيدة لبرسيوس، ملك أرجوس القديم. ومن هنا جاء ارتباط هيراكليس بمدينة طيبة، وقيامه في إقليمها (بويوتيا)

بعدد من مغامراته الشهيرة. وقد زعمت طيبة تبعاً لذلك أنه أحد أبنائها وكان يلقب فيها بلقب الكايوس أو «الكيديس» بمعنى «الباسل». لكن يبدو أن الحقيقة غير ذلك وأن طيبة شبهت به بطلاً محلياً كان يحمل اللقب المذكور. كذلك حاول الدوريون الذين انتشرت عبادتهم بينهم أن ينسبوه إليهم، وقد أصابوا بعض النجاح حتى لقد ساد الاعتقاد بين الباحثين المحدثين فترة بأن هيراكليس بطل دوري. وأما الاثنين فقد اكتفوا بتقريب صورة ثيسيوس، بطلهم القومي، من صورة هيراكليس.

ولقد ذكرت أن هيراكليس كان في أغلب الظن بشرا لا إله ، بدليل أنه يحمل اسماً من أسماء الآدميين كان انساناً ويرجح أنه كان شخصية حقيقة لا خيالية وأنه كان أحد أبناء شعب أرجوليس الذي كانت هيرا ربهم الرئيسية، وكان أشهر معابدها يقون في بلدة «هيرايوم» على مقربة من مدينة ارجوس. وهذا الرأي يتتسق تماماً مع الرواية الراسخة التي تقول أن هيراكليس كان من أرجوليس، وعلى وجه الدقة من مدينة تيرينس، وينتسب - على ما يبدو - إلى الفرع الأصغر من أسرة برسيوس المالكة في مدينة أرجوس، ويمت بصلة قرابة ليورستيوس سليل برسيوس، وملك أرجوس الذي قام هيراكليس بأعماله الخارقة بتكليف منه. فإذا كان هيراكليس الحقيقي أميراً على مدينة تيرينس فلعل ملك أرجوس (أوميكيني القرية) كان سيداً عليه. ومن الجائز أن هيراكليس كان قد قام بخدمة ممتازة في إحدى الحروب التي طواها النسيان أو بأي عمل فذ آخر. وكانت تلك هي النواة الأولى التي بنيت عليها شهرته الواسعة كبطل قوي شجاع، وإن كان يتذرع علينا تتبع أطوار صعوده تدريجياً إلى هذا المركز الفريد وشعبيته بين الجماهير. فهذه أمور لا تزال خافية علينا. لكن لدينا قرينة أخرى على أنه كان من أرجوليس وهي أن ستة من أعماله الشاقة الثانية عشر انجزت في البلوبونيزي، وأن الستة الأخرى لا تتناقض مع اصله الأرجوسي.

وكان من الطبيعي أن تحقد عليه هيرا حتى قبل مولده لأن اباه زيوس تباهى قبيل اليوم الذي كان هيراكليس سيولد فيه، بأنه سيوهب ولدا بطلًا مقدراً له أن يؤول إليه عرش آل برسيوس في أرجوس بدلاً من ولد آخر وهو يورستيروس، حفيد برسيوس من ناحية الأب. وأكلت الغيرة قلب هيرا حتى أنها أخرت ميعاد مولد هيراكليس يوما واحدا عن ميعاد مولد يورستيروس. وهكذا فوتت عليه فرصة العرش الذي آل إلى يورستيروس في أرجوس. ولم تقف عند هذا الحد. فلما ولد هيراكليس بعثت هيرا إليه وهو في المهد بشعانين ضخمين ليختبره. لكن هيراكليس كان منذ ولادته جباراً عتيماً، فخنق الشعانين بيديه. ولما شب عن الطوق لاحقته هيرا في حياته بحقدها وكراسيتها. على أن هذه الكراهية ليست بمفهومه ولعلها ليست أصلية في القصة ولا بد أنها مقحمة أو مختلفة على غرار الأساطير الكثيرة المألوفة التي نسبت حول أبناء زيوس من زوجات غير هيرا، زوجته الرسمية. وليس أدلة على ذلك من ان اسم هيراكليس مشتق من اسم هيرا، ومعناه «مجد هيرا» أو «فخر هيرا» أو «هدية هيرا الفاخرة إلى والديه». وهذا لا يتفق مع تلك الكراهية التي نسبها خيال كتاب الأساطير.

وعلى أي حال فإن هيرا قد دفعته ذات مرة إلى الجنون، فتقتل بيديه بعض أبنائه. ولقد نصح بالاتجاه إلى دلفي ليكفر عن جريمة قتل ذوي الأرحام بالتطهر وفقا للطقوس التي كان أبواللون أعرف من غيره بها. وبذلك شفي هيراكليس وعاد إليه صوابه. لكن نبرة دلفي فرضت عليه شركاً آخر استكمالاً للتکفير عن ذنبه والتطهير من دنسه وهو أن يضع نفسه تحت خدمة قرينه يورستيروس، ملك أرجوس. وعهد إليه هذا الملك بإنجاز أعمال شاقة، اشتهرت في الأساطير والأدب باسم «الأعمال الائتمانية عشر» الأصلية أو الرئيسية (Prexeis)، فضلاً عن قيام هيراكليس بمخامرات جانبية أخرى متفرعة عنها (Parerga). ولا يتسع المقام لسرد كل هذه الأعمال البطولية الخارقة. لكن حسبي أن أشير إلى أنها كانت

بالفعل خارقة، فلقد أزهق فيها هيراكليس أرواح ملوك متجربين. وفتاك باسود ضارية وخنازير برية وثيران متواحشة وأفاع مهلكة. وفضلاً عن ذلك فقد قتل في احدى مغامراته الجانبية لاوميدون، ملك طروادة وهو أبو بريamos الذي كان وعده بمكافأة معينة نظير انقاد طروادة من وحش بحري ضار ثم حنث بوعده. واشتراك هيراكليس - أو أشركته الأساطير - في الحملات الشهيرة القديمة السابقة على الحرب الطروادية كحملة «ملاحي السفينة أرجو» لاسترداد «الفروة» الذهبية من شرق البحر الأسود، وحملة «صيد الخنزير الكاليدوني» (قرب إقليم بوبيوتيا، وحملة ثيسسيوس الأثيني ضد «الأمازونات»، وهن نساء مسترجلات مستوحشات ماهرات في القتال والفروسية حتى لقد قطعن أحد الثديين تسهيلاً لشد القوس ورمي السهام) وطردن الرجال من مملكتهن بآسيا الصغرى (فيما عدا زيارات خاطفة عندهم حفاظاً على النسل).

ومن غريب ما يروى عن هيرا كلليس أنه ضاق في ذات يوم ذرعاً بالقيظ الشديد فصوب إلى الشمس سهمه ولولا اعجاب إله الشمس به لحدث ما لا تحمد عقباه. وأغرب من ذلك ما ذكره هوميروس وهو أن هيرا كلليس اضطرع مرة مع «الموت» نفسه، إذ اقتحم العالم السفلي، وخلص ثيسسيوس من العذاب بعد أن قهر «ثناتوس» وهو ملك الموت. ثم تغلب على كربيلوس، ذلك الكلب اليقظ المسعور ذي الرؤوس العديدة الذي كان يتولى حراسة مدخل عالم الموتى. تغلب عليه هيراكليس واستأذن هاديس، ملك الموتى (وهو غير ملك الموت) استأذنه في حمل الكلب معه إلى سطح الأرض واعداً إياه بارجاعه بعد فترة. وكان ذلك هو أشق الأعمال الاثني عشر التي أنجزها هيراكليس.

ويروى أيضاً أن هيراكليس ذهب مرة إلى جزر البليار في الغرب أو قادس في إسبانيا ليقوم بأحدى مخاطراته. وبعد الانتهاء منها انتهز فرصة وجوده هناك وشيد عمودين (أحدهما يسمى كالبى وأخر أبيلا) عند الممر المائي الضيق الذي

يفصل بين أوروبا وأفريقيا. وهو الممر الذي صار الأغريق والرومان يطلقون عليه اسم «عمودي هرقل»، ولكننا نسميه الآن «مضيق جبل طارق».

وفي أثناء عودة هيراكليس من هذه المغامرة في الغرب، عرج على إيطاليا وزارها. وقيل أنه قام ببعض أعمال باهرة أثناء هذه الزيارة أو الاقامة القصيرة. فقد أبطل عادة السابينيين (Sabini) الذين جروا على التضحية بالبشر عند تقديم القرابين وأدخل عادة استعمال النار في الطقوس الدينية. ثم قتل كاكوس (Cacus)، ذلك اللص العملاق الرهيب ابن فولكانوس الذي كان يعيش في كهف فوق تل الأفنتين واجترأ وسرق من هيراكليس جزءاً من قطع الثيران الذي كان البطل قد أخذه من جيريون، وقد أعجب سكان إيطاليا بشجاعة هيراكليس وقوته، فكرمه، كرمته، وهو ملك في أحدى مناطق إيطاليا، أغريقي الأصل (من أركاديا)، كرمته بأن قرر عبادته رسمياً كإله.

ولم يجد الرومان عندهم بطلًا يناظر هيراكليس اليونياني. ولذلك استعاروه مع تحريف اسمه في النطق إلى هرقليس (Hercules). وقد نشأت له منذ وقت مبكر عبادة في قلب روما، وشيد له معبد في سوق المواشي (Forum Boarium) وهو مكان كان يقع على مقربة من أقدم مركز عمراني نشأ فوق البلاطين، أحد تلال روما السبعة. هكذا أضفى هرقليس حمايته الإلهية على هذا الموقع التجاري الذي كان الأجانب يأتون إليه لشراء الجلود وغيرها من منتجات الماشية. وكان هيراكليس الذي أصبح صنوا لهرقليس، قد اشتهر بأنه دافع الأذى عن الناس (Alexikakos) و «قاهر كل شر» (Kallinikos) وكان المتعبدون له من الأفراد يتهللون إليه بهذه الصفة. ولما كان هيراكليس قد اشتهر بالشجاعة والصلابة، والتقدشف في حياته وبالشهامة في خدمة الإنسانية، فقد وجد «الرواقيون في صفاته (التي أضفيت على عديله الروماني) ما يتفق ومبادئهم فقد تمثلوه في صورة الكمال واتخذوه مثلاً أعلى ليحتذيه أنصار مذهبهم الفلسفي

وهو مذهب لقي رواجاً بين الرومان⁽¹⁷⁾.

ولا يبقى بعد ذلك سوى عدد قليل من الآلهة التي لم يجد الرومان ما يقابلها عند اليونان فتركوا بعضها على ما هي عليه دون معادلة. ومن بين هذه الآلهة - على سبيل المثال - يانوس (Ianus)، الإله ذو الوجهين، إله «الأبواب» والمداخل على اختلاف أشكالها، ومن ثم إله لكل البدايات. وقد اشتق من اسمه اسم «ينايير» (Ianarius)، وهو الشهر الذي تبدأ به السنة. وأما البعض الآخر من هذه الآلهة فقد شبهه الرومان بالآلهة يونانية تشبيها خطأً. وعلى سبيل المثال تلك الربة الرومانية المغمورة الأصل فورينا (Furina) التي كان الرومان يعتبرونها أحياناً مناظرة لربات القصاص عندهم المسميات «فورياي» (Furiai)، مع أن الاسم الأخير (ومعناه الهياج الشديد أو الغضب العارم أو الجنون) هو ترجمة لاتينية لكلمة ارينويوس (Erinyos)، وهو اسم «ربات القصاص» أو «اللعنة المحسدة عند اليونان».

نخلص من ذلك إلى أنه عندما يتحدث شاعر روماني قائلاً - على سبيل المثال - أن «جوبير» قضى على «ساتورنو» فإنه يعني أن «زيوس» قضى على «كرونوس» وعندما يشير إلى قصص غرام «فينوس» و «مارس» فإنه يقصد بذلك «أفرو狄تي» و «أريس» وهكذا دواليك⁽¹⁸⁾. ومن النادر جداً أن يجاذف كاتب لاتيني باختلاف أسطورة عن إله من الآلهة من نسج خياله. وقد يفعل ذلك فقط بطريقة عابرة أو على سبيل الاستطراد في قصة طويلة. وعندما يفعل ذلك فإنه يصوغها في العادة على غرار أسطورة يونانية. والاستثناءات من ذلك عبارة عن قليل من قصص المعجزات التي يقوم بها الآلهة والإلهات الرومانية. بل إن هذه القصص أيضاً مستوحاة من قصص يونانية مشابهة، وهي القصص التي يسميها اليونان «بقصص الكرامات» (Aretai)، والتي تجري غالباً في المعابد. فقد روى مثلاً أن أحدي كاهنات الربة فستا العذاري، واسمها «آيميليا» اتهمت ذات مرة

بالكفر. وكان الدليل على كفرها هو انطفاء النار المقدسة في موقد الربة، وهي نار كانت متقدة دائمًاً مشتعلة أبدًاً. ولكي تثبت الكاهنة براءتها، مزقت قطعة من ردائها وألقت بها على رماد النار الخامدة. ولم تلبث النار أن اشتعلت وتهجّت في الحال. وثمة قصة أخرى تقول أن «توكا» - وهي أيضًاً كاهنة عذراء في معبد الربة فستا - اتهمت بالتفريط في عفتها. وكان عقاب مثل هذه الجريمة هو القاء المذنبة في جب تحت الأرض (بساحة تسمى «ساحة النحس») حتى تموت المسكينة جوًعاً أو اختناقًا. لكن «توكا» استطاعت أن تحضر ماء من نهر التيير في غربال بمعجزة من الربة ذاتها. فكان ذلك وحده كافيًا لتبرئتها من التهمة. واتهمت سيدة رومانية اسمها «كلوديا» بجريمة الزنا. وبرأت نفسها لا بمعجزة من معجزات الربة فستا، بل من الربة الفريجية كيبلي (Cybele)، وهي «أم الآلهة». وحدث ذلك أثناء احضار الرومان للحجر الأسود المقدس لهذه الآلهة من بلدة بسينوس (Pessinus) في فريجيا بأسيا الصغرى إلى روما عام 204 ق.م. إذ انغرزت السفينة التي كانت تنقل هذا الحجر في طين نهر التيير. ولم يستطع أحد تحريكها. وابتهلت «كلوديا» إلى «أم الآلهة»، وأمسكت بحبل جر المراكب، وسحبته وحدها السفينة إلى الشاطئ. وهكذا تأكدت براءتها. لكن ليس لدينا أي قصص رومانية صحيحة مشابهة للقصص اليونانية الكثيرة عن علاقات الآلهة بعضهم البعض الآخر وعلاقتهم بالأنبياء والشخصيات القديمة، أو زيجاتهم ومكائد़هم وذریتهم. ولا يفتقر الرومان تمامًاً إلى قصص البطولة (Saga) أو الحكايات الشعبية (Marchen). لديهم منها عدد قليل ليس مستقى أو متأثرًا بقصص يونانية، بل هو أصيل على ما يرجح. ونخص بالذكر قصة تروي عن شخصيتين شهيرتين هما «كايكولوس»، مؤسس مدينة براينستي، وسرفيوس تولليوس، الملك قبل الأخير من ملوك روما السبعة. فقد جاء في هذه القصة الرومانية الصحيحة أن فتاة في

سن الزواج قضت إحدى الليالي ساهرة بالقرب من موقد النار. ولعلها فعلت ذلك متأثرة ببرؤية علامة عجيبة أو آية، ظهرت أمامها في اللهب. ولم يأت الصباح حتى وجدت الفتاة نفسها حاملاً. وكان ابنها هو أما كايكولوس أو سرفيوس تولليوس. وتعكس القصة فكرة واسعة الانتشار قائمة على الاعتقاد الشعبي السائد قديماً وهو أن الحياة صنو للنار والضوء والحرارة (حيث أن الجسم الحي دافئ بينما جثة الميت باردة). وكأن النار قد نفخت الحياة في بطن الفتاة، حقيقة لا مجازاً.

وإليك قائمة بالآلهة الرومانية وما يقابلها من الآلهة اليونانية، بادئة بالآلهة جبل

أوليمبوس:

الإله اليوناني

الإله الروماني

زيوس	=	جوبيتر
هيرا	=	جونو
بلوتون (هاديس)	=	بلوتو - ديس (أوركوس)
موسيدون	=	نبتونوس
هستيا	=	فستا
ديميتيير	=	كيريس
أويس	=	مارس
هيفايستوس	=	فولكانوس
أثنينة	=	ميورفا
أبوللون	=	أبوللو
أرتميس	=	ديانا
هرميس	=	مركوريوس
أفرو狄تي	=	فينوس

كذلك قوبلت الآلهة الرومانية الآتية باليونانية على النحو التالي:

الإله اليوناني	=	الإله الروماني
كرonus	=	ساتورنوس
ريتا	=	أوبس
باخوس (ديونيسيوس)	=	باخوس (ليبر)
هيراكليس	=	هركوليس (هرقل)
بان (الجن)	=	فاونوس
سيلينوس (ساتيروس)	=	سيلفانوس
ايروس	=	كوبيدو

هوامش ومراجعة الفصل الرابع

- 1 - أو Iuppiter. والنطق الأصح «يوبيتر»، حيث أن اللغة اللاتينية ليس فيها حرف الـ J.
- 2 - كانت هذه القطعة من الأرض قرب عمود يسمى «عمود الحرب» Columna Bellica في ساحة مارس (Campus Martius) خارج سور المدينة المسمى بوميريوم (Pomerium) وكانت ربة الحرب عند الرومان اسمها بللونا (Bellona).
- 3 - ثم أصبح أول يناير هو أول العام.
- 4 - ينطق حرف الـ C كافاً في اللاتينية لأنه يمثل حرف الـ K اليوناني. ولكنه ينطق الآن «سيناً» في اللغات الأوروبيّة الحديثة. ومن اسم الربة (Ceres) اشتقت لفظ Cereals (حبوب) لأنها كانت ربة للقمح.
- 5 - كويرينوس هو روميلوس المؤله. وتروي الأسطورة بأن روميلوس بعد تأسيسه لروما، وحكمه عدة سنوات، اختفى في ظروف غامضة. ومن ثم فقد إله باسم كويرينوس ولا يعلم أحد الأصل اللغوي لهذه الكلمة. لكن يعتقد أنها تعني «الحشد» أو جمع الرجال. وبالتالي فإن لفظ Quirites، أصبح يطلق على الشعب الروماني. وقد حل الثالثون الآخر محل هذا الثالثون.
- 6 - الحصان الأيمن هو بعيد عن الموضع الذي يدخل المتسابقون منه في المركبة.

- 7 - كانت هضبة أو صخرة الأكروبول Acropolis - على ما يبدو - تسمى بأثينية Athene. وقد أعطيت اسمها للربة التي أعطته بدورها للمدينة التي سميت أثيني Athenai وهي ما نعرفها باسم اثينا. وأثيني Athenai هي صيغة ظرف المكان بمعنى «أثينية»، أي في الصخرة. وفي رأي آخر أن اسم المدينة في اليونانية «أثينا» هو صيغة الجمع من اسم الربة أثينا Athene.
- 8 - ليس في اليونانية حرف العين ويقوم مكانه حرف الألف. ولا يوجد في اليونانية القديمة حرف الشين، فقام مقامه حرف الفاء (Ph).
- 9 - ولقت كربة للحرب بلقب أريا Areia (نسبة إلى عشيقها أريس) واستراتيا Strateia أي المحاربة. كذلك عبدت أفرو狄تي كربة للبحر والملاحة بلقب «بونتيا» (Pontia) و «يوبلوايا» (Euploia) بعد أن جاءت إلى قبرص وبلاط اليونان.
- 10 - أورانيا (Ourania).
- 11 - حيث أن السنة عندهم كانت - على نحو ما ذكرت - تبدأ بشهر نيسان (ابريل).
- 12 - إذ زعمت أنها منحدرة من صلب يلوس Iulus (وهو اسم آخر لأسكنيوس Ascanius) بن آينياس بن فيتوس.
- 13 - تنطق هذه الأسماء المنتهية بالياء نطق ليلي وضحى في اللغة العربية، مع الهمزة.
- 14 - يبدو أن لفظ برس (Persè) وما إليه كان يؤدي معنى «ملكة».
- 15 - كان الشعبان والثور يقتنان دائماً بزيوس وديونيسيوس. ويوصف ديونيسيوس، في هذه المرحلة من حياته، بأنه «إله ثور». وهذا يدل على ارتباطهما بكربيت حيث كان الثور يقوم بدور هام في عبادات الجزيرة أثناء عصر الحضارة الملينية.
- 16 - وقد عاون الربة في ذلك تريپتوليموس (Triptolemus) الذي اخترع المحراث وفن الزراعة. وكان رائداً كبيراً من رواد الحضارة وكان له دور بارز في عبادة اليوسفيس السرية.
- 17 - عن «الفلسفة الرواقية»، انظر فيما بعد.
- 18 - انظر جدول المقابلة بين آلهة الشعوبين.

الفصل الخامس

تأسيس روما

1 - آينياس

فرجيل والأنياد:

في عصر أكتافيانوس أغسطس (30 ق.م - 14 م)، مؤسس الامبراطورية الرومانية، ظهر شاعر كبير هو بوبليوس فرجيليوس مارو (P. Vergilius Maro) الشهير باسم فرجيل (70 ق.م - 19 ق.م). وكان لهذا الشاعر - الذي ولد في بلدة مانتوا Mantua (شمالي نهر البو)⁽¹⁾ ضيعة صودرت ووزعت على المحاربين القدماء بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها عام 42 ق.م. لكنه تظلم إلى أوكتافيانوس وتمكن، من استردادها بعد أن توسط له بعض أصدقائه من ذوي النفوذ.

وقد تفتحت مواهب فرجيل الأدبية في سن الشباب، واكتمل أول عمل أدبي له حوالي عام 37 ق.م، ونشره بعنوان «المختارات» (Eclogae) التي اشتهرت باسم «الأشعار الرعوية» (Bucolica) وأهدتها لثلاثة من أصدقائه الأدباء وفي هذه الأشعار الرعوية يقتفي فرجيل أثر ثيوكرتيوس الشاعر الرعوي الصقلي الشهير (310 - 250) الذي عاش في الاسكندرية فترة من حياته (بعد 270 - بعد 270) في عهد بطليموس فيلادلفوس. ويظهر في قصيدة فرجيل واضحاً تأثير «مدرسة الاسكندرية الأدبية» سواء من حيث الشكل أو المضمون.

وكانت هذه المدرسة تعني بالصنعة الشعرية، وغزاره المعرفة، والأساطير الرمزية والبراعة اللغوية، والنزعه الخيالية، واللحمات المثاليه. ذلك أن مسرح القصيدة الرومانية هو سهل صقلية، وإن كان فرجيل يمزج بها عنصرأً واقعياً إيطاليا مستوحى من مناظر مانتوا، مسقط رأسه⁽²⁾، وكريمونا القريبة والمنطقة المحيطة بهما. ويختفي الشخصيات المعاصرة تحت ستار الرعاه أو يعرضهم بدون أسماء مستعارة أي بأسمائهم الحقيقية. كذلك يضمن قصيده بعض أحداث معاصرة، فيشير - على سبيل المثال - إلى حادثه طرده من مزرعته في مانتوا، وتظلمه إلى أكتافيانوس. وثمة اشاره إلى تأليه يوليوس قيصر، وتحوله إلى نجم في السماء. وأهم من ذلك تنبؤه في النشيد الرابع من القصيدة بمولد غلام سيسود السلام كل الدنيا في عهده. فمن يكون هذا الغلام الذي أثارت الاشارة إليه ضجة وجدلاً بين العلماء؟ لقد اعتبره البعض الطفل المنتظر لاكتافيانوس من زوجته سيكريبيونيا (وان كان المولود قد جاء أنشى)، واعتبره البعض الآخر الطفل المنتظر لأنطونيوس وأكتافيا (أخت أكتافيانوس). لكن في العصور الوسطى اعتبر فرجيل ولها تنبأ بميلاد عيسى نفسه، ومبشرأً بظهور المسيحية، وهو ما دعا دانتي إلى أن يتخذ منه مرشدا له في «الكوميديا الالهية». وأسرف الناس وقتئذ في إجلائه وبالغوا في تقديسه، واعتبروه عرafa وساحرا وراجما بالغيب عن طريق استحضار أرواح الموقى، ونشأت حول قبره في (نابلي) أساطير وخزعبلات.

وفي تلك الأثناء تعرّف فرجيل على ميكيناس (Maecenas) الذي كان بمناثبة وزير الثقافة والدعاه، كما كان من هواه الأدب والفن. وتوطدت الصلات بينهما، وأصبح فرجيل شاعر البلاط. وعكف على نظم قصيده الثانية بعنوان «الأشعار الريفية» Georgica وفرغ منها حوالي عام 30 ق.م. ومن المرجح أن ميكيناس نفسه هو الذي أوعز إلى الشاعر بنظم هذه القصيدة كنوع من الدعاية لسياسة أغسطس في انعاش الزراعة وتشجيع المواطنين على العودة

إلى الريف لإنقاذ الزراعة المتدهورة. ذلك أن الملكيات الزراعية الصغيرة كانت قد تلاشت نتيجة اندلاع الحرب الأهلية: وعزوف الكثيرين عن مهنة الزراعة الريتيبة الشاقة وايشارهم حياة المدينة (روما) وما فيها من لهو وصخب وبطالة وإثارة. لكن القصيدة التي يمتدح الشاعر فيها ميكيناس تتضمن أيضاً مدحاً في أكتافيانوس الذي قيل أن الشاعر قرأها عليه بعد عودته من حملته في الشرق عام 29 ق.م. وتنقسم قصيدة «الأشعار الريفية» إلى أربعة أناشيد أو كتب (بالمعنى القديم للكلمة). وتتناول حياة الريف ومهنة الزراعة بوجه عام: زراعة المحاصيل المختلفة، وأشجار الفواكه وعلى الأخص الكروم، والمواشي الزراعية (بما ذلك الخيول)، ثم تربية النحل. وتوصف «الأشعار الريفية» بأنها مستفادة من قصيدة «الأعمال والأيام» للشاعر اليوناني القديم هيسيود (أوائل القرن السابع ق.م.). غير أن الصلة هنا ليست وثيقة أو مباشرة كما هي بين «الأشعار الرعوية» للشاعر الروماني واشعار ثيوكربرتوس الصقلي. ومع هذا فإن فرجيل إذا كان يدين لهيسيد بشيء، فذلك ينحصر في اقتباسه الفكرة الرئيسة، وهي فكرة التوجيه والإرشاد الزراعي التي تغلب على قصيده، وفي اصطدام القصيدة كلها بصبغة الحث على العمل الشاق. في الحق أن فرجيل مدين أكبر لشعراء اسكندررين آخرين. لكن مادة قصيده مقتبسة من بحوث كتاب رومان في الزراعة مثل «كاتو» و «فارو» كما ينقل فرجيل عن شعراء رومان سابقين مثل الشاعر القديم أنيوس (239 - 169) والشاعر الفلسفي لوكريتيوس (94 - 55) الذي يشيد به فرجيل إشادة ملحوظة. ومع هذا كله فإن كثيرين من النقاد يعتبرون «الأشعار الريفية» أعظم قصائد فرجيل. وفي الحق أنها تزخر بـ ملاحظات ملحة عن الزراعة والحيوانات والطبيعة. وتتسم في بعض المواضيع بنغمة شجن مثيرة للعاطفة، ونغمة التعاطف الانساني والمشاركة الوجدانية، وهذه احدى خصائص شعره المميزة. وتضارع القصيدة في جلال فكرتها وكثير من أجزائها الآينيادة ذاتها.

وعكف فرجيل في السنوات العشر الأخيرة من عمره (29 - 19) التي قضاها في نايلي وأرباضها وفي صقلية، على تأليف الآينيادة (Aeneis)⁽³⁾ التي مات قبل الانتهاء منها. وقد أوصى قبيل وفاته بحرقها لعدم رضائه عنها. لكن أغسطس أمر بالبقاء عليها فنشرت غير كاملة. ولا مراء في أن «الآينيادة» قد نظمت بايعاز من الامبراطور نفسه. وهي ليست قصيدة بل ملحمة اتضحت أنها أعظم مؤلفات فرجيل، بل هي أعظم ملحمة عند الرومان. وهي ملحمة قومية القصد منها تمجيد روما منذ نشأتها، واستعراض سير أبطال تاريخها، والإشادة بأغسطس، وعهده الجدير الذي يبشر بالأمل والسلام والرخاء. ومن الواضح أن الشاعر الروماني يقتدي فيها بهوميروس اليوناني (القرن التاسع ق.م) ويعاكبه. ويحمل عنوان الملحمة نفسه اسم آينياس (Aeneas)، وهو أحد أبطال الحرب الطروادية، موضوع الآليادة اليونانية. ويستوحى الشاعر الكتب الستة الأولى حيث يروي قصة طواف آينياس في البحر ومخاطراته من النصف الأول من الأوديسيا، وينهي هذه الكتب بزيارة آينياس «للعالم السفلي»، وهي نهاية شبيهة بزيارة أوديسيوس لعالم الموتى. وأما الكتب الستة الأخيرة التي تروي قصة حروب آينياس في إيطاليا ضد الروتيليين فهي تسير على نهج الآليادة. وحتى في التفاصيل يردد الشاعر الروماني صدى هوميروس في التعبيرات اللغوية وعلى الأخص في التشبيهات. ولا يخفى فرجيل تأثره ببعض شعراء العصر الهللينيستي كأبوللونيوس الرودسي صاحب قصيدة «ملاحي السفينة آرجو». ويضمن ملحنته طائفة كبيرة من عبارات وأفكار منقولة عن الشعراء الرومان القدماء فهو: لا ينفك يقلد لوكريتيوس وأنطيوس. ولا يعتبر هذا الاقتباس ممن سبقوه من الشعراء الرومان انتحala أو سرقة أدبية بقدر ما يعتبر تحية من الشاعر لذكراهم، وتنويها بمؤلفاتهم، واعترافاً بفضلهم. ذلك أن الآينيادة تجد الأدب اللاتيني مثلما تجد التاريخ الروماني.

وتتفاوت ملحمة «الآينيادة» في الجودة، إذ لوحظ أن الكتب الزوجية الأرقام (كـ 2، 4، 6، 12) أروع وأكثر إثارة للمشاعر من الكتب الفردية الأرقام، غير أن الملhma تفتقر بوجه عام إلى حبكة القصة المشوقة ربما بسبب طولها وضخامة موضوعها من ناحية، وبسبب التكلف الذي لا مناص منه في ملحمة الآينيادة التي تزخر بالعلم والمعرفة بالقياس إلى الآليادة التي تتميز بالبساطة والسذاجة. لكنها تحلق من وقت آخر في أجواز عالية. وستظل الكتب المشار إليها درراً أدبية عسيرة المحاكاة.

ويبلغ فرجيل في الآينيادة ذروة التحكم في أسلوب الشعر اللاتيني وذروة الكمال في نظم الشعر من البحر السادس (hexameter)، إذ اكتسب على يديه سلاسة لا تبعث أبداً الملل في نفس القارئ، وهو يمزج في الملhma بمهارة بين الفن السكندري (ars) والفنون اللاتيني (Ingenium). ومع أن الآينيادة قد تفتقر في جملتها إلى وحدة «الأشعار الريفية، إلا أن فخامة موضوعها وكمال نظمها واتقان صناعتها تجعل منها أعظم مؤلفات فرجيل.

وقد حظى فرجيل بكل تقدير من معاصريه، فأشاد بهواهبه الشاعر الغنائي والناعد الاجتماعي والأدبي هوراتيوس (65 - 8 ق.م) الذي أصبح من بعده شاعر البلاط، وبروبرتيوس (54 - 16 ق.م) الشاعر الغزلي. وأصبح ديوان فرجيل نموذجاً لكل شعراء الملham الرومان الذين جاؤوا من بعده. بل إن شعره أثر في أسلوب كتاب النثر من أمثال المؤرخ الروماني الأديب تيتوس ليفيوس (69 ق.م - 17 م). وأقرت الأجيال التالية بإمارة فرجيل للشعر واعتبرته أعظم شعراء الرومان على الأطلاق. وكان يوصف بالشاعر العام (Poeta doctuz) نظراً لسعة معرفته بالأساطير القديمة التي تزخر بها ملحمةه وحسن استخدامه لهذه الأساطير وجميع ارتباطاتها، دون أن يهبط إلى درك التقصير الأجوف أو الحذلقة الفاترة الجافة.

ولنعد إلى الآينيادة «التي ذكرت أنها سميت كذلك نسبة إلى آينياس (Aeneas)، بطل الملحمية. كان أغسطس - كما ذكرت - هو الذي أوعز إلى فرجيل بتأليفها. ورأى فرجيل كشاعر كبير أنه قد لا يكون من المستساغ من ناحية الذوق الفني أن يمدح أغسطس مدحه مباشراً أو أن يمجده وحده صراحة دون مواربة. لذلك آثر أن يستعير من الماضي الصحيح شخصية آينياس ليرمز بها لجد روما القديم ومجدها الحالي المتمثل في أغسطس. وإذا كان آينياس (أو واحد من ذريته) قد أسس روما، فإن أغسطس هو المؤسس الثاني لأنه بانقاذه روما من محنة الحرب الأهلية وانتشالها من وهدتها كأنه خلقها من جديد. هذا أحد وجوه الشبه. ووجه آخر للشبه يتمثل في الصفات، إذ لا يوصف آينياس بالبطولة فقط بل ان أبرز صفاته هي الولاء لالهته وقومه وذويه ووطنه، وشعوره العميق بالواجب نحو كل هؤلاء، وهو ما يعبر عنه في اللاتينية بكلمة بيtas (Pietas) وكذلك كان أغسطس يتحلى بهذه الصفات. هكذا يرى بعض الباحثين أن الشاعر قد استعار آينياس كistar يخفي وراءه صورة أغسطس. وقد تبرر التلميحات إلى الواقع المعاصرة مثل هذا الرأي. ولكن هناك رأياً قدماً آخر يقول بأن الآينيادة ملحمة رمزية أي ترمز لأفكار لا لحقائق واقعة. وقد يجد هذا الرأي القديم سندًا فيما نلمسه من عمق الشاعر الشديد وتعتمده الغموض والابهام. وفي رأينا أن الملحمية تجمع بين ما ينادي به أصحاب الرأيين لأن الملحمية تهدف إلى تمجيد تاريخ روما في شخص آينياس، وتهدف أيضاً إلى التعبير عن الأمل الجديد المتجسد في شخص أغسطس. وبعبارة أخرى أن الآينيادة في الواقع هي ملحمة روما، وتجسيم لتاريخها وعظمتها في الماضي، وكذلك للاحساس العام بعهد جديد افتتحه أغسطس.

نُشأة أسطورة آينياس كمؤسس لروما:
وأما عن آينياس فهو ابن أنخيسيس (Anchises) أحد أمراء طروادة
من افروديتى (Aphrodité)، ربة الحب والجمال والخصب. وقد ورد في

الأساطير اليونانية أن أفروديتى نفسها هامت حباً بأنخيسيس وعاشرته وحملت منه مع أنه من البشر. وكانت قد أخذت منه عهداً بكتمان ما بينهما من علاقة. لكنه تباهى بين أقرانه بهذه العلاقة، وجهر بالسر، فعاقبته الربة بصاعقة أصابته بالعمى أو بالعرج. وأيا كان الأمر فقد أنجبت منه أفروديتى ولداً هو آينياس (Aeneas) القائد الطروادى المعروف الذى اشترك في الحرب الطروادية ضد الأغريق حسبما ورد في اليادة هوميروس. ويتبين من الا iliadة أن آينياس كان يحظى بمكانة لا تقل عن مكانة هكتور بطل طروادة الأول وابن ملكها برياموس، بل ان آينياس يلقى من التكريم مثلما يلقاه الله. ولقد قاتل ديميديس البطل الأغريقي الجريء، وأدومينيوس البطل الكريتي، بل أنه قاتل أخييليوس (أخيل) نفسه، بطل الأغريق الأول. لكنه لم يظهر في هذه المعارك أي بطولة خارقة أو باهرة، بل أنه كاد ينهزم ويلقى مصرعه، وقد تصدى لإنقاذه من الموت في أكثر من مرة بعض الآلهة الذين اعتاد آينياس أن يظهر لهم قدرًا كبيراً من الولاء والتقوى. وكان آينياس ينحدر من الفرع الأصغر في الأسرة المالكة في طروادة. ونخرج من الأ iliadة بانطباع أو احساس بأنه كان يحمل في صدره شيئاً من الغيرة أو الضغف نحو بريام ملك طروادة، سليل الفرع الأكبر في الأسرة الطروادية. ولعل ذلك يرجع إلى اعتقاده بأن بريام لم يعطه حقه كاملاً. ونخرج أيضاً بانطباع آخر وهو أن آينياس كان يتطلع إلى خلافة العرش.

ومع أن بوسيدون، إله البحر، كان في العادة خصماً للطرواديين إلا أنه أنقذ آينياس مرة من خطر داهم، بل إنه تكهن بأن آينياس وذريته سيؤول إليهم حكم الطرواديين. هكذا كان آينياس هو البطل الطروادي الوحيد الذي كان ينتظره مستقبل مرسوم. ومن هذه الاشارة نشأت أسطورة فرار آينياس من طروادة بعد سقوطها حاملاً أباه أنخيسيس، وابنه اسكانيوس (Ascanius) (المسمى أحياناً يولوس

(Iulus) وآلها بيتها المتوارثة (Penates). وكذلك أسطورة طوافه في البحر بضع سنين.

- ومنذ القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد اشار بعض مؤلفي «الحلقة الملحمية»⁽⁴⁾ -

وهي قصص أسطورية تدور حول مقدمات الحرب الطروادية وحول ذبولها - وأشاروا إلى زيارة آينياس لأماكن كثيرة في بلاد اليونان وخارجها، حيث زعموا أنه أسس عدة مدن تحمل أسماء مشتقة من اسمه (كما في طراقيا) أو توجد فيها معابد لأفرو狄تى بوصفها أمه Aplrodité (Aeneas) (كما في بلاد اليونان وصقلية). ومن الواضح أن خط سير رحلة آينياس في البحر كان مرتبطًا بهذه المدن أو المعابد.

ومنذ القرن الخامس ق.م. بدأت قصة طواف آينياس و Venturesاته في البحر تتسع بإضافة أماكن أخرى كديلوس وكريت⁽⁵⁾ على يد كتاب أو مؤرخين إغريق⁽⁶⁾. وكان في وجود معبد لأفرو狄تى (الملقبة بآينياس) في صقلية ما يبرز عروج البطل في رحلته على هذه الجزيرة. وكان من السهل بعد ذلك أن تصبح صقلية بفضل موقعها المتوسط جسراً أو معبراً للانتقال إلى ساحل إيطاليا الغربي وساحل أفريقيا الشمالي أيضاً. ولعل أحد الشعراء الإغريق في أوائل القرن السادس ق.م. قد ذكر أن آينياس وصل إلى هسبيريا (Hesperia) أي وصل إلى الغرب أي إيطاليا⁽⁷⁾. لكن قصة وصول آينياس إلى لاتيوم وردت لأول مرة في مؤلفات المؤرخ الصقلي هيلانيكوس (القرن الخامس ق.م.). وقد راجت القصة في روما بمجرد قيام علاقات مع بلاد الإغريق في أواخر القرن الثالث ق.م، وهو نفس الوقت بدأ الرومان فيه كتابة تاريخهم لأول مرة. وقد ظهرت بين الرومان وقتئذ نزعة إلىربط تاريخ روما بتاريخ الإغريق، مدفوعين في ذلك بنعمة قومية وعزّة وطنية، إذ كانوا يشعرون بأن الإغريق أقدم تاريخاً وأعرق حضارة وأرقى ثقافة. فلماذا لا يرجعون هم الآخرون بتاريخهم إلى الوراء عدة قرون ويربطونه بتاريخهم

العالم الاغريقي عن طريق الأساطير؟ فلما حاربت روما الاغريق وقهرتهم عسكرياً (في القرن الثاني ق.م) أصبح ربط تاريخ روما بالطرواديين (أعداء الاغريق قديماً) أكثر ملائمة من الناحية السياسية من ربطة بالاغريق أنفسهم.

ونلتقي بأول إشارة إلى صلة آينياس برومما في الأدب اللاتيني عند الشاعر المسرحي نايفيوس Naevius (235 - 201) الذي نظم ملحمة قومية بعنوان «الحرب البونية» لم يصلنا منها سوى 65 بيتاً، وتناول فيها الدور الأول من تلك الحرب (264 - 241) مستطرداً إلى الحديث عن نشأة روما (وربما قرطاجنة أيضاً). وسرعان ما تداولها شعراء رومان آخرون مثل آنيوس Ennius (239 - 169)، الملقب بأبي الشعر اللاتيني، ومؤلف ملحمة «الحوليات» التي عالج فيها تاريخ روما شعراً منذ عصر روميلوس حتى عام 171 ق.م، ومثل بكتور (Pictor) عضو مجلس الشيوخ الروماني، وأول مؤرخ روماني معروف لنا إذ كتب باليونانية تاريخ روما منذ نزول آينياس بأرض إيطاليا حتى الحرب البونية الثانية التي اشتراك فيها (218 - 202). وقد شرح في هذا التاريخ للعالم الاغريقي النظم الرومانية وسياسة السناتو، وقد تأثر فيه بكتور «العصر الهلينيستي» الاغريقي الذين ربطوا بين نشأة روما الأولى وآينياس. وقد حدد بكتور تاريخ تأسيس روما بعام 748 ق.م.⁽⁸⁾.

ومن الكتاب الرومان الذين تناولوا قصة نشأة روما كاتو الأكبر Cato Maior (232 - 147)، ذلك السياسي والخطيب والكاتب الذي ألف كتاباً (ضاع معظمها) باللغة اللاتينية بعنوان «الأصول»، أي تاريخ نشأة المدن، سرد فيه تاريخ روما منذ البداية الأولى، متناولاً فيه قصة آينياس وتأسيس المدينة (751 ق.م) وعهد الملوك، متابعاً السرد حتى عام 149 ق.م. كذلك اشار إلى القصة فارو Varro (116 - 27)، أعلم علماء الرومان، الذي عالج الشخصيات التاريخية القديمة، ونشأة المدن الايطالية وفي مقدمتها روما، بادئاً القصة منذ

آينياس. وأخيراً ليفيوس T. Livius (59 ق.م - 17 م)، أكبر المؤرخين الرومان، الذي كتب تاريخ روما (في شكل حوليات) منذ تأسيس المدينة (ab Urbe Condita) حتى عام (ab) 10 ق.م، وذلك في 142 كتاباً لم يصلنا منها كاملاً سوى 35 كتاباً (من رقم 1 - 10) التي تعالج الفترة منذ تأسيس المدينة حتى سنة 294 ق.م مع الاشارة إلى آينياس وخروجه ساماً من حرب طروادة، وطواوه في البحر ثم نزوله في لاتينوم، وسوى كتبه (من رقم 21 - 45) التي تعالج الفترة من سنة 219 حتى 167 ق.م، فضلاً عن بعض شذرات ومقطفاته وموجزات من الكتب الأخرى الضائعة. ويعتبر مؤلف ليفيوس (عندما لا يكون فيه فجوات) أهم مصدر لتاريخ روما في عصر الجمهورية. وفي وسعنا أن نصف تاريخه بأنه بمثابة ملحمة الرومان المنتشرة التي تقابل الآنيادة ملحمتهم المنظمة.

هكذا تجمعت لدى فرجيل خيوط قصة غير متراقبطة بل مهلهلة وسقية تتحدث عن آينياس. وبعض أجزاء القصة مقتبس من هوميروس، وببعضها الآخر من شعراء لاحقين، وخلاصتها أن آينياس أمير طروادي، ينحدر من صلب أخيسيس والربة أفروديت. وكان بطلاً من أبطال الحرب الطروادية، ولو أنه في الحقيقة لم يقم بأي دور بطيولي أو باهر فيها، بل إنه لم يتميز بأي صفات بارزة سوى ولائه وتقواه نحو بعض الآلهة التي اصطفته من أجل ذلك وأسبغت عليه حمايتها وحفظته من السوء، لأنها كانت تدخره لشيء آخر، وقالت أحدي النبوءات أن أماته مستقبلاً وأن ذريته سيؤول إليها الملك. وقد نجا آينياس من الهلاك أثر سقوط طروادة واندلاع النار فيها، وفر بأهله وآلته إلى البحر حيث طاف بضع سنوات ونزل بعدة أماكن، كان آخرها إقليم لاتيوم حيث ارتبط اسمه بتأسيس روما.

ومن هذه الخيوط الواهية نسج فرجيل الآنيادة حيث وصف سقوط طروادة، وفار آينياس وأهله. ثم ضغط بمهارة أساطير جولاته في البحر في

الكتاب الثالث من الملhma. وأما ارتباطه بتأسيس روما فقد مطه الشاعر وتوسيع فيه خالقا منه الموضوع القومي العظيم في الملhma. لقد وجد فرجيل في قصة آينياس ونزوله في لاتيوم أكمل الأساطير عن نشأة روما وأكثرها شمولاً، لأن أسطورة روميلوس كانت محلية محدودة الأفق. لكنه لم يقصد أن تكون الآينيادة مجرد سرد لأسطورة قديمة، بل أن تكون ملحمة روما ذاتها ومجدتها التليد الغابر وأملها في العهد الجديد الظاهر (عهد أغسطس). وعدل فرجيل عن التسلسل التاريخي الذي اتبعه آنيوس وجعل فيه من روميلوس حفيداً لآينياس⁽⁹⁾. ونبذ طريقة الحوليات وأطلق العنان لخياله، وبذلك وجد بين الاثنين (آينياس وروميلوس) متسعًا من الزمن أو فراغاً يملؤه بسلسلة ملوك ألب لونجا. واستطاع أن يعالج نشأة روما الأولى معالجة النبوة القديمة التي تبأت بمستقبل للمدينة لا يزال بعيداً غير متحقق.

ويلاحظ أن الصورة التي يرسمها فرجيل لآينياس ترتكز أساساً على صفة التقوى (Pietas)، وهي صفة كان قد خلعها عليه هوميروس في الآلياذة. غير أن الشاعر الروماني يضخم هذه الصفة ويحيط في معناها ليتضمن أوسع مفهوم الكلمة عند الرومان فتصبح ولاء لأسرته، وتقوى لآلهته، وشعوراً عميقاً بالواجب نحو أمه، وإيماناً بمصير روما العظيم. ولقد يبدو آينياس للقراء المحدثين شخصية باهتة، وتبدو «تقواه» باعثة على السأم، إن لم تكن مستغلقة على الفهم. ولربما يشعرون أيضاً بعطف تلقائي على خصمه «تورنوس» مثلما يشعرون بعطف على هكتور الطروادي في الآلياذة)، وبعطف على «ديدو» التي هجرها آينياس على نحو ما سرى. لكن تقوى آينياس للآلهة، وشعوره العميق بالواجب نحو مستقبل روما، كلاهما كان كفياً بأن يمحو أي مشاعر أو ميول شخصية عند القراء الرومان. ويتبين من يدرس الآينيادة دراسة فاحصة أو يقرأها بامعان. أن ثمة تطوراً تدريجياً - وهو بمثابة المفتاح لفهم شخصية البطل - يطأ على شخصية

آينIAS في الملحمه، إذ يزداد قوه وعزمها كلما تكشف له قدره المرسوم كمؤسس للدولة الرومانية. ولهذا يعتبر «الكتاب السادس في الآينياده»، حيث يبدأ آينIAS في إدراك عظمه روما المستقبلة، هو محور الملحمه كلها ومنذ تلك اللحظه يكتسب ثقة جديدة وجرأه وتصميما مما يرفعه إلى مصاف الأبطال.

آينIAS ومغامراته في البحر:

والقصة المتطورة - حسب ما يرويها فرجيل في ملحمة الآينياده - تجري على النحو

التالي:

خرج آينIAS من الحرب سالما بعد سقوط طروادة أما لأنه قاتل بشجاعة وشق طريقه إلى الساحل أو أفلت من رقابة الجيش الاغريقي، أو عفا عنه الاغريق وسمحوا له بالرحيل لأنه كان من الذين اعترضوا على الحرب ونصحوا بإعاده «هليني» إلى قومها أو لأنه أثار اعجاب الاغريق بتقواه وبسالته (هذا بغض النظر عن احدى الروايات التي زعمت أنه خان طروادة وسلمها للعدو). وأياً كان السبب، فقد شق آينIAS طريقه وسط النيران المندلعة في طروادة حاملاً أباه انخيسيس الكسيح (أو الأعمى) فوق كتفيه، و (تماثيل) آلهة أسلافه المسماة ببناتيس (Penates)، وممسكاً في احدى يديه بابنه الصغير أسكانيوس (Ascanius) - الذي سيعرف فيما بعد باسم يوليوس (Iulus) - وبزوجته كروسا (Creusa) في اليدين الأخري. لكي لم تلبث زوجته أن اختفت وسط اللهيب والدخان والفووضي، ولم يعثر لها على أثر.

وجهز آينIAS بعض سفن بناتها من أخشاب غابات جبل ايدا (Ida) القريب من طروادة. وبعد رحيل الاغريق أبحر باحثاً عن أرض موعودة في هسبريا (الغرب) مع رفاقه الطرواديين الذين نجوا من الهلاك. واتجه إلى طراقيا وقضى فيها بعض الوقت. ثم تابع رحلته إلى ديلوس حيث أمرته النبوة أن يتوجه

إلى أرض أجداده. وتذكر آينياس أن دردانوس (Dardanus)، جد الأسرة الطرودية إما لاكا جاء أصلاً من كريت، فسار قاصداً تلك الجزيرة. لكن وباء تفشى بين رجاله. وتجلت له آلهة أسرته في رؤية وأنبأته بأن إيطاليا هي الموطن الأصلي لدردانوس، وإليها ينبغي أن يشد رحاله، فغادر كريت ووصل إلى إيبيروس (في غرب بلاد الاغريق) وهناك وجد هلينوس (أحد أبناء برياموس) يتربع على عرش البلاد بعد موت ملكها نيوبطوليموس (ابن أخيه)، ومعه زوجته (أندروماغي) التي ترملت من قبل مرتين، مرة بعد مصرع زوجها الأول هكتور، بطل طروادة، ومرة أخرى بعد موت نيوبطوليموس الذي كان قد أسرها (هي وهلينوس) بعد سقوط طروادة ثم تزوجها في إيبيروس. ولما كان هلينوس في الأصل عرّافاً (كأخته التوأم كلسنдра) فقد تلقى منه آينياس توجيهات وافية عن مغامراته المقبلة: كان على آينياس أن يبحث عن مكان فيه خنزيرة بيضاء لها ثلاثين خنصاً (ولداً). وكان عليه أيضاً - وهو في طريقه إلى هذا المكان الذي يقع على ساحل إيطاليا الغربي - أن يزور سيبولا (Sibylla)، كاهنة أبواللون وعرفتها التي ستزوده بتوجيهات أكثر.

وبعد مخاطرات طفيفة، وصل آينياس إلى صقلية حيث استضافه واحتفى به أحد أقربائه. وهنا مات أبوه أنخيسيس. فغادر الجزيرة ليذهب إلى إيطاليا.

آينياس و «ديدو» ملكة قرطاجنة:

لكن فرجيل يقحم هنا حادثة لا ترد في الرواية التقليدية المتداولة، وقد استقاها - على ما يظن - إما من الشاعر نايغيوس أو من «العلامة فارو: إذ هبت فجأة أحدي الزوابع التي أرسلها إله الريح بتحريض من «جونو»⁽¹⁰⁾ - عدوة الطروديين - بقصد تحطيم سفن آينياس وإغرافها. لكن نبتونوس، إله البحر، خفف من وقع الكارثة، ووجد آينياس مرفاً أميناً في ساحل ليبيا (أي إفريقيا)

الشمالي بالقرب من موقع قرطاجنة، فلجأ إليه وأرسى فيه أسطوله الصغير الذي تحطمت بعض سفنها العشرين. وما علمت ديدو (Dido)، ملكة قرطاجنة، بوصول الغرباء، رحبت بهم، ودعتهم إلى قصرها حيث أقامت لهم وليمة فاخرة. وبلغ من كرمها أنها عرضت عليهم أي مساعدة متابعة رحلتهم أو البقاء في بلدها إذا طاب لهم المقام.

من هي ديدو

كانت ديدو (واسمها الأصلي اليسا Elissa) ابنة الملك صور (Tyros) الذي يسميه الشاعر بيلوس Belus (أي بيل أو بعل)، وهو اسم بمعنى «السيد»، وإله صور الذي كان «ملقراً» يلقب باسمه في بعض الأحيان⁽¹¹⁾. وكان لディدو⁽¹²⁾ شقيق اسمه بيجماليون (Pygmalion) الذي ارتقى عرش صور بعد موت أبيه. وقد زوجت ديدو من سيخايوس Zcherbaal (Sychaeus) أو أكرباس (Acerbas)، وكلا الاسمين تحريف لاسم الفينيقي معنى «بعل يذكر». وكان زوجها هذا يحبها وتحبه كما كان كاهنا في معبد إله المدينة، وأغنى رجل فيها. لكن بيجماليون طمع في ثروته وقتلها غيلة بينما كان يتعبد في المحراب، وأخفى الجريمة عن أخيه الطاغية ونصحها بالفرار من المدينة، ودلها على مخبأ ثروته. وفترت ديدو بكنوزها يد أخيها الطاغية ونصحها بالفرار من المدينة، ودلها على مخبأ ثروته. وفترت ديدو بكنوزها من صور في رفقة بعض نبلاء المدينة من اتباعها. ولعلها عرجت على قبرص. لكنها تابعت الرحلة في البحر حتى وصلت إلى لسان أو شبه جزيرة في خليج على ساحل أفريقيا الشمالي. وهناك باعها الليبيون قطعة من الأرض سعتها كسعة جلد الثور، كما ورد في القصة. لكن أتباعها من أهل صور لم تعوزهم الحيلة والدهاء فقطعوا الجلد إلى شرائح رقيقة جداً كالفتل، ووصلوها بعضها البعض الآخر حتى بلغت من الطول ما يجعلها تحيط برقة فسيحة كافية.

وسوروا هذه الرقعة من الأرض بسور وشيدوا على التل القائم عندها قلعة تحمل اسمه وهو بورسا Pyrsa⁽¹³⁾. ثم شرعوا في بناء مدينة حولها باسم «كرت حدث» أي «القرية» أو المدينة الجديدة، وحرف الاغريق الاسم إلى «كرخيدون» (Karehedôن)، وحرفه الرومان إلى «كرتاجو» (Karthago)⁽¹⁴⁾، وهي ما نسميها الآن قرطاجة/ أو قرطاجنة.

غير أن رخاء قرطاجنة لم يثبت أن أثار حسد يارباس (Iarbas)، ملك إحدى المناطق المجاورة، وأراد أن يشارك أهلها في هذا الرخاء مطالباً بيده ديدو للزواج منها ومهداً بالحرب إذا قوبل طلبه بالرفض. وكانت ديدو قد آلت على نفسها أن تظل وفيه لذكرى زوجها الراحل. لكن نزولاً على رغبة شعبها الذي كان يميل إلى اتمام هذا الزواج، تظاهرت ديدو بالقبول واستمehلت شعبها فترة من الزمن. وشرعت في أثناء تقليم كومة عالية من الحطب، وزعمت أنها تقيمها لكي تقدم القرابين استرضاء لروح زوجها الراحل. وأشعلت النار في كومة الحطب ثم ألقت فجأة بنفسها في النار منتهرة على مشهد من كل شعبها المنذهله. هكذا لقيت ديدو حتفها. وقد مجدت ديدو بعد موتها وألهت وجعلت صنوا للربة «عنت»، زوجة بعل، وربة صور وقرطاجنة.

غير أن فرجيل يحرف القصة الأصلية ويغير زمانها وكأنه يقربها إلى زمنه بمنظر مكبر. ذلك أن الحرب الطروادية نشببت وانتهت في تاريخ لا يبعد كثيراً عن عام 1200 ق.م. على حين أن قرطاجنة لم تؤسس إلا حوالي عام 814 ق.م. ويجعل الشاعر الروماني ديدو تقع في حب آينياس وتهيم به هياما بإيعاز من أمه الربة فينيوس (أفرو狄تي). وقد وهبت ديدو نفسها لآينياس فاستجاب إليها وقمت المعاشرة بتدبير من «جونو»، ربة الزواج. وقضى الاثنان معاً بضعة أشهر في متعة وهناء. ولكن جوبيرت بعث رسوله مركوريوس من السماء على وجه السرعة ليلوم آينياس على تراخيه وتقاعسه، ويستحثه على الرحيل عن قرطاجنة إذ أن أماه

واجبا آخر ينبغي أن يؤديه ورسالة يجب أن يتمها وهي بلوغ أرض إيطاليا حيث كتب له في لوح القدر أن يؤسس دولة جديدة.

ولم يستطع آينياس الكتمان وبدت على أساريره امارات القلق. واستفسرت منه ديدو فلم يخف عنها حقيقة ما أوحى إليه به واعتزامه تلبية نداء السماء. وعندئذ جن جنون ديدو، ورمته بالغدر والخيانة، ثم هدأت من ثائرتها وحاوت ملاظته وناشته البقاء ليشد من أزرها ولا يتركها وحدها، فتنهار مملكتها الوليدة أو تقع هي تحت رحمة من لا يرحمون من أعدائها زعماء القبائل التوميدية أو الليبية الهمجية، أو أخيها بيجماليون غليظ القلب الذي قد يتعقبها، أو يارباس البغيض الذي قد يرغماها على الاقتران به. لكن آينياس برغم معاناته صم أذنيه عن توسلاتها، وقرر أن يمتثل للأمر الالهي. وكلف رجاله بالتأهب للرحيل. ولم يقبل حتى التريث فترة وجيزة حتى تروض ديدو نفسها على فراقه والصبر على بعاده. وتعذبت ديدو في حبه عذاباً أليما. ولم تعد بقادرة على النوم أو النسيان. وحاوت أختها «أنا» (Anna) أن تواسيها. لكن هياتا، إذ لم يعد يجدي معها عزاء أو سلوان. لقد تحطم قلبها تحطيمًا. ولم يعد في وسعها الاحتمال. ولقد فكرت من يأسها اللجوء إلى السحر، وراودتها في لحظة فكرة موافقة آينياس والرحيل معه. ثم سولت لها نفسها استخدام العنف لعرقلته. لكن الأوان قد فات وأقلع آينياس بسفنه في فجر أحد الأيام.

وكانت ديدو آنئذ واقفة في القلعة، ورأت سفن آينياس وهي تبتعد عن الساحل الافريقي بسرعة، فانقلب حزنها إلى حقد دفين وناشدت آلهة القصاص أن تنتقم منه وتهلكه قبل أن يبلغ مقصدته. فإذا بلغ مقصدته فليتصد له هناك قوم أشداء يعلنون عليه حرباً شعواء ويردونه عن سواحلهم مدحوراً. فإذا حالفه حلفاء فلتنزلن بهم أيضاً هزيمة فادحة نكراً. ولئن عقد صلحاً، فليكن الصلح باهظاً ومهيناً. وليت آينياس لا يتمتع أبداً بملك أو سلطان، وليته يلقى حتفه

قبل الأوان. وقبل أن تلقي ديدو بنفسها في النار رفعت يديها إلى السماء مبتلة أن تشتعل روح الإنقاص من رماد جثتها في صدور أهل صور (القرطاجيين)، لتقودهم ضد كل سلالة الطرواديين البغيضة (أي الرومان)، وأن تقابل أمتها آينياس، أسطولاً ضد أسطول، وجيوشا ضد جيوش، وليت حرباً مريرة تظل جاثمة على صدور ذريته في مقبل الأجيال.

آينياس في العالم السفلي:

ويعود آينياس إلى صقلية حيث يحتفل بذكرى مرور عام على وفاة أبيه أنخيسيس بإقامة مباريات رياضية جنائزية كالسباق البحري بين سفن أسطوله، والجري والملاكمة، والرمادية بالنبال والسهام، وسباق الخيل، والمصارعة، ورمي القرص وغير ذلك من الألعاب. وتوزع الجوائز على الفائزين وغير الفائزين فيعطي جميع المشتركون في المباريات سهاماً برأوس حديدية، وبلطاً مزخرفة بتصاوير فضية. وأما الثلاثة الفائزون الأوائل فقد نال كل منهم اكليلاً من الغار حول جبينه فضلاً عن الجائزة المناسبة: جواد مطعم بجلود موشاة للأول، وجعبة مليئة بالسهام ذات غطاء ذهبي ومشبك مرصع بالجواهر للثاني، وخوذة للثالث⁽¹⁵⁾. لكن الربة جونو عكرت صفو الاحتفال البهيج إذ كانت لا تزال حاقدة على طروادة والطرواديين وتضرر لهم الشر وتمني لهم الهلاك. فقد استغلت ضيق بعض النساء في معسكر آينياس ذرعاً بطول الرحلة وما فيها من عناء، وسُولت لهن - عن طريق ابنتها أيريس - أن يضرمن النار في السفن فاستجبن إلى تحريضها في لحظة من لحظات السخط أو الجنون، ولو لا يقظة رجال آينياس لدمرن أكثر من أربع سفن.

وبالسفن المتبقية يرحل آينياس تاركاً وراءه في صقلية المنسنين والضعفاء والعاجزين من رجاله لكي يؤسسوا مدينة في تلك الجزيرة ويولي وجهه شطر إيطاليا

وينزل بموقع مدينة كوماًي (Gumae)⁽¹⁶⁾، حيث يلتقي بسيبولا (Sibylla)، العرافة الرهيبة، وأشهر نبيات الأوللون التي كانت تعيش في كهف مسكون بالأشباح قريب من معبده ولا يبعد كثيراً عن مدخل العالم السفلي (عام الموت). وكانت سيبولا بعد أن تروح فيما يشبه الغيبوبة تتکهن بالغيب بإلهام مباشر من أبواللون، إله النبوة. وعندما التقى بها آينياس أمرته أولاً بتقديم النذور وإقامة الصلوات وترتيب الأدعية والابتهالات المناسبة لأبوللون، نصير الطرواديين. ثم تنبأ آينياس بوصوله ساماً إلى لاتيوم عن قريب. وإن كان سيشوب ابتهاجه أحزان عند ضفاف التiber حيث سيخوض حرباً رهيبة كالحرب التي ثارت بسبب «هليني» بين الاغريق والطرواديين. لكن سيبولا أوصت آينياس بأن يمضي قدماً بشجاعة ولا يستسلم لليلأس أو للحظ العاشر، ولسوف يتافق صيته تألق النجوم.

زيارة آينياس لأبيه في «العالم السفلي»

وبعدئذ طلب إليها آينياس أن تدلّه على طريق الوصول إلى أبيه في «العالم السفلي»، إذ أن روح أبيه (أنخيسيس) كانت قد حضرت إليه من قبل وناشدته أن يزوره في عالم الموت لكي يكشف له المزيد من حجب الغيب، وينبهه بالكثير عن مستقبله. ولقد أفهمته سيبولا أن النزول إلى عالم الموت ربما يكون هيناً ميسوراً لأن المدخل إليه كان كهفاً قريباً من كهفها عند بحيرة تقع في فوهة بركان سحقيقة الغور وتنبعث منها أبخرة سامة، ولذا سميت البحيرة بأفرنوس Avernus أي «الخالية من الطيور». لكن العودة من هناك إلى عالم الأحياء دونها صعب بل دونها خطر القتاد: فطريقها محفوف بالخطوب والمهالك، إذ تحيط بالعالم السفلي أنهار رهيبة مثل «كوكيتوس» النواح، «وستيكس» البعيض، و«أخيون» المعتم. وقالت له سيبولا لكن ما دمت توافقاً إلى التحدث مع أبيك، ولديك الجسارة على أن تجتاز هذه المخاطر فلسوف أرشدك. لكن دعني أنبهك إلى ما ينبغي أن

تفعله أولاً: ففي أحراج «أفرونوس» المظلمة يوجد غصن محتجب وسط فروع شجرة كثيفة سامقة يتدلّى مثقلًا بأوراق من الذهب. وهذا الغصن الذهبي هو شعار بروسيينا، زوجة بلوتو، إله عالم الموتى. وتحرص الغابة كلها على اخفاء هذا الغصن عن أعين البشر. فهو بمحاباة جواز المرور. لكن من يقطف هذا الغصن ينفتح أمامه طريق العودة بسلام من عالم الظلام إلى عالم النور.

وصف عالم الموتى

وتم لآينياس تحقيق ما أوصلت به النبية. ولم تلبث أن انفتحت أبواب قصر بلوتو. وأجال بصره في جوف الجحيم فرأى «الحزن» و «القلق» و «الأمراض الخبيثة» طريحة الأرض، ولمح «الخوف» و «الجوع» و «خطايا الشباب» قابعة في ركن هناك. كذلك رأى «النوم» راقدا، وهو الأخ الرفيق «للموت» القاسي. كذلك شاهد في ارتياح أشكال «الحرب البغيضة»، و «النزاع الأهلي المريض» و «القتل الغادر». ووراء قصر ملك الموتى لمح كثيراً من أشباح تلك المخلوقات العجيبة التي تجمع بين صفات الإنسان وصفات الحيوان.

وغادر آينياس هذا المكان الرهيب مبهجاً مغادرته وتتبع خطوات سيبوللا على الطريق المؤدية إلى آخiron (Acheron)، وهو ذلك النهر المعتم الذي يدور حول العالم السفلي في شكل دوامة غاصة بالرمل والطين ثم يفرغ ما بجوفه عند ملتقى نهري كوكيتوس واسنيكس. وبهذه الأنهر المقدسة يحلف البشر (وأحياناً الآلهة) يحلفون اليمين المغلظة صادقين أحياناً، وكاذبين فيأغلب الأحيان. ويتولى حراستها ذلك النوي (المراكب) الذي يسميه الناس خارون (Charon)، وهو كهل أشيب الشعر أشعثه، كث اللحية: عابس الوجه صارمه، رث الثياب زري الهيئة، يتلقى أرواح الموتى الشاحبة في قاربه الأسود، وينقلها ضاربا بمجذافه بين ضفتين، وهما ضفتان حالكتا السواد. ويتطلع هذا

الرجل البشع بعينيه الشرستين المتقدمتين بالشرر، الغائرتين تحت حاجبين كثيفين وجبين مغضن، يتطلع إلى ضفة نهر الموت حيث تجتمع أرواح الموتى، متدافعه بالمناكب متزاحمة، في قلق ولهفة، ومهممها باصوات غير مسموعة، وهي أرواح أمهات، وفتیان وفتیات بكاري لم يتزوجن، وأبطال عظام، ورجال ونساء، طاعنين في السن وطاعنات، وقد بلغوا من العمر أرذله حتى تقوست ظهورهم من عباء السنين، يتجمعون في صمت رهيب أو همس خافت كالحفييف، وكلهم متلهفون على العبور إلى الضفة الأخرى. لكن النوي العجوز المكفر الوجه يتفرس في وجوههم ويختار فيأخذ بعضهم، ويدفع بمجذافه الطويل بعضهم الآخر بعيداً عن قاربه العتيق المتهالك.

وتسائل آينياس عن تزاحم هذه الأرواح على ضفة نهر استيكس، فأخبرته سيبوللا بأن من بينها أرواحاً كثيرين لم تدفن جثثهم بعد الموت، فظلت بلا قبور، هؤلاء لا بد أن ينتظروا على هذه الضفة من النهر. ذلك أن خارون، النوي العجوز، لا ينقل إلى الضفة الأخرى إلا أرواح من ووريت جثثهم في القبور لتسريح رفاتهم تحت الثرى أو من أحرقت جثثهم على أكواخ من الحطب، وكان دفنهم أو حرقهم مشفوعاً بالطقوس الجنائزية اللائقة. أما أرواح الآخرين فتظل مائة سنة أو مائتين تروح وتغدو هائمة من مكان إلى مكان، فوق هذه الضفة من النهر، على غير هدى، منبوذة حائرة شقية.

واقترب آينياس مع مرشدته من مملكة الأرواح و«الموت» و«الليل الناعس» فتصدى لهما خارون حانقا مغضبا لولا أن كشفت «سيبوللا» له عن شخصية رفيقها وصفاته والغرض من زيارته، ولوحت بالغصن الذهبي الذي كانت تخفيه بين طيات رداءها. وأركبهما خارون قاربه بعد أن أزاح الموتى التي كانت قد استقرت فيه، والتي أخذت تولول متذمرة شاكية من هذه المحاباة. وأخذ القارب البالي الذي امتلأ بالمليا من كثرة ما فيه من ثقوب يئن ويهتز وكاد

يغوص في قاع النهر تحت ثقل آينياس بن انخيسيس. ولولا خبرة خارون الطويلة لما انتقل آينياس ورفيقته إلى الضفة الأخرى بسلام.

وعلى الضفة الأخرى أبصرًا بالكلب الرهيب كربيروس (Cerberus) ذي الرؤوس الثلاثة. وكان يربغ باسطاً ذراعيه بالمدخل، وينبح نباحاً مدوياً بحناجره الثلاثة المضفورة بشعابين لها فحيح مخيف، ويقف كالحارس الأمين حائلاً دون دخول أي غرباء إلى قصر سيدة بلتو، إله عالم الأموات. لكن سيبوللا ألقت بلقمة من طعام بين فكي الكلب المسعنور، فابتلعها بشراهة ثم رقد متثائباً ثم راح في سبات عميق. وفي لمح البصر كانت سيبوللا وآينياس قد وثبا من فوقه مارقين كالسهم عبر المدخل ثم إلى جوف القصر البهيم. وترامت إلى مسامعهما أصوات وأنين: بكاء أرواح الأطفال الذين انتزعهم الموت من أحضان أمهاطهم وما يجتازوا بعد عتبة الحياة، وهي أرواح بريئة لم تعرف الشقاء أو الهباء. ثم أنات أرواح الذين اتهموا زوراً وأعدموا ظلماً، هناك يحاكمون من جديد أمام محكمة عادلة يرأسها قاض نزيه هو مينوس، ملك كريت. وتأوهات أرواح المنتحررين تخلصاً من شقاء الدنيا وهرباً من نوائب الدهر. هؤلاء أرواحهم تهيم إلى الأبد وسط مستنقعات ضفة نهر استيكس. وكم يتمون أن يبعثوا أحياء من جديد ويعودوا - لو أتيح لهم - إلى عالم النور، راضين بما قسم لهم متحملين آلام الحياة مهما اشتدت وطأتها أو بلغت بلاويها.

وبعد خطوات وصل الاثنان إلى حقول الفجيعة أو «ساحات النحيب» حيث تهيم أرواح هؤلاء النساء اللاتي قادهن الحب الآثم إلى الهلاك. هنا كانت «فايدرا» و «بروكريس» و «ارييفيلي» اللاتي لوثن شرف أزواجهن وبعن أنفسهن لعشاق بهدايا من الحل بدلت لهن مغربية ثمينة. ومعهن كانت أيضاً «باسيفائي»، زوجة مينوس ملك كريت، التي اجتاحتها نزوة شاذة فهفا قلبها لا إلى فتى فاتن وسيم بل إلى ثور ثائر بهيم. وعاشرته متقمصة شكل البقرة، فهوئ بها إلى

الحضيض، إذ أنجبت منه وحشا عجيب الخلقة نصفه انسان ونصفه الآخر ثور، ومن ثم فقد سمي بالمينوتاuros (Minnotaurus).

الالتقاء بديدو

وفجأة وقعت عينا آينياس على شبح «ديدو» المسكينة، فسرت في أوصايله رجفة شديدة. كانت روحها تنتقل بين الأشجار هائمة على وجهها متحسرة محزونة، ولم يندمل جرحها بعد. وناداها آينياس في شوق ولهفة، وناشدتها الصفح عنه مقسمًا بأنه لم يهجرها بمحض إرادته بل رغمما عنه امثلاً لأمر جوبير، وأنه لم يكن يتصور أن رحيله عنها سيدفعها إلى الجنون والانتحار. وأجهش بالبكاء محاولاً تهدئه غضبها الأهوج لكنها أشاحت بوجهها عنه، وصوبت عينيها نحو الأرض في صمت وبرود. كانت ملامحها جامدة قاسية وكأنها قدت من حجر صوان أو من رخام باروس⁽¹⁷⁾. وأخيراً تولت هاربة - وهي لا تزال كارهة - وغابت في أعماق الغابة المظلمة حيث راح سيخابوس، زوجها الأول في صور، يهدىء من أحزانها ويبادلها العناق، بينما راح آينياس ينظر إلى بعيد بعين ملؤها الحسرة والاشفاق والدموع.

وسار آينياس بعد ذلك مع صاحبته على طريق اليمين المؤدي إلى «الاليزيوم» ولكنه تلفت إلى الطريق الآخر على الشمال. فرأى تحت جرف منحدر قصرا ضخما له ثلاثة أسوار ويحيط به نهر يسمونه فليجثون (Plegethon) نسبة إلى مياهه الملتهبة التي تجري متداقة بسرعة هائلة فوق قاعة الصخرى. وكان للقصر مدخل موصد برتاجات هائلة مشدودة بالحديد ومدلاة بين عمودين طويلين من الحجر الصلد. هنالك في برج شاهق من حديد كانت تجلس ربة القصاص تيسيفوني (Tisiphonê) التي أنيطت بها حراسة هذا الموضع من الجحيم. وكانت متدرثة برداء مخضب بالدماء، ولا تخفل لها عين بالليل أو بالنهار.

وترامي إلى سمع آينياس صليل الأغلال، وضربات السيطان، وصرخات الأنين، فامتلاً قلبه رعباً وامتقع وجهه خوفاً، وتوقف عن المسير متسائلاً عن أسباب هذا العقاب الرهيب، وعن الجرائم والخطايا التي تستحق مثل هذا القصاص الأليم. فأجابته سببولاً بأن المكان هو ترتاروس (Tartarus) أي الجحيم، وهي هوة فاغرة فاها سحقيقة الغور تبعد مرتين عن سطح الأرض بعد هذا السطح عن قمة جبل أوليمبوس. وفيها كان يتولى الحساب قاض آخر هو ردمانثوس (Rhadamanthus) شقيق مينوس، وابن جوبير نفسه. وقد اشتهر بنزاهته وصلاحته في الحق وصرامة. كان يسمع أقوال المجرمين، وينتزع الاعترافات بالتعذيب من صدرو الآثمين، ويقرر نوع العقاب. ثم تتولى تيسيفوني التنفيذ إذ تمسك في يد بالسوط وفي الأخرى بالتعابين. وكانت تعاونها أخوات لها من ربات القصاص أو «اللعنة المجمدة» الالتي كن يضارعنها في القسوة والشراسة.

ففي هذه الهاوية السحرية، هاوية الآلام والأحزان، كان جوبير قد زج بالجبارة (Titans)، وهم الأبناء الأوائل للأرض القديمة، بعد أن قذفهم بصاعقة. وترأه الآن وهم يتمرغون في الطين ويتلدون من الألم. وفيها أيضاً ترى غيرهم من العمالقة (Gigantes) الذين حاولوا الاطاحة بزيوس من عرشه أو مشوا في الأرض مرتاحين بمقدرتهم على مجارة زيوس في قوته وألوهيته. وكان بعضهم تتدلى من فوق رؤوسهم صخور تريد أن تنقض عليهم. فيعيشون في رعب مستمر، وبعضهم الآخر قد صفت أمامهم موائد حافلة بما لذ وطاب من الطعام الشهي لكنهم لا يستطيعون الأكل منه برغم اشتئائهم له، فكلما عضهم الجوع بنابه وهموا بهد أيديهم إلى الطعام أبعدتهم عنه تيسيفوني، ربة القصاص، أو احدى أخواتها، بلسعهم بشعل ملتهبة وافزاعهم بصراخ مرعب. وأحدهم قد مط جسمه حتى غطى تسعة أفدنة، وسلط على كبده المتجدد باستمرار صقر ينهشه إلى الأبد. وكان كثير منهم في حياتهم الدنيا قد لطخوا أيديهم بدماء ذوي الأرحام.

قتلوا أباءهم أو أخواتهم، أو ارتكبوا أثماً كبيراً في حق جيرانهم أو أحبوا الملايين حباً جماً فاكتنزوه دون أن يدعوا منه شيئاً لذوي قرباهم. وهذا خائن باع وطنه بماله، وذاك سرق من آخر زوجته، وثالث أرغم ابنته على زواج بغيض أو محرم. لقد ارتكبوا جميعاً خطاياً كبيرة فأعدت لهم الآلهة صنوفاً من العذاب الأليم انتقاماً منهم. وترى واحداً منهم مثل سيسيفونس (Sisyphos) وهو يدفع بصخرة ضخمة إلى قمة تل شاهق. لكن ما أن يقترب من القمة حتى تنفلت الصخرة من يديه وتتدحرج نازلة إلى أسفل. وكان عليه أن يرفعها ثانية إلى أعلى. وهكذا دواليك، يحاول مرة تلو أخرى دون أن تستقر الصخرة، فيظل يشقى بها إلى الأبد. وترى مجرمين آخرين معلقين من أرجلهم في دولاب عجلة لا تكف عن الدوران. ومن بينهم واحد كان قد تواطأ مع طغمة الكفرة وأضرم النار في معبد أبواللون بدلفي ودنس حرمة المقدس.

وأخيراً بلغ آينياس مشارف الاليزيوم (Elysium) أو «دار النعيم»، وهي أرض مشرقاً بهيجة تكسوها مروج خضراء، وتنبت فيها رواب فوقها زهور صفراء فاقعة تسر الناظرين، وتنساب فيها جداول مياها رقراقة وطيبة، وتتخللها أحراجاً باسمة. هنا كانت أرواح المباركين تستمتع بالشمس نهاراً، وليلاً بالنجوم. وكان الأثير، المصبوغ بلون الورد، يصافح وجوه حشود الأرواح إليها نئة وهي تلهو لاغية أو ترقص في مرح. هنا كان يعزف أورفيوس (Orpheus) الموسيقار الخالد، بقيثارته ذات الأوتار السبعة أعزب الألحان. هنا أيضاً كانت تسكن أرواح أبطال العصور الغابرية: تيوكروس ودردانوس، مؤسس الدولة الطروادية. وقد نظر آينياس في دهشة إلى أطياف أسلحتهم وعرباتهم الحربية، وashباح جيادهم وهي تقضم الكلأ الأخضر في المراعي النضيرة أو ترمي منتشية فوق السهول المنبسطة. وثمة أجمة كان يتثنى في وسطها نهر إريданوس (Eridanus) الذي كان يهبط من سطح الأرض إلى دار النعيم في العالم الآخر. وبعد أن يجري فيها مسافة

قصيرة يصعد ليصب في البحر.

وعلى مسافة غير بعيدة رأى آينياس جدولًا ملائه خرير وينساب وسط أشجار الغار التي يفوح منها شذى وعبير، وعلى ضفتى هذا النهر أبصر بأطياف أخرى تمرح وتغنى باصوات فرحة. وهذه كانت أرواح الذين بلغوا أسمى مراتب الفضيلة، واصبحوا أكرم الناس عند الآلهة، وأطيات الذين قتلوا في سبيل أوطانهم، والذين تعاظمت سيرتهم في الأرض بالبحث عن الحقيقة: الفلاسفة والكهنة، والشعراء الذين ألهمت قصائدتهم الناس أفكارا سامية نبيلة. ثم أرواح الذين حازوا رضا الناس جميعاً بمروءتهم وإيثارهم الغير على أنفسهم. وقد تجمعت الأرواح حول الزائرين الغريبين وسألتها سيبوللا عن مكان أنخيسيس فتطوعت إحدى هذه الأرواح وأرشدتهما إلى مستقره.

وعندما التقى أنخيسيس بابنه رفع ذراعيه متھلاً ودمعت عيناه من الفرح، ولهج لسانه بشكر الآلهة على تحقيق أمنيته ورؤيه ابنه ثانية وسماع صوته. وروى آينياس لأبيه ما صادفه من مخاطر حتى وصل إلى كوماى (Cumae). ثم حاول أن يمسك بيده والده. لكن على الرغم من أنه حاول ثلاث مرات أن يحتضن طيف والده إلا أنه انفلت من بين ذراعيه انفلات الرؤيا أو الحلم. وقد لمح آينياس وراء أحد الأحراش المنعزلة ليثي (Léthé) أو «نهر النسيان» وهو ينساب في تراخ شديد، وعلى ضفتيه كثير من الأرواح المتزاحمة دائبة الحركة كالنحل عندما يتهافت على زهور الربيع مالتاً الجو بطنينه الوسنان. وأثار المشهد دهشة آينياس فسأل أباًه عن معناه، وأجابه أنخيسيس بأن تلك الأرواح هي التي قدر لها أن تصعد إلى عالم الأحياء تتقمص أجساداً مرة ثانية. إنها تشرب الآن من «نهر النسيان» وبذلك تنسى حياتها الأولى على الأرض. وهذه الأرواح هي التي ستحل مستقبلاً في أجساد ذريتك. لقد استدعيتك لترى هذه الأشياء فتعجل بالذهاب إلى إيطاليا بحماس أشد وتأسيس مدینتك. وسؤاله آينياس ما إذا

كان يعني ذلك أن كل الأرواح التي تأتي إلى العالم السفلي تعود ثانية إلى سطح الأرض، واستفسر عن تلهف هذه الأرواح على الصعود إلى عالم الأحياء. وما كان أنخيسيس قد انزاحت عن عينيه تلك الغشاوة التي تعمى بصائر البشر، فقد أخذ يشرح لآينياس تلك الأسرار الالهية قائلاً أن كل إنسان فيه قبس من روح متوجهة، ويتفاوت مقدار هذا القبس بتفاوت الناس، وإن كان معظم هذا القبس الروحاني يخبو ويحمد بسبب بقاءه سجينًا داخل الجسد، ومن هذا القبس الالهي وحده يشع كل الخوف، وكل الحب والأمل، وكل الحزن والفرح. وعندما يحضر الموت وتتحرر الروح من براثن الجسد، فإن كثيراً من الأدران التي ابتلي بها الجسد تظل عالقة بالروح (نتيجة انغراسها فيها بطول مقامها في الأرض) فتحملها معها إلى عالم الأطياف. ولقد عذبت الأرواح التي تراها متجمعة متزاحمة في تلهف فوق ضفة «نهر النسيان»، وغسلت ذنبها بماء فيضان جارف أو طهرت بلهيب النار. وبعد ذلك تأتي الأرواح إلى «الاليزيوم» حيث تقيم إلى أن تزول عنها آخر شائبة من شوائب الأجساد، ولا يتبقى إلا الأرواح صافية خالصة. ولا تصبح الأرواح بعد تطهيرها تماماً من كل دنس وخطيئة، لا تصبح مهياً لتنقمص أجساداً أخرى إلا بعد انقضاء ألف سنة أو أكثر. وعلى الأرواح النقية أن تأتي إلى ضفاف «نهر النسيان» تلبية لنداء إلهي، وتشرب من مياهه فتنسى كل حياتها الأولى على الأرض، وتصعد عائدة إلى عالم الأحياء».

وبعدئذ شرع أنخيسيس في التنبؤ لآينياس بالأمجاد التي يدخلها المستقبل لأبناء إيطاليا من ذرية دردانوس. وختم نبوته قائلاً لابنه «فلتتجه بنظرك إلى هناك لتري «قيصر» المسمى «يوليوس» باسم ابنك «بولوس» (والملقب الآن بأسكانيوس)، وتري قيصر أغسطس بن يوليوس الذي سيبدأ عهداً ذهبياً في لاتيوم، وسيحكم شعبه بالرفق، ويأتي، بالسلام المنشود، ويسرع من القوانين ما يكفل العدالة للضعفاء من رعاياه قبل الأقوياء. ولسوف يحيط سلطانه إلى العالم

بأسره، وعلى أفريقيا نفسها والهند، وأقطار البرابرة النائية في الشمال.».

وهناك بابان للخروج من عالم الموتى: أحدهما أسود داكن مصنوع من قرن الحيوان، ومن خلاله تمر الأرواح الخالصة النقية صاعدة إلى سطح الأرض لتتقمص أجساداً جديدة. والآخر أبيض ناصع لأنه مصنوع من العاج المصقول ولكنها زائف، إذ لا تمر خلاله سوى اضغاث الأحلام، وسوى الذين جاؤوا في زيارات عابرة إلى عالم الظلام. وقد أنخيسيس ابنه والكافنة إلى الباب العاجي، فاجتازاه بسرعة إلى عالم النور والهواء.

وتنفس آينياس الصعداء وشق طريقه مهولاً إلى حيث كانت سفنه ورفقاوه. وما أن وصل حتى أمر بإقلاع الأسطول نحو الشمال. وسار بمحاذة ساحل إيطاليا الغربي ثم ألقى مراسيه في مرفاً هادئاً أميناً. ونزل آينياس ورجله في مكان لا يبعد كثيراً عن مصب نهر التiber في إقليم لاتيوم. وكان المكان قريباً جداً من بلدة تسمى لورنثوم. وعندما نزل إلى أرض إيطاليا كان قد مضى على مغادرته طروادة سبع سنوات.

نزول آينياس في إيطاليا وحربه:

كان يسكن إقليم لاتيوم (Latium) شعب يعرف باسم اللاتين (Latini). وكان ملكهم يدعى لاتينوس (Latinus) وعاصمته هي لورنثوم (Laurentum) وقد بادر آينياس منذ أن حط رحاله هناك إلى إنشاء علاقات ودية مع هذا الملك. فأرسل إليه الهدايا. ورحب الملك بآينياس واحتفى برجائه الطرواديين. وما كانت النبوة قد أوصت لاتينوس بأن يزوج ابنته لافينيا (Lavinia) من أجنبي يأتي من بلاد بعيدة، فقد رأى في آينياس الرجل المناسب، فقرر أن يصاهره ويزوجه من ابنته مع أن رجلا آخر كان قد تقدم لخطبتها. كان هذا الرجل الآخر هو تورنوس (Turnus)، أمير الروتوليين (Rutuli)، وهم

شعب كان يسكن حول مدينة أرديا (Ardea) القرية من لاورنتوم، على ساحل اقليم لaitom. وقد ساء الربة جونو مشروع زواج آينياس من لافينيا، لأن هذا الزواج يحقق للطرواديين آمالهم. ولذا سعت إلى عرقلة الزواج وافساد العلاقة بين الطرواديين واللاتين. واثارت في قلب الملكة أماتا (Amata) أم لافينيا الحقد على آينياس والطرواديين، وصورتهم لها كفراصنة يرغبون في اختطاف ابنتها مثلاً فعل من قبل باريس الطروادي مع هليني الاغريقية. وزينت لها جونو أن من الأفضل تزويج ابنتها لتورنوس، أمير الروتوليين ولا سيما أن تورنوس نفسه يرجع نسبة في الأصل إلى جد اغريقي بعيد. وليس في هذا ما يتعارض وما قالت به النبوة. ولم تقف جونو عند هذا الحد، بل ألهبت حماس تورنوس، واستثارت نخوته، وشجعه على التمسك بخطيبته، وحضرته على مقاتلة خصم الطروادي الدخيل. هكذا وجد لاتينوس، ملك اللاتين، نفسه مضطراً إزاء ضغط زوجته «أماتا» والجاج تورنوس، إلى السكوت على مضض، إذ كان مسناً فآثر الاعتكاف في قصره تاركاً قومه اللاتين يحالرون الروتوليين ويشنون حرباً شعواء على آينياس وقبمه الطرواديين. وقد انضم إلى الفريق الأول أمراء شعوب كثيرة جاءت من مختلف أنحاء ايطاليا.

ولم يجد آينياس هو الآخر مناصاً من البحث عن حلفاء يشدون من أزره ضد هذه القوات الايطالية المتحالفه التي احتشد معظمها على الضفة الأخرى من نهر التiber، وأوشكت أن تعبر النهر وتنقض عليه في معسکره بالقرب من لاورنتوم. لذلك استنجد بإيفاندر (Evander)⁽¹⁸⁾، عدو اللاتين، وهو أمير أركادي الأصل، كان قد هاجر قبل الحرب الطروادية من بلاد الاغريق إلى لاتيوم حيث أسس مدينة بلانتيوم (Pallanteum) فوق تل البلاتين، نسبة إلى مدينة بهذا الاسم في موطنه الأصلي⁽¹⁹⁾ وقد استحدث فيها عيداً يسمى لوبركاليا (Lupercalia)، أحياء لعيد مقابل له كان يحتفل به أيضاً في موطنه

الأصلي. وذهب آينياس عن طريق النهر إلى إيفاندر في عاصمته لكي يطالب منه النجدة. وفي طريقه إليه وجد فجأة الخنزيرة البيضاء وأولادها الثلاثين فتفاءل بتحقق النبوة، وارتقت روحه المعنوية واشتد عزمه. وحصل آينياس عن طريق إيفاندر، الذي احتفى به وعلى مساعدة جيش اتروسكي كان ثائراً مع الشعب على مليكه الظالم ميزنتيوس (Mezentius)، حاكم مدينة أجولا - المسمى كاييري (Caere). في إقليم اترووبا. وقد أحرقوا قصره وطردوه من المدينة، فلجا إلى صديقه تورنوس، ملك الروتوليين. وكانوا يطالبون بشن الحرب على تورنوس ليرغموه على تسليم الملك كي يعاقبوا على جرائمها البشعة. وكان أحد العرافين قد تنبأ بأن الجيش الاتروسكي الثائر لن يتحقق له النصر إلا إذا تولى قيادته رجل أجنبي. ومن ثم فقد تولى آينياس الطروادي قيادة الاتروسكيين والطرواديين ضد أعدائه الروتوليين واللاتين المتربيسين به عبر النهر. وابتله آينياس إلى أمه فينيوس أن تشد من أزره، فألحت على زوجها فولكانوس، إله النار والحداده، أن يصنع له درعا وأسلحة، فأمر رجاله، في مصنعه الكائن بجوار بركان آيتنا بجزيرة صقلية⁽²⁰⁾، أن يعجلوا بصناعة الدرع والأسلحة، وهي أسلحة لا يقدر على مقاومتها تورنوس أو سواه من البشر. وكان وجه الدرع مسنّما برسوم بارزة تمثل مناظر من كل التاريخ الروماني، قدّيمه ومستقبّله.

وصب تورنوس نيرانه على سفن العدو ثم عبر النهر مع حلفائه اللاتين. وحاصروا معسكر الطرواديين أثناء غياب آينياس في بللانتيوم. ودارت معركة عنيفة قتل فيها بعض أقطاب الفريقين. وبادر اسكانيوس بارسال رسائل إلى أبيه ليبلغوه خبر هجوم الأعداء وتسلل رجالان إلى داخل معسكر الروتوليين وهم نيام مخمورون وقتلا بعض قوادهم. لكن الأعداء تنبهوا وحاصروا الرجلين وأجهزوا عليهما. ثم اقتحم تورنوس معسكر الطرواديين وحده بعد أن صرّع منهم عدداً كبيراً. لكنه حاصر من كل جانب وكاد يفتـك به ولم يتمكن من الافلات إلا

بصعوبة. وقفز في النهر وعبره سابحاً وعاد ساماً إلى معسكره.

وما كان هذا القتال قد نشب ضد مشيئة جوبيتور وعلى غير رغبته، فقد دعا بقية الآلهة إلى اجتماع فوق أوليمبوس ليقول لهم «أن الوقت لم يحن بعد لنشوب المعارك في إيطاليا. وسيأتي ذلك الوقت لا محالة. لكن ليس لأي إله منهم أن ي Urg به. ولسوف ترسل قرطاجة في يوم من الأيام أسطولاً وقادداً مغواراً يقود جيشه عبر الألب ويخرج إيطاليا. ولست أريد أن ينبعث - قبل الأوان - حقد دفين أو يستل سيف ضد سيف، أو تطلق حربة ضد حربة بين فريق وآخر في إيطاليا». هكذا تكلم كبير الآلهة في اقتضاب. لكن ابنته فينيوس⁽²¹⁾ وزوجته جونو، تكلمت كل منهما في اسهاب. انبرت فينيوس أولاً لتبرير مناصرتها للطرواديين الذين - على حد قولها - قاسوا الأهوال في الحرب الطروادية. وهجرروا مدینتهم بعد احتراقها. وخاطروا بأنفسهم في البحر، ولم يبلغوا سواحل إيطاليا إلا بشق الأنفس لكي يجدوا لهم مأوى ويوسسو طروادة أخرى. وانبرت جونو للرد عليها منددة بمسلكها المتشين، ومبررة - هي الأخرى - مناصرتها لليطاليين، ومناهضتها للطرواديين وملكتهم آينياس الذي تخلى في نذالة عن «ديدو» بعد أن أوقعتها فينيوس نفسها في حبه. إذ تواتأت ربة الحب والجمال مع ابنها الماكر «كوبيدو» على ذلك حتى لم تعد ديدو بقادرة على فراق الطروادي. لكنه غدر بها وهجرها في قسوة مما دفع بالملكة القرطاجية البائسة إلى الانتحار. ثم أليس من حق الإيطاليين الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة الأجانب الغاصبين؟ وإذا كان آينياس قد جاء إلى لاتيوم تلبية لهاتف من السماء أو استجابة لنداء «القدر»، وتحقيقاً لنبوءة المتنبئين، فهل هذا يخوله الحق في أن يأخذ خطيبة رجل آخر؟ أن لافيينا التي يطمع فيها الأمير الطروادي، كانت مخطوبة لتورنوس. فمنذ متى أصبح العريس مذنبًا إذا هو أشهر السيف في وجه الوفد المتسلل الذي يريد أن يسلبه عروسه؟ وعلى أي حال فإن الآلهة لم تضن من قبل على الطرواديين بالمساعدة. أم يخرج بهم آينياس سالمين من أتون طروادة

المشتعلة؟ ألم يتدخل بعض الآلهة لانقاد سفن آينياس من نيران الروتوليين وبدل أشكالها فبدت كحوريات البحر بقصد اخفائها عن أعين أعدائه. فأي غرابة اذن في أن أقدم العون لتورنوس الايطالي؟ ومضت جونو تنهال على فينيوس لوما وتقريرا. قالت «ومن التي تسببت في اندلاع الحرب بين الاغريق والطرواديين؟ ألسنت أنت يا فينيوس التي حضرت باريس، ذلك الطروادي الآخر، سارق الزوجات، على اختطاف هليني مما أدى إلى سيلان الدم أنهاراً فوق سهل طروادة؟ كان ينبغي أن تعلمي إلى أين يقودك طيشك الآثم، ارحل إلى بافوس أو إداليا أو كيثيرا⁽²²⁾. وارفعي يديك الناعمتين عن لعبة، الحرب الخشنة. وإلا فقد تصابين مرة أخرى بخدش في ذراعك البعض كالذي أصابك به في الحرب الطروادية آدميّ كافر لم يعرف قدر الوهيتك ولم يسلب لبّه جمالك⁽²³⁾.

وانقسم الالهة فريقين أحدهما مؤيد لفينوس والآخر مؤيد لجونو. لكن جوبيرت حسم الحوار قائلاً أنه سوف لا يتدخل لمساعدة الايطاليين أو الطرواديين، تاركاً كل فريق لقدرته ومصيره وسوف لا يحابي أحدهما على حساب الآخر. ودعا بقية الآلهة إلى الاقتداء به وعدم التفرقة في المعاملة. وحذرهم من مغبة عصيان أمره. وختم حديثه بتلك اليماءة من رأسه الذي كان يهتز له كل جبل أوليمبوس.

واستؤنف القتال من جديد بعد عودة تورنوس والايطاليين واللاتين إلى مهاجمة معسكر الطرواديين وحلفائهم الأركاديين. واتفق أن عاد أيضاً آينياس على رأس ثلاثة سفينه ومعه قوات الاتروسكيين بقيادة زعيمها تارخون (Tarchon). وجرت اشتباكات دامية، ومبرزة حامية لقى فيها الفتى الشجاع بلлас (Pallas) - بن ايفاندر⁽²⁴⁾ - حتفه على يد تورنوس، أمير الروتوليين. وقد بكاه آينياس ورثاه، وندبته النساء، خافضات رؤوسهن منتخبات، وضاربات صدورهن بقبضات أيديهن، تاركات شعورهن الطولية تتطاير مع الهواء. وأقيمت له الطقوس الجنائزية اللائقة. وأما أبوه العجوز فقد ألقى بنفسه فوق

نعشة، واستحلل آينياس بالثار لابنه من تورنوس. وقد خف من وقع المصيبة أن آينياس صرع بدوره ميزنتيوس البغيض، ملك الاتروسكيين الطريد، الذي توسل إلى قاتله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ألا يمثل بجثته وأن يواريها التراب حتى لا تتعرض لتنكيل شعبه بها.

وفي ذلك الوقت جدت ظروف ساعدت على التقارب وعودة المياه إلى مجاريها بين الطرواديين واللاتين. وقد جاء إلى معسكر آينياس رسل من قبل لاتينوس حاملين أغصان الزيتون يلتمسون عقد هدنة لدفن الموق. واستجاب آينياس إلى طلبهم. وانتهز المناسبة وحملهم بدوره رسالة إلى ملкهم يذكره فيها بما كان بينهما من علاقات طيبة غداة نزوله بأرض لاتيوم. وكان لهذه الرسالة تأثيرها وبخاصة أن الشعب اللاتيني كان يموج بالتدمر من كثرة قتلاه وبدأ يلعن الحرب ويلقى تبعتها على تورنوس الذي جرهم إليها. وثمة عامل آخر ساعد على جنوح اللاتين إلى السلم وسعدهم إلى التقارب من الطرواديين. إذ طلبوا المساعدة من ديوميديس، ملك مدينة أربى (Arpi) الاغريقي الأصل. لكنه اعتذر من مساعدتهم ضد الطرواديين ذاكراً بأنه - على الرغم من عداوته القديمة للطرواديين وقتله ضدتهم عند طروادة - إلا أنه لم يعد يحقد عليهم بعد أن نهبت مدينتهم واحتقرت وشردوا منها. بل إن ديوميديس حذر اللاتين من مغبة مناصبة الطرواديين العداء، وذكرهم بالكوارث التي حلّت بمعظم أبطال الاغريق بعد عودتهم من حرب طروادة: أجاممنون وكيف لقي مصرعه فور عودته على يد زوجته المتواطئة مع عشيقها، وأخيه ميلاوس الذي ضل طريقه في البحر وعاش طريداً في مصر ثمانية سنوات. ثم أوليسيس (أوديسيوس) الذي هام في البحر على وجهه عشر سنوات فقد سفنه وكل رفاقه قبل أن يعود إلى موطنـه «إثاكا» ليجد ثروته مبددة، وقصره محـتلـاً بـشـرـذـمةـ منـ النـبـلـاءـ العـشـاقـ وـزـوـجـتـهـ مـحـاـصـرـةـ بـعـيـونـهـ الـوـقـحةـ، وـابـنـهـ مـهـدـداـ بـالـخـطـرـ منـ جـانـبـ هـؤـلـاءـ الـأـوـغـادـ. ثـمـ بـيرـوسـ

(نيوبطوليموس) بن أخيل، الذي قيل أنه قتل مطعوناً بخنجر أمام الهيكل⁽²⁵⁾. وأخيراً دومينيوس الكريتي، حليف الاغريق، الذي فاجأته أشلاء عودته في البحر عاصفة فنذر أن يقدم ابنه قربانا لبوسيدون، إله البحر، لو نجا من الخطر. فلما بلغ كريت انتشر فيها طاعون ففاه أهل الجزيرة فلجأ إلى جنوب ايطاليا. وذكرهم ديوميديس بما حدث له قائلاً «وماذا عن نفسي؟» أنا الذي حرمتنى السماء من رؤية وطني⁽²⁶⁾، والالتقاء بزوجتي الحبيبة. ومسخ رفاقي سربا من الطيور التي تحلق في أجواء الفضاء أو تحط على ضفاف الأنهار القصبية أو تحوم حول الجزر الصخرية في وسط اليم وهي تصرخ صرخات حزينة. ذلك هو الجزء الذي لقيته عقاباً لي على الجرح الذي أصيبت به فينيوس في ذراعها من سهم أطلقته عليها بسهل طروادة. كم كنت مجنونا إذ تجرأت على ذلك: أنسحكم - أيها اللاتين - بالجنوح إلى السلم وعقد الصلح مع آينياس فهو محارب عظيم. وليس هناك من هو أعلم به مني. لقد بارزته أمام أسوار طروادة وإني لأشهد بمهاراته وقوته وإن كان أبواللون وفينيوس يقفان دائمًا إلى جانبه ويسدان من أرذه ويدفعان عنه السوء. لقد كان آينياس هو وهكتور كالدرع الواقي أو الحصن المنيع الذي حال دون انتصار الاغريق عشر سنوات. اذهباوا إذن - يا أبناء لاتيوم - إلى ملككم لاتينوس وبلغوه نصيحتي بضرورة انضمامكم إلى الطرواديين. وسترون كيف تزداد قوتكم وبعدئذ تذعن لكم آفاق الأرض جميعاً، وتبلغ شهرتكم عنان السماء».

ودعا الملك لاتينوس شعبه إلى اجتماع تحدث فيه محبذا التحالف مع آينياس والطرواديين، والتنازل لهم عن رقعة فسيحة من الأرض الخصبة ذات تلال منخفضة، ومليدة بالغابات الكثيفة والمراعي الغنية. هذا إذا شاؤوا أن يعيشوا هنا في سلام ويتعاونوا مع اللاتين في بناء أمة مزدوجة السلالة. أما إذا آثروا الرحيل إلى مكان آخر وراء البحر، فلا بأس من أن نمدthem بعشرين سفينه مصنوعة من خشب البلوط الايطالي الم titan، ونزودهم بهدايا من الذهب والمعاج، وغيرها من

الهدايا التي تليق بأصلهم العريق ونسبهم الملكي. وما أن فرغ لاتينوس من كلامه حتى وقف زعيم لاتيني والتمس من الملك أن يضيف إلى مأثره مأثرة أخرى وهي أن يهب ابنته «لافينيا» آينباس لتكون زوجة له. وختم كلامه مناشداً تورنوس، أمير الروتوليين، أن يتنازل عن حقه، حقنا للدماء، لأن لافينيا، وإن لم يكن لها ذنب، إلا أنها - مثل هليني الاغريقية - سبب كل البلاء!

لكن تورنوس استاء من ذلك أشد الاستياء وهب مغضباً وانهال على هذا الزعيم اللاتيني بالسباب، واتهمه بسلطنة اللسان على حين أنه في الحرب جبان، «وما أقسى لذعات كلامه وأهون ضربات حسامه! وأخذ يستفز القوم جميعاً إلى القتال، وذكرهم بأن لهم أيضاً حلفاء كثرين، وفي مقدمتهم كاميللا (Camilla)، ملكة الفولسكين البواسل وجيشهما من النساء الفارسات الضاربات⁽²⁷⁾. ثم فاجأ تورنوس الجمع المحتشد باستعداده لمنازلة آينباس في مبارزة فردية على الرغم من ادراكه بأن البطل الطروادي لا يقل ضراوة عن أخيه نفسه، ويتسلح مثله بدرع من صنع الإله فولكانوس. ثم وجه الكلم للملك لاتينوس قائلاً «سوف أنازله من أجل ابنتك، خطيبتي التي يربطها بي عهد وميثاق». وبينما كان الجدل محتدماً بين اللاتين والاتروسكيين جاء رسول ينادي بأن آينباس يزحف على المدينة (لاورنتوم). وساد الهرج والمرج. ودار قتال عنيف أبلى فيه «تارخون» الاتروسكي بلاء حسناً، وقتل فيه اتروسكي آخر «كاميللا» ملكة الفولسكين الشرسة. ورجحت كفة آينباس وحلفائه على تورنوس والروتوليين واللاتين.

وأخيراً تم الاتفاق على المبارزة الفردية بين آينباس وتورنوس على أن يظفر المنتصر بيد «لافينيا». ومع أن أباها حذر تورنوس من خطورة خصمه، ونصحه بالعدول عن المخاطرة، والجنوح إلى السلم، والتصالح مع الطرواديين، إلا أن الأمير الروتولي ركب رأسه. وحاولت «أماتا» نفسها أن تشنيه عن عزمه حتى لا يلقى حتفه، فيظفر خصمه آينباس بابنته زوجة له. وهو ما لا تطيقه، لأن الموت

- كما قالت - أحب إليها من مصايرته واعتباره ابنا لها. لكن تورنوس أصر على موقفه في عناد. وقامت مراسم تقديم القرابين قبل المبارزة بحضور الخصميين. وقام كاهن بذبح خنزير بري صغير، ونحر خروفًا عمره سنتان، ووضع الأضاحي بجانب المذايحة المقدسة المعمقة بالدخان. وبعدها قام الأميران، آينياس الطروادي وتورنوس الروتولي، برش الدقيق المملح فوق الهياكل المقدسة، واستل كل منهما مدينة جز بها الشعر من جبال الذباائح وألقى به في النار المقدسة. وبعدها سكبا النبيذ من كؤوس ذهبية على الأرض. وعندئذ رفع آينياس سيفه، ناظراً إلى السماء وقال مبتهاً لا فلتشهدني أيتها الشمس والأرض، وأنت يا جوبيت، الإله القادر على كل شيء، وأنت يا جونو يا ملكة السماء التي أدعوك أن تنزععي أخيراً من قلبك ذلك الحقد الدفين الذي تكتنه لي ولشعبي منذ سنوات طويلة. وأنت أيضاً يا «مارس» الجبار، الذي يتيه لسماع صليل السيف، ولتشهدني أيتها الينابيع، والأنهار والجداول، وكل قوى السماء العالية، والبحر العميق، اسمعوا جميعاً قسمي المقدس: إذا غلبني تورنوس، أمير الروتوليين، بمحض الصدفة النادرة، فإن الطرواديين متفقون على الرحيل عن هذا البلد، والذهاب تحت قيادة اسكانيوس، أبني الصغير، إلى مدينة إيغاندر (بللانديوم). لكن إذا كسبت المبارزة التي لا يساورني سوى شك ضئيل في أنني سأكسبها - فإني لن أعامل الإيطاليين كمن هزمين فأتعسف معهم أو أكبّلهم كالعادة بالأغلال أو أخضعهم لشتي القيود. لسوف أدعهم يعبدون الهنّهم ويمارسون عاداتهم القديمة. وسنفعل نحن الطرواديين نفس الشيء. ولسوف يندمج إن شاءت السماء - الشعب اللاتيني في الشعب الطروادي على قدم المساواة ويصيران أمة واحدة، ويعقدان لهذا الغرض معااهدة أبدية. إنني لا أطمع في حكم هذه المملكة. ليبق لاتينوس ملكاً كما هو. سيكون مولاي لأن «لافينيا» ستكون زوجتي. لسوف تسمى مدينة لورنتوم منذ الآن لافينيوم (Lavinium) نسبة إليها. وأمن لاتينوس على كلام آينياس

مؤكداً بأن المعاهدة أبدية، وأنه ليس في الوجود قوة ستجعله يعدل عن موقفه أو تثنيه عن عزمه، وأنه بانتصار آينياس على غريمه سيبقى الميثاق كرباط متين بين شعبه اللاتيني والشعب الطروادي.

لكن القلق بدأ يساور الروتوليين. من أن أميرهم تورنوس قد لا يكون نداً لآينياس، بل أن بعضهم كان يعتقد أنه لا محالة هنالك في المبارزة. وقلقت «جونو» أيضاً ادراكها بأنها لن تستطيع إنقاذ تورنوس من مصيره المحتمل لو التقى بالأمير الطروادي. لذلك سعت جاهدة إلى تعكير الجو بخرق الاتفاقية ونقض الميثاق بين الطرفين حتى لا تتم المبارزة. فزيت بعض الروتوليين الغدر بآينياس وقتله أو قتل أي زعيم آخر من حلفائه الآركاديين أو الاتروسكيين. وتم لجونو ما أرادت فأطلق تورنوس سهماً أصاب به زعيمًا آركادياً فسقط يتضرج في دماءه. وأثار انتهاك الاتفاقية على هذا النحو غضب الطرواديين وحلفائهم الاتروسكيين والأركاديين وحتى بعض اللاتين، فنادوا جميعاً ببطلان المعاهدة، واعتبروها ملحة، وخرموا الهياكل، وطحروا بما فيها من مقدسات وأضرموا فيها النيران. وأُسقط في بد لاتينوس فلاذ بالفرار حاملاً معه آلة أسرته. ونظر آينياس في رعب إلى ما حدث من تدنيس للمعابد. وتقى وحده نحو الأمام عاري الرأس، مجرداً من السلاح، محاولاً رتق الخرق الذي مزق الهدنة ورأب الصدع الذي أصاب المعاهدة. وبينما كان يسعى لإصلاح ما فسد أطلق أحد الروتوليين سهماً أصابه بجرح بالغ فسقط على الأرض مغشياً عليه يتاؤه من الألم. وبادر رفاته بنقله على عجل من ساحة القتال قبل أن يقع أسيراً في يد الإيطاليين. وتمت معالجته بأعشاب طبية ورحيق بعض أزهار نادرة (أحضرتها فينيوس من كريت). وسرعان ما تمايل للشفاء ثم عاد سليماً إلى المعركة. ولم يجد آينياس - بعد ما حدث - مناصاً من مقاتلته لأعدائه حتى النهاية واتهم لاتينوس بالخيانة. وقرر مهاجمته في مدینته لاورنوم التي انقسم أهلها على

أنفسهم: فريق ينادي بهدم أسوار المدينة وفتح أبوابها لآينياس الطروادي، وفريق ينادي مقاومته وصده. وعم الاضطراب في المدينة وسادها الهلع. وأطلت الملكة «أماتا» من شرفة القصر فهالها أن ترى ألسنة النار متتصاعدة من كل ركن، بينما الجيش الطروادي يطبق على المدينة من كل جانب. ولم تجد أثراً لتورنوس فظننت أنه قد لقي مصرعه، وتملكها الذعر فمزقت رداءها الملكي وتعالي صراخها واجتاحتها شعور بالاثم والندم إذ اعتبرت نفسها سبب المصائب التي نزلت بقومها، فشنقت نفسها. وعندئذ دعا تورنوس جنوده إلى وقف القتال. لقد استقر عزمه أخيراً على تنفيذ الاتفاقية وحسم النزاع ببارزة آينياس وحده. رحب آينياس بالتحدي ونزل ملاقاته.

وأطل جوبير على المساحة وقد أمسك بميزان كان في أحدى كفتيه قدر آينياس وفي الأخرى قدر تورنوس. وكان وحده يعلم أي الكفتين ستتشقق بالموت، وأيهما ستتحف بالحياة. واستدار إلى زوجته جونو وأمرها بالكف عن مكائدها والتخلص من أحقادها. وحذرها من التدخل وإلا صب عليها جام غضبه. لكنها سالته شيئاً واحداً قائلة «عندما يرتبط آينياس بلافينيا برباط الزواج المقدس، وتتحدد الأمتان تبعاً لذلك وتعيشان في سلام، فرجائي إليك أن لا يغير اللاتين اسمهم القديم، أو لغتهم، ولا زيهם أو عاداتهم. ولا تدع الجنس اللاتيني يفنى في الجنس الطروادي فيندثر ويصبح صيته أثراً بعد عين. ولتدع أمة اللاتين العظيمة تحيا إلى الأبد. ولتمح لغة وثقافة الآخرين. ولنعمل على تلقيح الأغصان اللاتينية بالجذع الطروادي القديم، على أن تحجب الأغصان الجذع. ومن ثم ينبت غرس ليعرفه الناس جميعاً باسم «الروماني». وابتسم زيوس لزوجته، وهي إمرأة قوية الشكيمة، واعداً بتحقيق رغبتها في أن يذوب الجنس الطروادي في الجنس الإيطالي الأكثر عدداً، وأن تنمحي لغة الطرواديين، ويطوي النسيان حتى اسمهم وصيتها، ولن يتعدد ذكرهم إلا في قصائد الشعراء وأغاني المنشدين. غير أن الدم

الإيطالي سيثيرى من امتزاجه بدم الجنس الآخر. ولن يكون هناك شعب أكثر ورعاً وتقى نحو الآلهة من السلالة المتولدة: الشعب الروماني.

واشتباك البطلان آينياس الطروادي وتورنوس الروتولي في مبارزة عنيفة انتهت بانتصار آينياس الذي أصاب خصمه بحربته فترنج ثم هوى على الأرض. ولم يطلب تورنوس الرحمة بل طلب أن تسلم جشه - بعد موته - إلى ذويه لكي يواروها التراب. وكاد قلب آينياس الكبير يلين ويغفو عنه لولا أنه تذكر أن تورنوس لم يرحم الفتى بللاس بن إيفاندر، فتقدم نحوه وطعنه بالسيف الطعنة القاتلة. وهنا تنتهي الآiniaدة

ويمدنا المؤرخون والشعراء وغيرهم من الكتاب بتكميلة لقصة آينياس فيقولون: تزوج آينياس - بعد انتصاره - لافينيا، بنت لاتينوس. وعقد مع اللاتين معاهدة سخية الشروط تنص على أن يحتفظوا باسمهم وعاداتهم، مع التزامهم بعبارة «البيناتيس» وهي آلهة بيت آينياس المتوارثة، وممارسة الشعائر المقدسة التي أحضرها معه. وأعاد آينياس تأسيس مدينة لاورنتوم وسمها «لافينيوم» نسبة إلى زوجته. وحدث بعد ثلاث سنوات أن نشببت معركة بينه وبين خصومه. وفي أثناء المعركة اختفى آينياس بطريقة غامضة. ومن ثم فقد رفعه قومه إلى مصاف الآلهة وعبدوه باسم «جوبير انديجيس» (Jupiter Indiges)⁽²⁸⁾.

مغزى الأساطير في قصة آينياس:
وهنا نتوقف لحظة لنستعرض بعض الأساطير التي اقتضى سرد القصة عدم التوقف لتفسير دلالتها التاريخية.

لقد ذكرت أن آينياس نزل أول منزل بهموقع متاخم لمدينة لاورنتوم

(Laurentum) وفي أكبر الظن أنه لم توجد أبداً - على عكس ما يعتقد بعض الباحثين - مدينة بهذا الاسم. وذكرت أيضاً أنه أسس بالقرب من المكان الذي نزل فيه مدينة باسم لافينيوم (Lavinium). وترتبط قصة التأسيس هذه ببعض حقائق ونظريات متصلة بالعبادة الرومانية. ذلك أن مدينة لافينيوم⁽²⁹⁾، التي يسمى سكانها باللاورنتين (Laurentes)⁽³⁰⁾، كانت منذ اقدم العصور مركزاً دينياً هاماً في لاتيوم إذ نشأ فيها معبد لفينوس (Venus) كان يحج إليه كل اللاتين. كذلك نشأت فيها عبادة للآلهة المسماة بيناتيس (Penates). وقد اعتاد الحكام الرومان - في العصر التاريخي - القيام ببعض شعائر تقليدية قديمة تمجيداً لفستا والبيناتيس في هذه المدينة. وليس هناك شك في أن فستا كانت في الأصل تمثل روح الموقد في قصر الملك، وأن بيناتيس كانت هي الأرواح الحارسة لغرفة خزن المؤونة في البيت. لكن بمرور الزمن اكتسبت هذه الآلهة المنزليّة أو العائلية الصغيرة أهمية أكبر وأصبحت - على المستوى الرسمي العام - تجسيداً لحظ الدولة الرومانية ورمزاً لتوفيقها. وبالاضافة إلى ذلك فإن خيال كتاب الأساطير قد ربط بين بيناتيس كآلية رسمية في روما بعبادات لافينيوم من ناحية، ومن ناحية أخرى بالكابيري (Cabiri) وهي آلهة طراقية أو بالأحرى من جزيرة «سامو طراغيا». ومن المعروف أنه كانت هناك علاقة تقليدية بين طروادة وساموطراقيا. ولذلك كان من الطبيعي أن يجعل أحد كتاب الأساطير المتأخرين، بطلا طرواديًّا كأينياس يمر في رحلته بطراغيا ويدخل إلى إيطاليا عبادة «الكابيري» أي عبادة «البيناتيس».

ولعل معجزة الخنزيرة البيضاء قصة محلية صحيحة على الأقل في الأصل. ومن العسير الآن أن نتقصد منشآها. غير أن عدد أولادها الثلاثين يتفق تقريباً مع العدد المتواتر عن عدد مدن «العصبة اللاتينية». وأما الملك لاتينوس فهو شخصية قديمة قدم الشاعر الاغريقي هيسيود (حولي 700 ق.م. أو قبله). ويختلف له فرجيل شجرة نسب غريبة تبدأ بالإله «ساتورنوس» ثم «بيكوس» ثم «فاونوس»،

وكلها آلية إيطالية صغيرة، وأهمها ساتورنوس. وأما بيكوس (Picus) فهو «ناقر الخشب»، الحيوان المقدس للإله مارس. وكان فاونوس - على نحو ما ذكرنا - نوعاً من الجن الذين نشأت حولهم عبادة ضئيلة الشأن وبعض خزعبلات شائقة. ومن الواضح أن الرومان تأثروا بالنظرية اليونانية القائلة بأن الآلهة كانوا في الأصل بشرًا⁽³¹⁾، ملوكاً أو أبطالاً قاموا بأعمال مجيدة أو أدوا خدمات جليلة ومن ثم عبدهم الناس - اعترافاً بفضلهم ورفعوهم إلى مصاف الألوهية. ولذلك نجدهم يجعلون من معظم هؤلاء الآلهة الصغار ملوكاً قدامى للقبائل الإيطالية. وأما عن بقية قصة حروب آينياس في إيطاليا فليس لها أي أساس تاريخي أو غير تاريخي. ومن ثم فإنها تروي بطرق مختلفة، ويكيّفها كل كاتب حسب هواه. هكذا يظهر الملك «لاتينوس» أحياناً كحليف لآينياس، وأحياناً أخرى كعدو لدود له. وينسب تأسيس روما تارة إلى أحفاد «لاتينوس» وتارة أخرى إلى أحفاد آينياس (وإن كان زواج البطل الطروادي من لافينيا، ابنة هذا الملك يزيل التناقض).

ولعل فرجيل اخترق أيضاً قصة طرد ميزنتيوس، ملك «كايري»، الاتروسكي، من مملكته بسبب طغيانه وقوته مع شعبه. أم هي اشارة إلى الرواية التاريخية التي تتحدث عن طرد تاركوبينيوس «المتغطرس»، لأتروسكي، آخر ملوك روما السبعة (عام 510)? كذلك نسج خياله شخصية البطلة «كاميللا» ملكة الفولسكين، التي خاضت - على رأس فرقتها المحاربة المؤلفة من زميلاتها الفارسات ضد آينياس والطرواديين. وفي الحق أن فرجيل قد تأثر في هذه القصة بما يرويه هوميروس في الإلياذة عن «الأمازونات» هؤلاء النساء المسترجلات الشرسات وملكتهن «بنثيسيليا» التي صرعنها أخيل في الحرب الطروادية.

ومع أن «ايفاندروس» أو «ايفاندر» شخصية مصنوعة كأي شخصية أخرى في قصة آينياس، إلا أنها على جانب من الأهمية توضح لنا تطور هذا النوع من القصص البطولية الزائفة أو المنتحلة. كان «ايفاندر» على نحو رؤينا -

أميراً أركادي الأصل هاجر قبل الحرب الطروادية إلى إيطاليا على رأس جماعة من بني قومه الاغريق وأسس مستعمرة في الموضع الذي نشأت فيه روما بعد ذلك. ونستطيع أن نتبين بسهولة سبب اختلاف هذه الحادثة. ففي المقام الأول، كان يوجد في روما (انثناء عصرها التاريخي) عيد اسمه «لوبركاليا» (Lupercalia). وقد بحث الرومان - كعادتهم - عن تفسير لأصل هذا العيد في طقوس العبادة الاغريقية. وكان العيد الوحيد المناظر له - كما خطر في أذهان الكتاب الرومان والمفكريين اليونان - هو عيد «ليكايَا» (Lycaea) الأركادي، وهو عيد يرجح أن اسمه مشتق (أو شبيه) من الكلمة ليكوس (Lukus) اليونانية بمعنى «الذئب» أي مثل «لوبركاليا» المشتقة (أو الشبيهة) بدورها من الكلمة «لوبوس» (Lupus) اللاتينية بمعنى «الذئب». وكان العيد الأول (اليوناني) مرتبطاً بالإله «بان»، وهو جان في الغابات، كان وعلى ذلك فقد ربط الرومان عيدهم بالإله «فاونوس»، وهو أيضاً جان في الغابات، كان من المعتقد أنه مناظر للإله «بان» اليونياني⁽³²⁾. إذا أضفنا إلى ذلك الاعتقاد الذي كان سائداً بوجود عنصر اغريقي قوي في روما، فإن الاستنتاج يصبح واضحاً وهو: مجيء بعض مهاجرين من بلاد الاغريق (كاركاديا) إلى روما في وقت ما. ولو كانت هناك حاجة إلى دليل آخر، فإليك هذا الدليل: أن اسم تل البلاتين، أحد تلال روما السبعة، قد أوحى إلى أذهان اللغويين القدامى باسم البطل الاركادي بللاس، ومدينة بللاتيوم (Pallanteum) الأركادية. ولعل اسم «ایفاندروس» نفسه قد اخترع لكي يتفق وبقية النظرية. ذلك أن هذا الاسم يؤدي في اليونانية معنى «الرجل القوي»، وهو اسم وجد أنه ملائم لأقدم مستوطن في روما التي تصادف أن اسمها «رومء» (Rômé) يؤدي في اليونانية معنى «القوة».

هكذا نجد المتشابهات الكثيرة بين اللغتين اللاتينية واليونانية التي لاحظها بحق علماء اللغة القدماء، وغيرها من المتشابهات التي تصورها خيالهم، قد فسرت

بأنها نتيجة مجئ جماعة من الأركاديين الاغريق إلى إيطاليا حاملين معهم شعائر الإله «بان»، والأبجدية اليونانية (الحالكيديكية)⁽³³⁾ التي اقتبسها الرومان، ثم نقلها عنهم الأوربيون واستعملوها لكتابه لغاتهم الحديثة. وأما قصة آينياس وأتباعه فقد اختلقت لكي تعلل تعليلاً وجيهًا كيف أن الرومان لم يكونوا يونانيين تماماً في اللغة أو في أساليب المعيشة، وكيف أنهم أخذوا بعبادة «البيناتيس» التي يزعم أنها آلهة طروادية. ولم يبق سوى تلفيق شجرة من النسب بحيث تجمع بين العناصر اليونانية وغير اليونانية. ولم يكن ذلك بالأمر العسير. فمثلاً أسس كورنثة - وفقاً لكتاب الأساطير اليونان - رجل يدعى «كورنثوس»، وأسس طروادة ملك يدعى «طروس» وإيطاليا نفسها جد قديم يدعى «ايطالوس»، فلا بد أن روما نفسها قد أأسسها أما آينياس نفسه أو بالأحرى ابن له يدعى «روموس» أو سميت كذلك نسبة إلى فتاة تدعى «رومته» (زعم أنها بنت لاتينوس)، ثم أضاف الكتاب الرومان إضافة من عندهم فنسبوا تأسيس روما إلى روميلوس (Romulus)، سليل آينياس، وهو لفظ معناه «روماني»، وهو متفرع من لفظ رومانوس (Romanus) المشتق بدوره من إسم «روما» نفسه⁽³⁴⁾. ولم تنشأ الصعوبة إلا عندما بدأ القدماء يحاولون إيجاد تاريخ لتأسيس المدينة.

إن آينياس نفسه شخصية يمكن تأريخ زمانها. فقد كانت هناك نظرية أو رأي خرج به علماء مدرسة الاسكندرية اليونان (في عصر البطالمية) الذين توفروا على دراسة علم الأنساب، رأي يقول أن طروادة سقطت - وفقاً للحساب الحديث - حوالي عام 1184 ق.م. (أي في أوائل القرن الثاني عشر ق.م) على حين أن علماء التقويم الرومان جعلوا تاريخ تأسيس روما يقع عند حوالي 753 ق.م وهو تاريخ لم يكن ثابتاً أو محدداً في البداية ولو أنه كان يتراوح بين تواريخ كلها تقريرياً في القرن الثامن قبل الميلاد. وعلى ذلك فإن آينياس لا يمكن بأي حال أن يكون قد أسس روما لأن زمنه يسبق زمن تأسيس روما بحوالي أربعة أو خمسة قرون. وكان لا بد

من ملء الثغرة الزمنية بطريقة ما. ولم يكن هذا ايضاً بالأمر العسيرة. وسرعان ما ابتدعت سلسلة من الملوك بين آينياس ورومليوس. وقد حقق ذلك مطلباً آخر أو حل مشكلة أخرى. ذلك أن ألبًا لونجا (Alba Longa) (التي تقع عند جبل ألبًا في لاتيوم على بعد نحو 12 ميلاً في الجنوب الشرقي من موقع روما) كانت مدينة قديمة جداً نشأت حوالي منتصف القرن الثاني عشر ق.م. وكانت - وفقاً لرواية قديمة راسخة - زعيمة «للعصبة اللاتينية» (وهو الاتحاد القديم الذي ترعمته روما فيما بعد)⁽³⁵⁾. وعلى ذلك فقد كان من المعقول (وربما كان صحيحاً أيضاً من الناحية التاريخية) أن يفترض بأن روما كانت أحدى مستعمرات «ألبالونجا»، أو أحدى مخافرها الأمامية في الشمال على نهر التiber. ومن ثم فقد اختلفت - على نحو ما ذكرت - سلسلة من ملوك ألبًا لونجا لسد الفجوة الزمنية ما بين آينياس ورومليوس.

هوماش ومراجع الفصل الخامس

- 1 - كان حوض البو (سهل لومبارديا) يسمى باسم غالة التي هي على الجانب القريب من الألب (Gallia Cisalpina)، أي «غالة القريبة»، تميّزاً لها عن «غالة التي هي على الجانب الآخر من الألب»، أي «غالة عبر الألب»، أو «غالة بعيدة»، والتي سماها الرومان أيضاً «غالة النابونية»، نسبة إلى مدينة ناربو قرب البرانس.
- 2 - في الحق أن فرجيل ولد ببلدة قريبة من مانتوا اسمها أنديس (Andes).
- 3 - هذا هو اسم الملhma في اللاتينية (آينيس). لكنها تعرف عادة «بالآينيادة»
- 4 - مثل أركتينوس (Arctinus) الذي تنسب إليه قصة الآيثيوبيس (Aethiopis) وبرسيس Persis (أي تدمير طروادة). ومعنى الحلقة الملحمية، أنها قصص تدور كلها في تلك ملحمة الألياذة، وال Herb الطرواديه.
- 5 - كانت ديلوس هي جزيرة أبواللون المقدسة حيث ولد هذا الإله وأخته التوأم أرقيس، ربة الصيد. وكان أبواللون يقف إلى جانب الطرواديين ضد الاغريق في الحرب الطرواديه. وأما عن كريت فإن بعض الروايات تنسب إليها دردانوس (Dardanus)، أحد الأجداد الأول للطرواديين حتى

أنهم يسمون «أحياناً» ببني دردانوس.

6 - من أمثال هلانيكوس الملطى Hellanicus (القرن الخامس ق.م)، وتيمايوس الصقلي Timaeus (القرن الرابع ق.م)، وديونيسيوس إلها ل يكناسي Dionysius Halicarnassius (30 ق.م - 8 ق.م).

7- وهو ستيسيخوروس (Stesichorus) الشاعر الغنائي الصقلاني.

ثابت وهو 753 ق.م إلا منذ القرن الثالث ق.م.

9 - لاحظ أننيوس وغيره من الكتاب أن آينياس الذي عاصر الحرب الطروادية (حوالي 1200 ق.م). لا يمكن أن يكون مؤسساً لروما (في القرن الثامن ق.م). ولذلك وجدوا أن المنطق والتسلسل الزمني يحتم أن يكون واحد من ذريته، مثل، رومولوس (Romulus)، هو مؤسس المدينة.

10- وجونو - كما سبق (ص 49) هي هيرا، زوجة زيوس، التي حقدت على الطرواديين لأن باريس (Paris) ابن ملك طروادة، كان قد حكم باعطاء التفاحة الذهبية لأفروديت (=فينوس)، معنى أن افروديتي هي الأجمل.

11- اسم ملکارت هو اختصار «ملك كرت» أي ملك القرية أو المدينة.

12- لا يستبعد أن «ديدو» أيضاً كانت الله. وكذلك كانت اختها التي يسميهما الرومان «أنا» (Anna)، وربما هذا تعريف لاسم الربة «عنت» الرقية.

13 - لاحظ أن كلمة **bursa** في اليونانية معناها «جلد الثور».

14 - أو Carthago. وتقع قرطاجنة على بعد حوالي 12 ميلاً إلى الشرق من مدينة تونس الحالية.

١٥- هذا الاحتفال الرياضي الجنائزي مقتبس من نظيره في ألياذة هوميروس.

16 - كرماني هي أقدم مستعمرة أسسها الاغريق في جنوب غرب إيطاليا على ساحل كمبانيا (725 - 750). وكان أهلها هم الذين أسسوا مدينة نيبوليس (نابولي) بالقرب منها. كذلك أسسوا (حوالي 520 ق.م) مدينة ديكاريارخيا (Dicnaerchiaia) التي اشتهرت باسم بوتيولي Putaali (على بعد ستة أميال غرب نابولي) واشتهرت كميناء تجاري في القرن الأخير من عصر الجمهورية وخلال عصر الامبراطورية.

17 - باروس (Paros) جزيرة في البحر الایجي اشتهرت بوفرة الرخام.

18 - الاسم في اليونانية (Euandros) وينطق «براندروس» وفي اللاتينية (Euander) وينطق «يواندر» ولكه ينطق في اللغات الحديثة «إيفاندر».

19 - وكلتا المدينتين (في لاتروم وأركاديا) منسوبة إلى جده بلالاس (Pallas)، ملك أركاديا القديم.

20 - يقع جبل آيتنا (Aetna) - المسمى حالياً إتنا - في شمال شرق صقلية، يبلغ ارتفاعه حوالي 100760 قدمًا

- 21 - كانت فينيوس (أفروديتي) ابنة لجوبير (زيوس) من زوجة سابقة على جونو (هيرا) وفقاً لرواية هوميروس (راجع ما تقدم).
- 22 - هذه هي المدن التي كانت تقرن دائماً باسم أفروديتي (فينوس) وفيها كانت لها معابد هامة.
- 23 - الاشارة إلى البطل الاغريقي ديوميديس (Diomedes) الذي جرح أفروديتي في الحرب الطروادية.
- 24 - سمي ايفاندر ابنته بللاس باسم جده.
- 25 - راجع فيما تقدم. وتروى عن مصر نيوبيطوليموس عدة رويات من بينها أن أورستيس (بن اجاممنون هو الذي صرעה).
- 26 - كانت أرجوس في البلوبونيز هي وطن ديوميديس الذي كان البطل الثاني تقريباً في الألياذة (بعد أخيل). وكانت أرجوس قريبة جداً من ميكييناي.
- 27 - صورة هؤلاء الفارسات الضاريات مقبسة من صورة «الآمازونات» اللائي اشتراكن في الحرب الطروادية ضد الاغريق. وقتل أخيل الاغريقي بطلتهم بنثيسيليا (Penthesilea)، راجع ص 68 فيما تقدم.
- 28 - لا يزال هناك خلاف حول تفسير معنى الكلمة «أنديجييس» (indiges)، وهناك، ثلاثة آراء فهي إما بمعنى «إله محدود الاختصاص» أو «إله الأهلي (وطني)». أو «إله الأجداد». وتجمع في اللاتينية على (indigetes) أو (indigites).
- 29 - تقع مدينة لافينيوم (Lavinium) في إقليم لاتيوم (Latium) على طريق أبيوس المشهور (Via Appia) على بعد حوالي 20 ميلاً جنوب روما.
- وكثيراً ما يخلط بينها وبين اسم مدينة لانوفيوم (Lanuvium) التي تقع في تلال «ألب» باقليم لاتيوم على بعد حوالي 19 ميلاً جنوب شرق روما. وكانت فيها عبادة رسمية لجونو المنقذة أو المخلصة Iuno Sospita وقد ظلت على عكس المدينة السابقة ومعظم المدن اللاتينية الأخرى، مزدهرة حتى عصر الامبراطورية. وكان حاكمها يلقب بلقب «دكتاتور» (ومجلسها يسمى «بالسناتو» حتى في عصر الامبراطورية).
- 30 - ولذلك عرفت لافينيوم في العصور المتأخرة باسم لاورلافينيوم (Laurolavinium).
- 31 - تسب هذه النظرية إلى كاتب يدعى يوهيميروس (Euhomurus) عاش في أواخر القرن الثالث ق.م. في مدينة مسينا بصفاقية. وألف رواية بعنوان «الرواية المقدسة» وفيها يتحدث عن رحلة خيالية قام بها حتى وصل إلى بلدة على المحيط الهندي. وهناك رأى معبداً للإله زيوس وقد دونت على أعمدته الأعمال الخارقة التي قام بها الآلهة أورانوس وكردونوس وزيوس. ومن ثم خرج بنظريته المسماة «بنظرية يوهيميروس»، ولا شك أنه قد تأثر فيه بالعقائد الشرقية وعلى الأخص المصرية وفكرة «تجسد الآلهة في صور البشر»، والتي لا تضع حدًّا فاصلاً بين الآلهة

وعظماء البشر، أي ت نحو إلى إزالة الفارق بينهما. وهي فترة لم تجد رواجاً عند الاغريق الذي رسم هوميروس في أذهانهم أن الآلهة خالدون والبشر فانون. ولا يمكن إزالة الحد الفاصل بين أولئك وهؤلاء. ولكنها وجدت رواجاً أكبر عند الرومان.

ولا شك أيضاً في أن يوهيميروس قد تأثر بسيرة الاسكندر الأكبر، وما أحرزه من انتصارات ضخمة، وما نسب إليه من أعمال خارقة على الأخص بعد موته.

32 - راجع فيما تقدم.

33 - نسبة إلى شبه جزيرة خالكيديك المطلة على شمال البحر الأيجي، والتي استعمرواها الاغريق في وقت مبكر.

34 - وبالتالي لا يمكن أن يكون روميلوس مؤسساً لروما.

35 - دمر الرومان مدينة «ألبالونجا» حوالي عام 600 ق.م. ونقلوا منها سكانها إلى روما نفسها حيث استقروا بصفة دائمة.

الفصل السادس

تأسيس روما

2 - روميلوس

مات آينياس أو بالأحرى اختفى بطريقة غامضة. وقد خلفه ابنه أسكانيوس (Ascanius) الذي هجر مملكة أبيه الصغيرة في لافينيوم بعد حوالي ثلاثين عاماً إلى مكان جديد حيث أسس مدينة «ألبالونجا» التي أشرنا إليها. ولعله تسمى عندئذ باسم يوليوس (Iulus). وبعد موته تولت على حكم «أليا لونجا» سلسلة من أبنائه وأحفاده، وهي سلسلة من الملوك غير موثوق بصفتها. ولا يعنينا منهم سوى واحد هو نوميتور (Numitor) الذي ورث العرش عن أبيه بوصفه أكبر أبناءه. وكان ملكاً عادلاً خيراً. لكن أخيه الأصغر أموليس (Amulius) الذي كان رجلاً ظالماً شريراً، طمع في الحكم فدبر مؤامرة وعزل أخيه عن عرشه. وكان للأول ابنة وحيدة تدعى ريا سيلفيا Rea Silvia وتلقب أحياناً بلقب إيليا (Ilia). ورأى عمها أموليس مغتصب العرش، أن يقطع دابر ذرية أخيه حتى لا يؤول العرش أبداً إلى أحد منهم. ولذلك حرص ألا تتزوج «ريا سيلفيا» مطلقاً ولا تنجب أي أبناء. ففرض عليها أن تعيش كاهنة عذراء في معبد الربة فستا Vestalis Virgo. وعلى الرغم من ذلك فقد أنجبت ريا سيلفيا لا ولداً واحداً بل توأمين. ونسبتهما إلى الإله «مارس» أما لابنانها بصحة ذلك أو لأن إلقاء التبعية على الإله قد يعفيها من العقاب بل قد يزيدها شرفاً. وسمى أحد التوأمين روميلوس (Romulus)، والآخر ريموس (Remus)، وانتقم العم من الأم

فقيدها بالأغلال وزج بها في غياهب السجن. وقرر أن يتخلص من التوأمين روميلوس وريموس فوضعهما في قارب صغير (أو بالأحرى رمث أو طوف) وألقى به في التير. وكان الوقت وقت الفيضان فحملتهما مياه النهر إلى البر سالمين عند بقعة تقوم عندها شجرة تين مقدسة تعرف باسم فيكوس روميناليس *Ficus Ruminalis* عند أسفل تل البلاتين. وسمعت صراخ الطفلين ذئبة (Lupa) فخرجت من عرينها أو كهفها «لوبركال» (*Lupercal*) واتجهت إليهما وتولت ارضاعهما. كذلك قام بيкус (*Picus*), «ناقر الخشب», وهو طائر مقدس للإله «مارس» بالمعاونة في نقل الطعام بمنقاره إلى الطفلين. ثم اتفق أن عشر عليهما بعد فترة راع لأغنام الملك يدعى فاوستولوس (*Faustulus*) فحملهما إلى بيته وعهد إلى زوجته أكا لارنتيا (*Acca Larentia*) برعايتها وتربيتها.

وشب التوأمان روميلوس وريموس عن الطوق وبلغا أشدهما وأصبحا شابين على قدر كبير من الشجاعة والبسالة وتبعد على سيماهما إمارات العراقة والنبل. وسرعان ما ذاع صيتهما فالتف حولهما شباب المنطقة، وصاروا لهما بمثابة الأتباع أو البطانة. وحدث في ذات يوم أن نشب مشاجرة بين هؤلاء الشبان وبين رعاة أغنام نوميتور. وقبض على ريموس، متهمًا زوراً أو عدلاً بالنهب والسلب، وسيق إلى ألبًا لونجا حيث سلم لنوميتور (الذي كان أخوه قد نصبه قاضياً) محاكمته على جريمته. وعلم فاوستولوس الراعي بما حدث فانتابه الأسى وأفضى إلى روميلوس بكل ما كان يعرفه أو يحدهه عن نشأته. فأسرع روميلوس بالذهاب إلى «ألبًا» لإنقاذ أخيه التوأم. وفي تلك الأثناء كانت سيمات ريموس النبيلة قد استرعت نظر نوميتور فبدأ يسأل ويستفسر. فلما وصل روميلوس وظهر في قاعة المحاكمة، تعرف نوميتور من فوره على التوأمين، وعرف أنهما ابنان «ريا سيلفيا». ودب الجد مع حفيديه خطوة للاطاحة بالعم المغتصب فهاجموا أمويليوس وقتلوه، وأطلقوا سراح أحدهما، واسترد نوميتور عرشه.

ولم يلبث التوأمان روميلوس وريموس أن قررا الرحيل عن ألبًا لونجا، وتأسيس مدينة جديدة في المكان الذي كان الراعي قد عثر عليهما فيه وأنقذهما من الموت. وثار عندئذ نقاش حامي الوطيس حول من يكون منهما هو ملك المدينة الجديدة. وكان لا بد من استطلاع إرادة الآلهة لتشير اما برومليوس أو ريموس، وبالتالي بالاسم الذي ينبغي أن تسمى به المدينة الجديدة: «روما» نسبة إلى روميلوس أم «ريمورا» نسبة إلى ريموس. ووقف روميلوس فوق تل البلاتين ليقرب مسار الطيور عليه يرى فيها فألا يتعرف منه على مشيئة الآلهة، وهي صورة أو طريقة من أشيع طرق العرافة في إيطاليا. وأما ريموس فقد اتخذ مكانه فوق تل الأفنتين. وطال انتظار الأخوين التوأمين. وفجأة شاهد ريموس ستة صقور، وهي من أهم الطيور التي يستعان بها في علم العرافة (العيافة) أو الرجم بالغيب أو الطيرة. لكن لم يلبث روميلوس أن شاهد اثنى عشر صقرًا. فاعتبر هو الظافر، وأعلن ملکاً.

وشرع روميلوس في بناء مدينة فوق تل البلاتين (Collis Palatinus) وأحاطها بسور. وأراد ريموس أن يمزح أو يسخر فقفز فوق السور الجديد، فقتله أخوه على الفور أو قتله أحد أتباع أخيه. وانفرد روميلوس بالسلطة وأصبح حاكماً بغير منازع لفترة من الزمن. وأخذ روميلوس يبحث عن مزيد من الأتباع، فشيد معبدًا أو حرماً مقدساً (Rsylum)⁽¹⁾، فوق تل الكابيتول. وسرعان ما تقاطر عليه من شتى أنحاء إيطاليا كثير من المشردين والمنبوذين لاجئين إلى ساحتته المقدسة أو لائذين بحرمه الأمين. ثم واجهت روميلوس مشكلة. ذلك أن أتباعه كلهم كانوا من الرجال. وكان لا بد من النساء للتتكاثر وتعمير المدينة. وقد رفضت كل المدن المجاورة كل عروض الرومان للزواج من بناتها. كان لا بد لرومليوس من الحصول على زوجات لرجاله، فدبّر خطة لتحقيق ذلك: دعا عدداً كبيراً من أهالي المدن المجاورة وعلى الأخص السابين (Sabini) مع عائلاتهم لمشاهدة مهرجان

رياضي بملعب الكبير في روما. وحضر المدعوون إلى روما تلبية للدعوة. وأثناء الاحتفال قام رجاله فجأة باختطاف بنات الضيوف. وأثار هذا العمل الغادر حرباً بين روما وجيرانها. وقد تغلب الرومان بسهولة على سكان المدن المجاورة ما عدا السابين الذين استعصى على الرومان قهرهم، بل إنهم هاجموا روما نفسها تحت قيادة ملكهم تيتوس تاتيوس (Titus Tatius) وحاصروا تل الكابيتول الذي كان من المدينة بمثابة نقطة حراسة أمامية. وكان لقائد حامية الكابيتول الرومانية ابنة تدعى تاربيا (Tarpeia). ويروى أنها أحبت ملك السابين أو أنه أغراها على خيانة الحامية الرومانية. وقد اشترطت تاربيا أن تأخذ في مقابل التواطؤ ما يضنه الجنود السابين على أذرعهم اليسرى، قاصدة بذلك الأساور الذهبية التي حول معاصمهم. هكذا سقط الكابيتول في يد السابين نتيجة خيانة تاربيا. لكن تاربيا لم تظفر من السابين بعد انتصارهم إلا بالاحتقار بل أنها سحقت تحت وطأة دروع جنودهم الثقيلة.

واتخذ السابين من الكابيتول قاعدة لهاجمة تل البلاتين. واشتبك معهم الرومان في موضع السوق العامة (Forum) الذي كان وقذاك لا يزال قطعة من الأرض مليئة بالأوحال والمستنقعات. وفي أول الأمر بدأ الرومان في التقهقر تحت ضغط العدو الزاحف إلى أن نذر روميلوس، قائد الرومان، معبداً للإله جوبيت. واستجابة للإله، وثبت أقدام الرومان، وببدأ السابين بدورهم في التقهقر. وبينما كان كل من الطرفين يستعد للقيام بهجمةأخيرة حاسمة، حدث ما لم يكن في الحسبان. إذ اندفعت النساء السابينيات اللاتي كن قد اختطفن يوم المهرجان، ورضين بالمعيشة مع أزواجهن الرومان، بل أنجبن منهم أولاداً، إذا بهن يندفعن بين الجيшиين المتحاربين، ويقفن حاملات أطفالهن، مناشدات الفريقين، أزواجهن الرومان من ناحية، وآباءهن السابين من ناحية أخرى، وقف القتال حقنا للدماء. ويكلل مسعاهن بالنجاح ويبرم الصلح بين الرومان والسابين. وقد ترتب على

ذلك انتقال السabin إلى روما وسكناهم في تل الكابيتول، واشترك تيتوس مع روميلوس في الحكم. وظل الأمر كذلك إلى أن قتل الأول أثناء نزاع شخصي مع بعض أهالي لافينيوم. وأخيراً حدث في ذات يوم بينما كان روميلوس نفسه يستعرض جيشه، أن هبت عاصفة رعدية فجأة واختفى روميلوس، على أثرها - مثلما اختفى آينياس - بطريقة غامضة. لكن روميلوس ظهر بعد ذلك لأحد المواطنين في مكان مهجور وأبلغه بأنه قد أصبح إليها وتبغى عبادته تحت اسم كويرينوس (Quirinus)⁽²⁾.

المغزى التاريخي لأسطورة روميلوس وريموس:

و لم يكن من المتوقع أن يترك الكتاب القدماء قصة بهذه حافلة بالعجائب والمعجزات دون أن يحاولوا أن يسوغوها تسوياً معقولاً أو يعللواها تعليلاً منطقياً: قالوا أن روميلوس وريموس لم يكونا ابني الإله مارس، بل كانوا ابني أمويليوس الذي تنكر في صورة أخرى واغتصب ابنة أخيه (ريا سيلفيا). وأضاف المفكرون القدامى قائلين أنه لم يلق بالتوأمين في النهر، إنما كفلهما جدهما نوميتور ورباهما تربية حسنة في بلدة جابي (Gabii) حيث اكتسب روميلوس معرفة واسعة بالعرفة والرجم بالغيب، أو أن التوأمين لم يلق بهما في النهر، بل عثر عليهما فاوستولوس الذي كانت زوجته امرأة فاجرة، فاشتهرت باسم «لوبا» أي «العاهرة»، ومن هنا نشأت أسطورة تقول بأن ذئبة هي التي أرضعت التوأمين، حيث أن لوبا (Lupa) كلمة تؤدي أيضاً في اللاتينية معنى «الذئبة». ولم يختلف روميلوس في عاصفة رعدية، لكنه قتل غيلة بيد أعضاء مجلس الشيوخ الذين حقدوا عليه لطغيانه فتأمروا عليه واستغلوا هبوب العاصفة المفاجئة فمزقوه إربا وأخفوا رفاته. على أن مثل هذا الهراء على طرافته ينبغي ألا نتوقف عند طويلاً.

لكن إذا أخذنا القصة، قصة روميلوس وريموس، لمعايير النقد

السليمة، يتضح لنا على الفور أنها أسطورة «تعليقية» القصد منها تفسير أصل أشياء معينة مجهولة النشأة أو طواها النسيان. ثم تناول شخص أو عدة أشخاص من الذين يعرفون الكثير عن روما وطبوغرافيتها (خططها) وطقوسها الدينية القدية، هذه الأسطورة بالتعديل وكسوها بثوبها الحالي، ولا بد أن هذا الشخص أو الأشخاص كانوا من الاغريق، لأن قصة مولد التوأمين ومحاولة التخلص منهمما، وانقادهما بمعجزة هي ذات طابع اغريقي بحت وتتفق مع تصور الاغريق بأن آلهتهم تنجذب أولادا من إلها ت أو نساء عadiات، ولكنه يختلف عن تصور الرومان الذين كانوا لا يعتقدون بمثل ذلك. ورب معترض يقول أن الأسطورة كلها عالمية أي ذات طابع عالمي ونجد لها نظائر في شتى الأقطار، وليس من المستبعد إذاً أن تكون الأسطورة محلية أي ايطالية مصتبغة بصبغة اغريقية. لكن ما يثير الريبة حقاً في أصلها الروماني هو أن يكون الولدان توأميين، حيث أن التوائم كثيراً ما يظهرون كمؤسسين للمدن اليونانية في الأساطير الاغريقية. إن الجانب الأكبر من هذه القصة الشهيرة هي اختلاق من نسج خيال الاغريق، ومن ثم فإنها متأخرة زمنياً، ولو أن جزءاً منها - على الأقل - قديم. ففي عام 295 ق.م جمع حاكمان رومانيان (هما الآيديلان أي المحتسبان) مبلغاً كبيراً من المال من حاصل الغرامات المفروضة على المرابين. وبهذا المبلغ أقام هذان الحاكمان في روما عدة منشآت عامة. وكان من بين هذه المنشآت تمثال جماعي للذئبة مع التوأمين أو تماثلين فقط للتوأميين أضيفاً إلى تمثال للذئبة وحدها كان موجوداً من قبل. كانت هناك إذا عند بداية القرن الثالث ق.م قصة رائجة في روما عن طفلين وذئبة حاضنة تولت وقايتها من الأذى. ومن الطبيعي أن نفترض أنها كانت قصة روميلوس وريموس. ولم يكن التأثير اليوناني وقتئذ بالشيء الجديد على روما: إذ كانت كتب النبوءات السيبوللية (التي تدور حول عبادة أبواللؤون) قد أصبحت في حوزة الحكومة الرومانية منذ مدة طويلة. وكان عرض تماثيل الآلهة وهي متکئة

على آرائك وأمامها مآدب الطعام (Lactisternium)، وسجود الناس لها - على طريقة الاغريق في العبادة - قد عرف لأول مرة في روما قبل ذلك (أي قبل 295 ق.م) بقرن على الأقل. وعلى ذلك فليس بغرير أن يصدق الحكمان الرومانيان قصة اغريقية كهذه.

ولنعد إلى التفسير العقلي للأسطورة: أن الموقع الذي جرفت إليه مياه النهر التوأميين ثم عثر عليهما فيه كان يتميز بوجود مغارة أو كهف عند تل البلاتين يسمى «لوبركال» وكان يرتبط بعيد «لوبركاليا»، وبشجرة تين كانت تعرف باسم «فيكوس روميناليس» أي «تين الرضاع»، فهي إيطالية - كما في مناطق أخرى - كانت العصارة اللبنية التي تناسب من غصون التين ذات قيمة كبيرة لتأثيرها السحري فكانت تستعمل كرقية للإخصاب نظراً للاعتقاد السائد بأنها تساعد النساء على الحمل. وكانت غصون التين تستعمل أيضاً في طقوس بعض الأعياد الدينية القديمة.

وأما «فاوستولوس» الراعي الخيري وزوجته أكا الرؤوم «أكا لارنتيا» فهما إليها ن معروfan لأن فاوستولوس هو إسم آخر للإله فاونوس، وأكا لارنتيا اسم ربة صغيرة والذئبة هي الحيوان المقدس للإله مارس، ومثلها «ناقر الخشب»، الذي كان طائراً مقدساً لهذا الإله. وأما حكاية مصرع ريوس على يد روميلوس أو أحد أتباعه، فالقصد منها تفسير سبب قدسيّة سور المدينة في العصر التاريخي. ذلك أن سور روما الشهير بالبرميريوم (Pomerium) كان يعتبر - فيما عدا أبوابه - مقدساً ولا يجوز تدنيسه. وكان بمثابة الحد الفاصل بين النطاق المدني (داخل المدينة) والنطاق العسكري خارجها. ومغزى الأسطورة واضح وهو أنه لا يجوز لأحد أن يغفر حتى لأخيه جريمة انتهاك حرمة هذا السور.

وأما قصة البناء السابينيات واحتطاف الرجال الرومان لهن ليتخذوا منهن زوجات، فقد اختلفت لتفسير بعض حقائق أو عادات قديمة نسي الرومان

اصلها. فمن بين الروايات القديمة التي تؤيدها الدراسات اللغوية وغيرها من الأدلة التاريخية، أن الشعب الروماني كان في الأصل خليطاً من عنصرين: اللاتين والسابين أو كان على الأقل يتضمن عنصراً سابينيا قويا⁽³⁾. وكانت هناك بين طقوس الزواج عند الرومان - عادة - (كانت موجودة عند شعوب كثيرة غيرهم)، وهي انفصال العروس عن بيت أهلها بطريقة مقرونة بالعنف الصوري، إذ كان العريس يتظاهر بانتزاع عروسه من أحضان أمها، وهو ما كان يسمى في هذه الحالة «بزواج الاختطاف». وأما عن أسطورة «تاربيا». التي خانت الحامية الرومانية فوق الكابيتول، فقد ابتدعت لتفسير عبادة ربة قديمة بهذا الاسم نسي الرومان أصلها. وكانت طقوسها الجنائزية تمارس فوق الكابيتول أو على مقربة منه حيث كان يوجد قبر تحول بهرور الزمن إلى مزار أو معبد لربة قديمة صغيرة اسمها تاربيا، وهو اسم يرتبط بلا شك باسم صخرة تاربيا، التي كانت أكثر أجزاء ذلك التل انحدارا.

ولعل القارئ قد لاحظ أن روميلوس - في الأسطورة - كان له غالباً إن لم يكن دائماً - شريك في الحكم: أولاً أخوه ريموس، وبعدئذ تيتوس تاتيوس السابيني ومن الواضح أن القصد من تلفيق هذه التفاصيل هو محاولة تعليل نشأة نظام الزماله في المناصب الرومانية، ابتداء من منصب القنصلية إلى ما هو أدنى منه، إذ كان المنصب الواحد عند الرومان طوال تاريخهم يشغله دائماً حاكماً اثنان أو اضعاف ذلك العدد. وأما عن ابتهال روميلوس إلى جوبير واستجابته له في ساعة المحنـة، فهي حكاية اختلقت لتفسير عبادة كانت قد نشأت لهذا الإله فوق الكابيتول تحت اسم جوبير ستاتور (Jupiter) أي «جوبير مثبت الأقدام». ويدرك القارئ كيف ابتهل روميلوس إلى هذا الإله، ونذر له معبداً، عندما رجحت كفة السابين، أن يثبتت أقدام جنوده الرومان (Stare)، فلا يتقهرون أو يولون الأدبار، فاستجيب دعاؤه. وبهذا: تكون الأسطورة قد عللت

أصل عبادته ونشأة لقبه (ستاتور). وأخيراً فإن أسطورة تأليه روميلوس بعد موته أو اختفائه في ظروف غامضة إنما أريد بها تعليل وجود إله آخر للحرب باسم «كويرينوس»⁽⁴⁾ بجانب «مارس» إله الحرب، وإزالة ما قد يثيره ذلك من لبس في الأذهان.

وكما أصبحت «تاربيا» في الأسطورة السالفة امرأة بعد أن كانت إلهة، كذلك حدث في حالة عدة شخصيات أسطورية أخرى. ومن المؤكد أن ذلك يرجع - على نحو ما أشرنا من قبل⁽⁵⁾ - إلى تلك النظرية التي تسurg على الآلهة صفات الإنسان وتصورهم في صورة البشر، وهي نظرية تنسب إلى يوهيميروس (Euhemerus) أحد مواطني مسينا بجزيرة صقلية (311 - 298 ق.م) الذي كتب رواية خيالية (تسمى بالرواية المقدسة) وضمنها نظرية أو مذهباً يقول أن الآلهة كانت في الأصل شخصيات إنسانية بارزة على الأرض كملوك أو ملكات أو إبطال أو قادة مظفرین في الغالب، ثم أسبغ عليهم الناس ألقاب التأليه عرفاناً بفضلهم أو تزلفاً إليهم. وقد تأثر يوهيميروس في نظريته ببعض المعتقدات الشرقية، وكذلك بسيرة الاسكندر الأكبر الذي أحرز انتصارات باهرة، وأنجز أعمالاً بطولية، ونسبت إليه بعد موته معجزات كثيرة. ولم تترك هذه النظرية انطباعاً قوياً في نفوس الاغريق لأنها كانت تتجه إلى إزالة الفارق وترفع الحاجز الفاصل بين الآلهة الخالدين والبشر الفنانين. لكنها حظيت برواج كبير من الرومان وعلى الأخص بعد زمن الشاعر انبوس (239 - 169 ق.م) الذي كتب فيها بحثاً زاد من معرفة الرومان بها. ومن ثم نجد الإله «ماتورنوس» والإله «بانوس» يتحولان إلى ملوكين قديمين، وإن الثاني رحب بالأول عندما جاء لاجئاً إلى إيطاليا. وأسس ساتورنوس بعد مجئه إلى إيطاليا مدينة باسم «ساتورنانيا» عند الموقع الذي أنشئت عليه روما فيما بعد. وكان كلاً الملوكين رائداً عظيماً من رواد الحضارة، إذ علم شعبه (الرومان) حرفة مفيدة، فعلمهم يانوس الملاحة، وعلمهم ساتورنوس

الفلاحة. وكان عهد ساتورنوس - وفقاً لاحدى الروايات - هو «العصر الذهبي» في إيطاليا مثلما كان عهد «كرونوس» بالنسبة لبلاد الاغريق⁽⁶⁾. وقد أله «يانوس» بعد مماته، فأظهر قوته الخارقة وكراماته، إذ يروى أنه فجّر من الأرض ينابيع حارة شوت جلود الأعداء (السابين) بمياهها الساخنة عندما تدفقوا على الكابيتول نتيجة لخيانة «تاريبا» للحامية الرومانية. وكان يانوس هو إله كل البدايات وكل الأبواب على اختلاف أشكالها . وكان يتجسد في قوس النصر المزدوج (Ianus geminus) القائم عند الفوروم (Forum) وهي «السوق العامة» الشهيرة في العاصمة الرومانية. ذلك هو السبب الذي من أجله كان قوس النصر هذا يترك مفتوحاً على الدوام في حالة الحرب حتى لا يقف أي شيء حائلاً دون حضور الإله على وجه السرعة لنصرة قومه (الرومان) في ساعة الشدة.

هوامش ومراجع الفصل السادس

- 1 - ليس لهذه الكلمة اليونانية مرادف في اللغة اللاتينية. ومعناها حرم مقدس يلوذ به كل من يطلب الأمان، أو قد يستجير به المدينون أو العبيد الآبقون أو إليها ربون من العقاب. ويبيرون كذلك في رحى الإله.
- 2 - وقرنت معه في العبادة زوجته هرسيليا بعد وفاتها تحت اسم هورا (Hora) التي لا نعرف عنها شيئاً يذكر. وعن الإله كويرينوس.
- 3 - ويسمى أيضاً بالعنصر الأوسكي - السايبيلي في بعض الأحيان.
- 4 - عن هذا الإله كويرينوس (Quirinus). حيث ذكرنا أنه كان يقترب دائماً بالالهين جوبيتور ومارس (فيما يشبه الثالوث) وكان له مثلهما كاهن كبير (maior) بلقب Flamen. لكنه كان أدنى منهما مرتبة إذ كان يؤول إليه النصيّب الثالث من الأسلحة التي يغنمها قائد من آخر في الحرب (Opima spolia). ويبدو أنه كان إليها سابيني الأصل. وكان يعبد منذ وقت مبكر فوق «الكويرينال»، أحد تلال روما السبعة. وكان يحتفل بعيده في يوم 17 فبراير من كل عام، وكانت قرينته في العبادة هي الربة هورا (Hora). ويبدو أن اسمه «كويرينوس» مشتق من كلمة

التي تعني «مجتمع الرجال». ومن ثم فقد أصبحت كلمة كويريتيس Quirites تدل على «المواطنين الرومان» وعلى الأخص «المدنيين».

5 - راجع فيما تقدم.

6 - كان هيسيود (Hesiod) الشاطر اليوناني (أوائل القرن السابع ق.م). ومؤلف كتاب «أنساب الآلهة» قد قسم العصور إلى خمسة: (1) الذهبي (2) الفضي (3) البرونزي (4) عصر الأبطال، (5) عصر الحديد. وكل عصر كان أسوأ من الذي قبله.

الفصل السابع

صفات الرومان وميزات روما

النزعه العملية في التفكير الروماني:

لو أن شخصاً عادياً غير متخصص في التاريخ اليوناني - الروماني» أتيحت له الفرصة لمشاهدة مجموعة من الآثار الرومانية معروضة في أحد المتاحف، ففي أكبر الظن أنه لن يقف طويلاً أمام هذه المجموعة، بل سينصرف عنها إلى شيء آخر كفيل بأن يسترعى اهتمامه. وسرعان ما يجد أن معظم ما يشاهده ليس مثيراً أو جميلاً. وهذه الآثار هي في الغالب أشياء نافعة: أدوات وأوان من جميع الأنواع، وأجزاء من أسلحة ودروع حربية. ولن يستمتع بمشاهدة قطع العملة الرومانية، لأنه ليس فيها من جمال التصميم أو الصنعة ما يثير اعجابه، هذا فضلاً عن قصورها عن أن تروي له قصة متصلة إذا لم يفسر له معنى ما عليها من صور. وقد يجد عند زيارته لمتحف من متاحف روما طائفة كبيرة من التحف البدوية، ولكن هذه التحف هي من صنع فنانين يونانيين، استوردها الرومان أو عشاق الفن منهم في العصور الأخيرة من التاريخ الروماني. هذا هو الأثر الذي تركه أي مجموعة من الآثار الرومانية في نفس من يراها، فهي لا تتسنم بطبع الجمال بل بطبع المنفعة، لأن المنفعة كانت فيما يبدو هي القصد الذي توخاه من صنعوها.

ونلمس القصد نفسه إذا شاهدنا أي أثر من الآثار الرومانية الضخمة سواء في إنجلترا أم في القارة الأوروبية. فكثير منا لديهم فكرة عن الطرق الرومانية

(Viae) وكيف تجري مستقيمة عبر التلال والوديان، إذ كان المقصود منها أن تخدم أغراضًا عسكرية بأن تيسر للقوات الحربية سرعة التحرك واستكشاف المناطق الواقعة على جانبها أثناء الزحف ونجد عادة في المدن التي أجريت فيها حفائر أثرية أن أفسح المباني وأروعها هي الأبهاء الواسعة المعروفة باسم (Basilicae) حيث كان الناس يلتقطون لتصريف مختلف الشؤون ولا سيما ما يتصل منها بالقضاء والإدارة. وكثيراً جداً ما ترتبط ظاهرة «المنفعة» بظاهرة أخرى وهي «المتانة والضخامة» وإن لم يكن في ولاية بريطانيا الفقيرة نسبياً حيث لم تنشأ الحاجة إلى بناء قنوات معلقة على جسور (ductus aquae) لجلب المياه إلى المدن باستمرار نظراً لوفرة المياه بالجزيرة، ولكننا نجد في إيطاليا وفرنسا أن هذه المنشآت العامة ضخمة بل أضخم مما تقتضيه الحاجة أحياناً. وقد تثبت الرومان بنظرية المتانة والضخامة حتى في الأحوال التي تخلوا فيها عن مبدأ المنفعة البحتة كما هو الحال في أقواس النصر أو البوابات (Portae) التي تتوافر في «ترير» بألمانيا أو «أورانج» بجنوب فرنسا أو في إيطاليا ذاتها. ويحدثنا كاتب خبير بفنهم المعماري - وهو فيتروفيوس - أن أسمى الأشياء في نظرهم لم يكن ما هو جميل بل ما هو «قوى» وأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الفكرة هبطت على قومهم من السماء.

ومن الخطأ أن يقال إن الفن الروماني مجرد من الجمال. لكن يتفق وما ذكرناه أنه يوجد أروع ما ابتكروه من فن نزعة قوية إلى «الواقعية». ففي فن النحت برع الرومان في تصوير الأشخاص، ولم يجنحوا أبداً أو قلماً جنحوا إلى المثالية. ونجد المنظر الذي يمثل معركة أو طرفاً من حياة المدينة مزدحاماً بالصور لا شيء إلا لأنه يمثل الواقع، ونجده خلوا من ذلك الهدوء المرير للبصر الذي يتولد عن كمال التنسيق وهو ما برع فيه الفنان الاغريقي. والأمر كذلك في الأدب. فجميع شعرهم الرائع يستهدف غرضاً عملياً، ويصل بالحياة الإنسانية اتصالاً مباشراً. وقد نظم لوكريتيوس، قصيدة الفلسفية

الطويلة «في طبيعة الأشياء» لتحرير الرومان من الخزعبلات الدينية، ونظم فرجيل «الآينيادة» التي تحدثنا عنها باسهاب في فصل سابق لاثارة الشعور بالواجب نحو الأسرة والدولة في نفس الرومان الذين أصابهم الانحلال في عصره. وكان ابتكارهم الوحيد في الأدب هو فن «الهجاء» الذي قصدوا به نقد الحياة من حولهم نقداً هيناً أو لاذعاً. وكانت خرافاتهم وأساطيرهم، التي لم يتتوفر لهم منها ما توافر للاغريق، تدور - على نحو ما رأينا - غالباً حول تأسيس المدن أو أعمال البطولة على يد البشر⁽¹⁾.

وليس في أصالة الهجاء عند الرومان أي غرابة لأنه اقرب الفنون الأدبية إلى الحياة الواقعية. لقد اقتبس الرومان الفنون الأدبية من اليونان ما عدا فن الهجاء المسمى عندهم ساتيرا⁽²⁾. ويقول كوينتيليان، وهو أحد النقاد الرومان ما معناه أن الهجاء كله من ابتكارنا (أي من ابتكار الرومان)، أو لعله يعني أن الرومان كان لهم القدر الأعلى في فن الهجاء. وكان إنيوس (Ennius) (239 - 169 ق.م) الذي يوصف بأنه «أبو الأدب اللاتيني»، والذي كتب في مختلف الفنون الأدبية، من أوائل من كتبوا في الهجاء . وتقع هجائياته في شتى كتب. وقد ابتدع في هذا الفن صورة جديدة كانت تحتفظ بشيء من الخصائص الجوهرية في النوع القديم من الهجاء. وبذلك أصبحت بمحابة همزة الوصل بين القديم وبين الهجاء المستحدث الذي يتمثل في شعراء مثل لوكيليوس وهوراتيوس. ولم يتقييد انيوس في هجائياته بوزن أو بحر واحد. واحتفظ فيه بالحوار الذي يتميز به النوع القديم من الهجاء، كما ضمنها حكايات خرافية من طراز حكايات آيسوب. وهو مثل لوكيليوس وهوراتيوس لا ينقد فيها الحياة وعيوب المجتمع الروماني نقداً هيناً أو يسخر منها سخرية لاذعة فحسب، بل يعبر كذلك عن مشاعره وإحساساته. وما كان فن الهجاء هو أساس دعوى الرومان في نصيبيهم من الأصالة والابداع الفني، فإن ابتكار انيوس في هذا

الفن يؤكد حقه ثانية في أن يلقب «بأبي الأدب اللاتيني».

وأما لوكيليوس Lucilius (180 - 102) فكان على خلاف معظم الكتاب الرومان، سليل أسرة مرموقه المكانة، ولد في سويسا (Suessa)، احدى مدن كمبانيا. ووفد إلى روما حوالي عام 160 ق.م. وعاش على دخل مزارعه الواسعة. ولم يلبث أن انضم إلى «حلقة اسكيبيو» الأدبية، وعقد أوواصر الصداقة مع بعض الأقطاب الرومان كما خلق لنفسه أعداء. وكان غزير الثقافة ملماً بالأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ولم يقتصر انتاجه الأدبي على الهجاء بل كتب في فنون الأدب الأخرى كالنقد والتراجيديا. ولم يصل إلينا من هجائه الكثيرة سوى 1300 بيت. ومعظمها مكتوب في البحر السادس الوحدات الذي أصبح البحر الغالب في الشعر الهجائي عند الرومان. وتكشف الشذرات الباقيه عن شاعر لا يبالي بالصياغة الفنية بقدر ما يبالي بالفكرة، وعن انسان فطن، قوي الملاحظة، بعيد عن التعصب، ملم بالحياة الريفية. ولكنه يعيش في المدينة حيث يرقب عن كثب الحياة الاجتماعية والسياسية، وينقدها مبتغيا صلاحها نقدا صريحاً لاذعاً بفضح عيوبها وكشف ناقصها والسخرية من رذائلها، وكأنه ينزع من وجوه الناس أقنعة الوقار الزائفة التي تخفي تحتها الدناءة والخسة، فلم يسلم من لسانه سوى الفضيلة وأنصار الفضيلة. ويعتبر ضياع معظم قصائد لوكيليوس من أجسم الخسائر التي مني بها الأدب اللاتيني، ولا سيما أنه عاصر فترة حافلة بالأحداث التاريخية إليها مكانت توسيع سلطان روما في الغرب والشرق، وقيام الثورة الاجتماعية في روما، وتعرض حدودها الشمالية لغزوat الكيمبريين والنيوتون. لكن برغم قلة ما وصلنا من قصائد، فهي ترجع «أصداء هذه الأحداث المشيرة ترجعاً خافتًا». ولقد تأثر به شعراء الهجاء اللاحقون كهوراتيوس وبرسيوس وجوفينال.

ليس غريباً إذاً أن يكون الرومان مبتكرين في فن الهجاء حيث أن هذا

الفن كان يتفق ونزعتهم الواقعية في التفكير، ويهدف إلى تحقيق هدف عملي وهو اصلاح المجتمع. لكن الغريب أن يظهر بينهم شاعر مثل لوكريتيوس (Lucretius) (94 - 55 ق.م) الذي وصفنا قصيده «في طبيعة الأشياء» (De Rerum Natura) بأنها قصيدة فلسفية طويلة، وتعتبر فريدة من نوعها في كل الأدب اللاتيني. ولم يكن الرومان شعباً متفلساً كاليونان، ولا كان له فيها باع طويل مثلهم. كان الرومان في الفلسفة ناقلين مثلما كانوا في الأدب والفن ناقلين عن اليونان أو مقتبسين منهم أو مقلدين لهم. ولقد عرفت روما معظم المذاهب الفلسفية اليونانية كالأفلاطونية والمشائية والأبيقورية والكلبية والرواقية. وكان أكثر المذاهب استهواه لنفوس الرومان هي الفلسفة الرواقية على نحو ما سرى بعد قليل. لكن شاعرنا لوكريتيوس اعتمد مذهب الفلسفة الأبيقورية.

ولا يستطيع أحد أن يغفل شخصية لوكريتيوس في تاريخ الفلسفة الرومانية إن كان لهذه الفلسفة تاريخ، بل لا يستطيع أن يغفله في تاريخ الفكر الأوروبي. وفي الحق أن بعض النقاد يضعونه في مرتبة فرجيل أمير الشعراء الرومان. ومن الغريب أننا نكاد لا نعرف شيئاً معرفة أمن اليقين عن تاريخ مولده أو وفاته أو حتى مسقط رأسه. ولا نعرف أكان من أسرة متواضعة أم من أسرة نبيلة، حر الأصل أم عبداً معتقاً. وثمة أدلة طفيفة تشير إلى أنه ربما ولد في كمبانيا، واقتني أرضاً على مقربة من مدينة بومبي، وتعلم الفلسفة الأبيقورية في نابولي. ولعل الحقيقة الوحيدة المؤكدة في سيرته أنه كان صديقاً أو تابعاً لجايوس مهيوس حاكم روما القضائي (بريتور) في عام 58 الذي أهدى إليه الشاعر قصيده الوحيدة «في طبيعة الأشياء». وأغرب من ذلك أن شيشرون (Ciceron) الذي عاصره، لا يشير إليه إلا إشارات عابرة. وفي أكبر الظن أنه تعمد تجاهله لأن شيشرون كان ينتمي إلى طبقة سياسية تنظر بعين الريبة إلى «المذهب الأبيقوري» الذي اعتمد لوكريتيوس، وترى فيه مذهبًا هداماً وخطراً على النظام القائم لأنه يشكك الناس

في المعتقدات الدينية والآلهة والحياة الأخرى، على حين أن الديانة الرسمية في روما كانت دائماً أداة فعالة من أدوات السيطرة السياسية في يد طبقة النبلاء.

وكان لوكريتيوس يعتبر نفسه فيلسوفاً قبل أن يكون شاعراً، ولكن الأجيال التالية هي التي قدمت الشاعر فيه على الفيلسوف. وكان أبيقوريا لا يحيد في تفكيره عن النهج الذي رسمه أبيقور Epicurus (342 - 270 ق.م⁽³⁾)، ومبشراً برسالة آلى على نفسه أن يحرر الناس من الأوهام ومن الخوف من الآلهة ومن الموت وما بعد الموت، فالكون - في نظره - مادي وكل ما فيه مادي. ويفسر حدوثه تفسيراً ذرياً بمعنى أن الذرات تشابكت تشابكاً تلقائياً دون أي تدبير، بل أن الآلهة نفسها - في رأيه - هي أشياء مادية لا تحفل بالبشر ولا يعنيها ما يصيب البشر من خير أو شر. فليس الإنسان في حاجة إلى أن يتضرع إلى الآلهة أو أن يخر أمامها ساجداً أو أن ترتعد فراصه من بطشها أو من المصير بعد الموت حيث لا يوجد جحيم أو نعيم. والانسان حر يستطيع أن يقف منتصباً التامة، رافعاً هامته، وأن يزيح عن عينيه غشاوة الخرافات، وأن يشكل حياته بما يحقق له أقصى السعادة واللذة، وأن لا يقضى عمره في خوف مستمر من نزوات أي قوى خارجية أو خارقة.

ويحاول لوكريتيوس دعم رسالته ببناء نظرية في الطبيعة أو الفلسفة الطبيعية تفسر نشأة الكون ووظيفته دون وساطة الهيبة. وهو يفسر الظواهر الاجتماعية بل النفسية كذلك بتفاعلات مادية ارتقائية تجري في الطبيعة ولا تتطلب افتراض خالق الهي. فهو لا ينظر إذن إلى الأشياء نظرة شاعرية فقط بل نظرة علمية فاحصة أيضاً. ولا تعنيه نظرية الذرات الطبيعية بقدر ما يعنيه اقناع القارئ. ومن ثم فهو يتكلم بحرارة وإيمان وحماس شديد.

وكان فلاسفة المذهب الذري في القرن الخامس قبل الميلاد، وفي طليعتهم

الفيلسوف ديمقريطوس (Democritus) ثم أبيقور الذي اعتنق نظرياته، معنيين بتحرير الناس تحريراً فكريأً. وأما لوكريتيوس فكان على شاكلة الرومان ذا نزعة واقعية، فنظم قصيدته مستهدفاً غرضاً عملياً ومنفعة مباشرة لبني قومه، وهو تخليصهم من الأوهام والترهات والخرافات الدينية، ومن الاعتقاد بتحكم الآلهة في مصائرهم. ولم يتبغ فقط أن يعلمهم نظرية في الطبيعة أو أن يعرفهم بالتفكير الفلسفي، ولا مجرد تخليصهم من كابوس الخزعبلات الذي يجثم على حياتهم ويزيد من شقائهم، بل حضهم كذلك على نبذ المعتقدات الدينية التي ابتدعتها طبقة النبلاء الحاكمة. واستغلتها كأداة للسيطرة السياسية. استمع إليه وهو يقول «ما أكثر الآثام التي ارتكبت باسم الورع الديني أو الخوف من الآلهة». لقد كان لوكريتيوس نبياً فريداً في أمة اعتنادت على الكهان.

لقد ذكرت من قبل أن «الرواقية» كانت أكثر المذاهب استهواه لنفوس الرومان وأكثر رواجاً بينهم. وفي الحق أنها المذهب الذي أسهم الرومان فيه بنصيب حتى ليتمكن التحدث عن «الرواقية الرومانية». وعلى ذلك يجدر التعرف على هذا المذهب الفلسفي الذي كان له تأثيره في الرومان أقوى من تأثير أي مذهب آخر.

كان زينون Zenon (332 - 262 ق.م) أحد مواطني مدينة كيتيوم في قبرص هو الذي أسس (حوالى عام 30 ق.م) مدرسة الفلسفة الرواقية. وقد سميت كذلك نسبة إلى الرواق المصور (Stoa Poikilé) برسوم الأفراسك الحائطية في أثينا حيث اعتمد (منذ 312 ق.م) وخلافه من بعده التدريس. ومع أن هذه المدرسة كانت أقل تنظيماً من الأكاديمية (مدرسة أفلاطون) والليقيون (مدرسة أرسطو المسماة أيضاً بمدرسة «المشائين» نسبة إلى الممشى المسقوف Peripatos الذي كان يدرس فيه) إلا أن الرواقية ظلت قائمة كمدرسة فلسفية

نشطة حتى القرن الثالث بعد الميلاد. وبعدها تدهورت حتى أغلق الامبراطور جستنيان كل المدارس الفلسفية في أثينا عام 529 م.

وينقسم تاريخ المدرسة الرواقية إلى ثلاث مراحل:

(1) المرحلة الأولى أو المبكرة وتمثل في زينون نفسه مؤسس المدرسة، وواضع كل النظريات الأساسية في تلك المرحلة. كذلك تتمثل في خليفتيه الشهيرين اللذين ترأسا المدرسة من بعده وهما كليانتيس (Cleantres)، وهو من مواطني بلدة آسوس باقليم طروادة (263 - 232)، وخرسيبيوس (Chrysippus) وهو من مواطني بلدة سولي في كيليكيا (232 - 207).

وقد شملت مباحث المدرسة الأولى ثلاثة جوانب: أ) نظرية المعرفة والمنطق والبلاغة. ب) الوجود والطبيعة واللاهوت، ج) الأخلاق.

ويتضمن المذهب الروaci في تلك المرحلة النقاط الآتية:

أ) إن الفضيلة تقوم على المعرفة. والرجل العاقل (أو الحكيم) وحده هو الذي يعرف الحق، بل يعرف عين يقين أن الحق هو الذي يمكن أن يكون في الحقيقة شيئاً فاضلاً.

ب) إن غاية الفيلسوف أن يعيش وفقاً أو في وفاق تام مع الطبيعة والعقل أو اللوغوس (Legos) هو الجوهر المنشيء والموجه في الطبيعة. وبعبارة أخرى أن الطبيعة تنبثق من هذا العقل. وهذا العقل هو «الله» الذي يتجلى في صورة القدر (heimarmenê)، والقضاء المحتموم (Anankê) وفي العناية الإلهية (Pronoia). كذلك يتجلى بطريقة خاصة في عقل الإنسان. وأشد العناصر ارتباطاً باللوغوس (العقل) هي النار. ويتعرض الكون للفناء بالنار في احتراق عام يحدث دوريا من وقت لآخر (كل 10,800 مضربة في 365).

ثم ينشأ الكون بعد ذلك من جديد، وهكذا دواليك.

ج) والفضيلة (أي الحياة وفقاً أو في وفاق مع العقل) هي الخير الوحيد، ونقىض ذلك هو الشر الوحيد. وعلى الرجل العاقل ألا ينساق وراء حواسه أو يستسلم لنزواته الفجائية أو انفصاراته العاطفية. فالرجل العاقل هو سيد نفسه ولا يأتي إلا بأعمال فاضلة تماماً. وما عدا ذلك لا أهمية له.

(2) المراحل الثانية أو الوسطى للمدرسة الرواقية فتتمثل في شخص بنائيوس (Panaetius) الروودسي (185 - 109 ق.م) وتلميذه بوسيدونيوس. وقد رفض بنائيوس نظرية فناء الكون فناء دوريا بالنار متأثراً بالنظريات الأفلاطونية وعلى الأخص النظرية الأرسططالية عن خلود الكون وأبديته. كذلك أعاد النظر في المذهب الروaci برمهه مدخلاً عليه تعديلات كثيرة. وقد رأس المدرسة من عام 129 - 109 ق.م.

ففي «الأخلاق» - على سبيل المثال - رفض بنائيوس النظرية القديمة القائلة بأن الرجل العاقل (عقلأً خالصاً) هو وحده الذي يمكن أن يكون فاضلاً. وكان يرى أن واجب الفيلسوف أن يساعد هؤلاء الذين يتقدمون في الحكمة والفضيلة دون أن يتطلعوا لبلوغ مرتبة العقل الخالص.

وأجدر من ذلك بالتنويه هو أن بنائيوس قام بالتوقيق أو المواءمة بين المبادئ الأخلاقية الرواقية والاحتياجات العملية للحكام والساسة والجنود. وخفف من حدة المثالية كالقدرة إلى التجلد على المكاره ومجابهة الخطوب (Fortitudo) بالدعوة إلى الشهامة والنخوة، والاحسان، والتسامح وسعة الأفق. وكان بفضله أن أصبحت «الرواقية» عنصراً هاماً في حياة أقطاب الطبقة الأرستقراطية الرومانية. وكان لنظرياته في «الأخلاق» تأثير كبير على اسكيبييو أمييليانوس الذي أمضى بنائيوس في صحبته بضع سنوات من حياته (144 - 141 ق.م). كذلك أثر عن طريق كتاباته على كاتو وبروتوس وشيشرون. والأخير ولو أنه كان يجاهر بأنه من أتباع الأكاديمية أي المدرسة الأفلاطونية إلا

أن أثر الرواقية واضح في بعض مؤلفاته مثل «العنایة الالهیة» و «طبیعة الالهة» و «هدوء النفس».

وقد ابتدع أحد تلاميذ بنایتیوس مذهبًا متكاملاً للفتوی في المسائل الأخلاقية أو لحل مثل هذه المشكلات، أو بالأحرى قام بدراسة وافية لمشكلات الضمير، مناقشاً فيها بالتفصيل كيف يكون سلوك الرجل العاقل في ظروف معينة، وعليه الأخض عندما يكون هناك تعارض أو صراع حقيقي أو يتوجه بين واجباته (أيتطبع مثلاً القانون السماوي أو القانون الوضعي؟). وكان بوسیدونیوس (135 - 50 ق.م) - من مدينة أقامية على نهر العاصي - هو الذي نجح مذهب المدرسة الأولى تنقيحاً شاملأً، ووضع فلسفة رواقية جديدة شاملة البحث في كل العلوم. وكان بفضلته أن أثرت «الرواقية» في كثير من العلماء والفلكيين والجغرافيين (مثل استرابون). وقد تتلمذ عليه شيشرون في مدرسته بجزيرة رودس.

(3) وفي المرحلة الثالثة من مراحل «المدرسة الرواقية» اقتصر البحث على المسائل الأخلاقية البحتة.

وكان من أبرز الفلاسفة الرواقيين في القرن الأول الميلادي الفيلسوف الروماني سینیکا (Seneca) وکرنوتوس (Cornutus) وموسونیوس روفوس (Musonius Rufus) ثم أبيكتیتوس (Epictetus) في نهاية ذلك القرن.

وفضلاً عن ذلك فإن «الرواقية» هي التي زودت أو أمدت الأرستقراطية الرومانية بمذهب فلسي أو مبدأ خلقي ترتكز عليه ملائمة الأباطرة المستبددين الذين حاولوا أن ينفردوا بالسلطة من دون السناتو أو يحكموا ضد مشيئة ذلك المجلس. فقاوم هلفیدیوس بربیکوس وثراسیا بایتوس وغيرهما طغيان الامبراطور نیرون، وواجهوا الموت بشجاعة منقطعة النظير. كذلك لاقى الموت دون خوف أو وجہ جونیوس بربیکوس الذي

ناواً الامبراطور دوميتيان فأمر باعدامه. وجميع هؤلاء كانوا يجهرون باعتناقهم مذهب الفلسفة الرواقية.

وكان أهم ممثل للرواقية في القرن الثاني الميلادي هو ماركوس أوريليوس الامبراطور الفيلسوف (161 - 180م) الذي كتب باليونانية بحثاً بعنوان «مناجاة النفس» أو «التأملات». وقد بدأ نجم المدرسة الرواقية في الأفوال في القرن الثالث الميلادي وإن كان المذهب الروaci الفلسي قد أثر تأثيراً هاماً في «الأفلاطونية المحدثة»، وفي أفكار بعض آباء الكنيسة المسيحية.

ونتابع الحديث عن صفات الرومان. هناك صفة أخرى تتفق تماماً وسائر صفاتهم وغالباً ما تخفي ملاحظتها. فمن اليسير أن ندرك أن الرومان لم يتمتعوا بملكة التخييل في الحياة العملية نظراً لأنهم كانوا في الأعمال اليدوية والعقلية شعباً غير خيالي. ويتمثل الخيال في الحياة العملية في روح المخاطرة، كما يلمسه الانجليز مثلاً في تاريخهم، فالقصص الخيالية التي شاعت بإنجلترا في عصر البیزابت كانت صدى للمغامرات البحرية التي قام بها ملدو ذلك العصر. ولم يكن الرومان شعباً مخاطراً لأنهم يفتقرن إلى ملكة الخيال اللازمة لاثارة روح المخاطرة. صحيح أنهم توغلوا في بلاد مجدهلة، فبلغ يوليوس قيصر بريطانيا عبر الراين، ولكن ذلك القائد العظيم، وهو روماني صميم، كان ذا نزعة علمية لا تخيلية. وقد فعل ما فعله جميع الغزاة من قبله، وما فعلوه من بعده: إذ كان يتقدم في ثباته، مؤمناً الطريق خلفه، متحسساً في حذر الطريق أمامه. وقد ألف كتاباً عن حروبها في بلاد الغال عارياً من أي مسحة من الخيال، لتحقيق أغراض عملية بحتة. غير أنه يوجد في الجيل السابق لقيصر استثناء صارخ في وسعنا أن نقول أنه يثبت القاعدة: فمن يقرأ في ترجم بلوتارخوس سيرة سرتوريوس (Sertorius) الشائقة، وهو إيطالي من المنطقة الجبالية وسط

شبه الجزيرة، يجد قصة زاخرة بالخيال والمغامرة⁽⁴⁾.

من الواضح إذن أن الرومان لم يكونوا شعباً خيالياً بل شعباً عملياً يحس احساساً قوياً بمقتضيات الحياة الإنسانية ومصاعبها. وفي الحق أنهم كانوا في طليعة الشعوب العملية، فأتاح ذلك لهم أن يمدو حضارة البحر المتوسط بما كان ينقصها بعد أن قام اليونان بدورهم فيها. وكانوا يحسون تماماً بهذه الصفة في أنفسهم ويفخرون بها ونجد كاتو الأكبر Cato⁽⁵⁾، ينوه بها في مستهل العصر الذهبي للأدب اللاتيني فيقول أن الروماني المثالي في نظره هو الرجل المقدام الفعال (Vir Fortis et Strenuus). ويقول مؤرخ روماني كبير في عصر لاحق من عصور هذا الأدب، أن جميع المشروعات والأعمال ينبغي أن توجه لتحقيق الغايات المفيدة في الحياة Ad Utilitatem Vitae. وفي الفترة المتوسطة بين هذين الكاتبين نجد الشعراء اللاتين يشيدون دون انقطاع بروح الاقدام والفضائل الأخرى التي جعلت روما مدينة عظيمة وجعلت إيطاليا أمة عظيمة تحت زعامة روما: «نحن شعب شديد المras، نحمل أطفالنا إلى الأنهر ونعودهم قوة الاحتمال في المياه الثلوجية القارصة. وهم في الصبا يقضون الليالي ساهرين على الصيد، ويرهقون الغابات، ورياضتهم هي كبح جماح الجياد وقدف النبال بالقوس فإذا بلغوا سن الشباب، يزداد جلدhem على المشاق، واحتتمالhem للضنك، فيسخرون الأرض بمعاولhem أو يهزون المدائن في الحرب⁽⁶⁾. هذه الأبيات وإن كان الشاعر يخاطب فيها السلالة الإيطالية، إلا أنه قصد بها تذكير الرومان بحياة أسلافهم. وجميع الألفاظ التي كانت تروق الرومان لأنها تعبر عن خصائصهم القومية تتضمن نفس المعنى، مثال ذلك كلمة Pietas (الولاء والشعور بالواجب نحو الالهة والوطن والأسرة والأصدقاء)، Gravitas (الرزانة مع الشعور بالمسؤولية) Constantia (الجed والاجتهاد)، و Industria (الثبات وأمثالبرة) Eontientia (ضبط النفس)،

- ومعظمها كلمات ورثتها اللغات الأوروبية عن اللاتينية ولا تحتاج إلى تفسير، وفي مقدمتها كلها كلمة *Virtus* (الرجلة)، التي كانت تعني في الأصل النشاط والشجاعة ثم اكتسبت بنضوج الحضارة معنى أخلاقياً أوسع. وفي وسعنا أن نسوق شواهد لا حصر لها على اعجاب هذا الشعب اعجاباً صادقاً بصفاته الحميدة. ولعل سيرة كاتو «الأكبر» التي يرويها بلوتاخوس ويمكن قراءتها في الأصل اليوناني أو في أي ترجمة تعطي القارئ فكرة عن هذه الصفات ممثلة في رجل واحد وهو كاتو.

لكن ينبغي أن نذكر أن هذه النزعة العملية في العقلية الرومانية كانت محدودة من بعض الوجوه بصورة تبعث على الدهشة. فمن المعروف أن الرومان لم يبرعوا في الصناعة أو التجارة. وكانت الزراعة مهنتهم الأصلية، ونشأت النقابات المهنية برومما في فجر تاريخها، ومع ذلك فإن قصة الزراعة لديهم قصة محزنة، ولم تصبح روما في يوم من الأيام مدينة صناعية كبيرة، ولكي يزاول الرومان الزراعة بطريقة علمية التجأوا إلى الترجمة عن لغة قرطاجة البونية، وتعلموا من الأغريق معظم الأساليب التجارية إذ أن موهبتهم في الشؤون العملية، جعلتهم يتوجهون إلى فنون أخرى هي: الحرب والقانون والحكم.

ونستطيع أن نتبين هذه الموهبة الفريدة في جميع مراحل تطورهم: في الأسرة الزراعية التي كانت نواة جميع نهضتهم التالية، وفي «دولة المدينة» التي نبتت من تلك النواة، وفي الإمبراطورية التي أنشأها قواد دولة المدينة ثم نظمها أغسطس وخلفاؤه. ونتبينها أيضاً في نظامهم العسكري الذي أحرزوا الإمبراطورية بفضلـه. فلم يقاتل الرومان لكسب المغانم أو المجد فحسب بل لتحقيق أهداف عملية واضحة. ويقول المؤرخ تاكيتوس Tacitus (55 - 115م) في معرض حديثه عن قبيلة ألمانية واحدة تتمتع بقدر من هذه الموهبة أن الرومان لم يكن يعنيهم الانتصار

في المعارك بقدر ما يعندهم كسب الحرب. ولا مراء في أنهم ارتكبوا أخطاء كثيرة ومنوا بهزائم عديدة. وطالما وفقوا في حل مشاكلهم اعتباطاً أو ارتجالاً ولكنهم كانوا لا يذعنون أمام الهزائم ويستفيدون من المصائب. ولنصح مرة أخرى إلى كلمات كانوا الأكبر في كتابه «نشأة المدن» Origines الذي وضعه لابنه: «إن الملهمات تروضنا وتعلمنا السلوك الرشيد، بينما تضلنا الانتصارات عن سبيل الرشاد». وهكذا سار الرومان من الهزيمة إلى النصر والفتح والحكم. وإنه لمن المجدى ألا يعرف المرء فقط بل أن يحفظ أيضاً عن ظهر قلب الأبيات المشهورة التي يجمل فيها فرجيل فكرة الرومان عن رسالتهم في العالم:

قوم آخرون (كالاغريق) قد يصوغون من البرونز تماثيل ناطقة تفيض بالرقابة وينحتون من المرمر وجوها حية، ويبزونك في الخطابة القضائية، ويرصدون حركات الكواكب ويتبنّون بظهور النجوم. لكن أنت، أيها الروماني، ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك، فتلك هي رسالتك: أن تفرض سنة السلام وتصفح عن المقهورين وتقهر المتجربين⁽⁷⁾.

وكانت هذه المقدرة على الحكم - وهي نفسها دليل التعود على النظام والطاعة - هي التي أتاحت لروما أن تصبح وريثة بلاد اليونان في حمل لواء الحضارة الأوروبية. وقد نشأت هذه المقدرة عن النزعة العملية البحثة لدى الرومان الأوائل الذين لم يعي نشاطهم المستمر شيء من الخيال أو التأمل أو الثقافة. ولو لا ما توافر للروماني من مقدرة على الحكم لساورنا الشك في أن حضارة اليونان كان يكتب لها النجاة عندما هبت العواصف من الشمال: وانقضت جحافل المتربيين في آخر الأمر على الأراضي الجنوبية الساطعة بنور الفكر اليوناني والمزدانة بتحف الفن اليوناني. فنحن لسنا مدينين للنظام والقانون والحكم الروماني ببعض ما نتمتع به حتى اليوم من فوائد ملموسة في حياتنا اليومية فحسب بل مدينون كذلك بحماية ما في حوزتنا الآن من كنوز العبرية اليونانية.

تكلمنا من قبل عن الشعوب الإيطالية التي كتب لها أن تحل محل الأغريق في تاريخ العالم. ولنعد لحظة إلى نهر التير ونركز النظر على الخمسة وعشرين ميلاً الأخيرة من مجراه حيث يفصل المجرى سهل لاتيوم عن الشعب الأنطروسيكي القاطن إلى الشمال. كان الخطر الذي يتهدد اللاتين من ناحية الأنطروسيكين أشد على اللاتين منه على الأومبريين أو السابليين، فلم يكن هناك سوى النهر يفصل بينهم وبين أعدائهم. ومن المؤكد أن الأنطروسيكين كانوا يناصبونهم العداء وقد عقدوا العزم على التوغل جنوباً مثلما فعل الدنماركيون في إنكلترا في القرن التاسع الميلادي. وكان لدى اللاتين قلعة طبيعية رائعة قائمة في وسط السهل اللاتيني عند البركان الخامس على جبل أبلا الذي يرتفع حوالي 3000 م فوق مستوى البحر. وقد نشأت عند هذا المكان، وفقاً لرواية محققة، مدینتهم الرئيسية الأولى أبلا لونجا (Abla Longa). ولكن هذه القلعة كانت عديمة الجدوى ضد الغزاة الزاحفين من الشمال. فالنهر هو الذي أصبح ذو أهمية حيوية لإقليم لاتيوم بعد أن وطد الأنطروسيكيون مركزهم شماليه وتوجد على الضفة اليسرى أو الشرقية لنهر التير عند مكان يبعد حوالي عشرين ميلاً من مصبه مجموعة من التلال الصغيرة يبلغ ارتفاعها حوالي 160 قدماً، ثلاثة منها تكاد تكون منعزلة عن الأرض الواقعه وراءها، وتتاخم مجرى النهر. وفي شرقها تقع أربع تلال أخرى في نفس السهل تنحدر سفوحها الشمالية انحداراً شديداً في اتجاه التير⁽⁸⁾. وتقوم أيضاً في هذا المكان جزيرة في النهر كان في وسع العدو أن يعبر النهر عندها بسهولة. وعلى هذه الجزيرة نشأت في تاريخ غير مؤكد (اتفاق فيما بعد على أنه سنة 753 ق.م)⁽⁹⁾ مدينة تسمى روما (Roma) لتكون في أكبر الظن بمثابة قلعة دفاعية ضد العدوان الأنطروسيكي، ومنذ ذلك الحين كانت هناك دائماً مدينة تحمل هذا الاسم. ومن المرجح أنها كانت في الأصل نقطة حراسة أمامية أنشأتها مدينة

أبالونجا التي اندثرت على مر الزمن، وهذه هي الرواية التي كانت متداولة في العصور التالية. وإذا سلمنا بأن ال باعث الحقيقي على تأسيس المدينة كان هو الدفاع عن لاتيوم ففي وسعنا أن نطرح جانباً الأساطير الكثيرة التي حيكت حول هذا الموضوع.

لقد بدأت روما تاريخها الرائع كمركز دفاعي أمامي لشعب تربطها به أواصر القرابة في مواجهة عدو لا تربطها به أي أواصر. فلو استطاعت أن تحفظ موقعها هذا لما كان هناك شك في أنها مقدمة على مستقبل باهر. والحق أن موقعها على التير كان أفضل مكان في إيطاليا من الناحية الاستراتيجية. فهو يقع - كما يقول المؤرخ الروماني الكبير - في قلب شبه الجزيرة، وكان اتصالها بالبحر ميسوراً سواء عن طريق البر أم عن طريق النهر، كما كان السبيل مفتوحاً أمامها إلى وسط إيطاليا عن طريق وادي التير، وهو المدخل الطبيعي الوحيد من البحر. وهي تبعد عن البحر مسافة تجعلها في مأمن من اغارات القرصنة، ومع هذا فهي قريبة منه قرباً يتيح لها الاتصال بشعوب أخرى بواسطة السفن. وكان في وسعها عندما تتعرض للهجمات البرية من جهات مختلفة أن تضرب الأعداء من خطوطها الداخلية وأن تشن عليهم الهجمات من قاعدة واحدة في نفس الوقت. ولم يجرؤ أحد على مهاجمتها من البحر إلا بعد أن اضمحلت قوتها فاستطاع جيسرك Gaisericus الوندالي أن ينزل قواته في ميناء أوستيا Ostia عام 455م. ونستطيع أن نقول بوجه عام أن ميزة الموقع التي مرت بها روما لم تتح لأي مدينة أخرى في إيطاليا للسيطرة على جميع شبه الجزيرة، وإن الاتروسكيين علمواها عن غير قصد كيف تستغل هذه الميزة الكبيرة في فجر تاريخها. وهكذا آلت الزعامة في إيطاليا إلى الشعب الروماني لاضطراره إلى مقاومة الاتروسكيين مثلما أقام سكسون الغرب مملكتهم ووطدوا سيادتهم في إنجلترا لاضطرارهم إلى مقاومة الدنماركيين.

1 - وأوسع هذه الأساطير انتشاراً، وربما أجملها جميراً، هي أسطورة كريولانوس (Coriolanus)، التي اقتبسها شكسبير من بلوتارخوس (Plutarchus) (وهو الكاتب الفلسفي اليوناني المشهور صاحب مؤلف «سير العظماء اليونان والرومان في القرن الأول الميلادي»)، وبذلك قدر لها الخلود. وأما عن كريولانوس فكان في الأصل جندياً رومانياً بسيطاً ارتفع إلى مصاف الأبطال بانتصاراته الحربية على الفولسكين (Volsci) واستيلائه على بلدتهم كوريولي (Corioli) التي اشتق منها لقبه. وما رفض الرومان انتخابه قنصلاً اشتد به الغضب وأخذ يتصرف تصرفاً استبدادياً واعترض على توزيع القمح على العامة بالمجان فثاروا عليه وكادوا يفتكون به. ولكن السناتو توسط فقدم للمحاكمة وقضى عليه بالنفي فالتجأ إلى الفولسي أعدائه القدامي وحرضهم على هاجمة روما وتولى قيادة جيشه ضد المدينة. وعبثاً حاول الرومان استرضاه. واقناعه بالانسحاب. وأخيراً خرجت إليه أمه وزوجته (في عام 491 ق.م.)، وتولستا إليه بعد لقاء مؤثر أن يرتد عن المدينة فلان قلبه وأحسن بالندم فأمر قواته بالانسحاب مما أثار عليه حنق الفولسي فأعدمه.

.Quintilianus, Inst, Orat, X. I 43: Satura tota nostra est 2

3 - أبيقور فيلسوف أثيني عاش فترة في جزيرة ساموس وفي آسيا الصغرى. افتتح مدرسة فلسفية في حديقة (Kêpos) اشتهرت فيما بعد في أثينا عام 310/311 ق.م. كان مذهبه الأخلاقي في الفلسفة يدعو إلى تحرير الإنسان من الخوف من الموت والآلهة والقوى الخارقة والطبيعية التي تحيط به. وكان ينادي بالابتعاد عن كل ما من شأنه أن يسبب القلق والاضطراب، وينصح بالتالي بعدم الاشتغال بالسياسة أو شغل المناصب العامة، وكذلك بعدم الزواج وعدم انجاب أطفال. ويحض الناس على الانزواء والانطواء والاختفاء عن الأعين. وفي مذهبة أن الهدف الطبيعي للإنسان وخierre الأسماى هو الابتهاج أو اللذة. ولا يقصد بذلك اللذة الحسية الناجمة عن الانغماس في الشهوات، إنما يقصد اللذة السلبية في جوهرها وهي التحرر من الخوف والألم والاضطراب، واطمئنان النفس، وراحة الجسم والبال (Ataraxia).

4 - عن سرتوريوس، أنظر كتابنا «التاريخ الروماني» عصر الثورة.

5 - كان كاتو L.Porcius Gato قطباً من أقطاب الرومان، عاش بين (149 - 234) ق.م. وشهد في شبابه الحرب البونية الثانية، وتولى عدة مناصب عسكرية ومدنية كان من بينها القنصلية في عام

195 ق.م ثم انتخب كنسورا (Censor) أي رقيبا في عام 184 ق.م. فقام بتطهير مجلس السناتو وهيئة الفرسان من العناصر الفاسدة وقد أخذ على عاتقه إصلاح الأحوال الأخلاقية والاجتماعية المتدحورة في عصره، فحارب البذخ في المدينة والابتزاز في الولايات والمؤثرات اليونانية التي

وقد زار قرطاجة في 157 (أو 153 ق.م) ونادى بتدميرها مخافة أن تنهض ثانية فتناوىء روما من جديد، وقد تم تدميرها في 146 ق.م. بعد وفاته بسنوات قليلة. وكان كاتو خطيباً مفوهاً وكاتباً قديراً فألف لابنه موسوعة تشتمل على علوم كثيرة منها التاريخ والبلاغة والزراعة والقانون وال الحرب. وقد اشتهر برجعيته وصلابته وصرامته وزاهته. وسمي بالأَكْبَر Maior للتفرقة بينه وبين ابن حفيده الذي كان يحمل اسمه وورث عنه صفات كثيرة وحمل لواء المعارضة ضد يوليوس قيصر (95 - 46 ق.م). ورفض الاستسلام له وانتحر في أوتيكا (Utica) قرب قرطاجة ومن ثم فقد لقب «بالأُوتِيكِي» وعنده أنظر كتابنا «التاريخ الروماني» عصر الثورة ص 278 وما بعدها.

6 - فرجيل، الآينيادة، الكتاب 9، أبيات 103 - 608

Durum a stirpe genus natos an flunina primum

Deferimus saevoque gelu duranus et undis;

Uenatu invigilant pueri silvasque Iatigant,

Flectere ludus equos et spicula tendere cornu;

At patiens operum parvoque adsueta iuventis

7 - الآينيادة، الكتاب 6، أبيات 847 - 853

Excudent alii spirantia mollius aera,

(Credo equidem), vivos ducent de marmore voltus;

Orabunt causas melius, caelique meatus

Desribent radio et surgentia sidentia dicent:

Tu regere imperio populos, Romane, memento

(Hae tibi erunt artes) pacisque imponere morem,

Parcere subiectis et debellare superbos.

8 - والتلال الثلاثة الأولى المتاخمة للنهر هي الكابيتول Capitolium والبلاتين Palatium والأفنتين Aventinus. وفي شرقهما تقع التلال الأربع الأخرى وهي الكابيليوس Caelius والاسكوبيل Esquiliae والفيمينيال Viminalis والكورينيال Quirinalis. ومن هذه

التل نشأت تسمية روما «بالمدينة ذات التلال السبعة» في القرن الأخير من عصر الجمهورية. وقد امتدت رقعة المدينة فيما بعد حتى شملت أيضاً تل يانيكولوم Ianiculum وهو التل الوحيد الواقع على الضفة اليمنى أو الغربية لنهر التiber.

وقد تبين من الكشوف الأثرية الحديثة أن أقدم التلال التي سكنت هي البلاتيوم والاسكوبيل والأراضي المنخفضة الواقعة بينهما. وكانت الجماعات الأولى التي نشأت في هذه المنطقة تشتراك في الاحتفال بعيد ديني في شهر ديسمبر يعرف باسم «عيد التلال السبعة» Septimontium وليس ثمة علاقة بين اسم هذا العيد والتلال السبعة المذكورة أعلاه.

9- وكانت الأحداث تؤرخ بالقياس إلى هذه السنة فيقال حدث الحادث الفلافي بعد مرور كذا من السنين على تأسيس المدينة (ab urbe condita).

الفصل الثامن

روما سيدة ايطاليا

طرد الأتروسكيين وقيام الجمهورية:

لا نعرف كم من الوقت ظلت روما محتفظة بخط وادي التير الأدنى ولكن ليس هناك شك في أنها فقدت سيطرتها عليه في غضون القرن السادس ق.م.⁽¹⁾ بل وقعت هي نفسها في يد الأتروسكيين (Etrusci). ومع أنه لم يرد لهذه الرواية ذكر في حولياتها الأسطورية إلا أنه لدينا من الأدلة القاطعة ما يؤكد صحتها. فالمملوك الثلاثة الأواخر الذين حكموا روما كانوا فيما يبدو أتروسكيين، كما كان معبد جوبيتير (Jupiter) الكبير على تل الكابيتول، الذي أنشأه في ذلك الوقت ذا طراز اتروسكي وكانت زخارف سقفه متمشية مع أصول الفن الاتروسكي، ولا تزال بعض أحجار أساسه قائمة حتى اليوم.

وكان يوجد جنوبي هذا المعبد في اتجاه النهر طريق يحمل اسم الاتروسكيين ولدينا قرائن أخرى على الغزو لا يتسع المقام لذكرها تفصيلاً. وعلى أي حال فهناك ما يحمل على الاعتقاد أن هذا العدو العنيد اجتاز التير و Zheng على المدينة وطوقها واستولى عليها.

ولم يكن من عادة الاتروسكيين لحسن الحظ تدمير المدن التي يستولون عليها بل كانوا يحتلونها ويستفيدون منها. ويبدو أنهم اتخذوا من روما مركزاً لنشر نفوذهم في لاتيوم، فبنوا معبداً لجوبيتير اللاتيني (Jupiter Latiaris) على جبل ألب وقد أصبح هذا المعبد مركزاً لعصبة دينية تألفت من المدن اللاتينية تحت زعامة

أَلْبَالُونْجَا (*Alba longa*). وقد نشأت بعد ذلك في القرن السادس عصبة لاتينية أخرى تسمى عصبة فيرنتينا (*Ferentina*) ذات طابع سياسي أكثر منه ديني وكان مركزها في معبد الربة ديانا (*Diana*) وغابتها (*nemus*) الشهيرة في بلدة أريكيَا (*Aricia*) الواقعة على بعد حوالي 16 ميلًا من روما. وقد استمرت حتى القرن الرابع. ومن المحتمل أن تأسيس معبد للربة ديانا على تل الأفنتين المطل على التiber كان محاولة من جانب أحد الملوك الأتروسكيين لنقل مركز عبادة ديانا والعصبة اللاتينية إلى روما. ومع ما يكتنف جميع أحداث الفترة الاتروسكية من غموض وشك إلا أنه يلوح كما لو كان ضياع خط الدفاع قد بعث في المدينة المقهورة أملاً جديداً في الحياة وفتح عينيها على آفاق واسعة، وهيا لها فرصة جديدة. لكن هل كانت روما لتبقى مدينة اتروسكية؟ هذا السؤال يذكرنا بأخر في التاريخ الانجليزي: هل كانت إنجلترا تصبح بلداً نورمنديا - فرنسيًا بعد «الغزو»؟

ويبدو أن الأتروسكيين تعرضوا حينئذ لاغارات قبائل الغال (*Galli*) الراحفة من الشمال. وكانت هذه القبائل قد اجتاحت شمال أوروبا الغربي وعبرت جبال الألب وانقضت على حوض البو ثم توغلت جنوباً. ولعل هذا يفسر الحقيقة المؤكدة وهو أن روما استطاعت أن تخلص من الحكم الأتروسكي قرب نهاية القرن السادس، وأن العشائر الرومانية الشريفة (*L. Tarquinius gentes patriciae*) اتحدت وطردت الملك الدخيل تاركونينوس «المتغطرس» (*Superbutis*)⁽²⁾. وأقامت جمهورية (*Res Poblica*) أرستقراطية الطابع في عام 509. وأصبحت كلمة ملك (*Rex*) منذ ذلك الحين تثير امتعاض الرومان، وانتقل الحكم إلى أيدي حاكمين كانوا ينتخبان سنويًا ويتمتعان بسلطة مطلقة في ميدان الحرب وسلطة محدودة داخل المدينة. وسنعالج في الفصل التالي نظام الحكومة الجديد بشيء من التفصيل. وحسبنا أن نقول هنا أن هذين الحاكمين كانوا يسميان بالقنصلين (*Consules*), وأنه كان يوجد إلى جانبهما - مثلما كان للملوك

من قبلهما - على ما يرجح - هيئة استشارية مؤلفة من رؤساء الأسر الشريفة تعرف بالسناتو أي مجلس الشيوخ. ولنتابع الآن قصة التوسيع الروماني في إيطاليا. (Senatus)

المعاهدة بين روما والعصبة اللاتينية:

تحدثنا الأسطورة أن الأتروسكيين قاموا بمحاولة يائسة لاسترداد روما. وهي قصة مثيرة شديدة سردها ماكولي سرداً رائعًا في «أغاني روما القديمة»⁽³⁾. بيد أنه لا مناص من أن نغفل هنا هذه القصة لأننا لا نستطيع التتحقق منها⁽⁴⁾.

وسرعان ما نلتقي بعد ذلك بحدث يبدو أنه حقيقة تاريخية، وهو المعاهدة التي عقدها روما مع المدن اللاتينية الأخرى في عام 493، وظل نصها محفوظاً قرون عدة. ويتبين من هذه المعاهدة المعروفة باسم «معاهدة كاسيوس» (Foedus Cassium) أن روما ولاتيوم أصبحتا منذ ذلك الحين قوة متحدة. وكانت هذه هي أول خطوة عملية خطتها روما نحو التوسيع في إيطاليا. وقد نصت هذه المعاهدة على أن يتبادل الطرفان المساعدة في حالة الحرب، إذ كانت روما محتاجة إلى المساعدة ضد الأتروسكيين وكانت المدن اللاتينية التي تقع في الطرف الجنوبي من السهل معرضة لهجوم القبائل الساكنة بالتلال في الشرق والجنوب.

وأهم من ذلك كدليل على التقدم الحضاري أن المعاهدة نصت على تبادل حقوق المواطنة الخاصة أي أقرت مبدأ توحيد نظام القانون الخاص فأصبح في وسع أي مواطن من مدينة لاتينية (بما في ذلك روما بدأه) أن يبيع ويشتري ويمتلك في أي مدينة أخرى (أي التمتع بما يعرف بحق التعامل Commercium)، وهو مطمئن تماماً إلى حماية قانون تلك المدينة لما يرميه من عقود. وإذا تزوج امرأة من مدينة أخرى فزاوجه شرعاً ويرث أبناؤه أملاكه وفقاً للقانون (وهو ما يعرف

بحق الزواج Conubium) وبذلك قطعت روما شوطاً بعيداً في طريق ادماج جميع لاتيوم في دولة واحدة. وقد تساوت كل المدن في الحقوق وارتبطة فيما بينها بعلاقات قائمة على أساس قانوني. وهذا مظهران رئيسيان من مظاهر الاتحاد الحقيقي. وكانت الاتحادات بأنواعها جميعاً أفضل من عزلة المدينة - الدولة أو المدينة الحرة التي أصبحت وقتئذ عاجزة بمفردها عن إخماد الثورات أو الوقوف في وجه الغزاة. ويبدو أن المعاهدة المشار إليها كانت ثمرة جهد أحد الساسة ولو صح أنه كان سبوريوس كاسيوس (Spurius Cassius)، السياسي الروماني، كما تروي القصة، فإن روما تكون قد أحرزت أول انتصار لها في فن الحكومة السياسية، ذلك الفن الذي سيطرت به على العالم فيما بعد.

ولنتوقف هنا لحظة لنشرح معنى بعض مصطلحات أشرنا إليها إشارة عابرة لكنها باللغة الأهمية: مصطلحات «حقوق المواطنة الرومانية» و «حق التعامل»، و «حق الزواج» مما يساعدنا على تبع الخطوات التي خطتها روما وإيطاليا وانتهت بالاتحاد تحت زعامتها: يعبر عن حقوق المواطنة (الجنسية) بلفظ كيفيتاس Civitas. وكانت حقوق المواطنة أو الجنسية الرومانية (Civitas Romana) تتضمن الآتي:

1) الحقوق المدنية أو الخاصة (*Iura privata*) وهي «حق الزواج كامل الأهلية» المسمى Conubium، وحق التعامل المسمى كومركيوم *Commercium*. ومعنى «كونيوبوم» كنوبيوم، أصلًا هو الزواج كامل الأهلية بين طرفين كل منهما روماني. والأنباء من هذا الزواج شرعاً يعودون يرثون من أبويهم وبالعكس وفقاً للقانون الروماني. وللآباء حق الأبوة، وللأنباء حق البنوة. وأما حق التعامل فمعناه حق الروماني في أن يبيع ويشتري ويبرم العقود وفقاً للقانون الروماني مع حماية هذا القانون لتصرفاته ما دامت سليمة، وحقه في التقاضي أمام محكمة بريتور *(Praetor Urbanus)* المدنية.

(2) الحقوق السياسية أو العامة (Iura publica) وتشمل حق الاقتراع على المشروعات وانتخاب الحكماء في الجمعيات الدستورية المختلفة، وهو ما يسمى بحق الـ Suffragium أي حق الانتخاب. وكذلك حق المواطن في ترشيح نفسه للمناصب العامة المسممة honores. ولقد سميت كذلك (honores) لأنها كانت في الواقع الأمر شرفاً وامتيازاً لا يحصل عليه إلا القلة. ذلك أنه كان يحد من الحقوق السياسية في روما اشتراط امتلاك نصاب معين من الثروة (وان كان هذا الشرط الأخير قد ألغى فيما بعد بالنسبة للجمعية القبلية). وضرورة وجود الشخص في روما نفسها لمارسة أي من الحقين.

(3) حق التظلم من أحكام الاعدام أمام «الجمعية المئوية» ومن الغرامات الفادحة أمام «الجمعية القبلية»، وهو أشبه ما يكون بحق الاستئناف. ويسمى بروفوكاتيو (Provicatio ad populum)، أي حق التظلم إلى الشعب.

- وأما عن واجبات المواطن الروماني (Munera) فكان أهمها واجب تأدية الخدمة العسكرية (Munus Militare). فلما ألغى مبدأ الخدمة الالزامية فيما بعد انحصرت واجبات المواطن فيما كان يفرض على الرومان من ضرائب معينة كضريبة الميراث (التركات) وضريبة المبيعات. كانت الجنسية الرومانية تكتسب بطريقين:

أ - بملولد أي أن يكون الوالدان رومانين، ولو أنه كان يجوز أن يكون أحدهما أجنبياً حاصلاً على الكنوبيوم (Conubium) الذي أشرنا إليه من قبل.

ب - بمنحةٍ وفقاً لقرار من الجمعية الشعبية (القبلية).

وقد منحت روما اللاتين (وبعدها الحلفاء الإيطاليين) حق التعامل معها بمعنى أن يصبح من حق اللاتيني أو الإيطالي أن يبرم مع الروماني عقوداً وفقاً

لقواعد القانون الروماني. وتصبح العقود واجبة النفاذ وملزمة أمام المحاكم الرومانية دون اللجوء إلى تحكيم القانون المسمى «بقانون الشعوب» (*Ius gentium*)، وهو قانون الدوليات أو الأمم الأخرى، والذي تأثر به القانون الروماني بالتدريج. وبدون «حق التعامل» لا يستطيع اللاتيني أو الإيطالي أن يحصل على حقوقه إلا باللجوء إلى بريتور الأجانب (*Praetor peregrinus*، وهو الحاكم القضائي الروماني الأعلى الذي كان مختصاً بالنظر في المنازعات القضائية التي تثور بين الرومان والأجانب، أو تثور فيما بين الأجانب.

ومنح «الكنوبيوم» معناه اعطاء الحق في أن يعقد طرف زواجاً شرعاً مع طرف من دولة أخرى دون أن يسقط حق أيٍ من الطرفين في الوراثة أو التوريث أو الأبوة (أي شرعية الأبناء).

وبمقتضى «قانون مينوكيوس» الصادر قبل عام 90 ق.م كان أبناء الأبوين غير المتمتعين «بالكنوبيوم» يتبعون جنسية الطرف الأدنى وضعاً (أي غير الرومان) فكان الروماني الذي يتزوج بامرأة لاتينية أو إيطالية دون الحصول على «الكنوبيوم» يكتسب أولاده جنسية الأم (الأجنبية).

لكن نشأ مبدأ عام عند الرومان وهو أن المرأة الرومانية إذا تزوجت بأجنبي يتبع أبناؤها جنسيتها أي يصبحون مواطنين رومانيين. معبقاء الزواج غير متكافئ. فلا يرث الأبناء من أبيهم غير الروماني.

وفي الواقع أن منح «حق التعامل» (*Commercium*) أو حق الزواج كامل الأهلية للأجانب (*Peregrini*) (*Conubium*) ظلّ أمراً استثنائياً.

كانت الخدمة في الفرق الرومانية المسمى لجيونيس (*Legiones*) مقصورة على المواطنين الرومان. لكن فيما بعد وعلى الأخص في عصر الامبراطورية سمح للأجانب بالخدمة في القوات المساعدة (*auxilia*) وفي وحدات الأسطول الروماني (*Classia*) وكانت الخدمة العسكرية فيها طويلة تستمر 25 أو 26

عاماً. وكان الزواج محرماً على الجنود (جميعاً) أثناء الخدمة. ولا تعترف الحكومة بشرعية الزواج الذي يعقده أي من الجنود أثناء الخدمة العسكرية. ولا تعترف بأن من يتزوجها الجندي زوجة شرعية (Uxor)، وإنما تعتبرها امرأة عادية (Mulier) أو محظية (Concubina) أو رفيقة (amica). ويعتبر الأبناء من هذا الزواج غير شرعيين، أي طبيعيين (Naturales) لا أب لهم أو من أب مجهول أي غير شرعي. لكن هؤلاء الأبناء كانوا - من حيث الجنسية - يتبعون حالة الأم فيكونون رومانين إذا كانت رومانية، وأجانب إذا كانت أجنبية⁽⁵⁾.

- لكن في عصر الامبراطورية كانت الحكومة تمنح جنود القوات المساعدة ووحدات الأسطول (ومعظمهم من الأجانب) عند تسريحهم من الخدمة تسريحاً مشرفاً أولاً الجنسية الرومانية مكافأة لهم على خدمتهم الطويلة، وثانياً «الكنوبيوم» أي حق الزواج الروماني حتى يتمكنوا - إذا شاؤوا - أن يتزوجوا من أجنبيات فتصبح الزوجة كأنها رومانية من الناحية الواقعية لا من الناحية القانونية، ويصبح الزواج كأنه كامل الأهلية، ويكون الأبناء من هذا الزواج مواطنين رومانين مع بقاء الأم الأجنبية على وضعها دون تغيير، فلا تكتسب الجنسية الرومانية، وتظل أجنبية. ولا يستطيع زوجها (الرومي) ولا أبناؤها (الروماني) أن يرثوا منها، ولا العكس، حيث أن القاعدة العامة أن لا يجوز أن يرث الرومي إلا روماني مثله.

- كذلك كانت الحكومة الرومانية (في عصر الامبراطورية) تمنح الجنود المسرحين من كتائب الحرس البريتوري (في روما) وكتائب المدينة (روم) تسريحاً مع أنهم رومانيون - حق الكنوبيوم وحده لكي يتمكنوا من الزواج (بعد التسريح) من أجنبيات، ولا يعرف أحد حتى الآن معرفة اليقين السبب في ذلك، حيث أن الحكومة الرومانية لم تكن تشجع زواج الرومان من أجنبيات، وتحرم على الجنود أثناء الخدمة الزواج لاعتبارات خاصة بالأمن ولا سيما على الحدود. وإذا كانت قد منحتهم الكنوبيوم، فذلك بعد التسريح حتى يصبح أبناؤهم رومانين مثلهم

مراعاة للعدالة وأما أن تمنح المسرحين من كتائب الحرس البريتوري وكتائب المدينة حق الكنوبيوم لتمكينهم من انجاب أبناء رومان من أجنبيات، فهو أمر غير مفهوم. لكن من المرجح أن الحكومة فعلت ذلك لأن أحد الأباطرة منح هؤلاء الجنود (من الحرس البريتوري وكتائب المدينة) هذا الامتياز فظلوا متمسكين به ولم يحاول خلفاؤه سحبه منهم نظراً لازدياد قوتهم وأهميتهم. ولعل وجودهم في روما (خارج السور) لم يجعل من زواجهم بأجنبيات (بعد التسريح ما يشكل خطراً على أمن الامبراطورية وسلامة حدودها).

وقد رفع حظر الزواج عن الجنود في عهد الامبراطور سبتميرس سفيروس (197 م).

وعلينا قبل المضي في سرد القصة أن نلقي نظرة على موقع لاتيوم وكيف كان هذا الاقليم من الناحية الجغرافية أكثر ملاءمة من المناطق الجبلية لكي يقوم فيه اتحاد كان اقليم لاتيوم، كما يتبيّن من اسمه، سهلاً ملائماً بطبعته، كاقليم بويوتيا (Boeotia) في بلاد اليونان، لقيام اتحاد فيدرالي، بينما كان من العسير دائمًا على القبائل القاطنة بالجبال أن تتحد. وفضلاً عن ذلك فإن اللاتين كانوا مكتظين في مساحة ضيقة نسبياً بين التلال والبحر، وكان ذلك مدعاه لتركيز قوتهم، على حين أن الأتروسكين والشعوب الإيطالية المختلفة كانوا يتنقلون باستمرار بحثاً عن مواطن أفضل مما كان يبده قوتهم ويضعف تكتلهم.

وفي تلك الاتحادات القديمة كانت المدينة القوية بين أعضائها تتملكها دائماً الرغبة في أن تحتل مركز الزعامة، على نحو ما نراه في الاتحادات الحديثة، كالاتحاد السويسري مثلاً، حيث تنزع السلطة المركزية دائماً إلى بسط نفوذها على سائر المقاطعات. ولا ريب في أن روما سرعان ما أحرزت نوعاً من الزعامة في لاتيوم. فموقعها الممتاز على التiber، والجهد المتصل الذي بذلته في مقاومة الأتروسكين، هذان العاملان رجحا كفتها على المدن اللاتينية الأخرى التي لم

تتعرض إلا لاغارات متقطعة من أعداء أقل تحضراً من الأتروسكيين. وقد اضطر الشعب الروماني إلى الكفاح وأعمال الفكر باستمرار مما أكسبه الشجاعة في القتال وأكسبه أيضاً قوة الاحتمال والحنكة السياسية والتبصر في الأمور.

فبعد طرد الملوك في عام 510 وجد الرومان أنفسهم مشتتين في صراع مستمر زهاء قرن من الزمان مع فيي (Veii)، المدينة الأتروسکية العظيمة التي تقع فوق ربوة مرتفعة على مسيرة أميال من روما شمالي النهر، وكذلك مع فيدناي (Fidenae) وهي بلدة سابينيه تقع شمال روما على التiber، وقد استخدماها مواطنو «فيي» قاعدة للهجوم على الرومان من تلك الناحية. فلا عجب أن دمر الرومان فيي تدميراً تماماً عندما سقطت في أيديهم في عام 392 ق.م بعد حصار زعموا أنه استغرق كحصار الأغريق لطروادة عشر سنوات. ويقال أنهم فكروا في ترك مدینتهم على التiber والهجرة إلى ذلك المكان المرتفع. ولكن الحكمة تغلبت فبذوا الفكرة. وقد نهبت «فيي» ونقلت ربتها جونو (Iuno) إلى روما، وما يزال مكانها قبراً إلى اليوم.

وكان هذا الصراع الطويل الذي استندت فيه روما بداعه باللاتين هو ما هيأ لها الفرصة لتتولى زعامة العصبة اللاتينية. وما أن انتهى الصراع حتى غيرت روما سياستها إزاء اللاتين. ومن المرجح أنها بدأت تعامل المدن الأخرى معاملة مشوبة بالصلف مما اثار عليها سخط هذه المدن. بيد أنها لا نعرف شيئاً مؤكداً عن هذا الموضوع. وما نعرفه على وجه التحقيق هو أن اللاتين تخلوا عن روما عندما حلت بها كارثة في أوائل القرن الرابع ق.م.

غزو الغال روما وانسحابهم:

كانت هذه الكارثة هي نهب روما بعد أن سقطت في يد الغال (Galli) في عام 390 ق.م⁽⁶⁾. وكانت احدى قبائلهم قد زحفت من حوض البو على

وادي التiber وأخذت الرومان على غرة وهزمتهم شر هزيمة عند نهر أليا (Allia) الصغير، أحد فروع التiber، على مسيرة اثني عشر ميلاً من المدينة. وكان الغال متبريرين شديدي البأس في القتال، فأثاروا الرهبة في قلوب الرومان ولكنهم كانوا كالشعوب الكلتية الأخرى عاجزين عن تكوين دولة موحدة مستقرة، أو الانتفاع بانتصاراتهم. ولذلك انسحبوا من روما بنفس السرعة التي جاءوا بها. ولم يتركوا وراءهم سوى ذكرى لم تمح أبداً عن الرعب الذي نشروه وقصص كثيرة عن أهوال تلك المحنـة. وأكثـرها دلالة على الروح الرومانية هي القصة التي تبيـن مدى ما كان يكتـنـه الرومان من إجلال للسناتـو، وهو أعظم هـيـة سياسـية لـديـهمـ. فقد فـرـ المواطنـونـ أمـامـ الغـالـ إلىـ الكـابـيـتـولـ حيثـ اـعـتـصـمـواـ بـالـقلـعـةـ وـظـلـلـواـ صـامـدـينـ إـلـىـ أنـ وـصـلـتـهـمـ النـجـدةـ.ـ لكنـ الشـيوـخـ مـمـنـ تـخـطـواـ سـنـ الـجـنـديـ عـقـدـواـ العـزـمـ فيـ تـلـكـ الـأـنـثـاءـ عـلـىـ مـجـابـهـ الـمـوتـ نـاذـرـينـ أـنـفـسـهـمـ لـآـلـهـةـ الـعـالـمـ السـفـلـيـ (Di Manes)⁽⁷⁾ وـفـقاـًـ لـعـادـةـ نـذـرـ النـفـسـ (devotio)ـ وهيـ عـادـةـ دـينـيـةـ كـانـتـ تـتـبعـ فـيـ سـاعـةـ بـلـوغـ الـخـطـرـ اـقـصـاهـ⁽⁸⁾.ـ فـجـلسـ كـلـ مـنـهـمـ عـلـىـ مـقـعـدـ أـمـامـ دـارـهـ مـتـشـحـاـ بـزـيـهـ الرـسـميـ.ـ وـوـجـدـهـمـ الغـالـ فـيـ أـمـاكـنـهـمـ عـلـىـ هـذـاـ الـحـالـ فـاستـولـتـ عـلـيـهـمـ الـدـهـشـةـ حـتـىـ خـيـلـ إـلـيـهـمـ أـنـهـمـ لـيـسـوـاـ مـنـ الـبـشـرـ.ـ وـأـخـيـرـاـ اـجـتـرـأـ أـحـدـ الغـالـ فـضـرـبـ لـحـيـةـ شـيـخـ مـنـهـ يـدـعـيـ بـابـيـرـيوـسـ (Papirius)،ـ فـضـرـبـهـ بـابـيـرـيوـسـ عـلـىـ الـفـورـ بـعـصـاهـ الـعـاجـيـةـ وـلـكـنـهـ قـتـلـ فـيـ الـحـالـ،ـ وـلـمـ يـقـعـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـةـ أـحـدـ مـنـ الـشـيوـخـ.ـ وـلـيـسـ ثـمـةـ مـاـ يـدـعـونـاـ إـلـىـ مـنـاقـشـةـ صـحةـ هـذـهـ القـصـةـ لـأـنـهـ مـنـ الـمـسـتـحـيلـ التـحـقـقـ مـنـهـاـ وـلـكـنـهـ قـصـةـ مـتـسـمـةـ بـالـطـابـعـ الـرـوـمـانـيـ،ـ مـتـمـشـيـةـ،ـ مـنـ النـاحـيـةـ الـدـينـيـةـ،ـ معـ الـقـصـصـ الـأـخـرـىـ الـتـيـ تـوـاتـرـتـ عـنـ تـضـحـيـةـ الـفـردـ بـنـفـسـهـ فـيـ سـبـيلـ الدـوـلـةـ.

حل العصبة اللاتينية:

وكانت المحنـة درساً قاسيـاً للرومان فـبـدـأـواـ يـسـتـفـيدـونـ مـنـهـ بـعـدـ رـحـيـلـ

الغال. وقد أدركوا أنه لا مناص من أن يشددوا قبضتهم على المنطقة الواقعة في شمال روما. وتحقق لهم ذلك بإدماج جانب كبير منها في الأراضي الرومانية وإنشاء مستعمرتين (Coloniae) هناك. وكانت المستعمرات الرومانية في إيطاليا في الواقع حصوناً ترابط بها حاميات على الطرق العسكرية.

وبعدئذ شرع الرومان يصفّون حسابهم مع زملائهم أعضاء العصبة اللاتينية الذين استشعروا شيئاً من الغبطة في اذلال زعيّمهم على يد الغال لأنهم كانوا يغارون منها ويرتابون في نواديها. وقد بدأت حينئذ بعض المدن اللاتينية، وبخاصة مدينتا تيبور (Tibur) وبرينستي (Praeneste) الكبستان واللتان تتاخمان روما، تشق عصا الطاعة وتثور عليها. وفي وسعنا أن نقول، استناداً إلى ما حدث فيما بعد، أن هذه المدن اللاتينية وقفت عقبة لفترة في وجه الاتحاد الإيطالي وأن ما دفعها إلى ذلك هو حب الاستقلال الذي كان بمثابة عصب الحياة لدولة المدينة الحرة القديمة.

ومن المرجح أن جميع السجلات والوثائق التاريخية. ما عدا النقوش الحجرية، أبيدت عندما استولى الغال على روما وأضرموا فيها النيران. ولم يكن «التاريخ الروماني» حتى تلك اللحظة جديراً بهذا الاسم في حقيقة الأمر. ولكن الرومان بدأوا يحتفظون منذ ذلك الحين ببعض السجلات الرسمية، مما ينتقل بنا تدريجياً إلى عصر في وسعنا أن نسميه بحق «العصر التاريخي». غير أن تفاصيل أحداث ذلك العصر ستظل مثاراً للشك من جراء ما تملك الأسر الرومانية الكبيرة من نزعة إلى تمجيد أعمال أسلافها على حساب الحقيقة. وقد أدى ذلك إلى انتقال قصص زائفه إلى العصر الذي بدأ فيه تدوين التاريخ. لكن معالم هذا التاريخ تصبح واضحة في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وقد ذكرت في الفصل السابق أن الرومان كانت تعوزهم ملكة الخيال بدرجة تبعث على الدهشة. بيد أنه لا يوجد شعب مجرد من الخيال كل التجريد. ومن الطريف أن نجد الرومان

يستعملون نصيبيهم الضئيل منه في اختلاق أعمال مجيدة وخدمات مشرفة لأدوها للدولة. ومع ما تثيره هذه النزعة من استياء أحس به المؤرخ الروماني ليفيوس (Livius⁽⁹⁾) نفسه، الذي كان على تمام العلم بها، فإن لها قيمتها كمظهر من مظاهر الحياة والأخلاق الرومانية القديمة.

لكن ينبغي أن نعود إلى قصة التوسع الروماني في إيطاليا. من الواضح أن تذمر اللاتين أخذ يزداد، بعد غزو الغال، من السياسة الرومانية التي كانت ترمي إلى استغلال جميع موارد العصبة والسيطرة التامة على علاقاتها مع الدول الأجنبية وقد وصلنا عن طريق المؤرخ بوليبيوس (Polybius⁽¹⁰⁾) النص اليوناني لمعاهدة مع قرطاجة، أقوى دولة بحرية وقتئذ، يتبعين منها هذا الاتجاه بوضوح. ويرجع تاريخ هذه المعاهدة التي تفاوضت فيها روما باسم لاتيوم إلى سنة 348. وقد تعهدت قرطاجة بمقتضاها ألا تتعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت على ولائها لروما، بل أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعهدت بأن تعيد إلى سيطرة روما أي مدينة لاتينية متمرة إذا سقطت في يدها. ويتبين من ذلك أن الثورة كانت متوقعة، وما لبثت أن أصبحت بعد سنوات ثورة عاممة (340). لكن على الرغم من استعانة اللاتين بمدن كمبانيا، السهل الخصب الواقع في جنوب لاتيوم وقبول هذه المدن التحالف معهم لأنها كانت هي الأخرى مهددة من جانب قبائل «السمنيين»، وبرغم استفحال الخطر استفحالاً أدى إلى رواج قصة أخرى من قصص التضحية (Devotio) التي ينذر فيها قنصل روماني نفسه لآلهة العالم السفلي في سبيل الدولة، فقد انهزم اللاتين بعد ثلاث سنوات هزيمة ساحقة. وحل الرومان العصبة اللاتينية وجروها من كل خصائص الاتحاد الفيدرالي في عام 338.

وقد رأينا كيف أن أي مواطن في مدينة لاتينية كان في وسعيه أن يبيع ويملك ويتزوج وينجب أولاداً شرعاً في أي مدينة لاتينية أخرى وهو واثق من حماية القانون له عندما يزاول هذه الحقوق. ولكن هذا كله تغير بعد الثورة. إذ

أصبح اللاتين يتمتع فيها بالحقوق في مدينته أو في روما، وليس في أي مدينة أخرى بينما أصبح الروماني يتمتع بها في كل مدينة. فكان مواطن برينستي مثلًا يتمتع بهذه الحقوق في برينستي أو في روما ولا يتمتع بها في المدن المجاورة مثل تيبور وتسكولوم بينما كان الروماني يتعامل في جميع هذه المدن وهو على يقين من حماية القانون الروماني، ذلك القانون الذي بدأ يتغلغل تدريجياً في جميع أنحاء لاتيوم. وهكذا احتكرت روما حق التعامل مع المدن اللاتينية التي عزلت إحداها عن الأخرى عزلاً تماماً. ومع أن هذه السياسة تنطوي على القسوة والأثرة إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن البال أن روما كانت على وشك أن تتحمي من الوجود بينما لم يحرك اللاتين ساكناً - فيما نعلم - ملديداً المعونة لها. وتحتم على روما أن تسيطر على موارد لاتيوم العسكرية كافة كي تستطيع أن تصد هجوماً عنيفاً كهجوم الغال. وهذا ما لم يكن في مقدورها أن تفعله في ظل اتحاد مفكك أعضاؤه على قدم المساواة معها. ولم تتعرض روما للهجوم من جانب الغال فحسب بل من جانب الأتروسكيين - وكما سنرى بعد لحظة - من جانب السمنيين أيضاً. فإذا ملسا في مسلكها ما يجافي أحياناً روح العدالة أثناء نضالها من أجل البقاء، فعلينا لا ننسى أنه ما من أمة مظفرة إلا وقد يوجه إليها نفس النقد. لقد أدركت روما أنه لا بد من أن تصبح لاتيوم رومانية لكي تبقى هي واللاتين على قيد الحياة، فابتعدت سياسة عزل المدن اللاتينية الواحدة عن الأخرى تحقيقاً لهذا الغرض.

ومنذ ذلك الحين أصبح جميع اللاتين يخدمون في القوات المساعدة (auxilia) بوصفهم حلفاء من الناحية النظرية، ورعايا خاضعين من الناحية الفعلية. وكان من يحصلون منهم على حقوق المواطن الرومانية (Civitas) يخدمون في الفرق الأصلية (Iaegienes). وكانت المستعمرات (Coloniae) التي تأسسها روما إما رومانية⁽¹¹⁾ أو لاتينية⁽¹²⁾. غير أن المستعمرة اللاتينية لم تتألف بالضرورة من اللاتين، فقد يسكنها رومان أو لاتين أو غيرهم ممن

ينضمون إلى المستعمرة الجديدة ويقعنون بحقي التعامل والزواج اللذين سبق الكلام عنهم⁽¹³⁾. وهكذا أصبحت صفة «لاتيني»، لا تدل على شعب بالذات بقدر ما تدل على وضع قانوني معين، واستمرت تدل على هذا المعنى قرونا عدة، بينما أصبحت الدولة الجديدة التي كان نجمها يصعد في الأفق العالى، تعرف لا بالدولة اللاتينية بل بالدولة الرومانية.

استسلام كمبانيا:

كانت روما كدولة آخذة في القوة خليقة أن تستنجد بها المدن الضعيفة في ساعة المحنـة. وقد استنجد بها أهل كمبانيا عندما تعرضوا للهجمـون من جانب سكان المنطقة الجبلية الوسطى من إقليم سمنيوم. فلبت روما نداءـهم ولكنـها وجدـت أنـ الظروف تحـتمـ عليها عـقدـ الصلـحـ معـ السـمـنـيـيـنـ، فـتـخلـتـ عـنـ نـصـرـةـ أـهـلـ كـمـبـانـيـاـ مـاـ حـمـلـ هـؤـلـاءـ عـلـىـ الـانـحـيـازـ إـلـىـ جـانـبـ الـلـاتـيـنـ. لكنـ رـوـمـاـ اـسـطـاعـتـ أـنـ تـقـنـعـ أـهـلـ كـمـبـانـيـاـ بـإـلـغـاءـ تـحـالـفـهـمـ مـعـ الـلـاتـيـنـ وـعـقـدـ صـلـحـ مـنـفـرـدـ مـعـهـاـ قـبـلـ اـنـتـهـاءـ الـحـرـبـ الـلـاتـيـنـيـةـ. وقدـ شـجـعـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ اـحـتـياـجـهـمـ إـلـىـ حـمـاـيـةـ رـوـمـاـ لـهـمـ مـنـ عـدـوـانـ السـمـنـيـيـنـ. وقدـ مـنـحـتـ بـعـضـ مـدـنـهـمـ الـعـامـةـ مـثـلـ كـابـواـ (Capua) وـكـومـأـيـ (Cumae) وـغـيرـهـماـ حـقـوقـ الـمـوـاـطـنـةـ الـمـدـنـيـةـ (Iura Privata) فأـصـبـحـتـ هـذـهـ الـمـدـنـ فـيـ الـوـاقـعـ جـزـءـاـ مـنـ الدـوـلـةـ الـرـوـمـانـيـةـ. وبالـرـغـمـ مـنـ أـنـ سـكـانـ هـذـهـ الـمـدـنـ لـمـ يـنـحـواـ حـقـوقـ الـمـوـاـطـنـةـ السـيـاسـيـةـ إـلـاـ أـنـهـمـ كـانـواـ كـالـمـوـاـطـنـينـ الـمـتـمـتـعـينـ بـكـامـلـ الـحـقـوقـ يـخـدـمـونـ فـيـ الـفـرـقـ الـرـوـمـانـيـةـ الأـصـلـيـةـ (Legiones)، كماـ تـمـتـعـتـ هـذـهـ الـمـدـنـ بـالـحـكـمـ الـذـاـئـيـ فـاـحـتـفـظـتـ بـدـسـاتـيرـهـاـ وـقـوـانـينـهـاـ الـخـاصـةـ إـلـاـ فـيـ الـأـحـوـالـ الـتـيـ كـانـتـ تـقـبـلـ فـيـهـاـ طـوـاعـيـةـ الـأـخـذـ بـالـنـظـمـ الـرـوـمـانـيـةـ. وقدـ سـمـيـتـ بـالـبـلـدـيـاتـ (Municipia) وـانـ كـانـتـ هـنـاكـ أـيـضاـ بـلـدـيـاتـ يـتـمـتـعـ سـكـانـهـاـ بـكـامـلـ حـقـوقـ الـمـوـاـطـنـةـ الـرـوـمـانـيـةـ.

هكذا وجدت روما نفسها مسيطرة بقوة لا سبيلاً إلى مقاومتها على منطقة فسيحة تشمل السهلين الواقعين في غرب إيطاليا (لاتيوم وكمبانيا) وجميع أراضيهما الخصبة، (حتى خليج نابولي في الجنوب)، وعلى اتحاد تستأثر فيه بكل المزايا وتحكم في موارد مدنها كلها.

الحروب السمنية:

ولم يكن معنى السيطرة على هذين السهلين أن روما أصبحت سيدة إيطاليا. إذ كان عليها أن تدافع عنهما وخاصة عن السهل الجنوبي الأكثر خصوبة ضد عدوان سكان المرتفعات الوسطى من شبه الجزيرة، وهي منطقة ينبغي عند هذه المرحلة من القصة دراستها بعناية على الخريطة. كان سكان هذه المرتفعات الذين عرفهم الرومان باسم السمنيين (Samnites) قد كفوا عن الاغارة على سهل كمبانيا عندما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن جنوب إيطاليا ضد عدو لم يكن في الحسبان. كان هذا العدو هو تارنتوم (Tarentum)، المدينة الاغريقية التجارية التي تقع في داخل الكعب الإيطالي وشتهرت بالقوة والثراء، وقدر لها أن تقوم بدور هام في التاريخ الروماني خلال القرن التالي. وكانت أراضي تارنتوم قد تعرضت أخيراً لإنزالات السمنيين (إغارات بني جلدتهم سكان إقليم لوكانيا الواقع إلى الجنوب) مما أرغمهما على الاستغاثة بملوك بلاد اليونان نفسها. وهنا نتصل بالتاريخ اليوناني في الوقت الذي كان فيه الاسكندر الأكبر هو أبرز شخصية في العالم الهلليني.

وقد حضر ملك اسبرطي وهو أرخيداموس (Archidamus) ملمساعدته تارنتوم وقضى نحبه في الحملة (338 ق.م.). ثم حضر من بعده الاسكندر، ملك ابیروس، وهو حال الفاتح الأكبر، ولكنه لقي حتفه هو الآخر بعد فترة انتصر على السمنيين (330 ق.م.) وقد روي أن روما عقدت اتفاقاً معه، وليس هذا بالأمر

المستبعد. فقد كان هناك بين أعضاء مجلس الشيوخ الروماني من تعودوا النظر بعيداً والاحاطة بما يجري في إيطاليا بل وما يجري عبر البحار الإيطالية. وما كان الصراع الطويل الذي خاضته روما من أجل البقاء قد عَلِم ساستها الموقرين أصول الدبلوماسية، فقد شرعت روما، بعد موت الاسكندر المذكور، تعقد المحالفات مع شعوب تلك المنطقة النائية التي تقع بين سمنيوم وتارنتوم، وهي منطقة كانت معظم أراضيها غنية خصبة، حتى إذا ما نشب الصراع المحتوم مع سكان التلال، استطاعت أن تحصرهم بين عدوين: هي ولaitom في الشمال والغرب وسكان أبوليا والاغريق في الجنوب والشرق. وكان على روما أن تختر أحد أمريرن فأما أن تستمر في تقوية نفوذها أو أن ينهار هذا النفوذ انهياراً تاماً.

وقد نشب الصراع المحتوم مع السمنيين واستمرت الحرب المعروفة بالحرب السمنية الأولى حوالي عشرين عاماً (326 - 304). ولا يتسع المجال هنا لسرده بالتفصيل لأن معظم حوادثه في الواقع غير موثوق بصحتها كما وصلت إلينا. لكن هناك حادثة واحدة رويت بالتفصيل وأصابت من الشهرة ما يجعلها تستحق أن نفسح لها مكاناً في عجالتنا لأنها توضح مدى صلابة الرومان فيما يمس المصلحة القومية، وهي صلابة مجردة من كل معانٍ الشهامة، سوف تتميز بها سياسة روما وهي تشق طريقها نحو السيادة العالمية.

حدث في عام 321 أن كان جيش روماني يزحف جنوباً تحت قيادة القنصلين عبر الجبال فوق في كمين عند فاوكيس كاوديني (Fauces Caudinae)، وهو ممر جبلي لم يغب اسمه أبداً عن ذاكرة الرومان⁽¹⁴⁾. وقد باهت جميع محاولات الفرار بالفشل وأرغم الجيش الروماني على الاستسلام. وأملأ بنطيوس (Pontius)، قائد السمنيين، الشروط التالية: أن يتعهد القنصلان نيابة عن السناتو بقبول الجلاء عن سمنيوم وكمبانيا والمستعمرات الحصينة المنشأة هناك وإبرام الصلح مع السمنيين باعتبارهم أنداداً للروماني. وتم تعهد القنصلين

في احتفال أجريت فيه الطقوس الدينية الرسمية فأخلي سبيل الجيش الروماني بعد أن أرغم جنوده على الانحناء والمرور تحت النير: أي تحت قنطرة تتالف من حربة مرتكزة على حربتين قائمتين، وهي عادة قديمة كان الإيطاليون يتبعونها مع العدو المنهزم ويحتمل أنها كانت في الأصل ذات مغزى ديني. فلما عادت الفرق المكسورة إلى روما ودعا القنصلان السناتو لاقرار الاتفاق، رفض «الآباء» (Patres) ... كما كان يسمى أعضاء مجلس الشيوخ الروماني - رفضوا رفضاً باتاً أن يقرروه وأعيد القنصلان وجميع من تعهدوا بقبول الشروط إلى بنطيوس كأسري حرب يفعل بهم ما يشاء، ولكن الجيش نفسه لم يؤمر بالعوده. وعندئذ ثارت ثائرة بنطيوس لأنه أدرك أن سمنيوم قد أغلقت منها الفرصة التي لن تسنح مرة أخرى. وكان القنصلان بداهة لا يملكان سلطة إلزام السناتو الذي لم يستطع أن يقبل شروط السمنيين جزاء هزيمة واحدة نشأت من غلطة قائد القواد. فلم تكن تلك هي سنة الرومان في الحرب. بيد أنه كان ينبغي أيضاً إعادة الجيش المكسور إلى السمنيين، وكان مجلس الشيوخ والشعب يعلمون ذلك. ويتبين من خطاب وضعه مؤرخ روماني في عصر متاخر على لسان بنطيوس يعبر فيه عن غضبه أن شعوراً بالخزي لهذا المسلك غير المشرف ظل يخالج الرومان في الأجيال التالية.

وفي غضون السنوات القليلة التالية سعت روما إلى توطيد مركزها في إقليم أبوليا (بالجنوب الشرقي)، وزادت من حجم جيشه، وأعادت تنظيمه، وعدلت تشكيله العسكري بحيث أصبح ملائماً للحركة والمناورة في الأراضي الجبلية الوعرة. ومن الجائز أنها أعادت وقتئذ تسلیح بعض وحداته بالحربة الطويلة (Pilum) بدلاً من الحربة القصيرة (hasta) وتجددت الاشتباكات مع السمنيين. ومنيت روما في البداية بهزيمة في معركة كبيرة عند «لأوتولاي» (Lautulae) (قرب تراكينا) بجنوب لاتيوم في عام 315 ق.م وتزعزع ولاء كمبانيا نحو روما لفترة من الزمن. لكن لم يلبث الرومان أن أحرزوا انتصاراً

استردوا به ما فقدوه، بل استطاعوا إرغام السمنيين على اتخاذ موقف الدفاع. وأنشأ الرومان في الوادي الأعلى لنهر لبريس، وفي كمبانيا، وفي أبوليا، بعض مستعمرات لاستخدامها كحاميات حصينة لحصر العدو في سمنيوم وكقواعد لشن الهجمات على هذا الإقليم. وفي نفس الوقت شق الرومان طريقاً معبداً رائعاً، وهو «طريق أبيوس» (Via Appia) الذي كان يمتد من روما إلى كابوا - وبذلك ضمن الرومان سهولة المواصلات دون عائق مع كمبانيا حتى في فصل الأمطار.

وأدرك السمنيون أن امتداد النفوذ الروماني إلى وسط إيطاليا سيعزلهم عن الشمال، ويعوق اتصالهم به. لذلك حرضوا المدن الاتروسكية التي كانت معاهدها مع روما على وشك الانتهاء، على مهاجمة الأراضي الرومانية في جنوب إتروسقرا. وكان القصد هو فتح جبهة أخرى للقتال يتحول إليها الرومان فيخف الضغط على السمنيين في الجنوب. وبالفعل اضطر الرومان إزاء الهجوم الاتروسكي إلى تقسيم قواتهم فخف الضغط مؤقتاً على السمنيين. ونجح السمنيون في حمل بعض القبائل كالهينيكين (Hernici) والآيكويين (Aequi) على نقض محالفتهم مع روما مما أطالت أمد الأعمال العدوانية في جبال الألبين الوسطى.

لكن قوة روما كانت مع هذا في ازدياد نتيجة لعوامل كثيرة كان من بينها تمكناها من إرغام المدن الاتروسكية على قبول صلح جديد، وسيطرتها على أبوليا وجنوب كمبانيا، وتحالفها مع بعض شعوب مقاتلة شديدة البأس مثل المارسيين والمماروكينيين والفرنطانيين، وبعض مدن الأومبريين. هذا فضلاً عن مبادرتها إلى معاقبة الشعوب التي ثورت مثل الهينيكين والآيكويين بمصادرة أراضيهم ودمج كثير من مدنهم في حيز الدولة الرومانية ومنح سكانها حقوق المواطنة الرومانية. وثمة عامل آخر ساعد على توطيد نفوذ روما هو تأسيسها مستعمرات في بعض الأراضي المصادرية، وتوزيع البعض الآخر منها على أفراد من المواطنين الرومان. وقد صاحب هذا التوسع في الأراضي الرومانية إنشاء مناطق قبلية جديدة، أي

وكان آخر ما بذله السمنيون من جهد في هذا الصراع الطويل هو المحاولة اليائسة التي قاموا بها هم والأتروسكيون والغال والسابين لتوحيد قواتهم ضد روما فيما يعرف «بالحرب السمنية الثانية» (298 - 290) وكانت خطتهم ترمي إلى فصل جيوشها ثم سحق كل جيش منها على حدة. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وانتصرت روما على السمنيين والغال انتصاراً حاسماً في موقعة سنتينوم (Sentinum) باقليم أومبريا عام 295 وكان هذا الانتصار بمثابة نقطة التحول في الحرب. وتحولت روما إلى الأتروسكيين وهزمتهم في عقر دارهم. وأصبحت سمنيوم نفسها معرضة للهجوم من جانب الرومان الذين لم يكفوا عن الاغارات على أراضيها حتى سعت سمنيوم إلى طلب الصلح. وصادر الرومان جزءاً من أراضي السمنيين وأرغمتهم على قبول وضع كوضع «حلفاء» روما (عام 290 ق.م.). ثم ولت روما وجهها شطر السابين الذين لم يبدوا سوى مقاومة طفيفة. وضمت روما أراضيهم إلى الدولة الرومانية، واعتبر السابين أنفسهم مواطنين رومانين دون تخويلهم حق الانتخاب (في روما). ولم يعد هناك شك في أن روما قد أصبحت القوة المسيطرة في شبه الجزيرة الإيطالية (290 ق.م.).

ولم يبق سوى تأمين حدود شبه الجزيرة من ناحية الشمال. ذلك أنه على الرغم من انهزام السمنيين إلا أن حلفاءهم الغال كانوا لا يزالون متمردين، ويشكلون خطراً جسيماً على الحدود الشمالية للدولة الرومانية. ولم تلبث إحدى قبائل الغال - وهي قبيلة السينونيس (Senones) - القاطنة بالساحل الأدربياني (شمالي بيكونوم) أن هاجمت مدينة أريتيوم (Arretium) في أتروريا. وخف الرومان إلى نجدها لكنهم أصيروا بهزيمة فادحة أثناء محاولتهم نجدة هذه المدينة الحليفة (عام 284) وأثارت هذه الكارثة سخط الرومان، فغزوا أرض هذه القبيلة الغالية، وأنزلوا بها الهزيمة، وطردوها من شبه الجزيرة فاتجهت إلى سهل

البو في الشمال. وأدمجت أراضي السنونيين في ممتلكات الدولة الرومانية، ولو أنها ظلت تعرف بأراضي الغال (Ager Gallicus). ثم فوجيء الرومان بزحف قبيلة أخرى من قبائل الغال، وهي قبيلة البوين (Boii). الذين تدفقو من وادي البو متوجلين في اتروريا. وزاد الموقف سوءاً أن انضمت إليهم بعض المدن الاتروسكية التي نقضت محالفتها مع روما غداة اندحار الأخيرة في أريتيوم. لكن الرومان تمكنوا من سحق القوات المتحالفه في معركة فولسيني (Volsinii) باقليم اتروريا عام 283. ولقيت غارة أخرى شنتها عين القبيلة في العام التالي نفس المصير ولم تجد قبيلة البوين مناصا من الجنوح إلى السلم وبذلك تخلصت روما من المتاعب في الشمال عند حوالي عام 280. لكنها لم تسترح طويلاً إذ لم تلبث أن واجهت متاعب أخرى بدأ شبحها يطل ثانية من الجنوب.

اخضاع الاغريق في الجنوب:

كانت المدن اليونانية - وهي في الأصل مستعمرات أسسها الاغريق - متركزة في الجنوب والجنوب الغربي لشبه الجزيرة الايطالية. وقد سبق أن تحدثنا عما وصلت إليه هذه المدن من رخاء وازدهار، وما قامت به من دور في نشر الثقافة اليونانية في ايطاليا. لكن هذه المدن - على نحو ما شرحنا من قبل - عجزت عن انشاء حلف أو اتحاد يضم شملها ويجعلها اقدر على مواجهة الأخطار التي كانت تكتنفها من كل جانب إذ كانت مهددة باستمرار تارة من جانب الاتروسكيين، وتارة أخرى من جانب القبائل الايطالية التي تقطن في الأقاليم المتأخرة لها مثل لوكانيا وبروتيوم، وفي تلال الابنين القريبة مثل سمنيوم. هذا فضلاً عن أنها كانت مطمعاً ملوك سيراكيوز (سراقوسة) الأقوياء أو بالأحرى طغاتها الطموحين الذين استطاع بعضهم كديونيسيوس الأول (406 - 367)، أن ينشئ امبراطورية يونانية في الغرب⁽¹⁵⁾. لكن ديونيسيوس كغيره من ملوك

سراقوصة كان يعتبر هلينيا، وأن من واجبه حماية أغريق جنوب إيطاليا أو فرض حمايته عليهم. وفي الحق أن المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا كانت في حاجة إليه لمساعدتها على صد عدوان جيرانها من الإيطاليين. لكن امبراطورية ديونيسيوس الأول انهارت بموته عام 367، ووُجدت المدن الاغريقية أنها أصبحت بغير نصير. وتعرضت بالفعل لهجمات من جانب الشعوب الإيطالية كاللوكانيين (سكان إقليم لوكانيا) والبروتين (سكان بروتيوم) والمسابين (في كلابريا⁽¹⁶⁾). ولم يستطع أن يحتفظ باستقلاله سوى عدد قليل من هذه المدن الاغريقية. وكانت تارنتوم (Tarentum) - الواقعة على الخليج الذي يحمل اسمها في أقصى الجنوب - هي أحدى هذه المدن التي استطاعت أن تحمي استقلالها ، بل إنها كانت أكبر هذه المدن الاغريقية وأقواها، وأكثرها رخاء بفضل ازدهار صناعتها وتجارتها⁽¹⁷⁾. وكانت فوق ذلك تملك أقوى أسطول في كل إيطاليا، ولم تثبت أن قامت تارنتوم بدور حامية حمى المدن الاغريقية في الجنوب. غير أن قواتها البرية لم تكن ندا لقوات الشعوب الإيطالية المجاورة لها. ولهذا كانت تارنتوم تضطر من وقت لآخر إلى الاستنجاد ببعض ملوك بلاد اليونان المغامرين. وقد ألمعنا من قبل إلى مجيء بعض ملوك من اسبرطة أو من ابيروس (وهو إقليم الذي يقع عبر البحر الأدريري في غرب بلاد اليونان) وذلك بهدف مساعدة المدن الاغريقية في إيطاليا ضد أعدائها⁽¹⁸⁾. لكن حملات هؤلاء الملوك الاغريق، برغم ما أحرزته من انتصارات أولية في الأراضي الإيطالية، كانت تبوء في النهاية بالفشل، بل ان بعض هؤلاء الملوك لقوا مصرعهم هناك. ولعل كليونيموس (Cleonymus) ملك اسبرطة الذي جاء إلى إيطاليا في عام 303 ق.م لنجدة الاغريق كان أكثر توفيقا من سابقيه إذأنزل الهزيمة باللوكانيين، حلفاء روما وقتئذ، وأرغمهم على قبول صلح لا بد أن روما علمت به بل لعلها قد وافقت عليه. ولم تمض سنوات حتى جاء أجاثوكليس (Agathocles) طاغية سراقوصة منذ 317، وملكتها

منذ 304، جاء هو الآخر لنجدة الاغريق ضد البروتين في عام 298. ولكنه قضى نحبه في عام 289 وتفككت أواصر مملكته، ووجد اغريق إيطاليا أنفسهم من بعده بدون نصير يحميهم من عدوان جيرانهم الإيطاليين.

ووقع ما كانت تخشاه المدن الاغريقية، إذ هاجم اللوكانيون مدينة ثوري (Thurii) فاستنجد أهل ثوري بروما التي بدأ الاغريق يؤمنون بأنها صارت أقوى دولة في إيطاليا، وأن الاعتماد عليها أجدى من الاعتماد على ملوك بلاد اليونان المغامرين. حدث ذلك في وقت كان اللوكانيون قد نقضوا فيه محالفتهم مع روما على أثر هزيمتها الفادحة على يد الغال (السينونيس) في معركة أريتيوم عام 284/283. ولذلك استجابت روما إلى طلب مدينة ثوري الاغريقية، وقبلتها كحليف لها، وارسلت قوات لاغاثتها في عام 282. ودحر الجيش الروماني اللوكانيين وحلفاءهم البروتين، وأنقذ مدينة ثوري، وغادرها تاركاً فيها حامية رومانية للدفاع عنها. كذلك دخلت لوكري (Locri) وريجيوم (Rgehium)، وكلتاهما مدينة يونانية في الجنوب، في زمرة «حلفاء» روما، ووافقتا على أن ترابط فيما حاميات رومانية لتدفع عنهما عدوان الإيطاليين.

غير أن هذا التدخل الروماني في شؤون الجنوب الاغريقي، ولو أنه تم ببرضا المدن المعنية، لكن من شأنه أن يثير مخاوف تارنتوم التي ارتباط في مسلك الرومان واعتبرته تحدياً مركزاً لها بوصفها أقوى دويلة اغريقية في إيطاليا. وعلى ذلك فعندما ظهرت بعض وحدات الأسطول الروماني في خليج تارنتوم، انتهاكا لشروط معاهدة (في عام 334 أو 304؟) كانت تنص على عدم دخول السفن الحربية الرومانية خليج تارنتوم، استنشاطت حكومة تارنتوم غضباً، وكانت حكومة ديمقراطية غير مستقرة، وأمرت بهاجمة الأسطول الروماني دون إبطاء. وأغرقت بعض سفن هذا الأسطول. وسار جيش تارنتوم إلى ثوري وطرد الحامية الرومانية منها واحتل المدينة وطالب الرومان بالتعويضات. ورفضت تارنتوم

الطلب، وأهانت السفراء الذين أرسلتهم روما للباحث. وعندئذ لم يجد الرومان بدا من انفاذ جيش ليغزو أراضي تارنтом وينفذ مطالب روما بالقوة. فعلت روما ذلك مع ادراكها بأن تارنтом سوف تستنجد بأي دويلة في بلاد الاغريق الأصلية.

وكان على عرش إبيروس، التي تقع عبر البحر الأدربياتي مباشرة، ملك من أصل اغريقي يدعى بيرّوس (Pyrrhus). وكان هذا الملك يتربّب الفرصة لاحراز المجد متشبهاً بالاسكندر الأكبر الذي أثارت سيرته المدهشة روح المغامرة في نفوس مرتفقة الجيل الذي أعقبه - ويبدو أن بيروس تصور أن في وسعيه أن يقوم بدور الفارس الجوال وذلك بتحرير اغريق الغرب من سيطرة المتبرّبين أي من سيطرة الرومان وسيطرة القرطاجيين الذين كانوا وقتئذ متحالفين معهم. فلما نشب النزاع المتوقع مع روما استغاثت به تارنтом عبر البحر على رأس قوة صغيرة محنكة تتّألف من 20000 رجل أي من فيلق يوناني كامل (Phalanx) و 3000 فارس من ثيساليا و 2000 من رماة السهام، عاقداً العزم على تدمير تلك الدولة الناشئة التي كانت تهدّد بالتهاجم المدن الاغريقية في ايطاليا. لكنه كان عليه أن يعلم - وأن يعلم عن طريقة العالم الهلنلي كافّة - أن الدولة الناشئة كانت أصلب عوداً من أي دولة قامت في حوض البحر المتوسط حتى ذلك الحين.

وببدأ بيرّوس حملته بانتصار عند هرقلية (Heraclea) في عام 280، وهي بلدة لا تبعد كثيراً عن تارنтом. وقد انتصر بفضل الفيلة التي أحضرها معه لتشير الذعر في صفوف الفرسان الرومان الذين لم يألفوا رؤيتها من قبل في ميادين القتال. والواقع أن انتصاره الذي كلفه ثمنا غاليا، ززع ولاء كثير من المدن الایطالية، ولكن السناتو ظل رابط الجأش حتى أن خطاب السفير القديم الذي أوفده بيروس لم يترك أي اثر في نفوس أعضاء ذلك المجلس المؤلف من رجال أقوياء العزم علمتهم الخبرة الطويلة أن ينظروا إلى الهزيمة الواحدة على أنها مجرد «حادث مؤسف» في حرب طويلة لأن، «رومَا لا تتفاوض أبداً مع العدو

طاماً تطاً أقدامه أرض إيطاليا» - وكان هذا - كما يروي - هو رد أبيوس كلوديوس Appius (Claudius) السياسي المخضرم، على السفير الاغريقي في مجلس الشيوخ. وعندئذ حاول بيروس الذي بلغ حدود لاتيوم أن يزحف على روما. لكنه سرعان ما أدرك، كما سيدرك فاتح آخر من بعده، أنه كلما اقترب من أسوار المدينة، ازدادت مهمته صعوبة ولذلك قفل راجعاً إلى الجنوب. وأحرز بيروس في عام 279 عند أسكولوم (Asculum) في أبوilia انتصاراً آخر غير حاسم يكاد يكون عديم الجدوى باهظ التكاليف كسابقه⁽¹⁹⁾.

عندئذ قرر بيروس دون ترو أن يترك إيطاليا وعبر البحر إلى صقلية لتحرير أغريقها من سيطرة قرطاجة (278 - 275). وأنجز مهمته بنجاح باهر ولكن الاغريق القلب سرعان ما ضاقوا به ذرعاً. فعاد الملك إلى إيطاليا حيث التحتم مع الرومان الذين تحالفوا مع القرطاجيين عليه في معركة ثالثة عند بنفنتوم (Beneventum) في سينيوم عام 275، ولكنه خرج منها مدحراً. وما ضيق الرومان عليه الخناق في كل مكان غادر إيطاليا ورجع إلى بلاده تاركاً روماً أوطد مركزاً مما كانت عليه في أي وقت مضى وسيدة على كل شبه الجزيرة تقريباً. وأما تارنتوم فلم تثبت أن سقطت هي وميناؤها البديع وقلعتها المنيعة وأسطولها الضخم غنية باردة في يد الرومان.

عوامل رجحان كفة روما:

أولاً: أنها عرفت كيف تستفيد من موقعها الجغرافي، فكان في استطاعتها أن تبعث بجيوشها شمالاً وجنوباً وشرقاً للضرب في اتجاهات مختلفة في آن واحد ولا بد أنها ابتكرت وسيلة (وأن كنا لا نعرفها) لتسهيل الاتصال بين هذه الجيوش. ويتبين من الروايات التي وصلتنا أن قواد تلك الفترة كانوا ينتمون إلى عدد ضئيل جداً من الأسر الشريفة التي قضى أفرادها كل حياتهم في القتال - لا في خوض

المعارك فحسب بل في إدارة الحروب أيضاً. وقد اشتهرت بالذات في هذا الصدد أسرتا فابيوس (Fabius) وبابيريوس (Papirius) ولم يلبث هؤلاء المحاربون المحنكون أن ألموا بفن القتال إماما تماما على النحو الذي أمكن تطبيقه في إيطاليا وقتئذ، كما ألموا بتضاريس المناطق التي كان عليهم أن يخوضوا المعارك فيها.

ثانياً: أن جهود هؤلاء القادة القدامى شديدي المراس كانت تلقى تعصيدها قوياً من الحكومة أي من السناتو لأن هذا المجلس كان يتتألف من رجال لهم نفس الخبرة العسكرية وكان زعماً لهم قوادا سبق أن تولوا القنصلية وقادوا الجيوش. ومع أنه ظهرت في الوقت ذاته - كما سترى - حركة قوية تدعو إلى اشراك العامة في شؤون الحكم، إلا أنها لا نجد ما يشير إلى أن احتكار الأسر الشريفة إدارة شؤون الحرب كان مثاراً للنزاع لأن هذه الأسر كان في وسعها نظراً لاتحاد مصالحها وتجاربها أن تعمل سوياً بنوع من التضامن التام لم يكن، فيما يرجح، مأولاً بين خصومها. ويتبين من تمسك روما دائماً في ذلك الوقت، بل في كل الأوقات، بمبدأ التفاوض واقامة العلاقات مع العناصر الأرستقراطية في المدن الإيطالية، مدى سيطرة أسر الراشدا على ميداني السياسة وال الحرب.

ثالثاً: أن روما بدأت حينئذ تتعلم كيف تؤمن المناطق المفتوحة بإنشاء الطرق العسكرية والمستعمرات الحصينة (Coloniae)، وهي سياسة لم تتخل عنها طوال تاريخها، وتشهد على ذلك أراضي ولاية بعيدة كبريطانيا الرومانية. ويحسن الدارس صنعاً لو ركز انتباذه لحظة على ثلاث من هذه المستعمرات التي أنشأتها روما أثناء الحرب الطويلة. وهذه المستعمرات ليست الوحيدة من نوعها، ولكنها أدل من غيرها على مدى تغلغل النفوذ الروماني في إيطاليا إذ ذاك، وعلى الوسائل التي اتبعت لتوطينه. وأولها في مستعمرة نارنيا (Narnia) التي أسست عام 299 ق.م في وادي التير الأعلى على طريق عسكري عرف فيما بعد باسم «طريق فلامينيوس» (Via Flaminia)، وكانت بمثابة نقطة حراسة أمامية

ترتبطها بروما مواصلات سريعة لصد عدوان الأتروسكين والغال. والمستعمرة الثانية هي فريجلاي (Fregellae) التي أُسست في عام 328 ق.م. في مكان يقع على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من روما على طريق يسمى «الطريق اللاتيني» (Via Latina) فيما وراء حدود لاتيوم نفسها، وكانت تسيطر على الممرات الواصلة بين لاتيوم وكمبانيا وتحتل بقعة جميلة على مقربة من التقائه نهرين. وقد تمتعت على مر الزمن برخاء واسع ولكنها انتهت نهاية محزنة عندما ثارت في وجه روما فدمرتها في عام 125 ق.م. وأما المستعمرة الثالثة فنوسيا (Venusia) فكانت تقع عند الجنوب الشرقي لمجموعة التلال السمنية، ويسكنها 20,000 مستعمر. وقد قصمت بها روما عندما أُسستها في عام 290 ق.م أن تفصل السمنيين عن الاغريق وغيرهم من سكان أقصى جنوب إيطاليا. وفضلاً على ذلك فإنها كانت تقع على طريق أبيوس (Via Appia)، أشهر الطرق الكبيرة، والذي كان بعد تفرعه من روما يجري على مسافة أقرب إلى الساحل من الطريق اللاتيني ولكنه كان يلتقي به في كمبانيا وبعدئذ يسير عبر المنطقة الجبلية إلى فنوسيا ثم إلى برندizi (Brundisium) التي أصبحت هي الأخرى مستعمرة بعد خمسين عاماً. هذه الميزات الثلاث قد تعين القارئ بعد دراستها بعناية على أن يفهم كيف آل زعامة إيطاليا إلى روما وليس إلى أي مدينة أخرى، وقد تعينه أيضاً على أن يفهم لماذا خرجت روما سالمة من الخطر الذي هدد كيانها وقتئذ بل خرجت أقوى مما كانت عليه قبله.

روما زعيمة الاتحاد الإيطالي:

وأصبح شبه الجزيرة الإيطالية كله أو معظمها رومانيا أو لعله من الأصول أن نقول إن روما أصبحت حينئذ دولة إيطالية. وكان ذلك عملاً رائعاً ولعله كان أروع ما قامت به روما خلال تاريخها. وكان الجانب العسكري من هذا العمل

ثمرة من ثمار المثابرة وعدم الاستسلام للهزيمة. وأما الجانب السياسي فكان ثمرة من ثمار سلامه التقدير وضبط النفس المقرئين بإرادة لا تلين، والادرار، العميق لمصالح روما الحقيقية الدائمة. وفي وسعنا أن نصف إيطاليا في القرن الثالث ق.م. - الذي بلغناه الآن - بأنها كانت بمثابة اتحاد فيدرالي ترتبط كل مدينة فيه بمعاهدة (Foedus) مع روما، ولا ترتبط أي من هذه المدن بمعاهدة مع مدينة أخرى. وكان لكل منها حكومتها وقوانينها الخاصة، ولكنها كانت تضع جميع مواردها العسكرية تحت تصرف روما. ومنذ ذلك الحين أصبحت إيطاليا بأسرها هي القوى المحاربة تحت قيادة روما التي استأثرت بحق البت في كل ما يتصل بالسياسة الخارجية. ولم يكن هناك مجلس فيدرالي لجميع الاتحاد بل كان السناتو الروماني يصرف طائفه متزايدة من الشؤون المتنوعة التي تتعلق باللاتين والإيطاليين والشعوب القديمه كالأتروسكيين والاغريقيين والغال. ولا نعرف كيف كان السناتو يصرف هذه الشؤون إذ لم يصلنا أي سجل معاصر عنها. وأن نظرة واحدة إلى هذا المجلس العجيب اثناء انهماكه في العمل لتعدل كل ما وصلنا من أخبار عن معارك ذلك العصر.

وتوضيحاً لما سبق نقول أن الاتحاد الروماني - وهو اتحاد فريد ذو طابع عسكري -

كان يتتألف على النحو التالي:

1 - المواطنين الرومان (Cives Romani).

2 - الحلفاء وهم غير الرومان (Peregrini) وينقسمون إلى:

(أ) الحلفاء اللاتين (Socii Latini).

(ب) الحلفاء الإيطاليون (Socii Italici).

- وكان المواطنين الرومان ينقسمون فريقين:

(أ) المواطنين المتمتعون بكامل الحقوق المدنية والسياسة (Cives optime iure). وكانوا يقيمون في 1 - روما 2 - البلاد التي ادمجت في الدولة

الرومانية (Oppida C.R.) بعد حل العصبة اللاتينية مثل تسکولوم وأريكيا. وكانت تتمتع بالحكم الذاتي الكامل ولذلك عرفت بالبلديات الرومانية (Municipia civium Romanorum) تشبيهاً بالبلديات الأصلية المؤلفة من المواطنين غير المتمتعين بالحقوق السياسية (انظر بـ (ب) أدناه)، وأما ما كان منها يتمتع بالحكم الذاتي غير الكامل فقد أطلق عليه اسم (Praefecturae)، 3 - المركز والقرى (Fora, Conciliabula, etc). وكانت تتمتع بالحكم الذاتي غير الكامل ولهذا عرفت أحياناً باسم (Praefecturae)، وقد تحولت بمرور الزمن إلى بلدیات رومانية. 4 - المستعمرات الرومانية أي التي كان يتألف سكانها من المواطنين الرومان بالجيش الروماني لأنهم كانوا مكلفين أصلاً بالقيام بأعباء الدفاع في المستعمرات التي كانت كلها في أول الأمر تقع على مقربة من السواحل، مثل أوستيا وأنطيوخ وتراكينا.

وكان جميع المواطنين الرومان المتمتعين بكامل الحقوق يتميزون بالانتماء إلى القبائل (Tribus) التي بلغ أقصى عدد لها 35 قبيلة.

(ب) المواطنين غير المتمتعين بالحقوق السياسية (Cives sine suffragio) أي من كانوا لا يتمتعون بحق الاقتراع أو الانتخاب (ius suffragii) ومن باب أولى بحق الترشح للمناصب العامة (ius honorum). فكانت حقوقهم التي قبلوها محدودة اختيارهم مقصورة على الحقوق المدنية وهي حق الزواج (ius conubii) وحق التعامل (ius provocacionis) وحق التظلم (ius commercii) من أحكام الحكم المتمتعين «بالمبريوم» إما أمام «الجمعية المئوية» في حالة أحكام الاعدام أو أمام الجمعية القبلية في حالة أحكام الغرامات. وكان في استطاعتهم - إذا شاؤوا - على الأقل من الناحية النظرية أن يستقروا في روما ويحصلوا بذلك على حقوق المواطننة الكاملة. ويشبهه وضعهم إلى

حد كبير وضع الحلفاء المعروفيين «بأصحاب الاسم اللاتيني» (Socii Latini nominis) الذين تمتوا بالحقوق اللاتينية (ius Latii)، انظر (أ) فيما يلي.

وكان هؤلاء المواطنين يسكنون مدنًا تقع في جنوب إتروريا ولاتيوم وشمال كمبانيا (مثلاً كايري وفوندي وكوماي)، وقد عرفت باسم البلديات (Municipia) وهي كلمة تعني في الأصل تحمل (Capere) العبء (Munus) ولا سيما عبء الخدمة العسكرية إلى جانب الرومان دون التمتع بكامل حقوقهم. وكانت هذه البلديات تتمتع بالحكم الذاتي الكامل ولكنها تخضع لروما في سياستها الخارجية. وكان سكانها (Municipes) يخدمون في الفرق الرومانية (Legiones) برغم عدم تمعهم بكامل حقوق المواطنة.

- وأما الحلفاء غير الرومان في الاتحاد فكانوا - كما ذكرنا - ينقسمون إلى فريقين:

(أ) الحلفاء اللاتين وهم أشد سكان إيطاليا صلة بالروماني وأكثربن ولاء لهم. وكانوا يقيمون في 1- المدن اللاتينية القديمة مثل تيبور وبرينستي 2- المستعمرات اللاتينية (Coloniae) Latinae التي أنشأتها العصبة اللاتينية قبل احتلالها في 338 (مثل نوربا وأرديا وسوتريوم) 3- المستعمرات اللاتينية التي أسست بين 338 و 268. 4- المستعمرات التي أسست بعد عام 268. وقيد حق سكانها في النزوح إلى روما لاكتساب الجنسية الرومانية بشرط ترك أبناء ورائهم في سن الجندية، ومن أمثلة هذه المستعمرات مستعمرة برنديزي. وكان معظم سكان المستعمرات الأخيرة (3- 4) يتالفون من اللاتين أو حتى من فقراء الرومان وأحياناً من الحلفاء الإيطاليين. وكانت هذه المستعمرات بمثابة حصون تقع في الغالب على الطرق العسكرية التي تربط أنحاء إيطاليا وتقوم بحراسة جنوب إتروريا وساحل البحر الأدريatic وتبسيط الخناق على السمنيين. ولم يكن اللاتين يخدمون في الفرق الرومانية (Legiones) بل كانوا يؤلفون وحدات

مساعدة تعرف باسم كتائب المشاة (Cohortes) وفصائل الخيالة (alae) وكانت المستعمرات اللاتينية تتمتع بالاستقلال المحلي. وأياً كان اصل سكانها فإنهم كانوا جمِيعاً يعتبرون لاتين، ويعرفون بحاملي الاسم اللاتيني (nomen Latinum) ويتمتعون بنوع فريد من الحقوق يعرف بالحقوق اللاتينية (ius Latii) وتشمل:

(1) حق التعامل وحق الزواج مع الرومان وحدهم في أول الأمر وبعدئذ مع الرومان ومع بعضهم بعضاً.

(2) حق تبادل الجنسية مع روما (ius migrationis) أو (ius mutandae civitatis) معنى أن الأفراد اللاتين الذين ينزعجون إلى روما ويقيمون فيها بصفة دائمة يكتسبون الجنسية الرومانية (وان اشترط في حالة بعض المستعمرات التي أنشئت بعد عام 268 أن يترك المهاجرون منها وراءهم أبناء في سن الجنديه - قارن فيما تقدم).

وفضلاً على ذلك فإن اللاتين الذين كانوا يقيمون في روما بصفة مؤقتة منحوا منذ تاريخ غير معروف حق الاقتراع في مجلس العامة (Concilium Plebis) وبعدئذ في الجمعية القبلية (Comitia Tributa) على أن تدرج أسماؤهم في قبيلة واحدة.

وعندما تبين لروما فيما بعد أن منح الجنسية ملناً يهاجرون إليها من اللاتين ويستقرُون بها قد أدى إلى اقفار كثير من البلاد والمستعمرات اللاتينية من السكان، استبدلت بهذا الحق حقاً آخر حوالي عام 150 يقضي بحصول اللاتين على الجنسية الرومانية إذا تولوا مناصب بلدية في أوطانهم وقد عرف هذا الحق باسم (ius civitatis per honorem adipiscendae).

(ب) الحلفاء الإيطاليون: كانوا يشملون بقية سكان شبه الجزيرة من الأومبريين والسابليين والأتروسكين والاغريق وغيرهم. وكانت كل مدينة أو جماعة قبليَّة منهم مرتبطة مع روما بمعاهدة (Foedus)، سواء على أساس التكافؤ

أو على أساس عدم التكافؤ (*Foedus iniquum*) تحدد نوع العلاقة (*Foedus aequum*) بينهما. ومن ثم فقد أطلق عليها جميعاً اسم البلاد المرتبطة مع روما بمعاهدات (*civitates foederatae*). وقد تميزت هذه المعاهدات على اختلاف نصوصها بظاهرتين وهما التزام هذه المدن أو الجماعات الحليفه بمد روما بامساعدات العسكرية وسيطرة روما على علاقاتها الخارجية. وكانت معظم هذه المدن حرية مستقلة في شئونها الداخلية (*liberae*), ولها قوانينها ودساتيرها ونظمها الخاصة، ولم تكن تدفع لرومما أي نوع من الضرائب (*immunes*). وقد تمت في وحدات عسكرية مستقلة عن الفرق الرومانية مؤلفة من فصائل من الفرسان (*alae*) أو كتائب من المشاة (*cohortes*) يتولى قيادتها ضباط منهم يتلقون الأوامر من القواد الرومان. ولكن المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا كانت معفاة وحدها من الخدمة العسكرية في الجيش لأنها كانت ملزمة بأن تمد الأسطول الروماني بالسفن والملاحين. ولهذا عرف سكانها باسم «الحلفاء البحريين»، (*Socii navales*).

هوامش ومراجع

- 1 - التواريخت كلها قبل الميلاد إلا إذا وصفت بما يفيد غير ذلك.
 - 2 - يقال إن روما حكمها سبعة ملوك أولهم روميلوس (عام 753) وآخرهم لوكيوس تاركويينيوس الملقب بالمتغطس الذي طرد في عام 510 فكان الملكية استمرت في روما حوالي 250 عاماً.
- Lord Mecaulay, Lays of Ancient Rome, - 3
- 4 - يبدو أن روما وقعت في أيدي الأنروسكيين نتيجة ضعفها بعد الغاء الملكية مباشرة. وكان قائداً الأنروسكيين هو الأمير لارس بورسينا (*Lars Porsenna*). ولكن

5 - لم يكن الأب يكتسب سلطة أبوية (Patria potestas) على أبنائه وأسرته إلا إذا كان الزواج شرعياً كامل الأهلية. ويسمى هذا الزواج عند الرومان «كونبيوم» أو Matrimonium iustum أو Nuptiae iustae أو Matrimonium Légitimum وكان القانون يحتم الزواج بوحدة فقط في وقت واحد.

6 - التاريخ الأرجح الآن هو 387 ق.م

7 - كلمة مانيس Manes (وهي مشتقة من صفة لاتينية بمعنى «طيب») معناها «الأرواح الطيبة». لكنها صارت تقرن بكلمة الآلهة (Di) وتؤدي المعاني الآتية:

أ - «الآلهة الطيبة» Di hanes التي كانت المقابر توهب وتنذر لها ومن هذا المعنى اشتق معنى «مملكة أو عالم الموق» (ولا سيما عند الشعراء) أو «آلهة العالم السفلي (الآخر)». وأصبحت الكلمة مرادفة لإله الموق بل هو المسمى أيضاً ديس أو أوروكوس.

ب - «أرواح الموق» من الأفراد. وقد شاع هذا المعنى في عصر الامبراطورية، فكانت قبور الأفراد يكتب عليها أسماؤهم مقرونة بعبارة Dis Manibus Sacrum أي مقدس أو مكرس لروحه. وقد تكتب هذه العبارة اللاتينية مختصرة .D.M.S.

8 - كلمة ديفوتيو (Devotio) معناها الحرفي «التضحية بالنفس» أو «نذر النفس». وجرت العادة عند الرومان أنه عندما يجد القائد الروماني أن المعركة لا تسير في مصلحته أن ينذر نفسه وجيش العدو لربة الأرض المسماة تيللوس (Tellus) ولآلهة العالم السفلي المسمى مانيس (Manes) فكان القائد يرتدي زي الرسمي (Toga) praetoxta، ويغطي رأسه بخطاء، ويضع قدميه فوق حربة (تيلوم Tolum أو ما شابه ذلك)، ربما ليربط نفسه بمارس، إله الحرب، برباطوثيق. ويوضع أحدي يديه على ذقنه. ثم يردد دعاء وراء الكاهن سائلاً فيه الآلهة النصر له والدمار للعدو. ويختتم الدعاء منذراً نفسه وجيش العدو كله لآلهة العالم السفلي وربة الأرض. ثم يقتتحم بذلك نيابة عنه، مع تغيير في صيغة الدعاء. فإذا قتل القائد أو بدله كان معنى ذلك أن الآلهة قد قبلت الدعاء عليها أن تستجيب لبقيته وتدمير جيش العدو. فإذا لم يقتل البديل وكسبت المعركة، فلا بد من أن يدفن في الأرض تمثال طوله سبعة أقدام عوضاً عنه. وإذا لم يقتل القائد فلن يستطيع أن يقدم بعد ذلك قرياناً مقبولاً عند الآلهة. ولا بد من الحرص على ألا يستولي العدو على الحرية التي كان القائد الروماني قد وضع قدميه عليها.

9 - ولد في بادوا (Padua) في شمال إيطاليا وعاش بين 59 ق.م و 17 م. وبعد أشهر المؤرخين الرومان. كتب تاريخ روما من أقدم العصور حتى 9 ق.م. ويعرف تاريخه باسم «منذ تأسيس المدينة Ab Urbe Condita» وهو يقع في كتاباً لم يصلنا منها إلا الكتب من 1 - 10 (وتتناول الفترة من البداية إلى عام 293 ق.م) ومن 21 - 45 (وتتناول الفترة من عام 218 إلى عام 167 ق.م). وعدة شذرات وملخصات من الكتب الضائعة. وليفيوس مؤرخ أديب يتميز

أسلوبه بالفخامة والطابع الروائي ولكنه يفتقر إلى ملحة النقد. فهو لا يقارن مثلاً بثوكيديديس أو بوليبوس في هذا المضمار. ومع هذا فهو أفضل مصادرنا عن فترات كثيرة من عصر الجمهورية.

10 - مؤرخ عاش بين 200 ق.م. و 120 ق.م. وأصله من ميجالوبوليis (Megalopolis) بجنوب بلاد الاغريق. ويعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية الرومانية منذ أوائل العرب البونية الثانية حتى منتصف القرن الثاني ق.م. ويقع في 40 كتاباً تشمل أحداث الفترة من 220 ق.م إلى 146 ق.م. وكتابين آخرين كمقدمة يتناول فيما الأحداث السابقة. واشتغل المؤرخ بالسياسة أثناء احتدام النزاع بين العصبة الآخية (Achaea) وبين الرومان. ونقل إلى روما كرهينة مع كثيرين منبني وطنه في عام 166 ق.م وهناك قضى عشر سنوات درس أثناءها أخلاق الرومان ونظمهم السياسية وتعرف على أقطابهم. ويتناول بتحليله التاريخ تحليلاً علمياً دقيقاً يدل على نظرته الواقعية وخبرته العسكرية ومعرفته بالجغرافيا واعتقاده بوحدة التاريخ. وفي رأيه أن حصول روما على السيادة العالمية بعد فترة من الكفاح استغرقت حوالي نصف قرن (220 - 168 ق.م) أمر لا نظير له في التاريخ.

.Coloniae civium Romanorum - 11

.Coloniae Latinae - 12

13 - أنظر ص 137 فيما تقدم.

14 - الكلمة اللاتينية Feuces معناها «الحلق» ويعبر بها أيضاً عن الممر الضيق.

15 - راجع فيما تقدم. كان ديونيسوس الأول يلقب نفسه القائد المنفرد بالسلطة (Strategos autokrator)، وبعدئذ لقب نسبة حاكم صقلية (Archon).

16 - وهي كعب الحذاء الإيطالي. كان هذا قديماً، أما الآن فان اسم كالابريا يطلق على ما كان يسمى بروتيوم (مقدمة الحذاء الإيطالي) راجع ما تقدم .

17 - راجع ما تقدم .

18 - ومن هنا جاءت عبارة Pyrrhic victory في اللغة الإنجليزية ومعناها ، أي انتصار غالى الثمن فادح الخسائر كالهزيمة تقريباً.

الفصل التاسع

الأسرة والدولة والمجتمع

ذُكرت في الفصل السابق بعض العوامل الظاهرة التي اكسبت روما في وقت مبكر خبرة في الحرب والسياسة وبخاصة موقعها الجغرافي الذي عرضها للهجوم المستمر وأتاح لها في الوقت نفسه فرصة صد الهجوم والتقدم. غير أنه كان لا بد من توافر عوامل أخرى لكي تحقق روما ما حققته. لا بد أن يكون الشعب الروماني قد تحلى، أفراداً وجماعة، بصفة خلقية أعادته على الصمود لما تعرض له من خطوب وشدائد، والنهاوض من النكبات بقوة متجددة ليستأنف أعمال الغزو ويضطلع بشؤون الحكم. وليس ثمة ما يدعو إلى الظن بأن شعب هذه المدينة كان بالفطرة أقوى خلقاً من الشعوب الأخرى، أي من سكان المدن اللاتينية الذين تربطهم به أواصر الدم أو من الشعوب الإيطالية التي تنحدر من نفس الأصل. فقد كانت جميع هذه الشعوب التي وفدت إلى إيطاليا وطغت، قبل بداية التاريخ بحقبة طويلة، على السكان الأصليين الذين لا نعلم عنهم إلا النذر اليسير، كانت جميعها فيما يرجع تحمل نفس الخصائص البدنية والعقلية. وتلك حقيقة قد تعينا على أن نفهم كيف استطاعوا جميعاً أن يتحدون سوياً بمرور الزمن ويؤلفوا نواة لامبراطورية عظيمة. ولكن الخاصة أو الصفة الخلقية التي سوف نتناولها بالشرح في هذا الفصل كانت أبرز في مواطني روما منها في غيرهم من سكان المدن الأخرى نظراً لاضطرارهم باستمرار إلى ابرازها، لأن جميع الصفات والعادات تزداد تأصلاً بالمران المستمر.

النظام والواجب هما الكلمتان اللتان تفسران خير تفسير، إن لم يعبرَا أصدق التعبير عن الصفة التي نعنيها: إطاعة السلطات وهي شرط ضروري من شروط المقدرة على الحكم، ثم الشعور بالواجب وهو دعامة هذه المقدرة وتلك الطاعة. وفي وسعنا أن نتتبع هذا الميل إلى النظام وهذا الشعور بالواجب في الحياة الخاصة وال العامة في روما القديمة أي في حياة الأسرة وحياة الدولة. لكن ينبغي أن نوضح أولاً أن الفرد بنفسه لم يكن قد أصبح بعد عنصراً هاماً في المجتمع. وكان هذا المجتمع يستند إلى نظام الجماعات ولم يقم الفرد فيه بأي دور في ذلك الوقت المبكر إلا بوصفه عضواً في جماعة، سواءً كانت هذه عشيرة (gens) أم حيا (Curia) أم مقاطعة (Pagus). ولكن الجماعة الوحيدة التي تعنينا هي الأسرة (Familia)، أصغر الجماعات كلها، وأحد تلك الألفاظ الخالدة التي ورثتها كثير من اللغات الأوروبية عن اللاتينية. وسنبدأ بوصف الأسرة متبعين صفتِي النظام والواجب في حياتها. وبعدئذ نتناول الدولة ونتبع نفس الصفتين وكيف يتكرر ظهورهما في وحدة اجتماعية سياسية أكثر تعقيداً من الأسرة.

لم تكن كلمة *Familia* تعني تماماً ما نعنيه بالأسرة ولربما تكون عبارة «جماعة أسرية» أقرب إلى المعنى، إذ كان المفهوم منها هو جماعة من الأفراد الذين يكسبون قوتهم من زراعة الأرض. فلم يكن معناها فقط الأب والأم والأولاد بل اتباعهم أيضاً من المستعبدِين والأحرار. فإذا كانوا مسعيدين فهم رقيق (*Servi*) أصلهم أسرى حرب وأبناء أسرى أو أشخاص استرقوا لعجزهم عن الوفاء بالديون أو اشتروا من أسواق النخاسة. وإذا كانوا أحراراً فهم أتباع (*Clientes*) ربوا مصيرهم لسبب أو آخر بالجماعة الأسرية وشغلوا فيها مركزاً أدنى معتمدين عليها لاعالتهم وحمايتهم. ولن تكون الصورة كاملة لو

أغفلنا آلهة الجماعة الأسرية الذين كانوا يعيشون في البيت أو في الأرض، وعليهم كان يتتكل أفراد الجماعة لرعايتهم ورفاهيتهم في جميع مسالك الحياة. وكان أهم هؤلاء الآلهة هي فستا (Vesta)، روح نار الموقد، والبناتيس (Penates)، أرواح غرفة التموين ومحتوياتها؛ واللاريس (Lares)، أرواح الأرض المنزرعة، أو كما يعتقد البعض الآخر، أرواح الأسلاف الراحلين؛ ثم الروح الحارسة (Genius) لرب الأسرة التي تمكنه من انجاب الأولاد حتى تستمر الحياة الجماعية للأسرة. ومع أن هذه الأرواح - التي لم تكن قد أصبحت بعد آلهة تبدو لنا بداهة مجرد خيالات توهّمها العقل الروماني البدائي، إلا أنها بدت لهذا العقل أنها حقائق لها من التأثير في حياة الجماعة ما لأفرادها من البشر. ولا مناص من أن نعتبره كذلك لأنها قامت بدور هام جداً في ارتقاء الصفة الخلقية التي نود أن نتفهمها.

وكانت هذه الجماعة الأسرية - أو بالأحرى أفرادها من البشر - تعيش تحت ظل نوع من الحكومة البسيطة الحازمة، وهي السلطة المطلقة في يد رب الأسرة. وكان هو الأب والزوج أو أكبر الآباء والأزواج سنا عندما كانت تعيش عدة أسر تحت سقف واحد. فكان يمارس على الزوجة والأولاد سلطة الأب (Patria Potestas) وعلى العبيد سلطة السيد (Dominatio) وأما على الأتباع فكان يزاول حق الحماية والرعاية (Patronatus)⁽¹⁾. وكانت سلطته على الزوجة والأولاد مطلقة، غير أنه كان يحول دون استبدادها عرف رشيد تربّت عليه نتائج كلها بالغة الأهمية طوال التاريخ الروماني⁽²⁾. وكان هذا العرف يقضي باستشارة مجلس من الأقرباء قبل اتخاذ أية خطوة نهائية في تأديب من يقترون جرائم خطيرة. وكان هذا بمثابة إلتزام أو واجب لا يفرضه قانون إنما يفرضه سيد أقوى من القانون ألا وهو «العرف المتوارث» أو سنة السلف (Mos maiorum). وكان يحد من سلطة رب الأسرة على أتباعه أو عتقائه (Liberti)، عندما يكون في حوزته أحد منهم، نظام الالتزام المتبادل الذي أخذ طريقه بمرور الزمن إلى

كتب القانون. بيد أن سلطته على عبده لم تكن مطلقة فحسب بل استبدادية أيضاً، واستمرت كذلك حتى آخر فترة في التاريخ الروماني. ومع هذا فينبغي ألا ننسى أن العبد كان في حقيقة الأمر عضواً في الجماعة الأسرية مما يرجع أنه كان يعامل كإنسان لا غناء عنه لحياة الجماعة بل كان يشتراك أحياناً في طقوسها الدينية⁽³⁾.

ولننظر الآن كيف طبقت مبادئ هذا النظام الأسري في الحياة العملية لدى الجماعات المستقرة التي عاشت على زراعة الأرض خلال شطر كبير من هذه الفترة. فلم تكن المدينة نفسها سوى مكان حصين في الغالب تلتجئ إليه الأسر المزارعة في ساعة الخطر، ثم تقتضي فيه بمضي الزمن مسكنًا ومزرعة مثلاً فعلت الأسر الكبيرة في المقاطعات الانجليزية خلال العصور الوسطى. وكان رب الأسرة (Paterfamilias) يدير جميع أعمال المزرعة لا ينزعه أحد سلطته، ويفصل في كل المنازعات التي تنشأ بين الأفراد، ويعاقب كل مرتكبي الجرائم. وأما الأعمال المنزلية الضرورية كالطهو وغزل الصوف لصنع ملابس الأسرة (وكلها كانت من الصوف في ذلك الوقت) فكان يدعها لزوجته وبناته، وبذلك استأثرت الزوجة بقسط من السلطة رفعها إلى مستوى أرقى من مستوى الزوجة عند الهنود الحمر، وأتاح لها بالتدريج نفوذاً كبيراً وإن كان غير مباشر في الحياة الاجتماعية.

ولم يكن كل فرد في الجماعة الأسرية مطالباً تحت هذا الإشراف الدقيق بأداء عمل معين فيما يخص المأكل والملبس فحسب، بل عليهم أيضاً واجبات نحو الآلهة الذين اعتقادوا أن سلامتهم ورخاءهم متوقفان على رضائهما. وكانوا يؤدون في كل يوم صلوات بسيطة عند كل وجبة، ويشركون الأولاد معهم. فكان رب الأسرة بمثابة الكاهن في معبد والأولاد سدنته. وفي أيام معينة كان يحددها في الأزمنة القديمة مجلس من أرباب الأسر ويحددها التقويم في الأزمان التالية، كانت أسر المقاطعة الواحدة (Pagus) تشتراك في أعياد دينية يحتفل بها في وقت الحصاد

مثلاً أو بعد بذر الحبوب في الخريف لتمجيد واسترضاء روح الثمر الممحصود أو الحب المبذور. وكانت تصحب هذه الأعياد في معظم الأحيان حفلات رياضية ومسابقات سباق مما كان يخفف بعض الشيء من سأم الحياة الريتية. ومع أن النظام لم يبلغ من الصرامة جداً يهدى معه حرية الفرد ويقضي على هنائه إلا أن الحياة كانت تسير بوجه عام على وتيرة واحدة من الأمر والطاعة والنظام والواجب.

وما هو أسلوب التربية الذي أخذ به الرومان لغرس هذه الصفات في نفوس أبنائهم؟ من المؤسف أنه لم تصلنا وثائق معاصرة من تلك الفترة للإجابة عن هذا السؤال، ولا مناص من أن نستخلصه حدساً مما نعرفه عن التربية التي هيأها كاتو «الأكبر» لابنه في القرن الثاني ق.م⁽⁴⁾. كان كاتو أحد الذين يؤمنون ايماناً شديداً بالأساليب العتيقة. ويبدو أن هذه التربية اقتصرت - كما هو متوقع - على تعليم الزراعة والاحترام والطاعة والتواضع. ولم يعلم كاتو ابنه الفلاحية والفنون والملائكة والسباحة فحسب بل علمه أيضاً اجتناب كل ما هو مخل بالآداب، وكان هو نفسه «حريراً على ألا يتفوّه بأي لفظ بذيء أمام ابنه كما لو كان في حضرة عذاري فستا»⁽⁵⁾. وقد وضع لابنه كتاباً في التاريخ مدونة بحروف كبيرة حتى يلم بطرف من أمجاد أسلافه الرومان وعاداتهم. وكان التثقيف الفكري إلى جانب التربية النفسية - ولا سيما تقوية الإرادة - قد بدأ يشيع في عصره. غير أن هذا التثقيف كان لا يزال ضعيفاً الأثر في الفترة التي نحن بصددها، وليس من المستبعد أن تكون الجهود قد ضوّعت لإحياء فكرة الواجب نحو الدولة وأهلتها ونحو الأسرة وأربابها الراعية للتعويض عن نقص الثقافة. وعندما ألف الناس المعيشة بالمدينة توافرت الفرص لأبناء الأسر العريقة ليتعلموا ما كان مقصوداً بالواجب نحو الدولة، فكانوا يصاحبون أراءهم إلى المنتديات لسماع خطب تأبين مشاهير المواطنين بل كان يسمح لهم بحضور جلسات السناتو. وبذلك اكتسبوا حصافة وفطنة عادتاً عليهم بالنفع الكبير في مستقبل حياتهم.

وسنروي هنا قصة - بغض النظر عن مدى صحتها - نقلًا عن كاتو «الأكبر» توضح هذا المظهر وغيره من مظاهر الحياة الرومانية القديمة. ذاك أن ولدا رافق أباه إلى مجلس الشيوخ. فلما عاد سأله الأم بداع الفضول عما كان الآباء (أي الشيوخ) يتناقشون فيه. فأجابها الولد بأنه محظور عليه أن يتكلم بتاتاً، مما ألهب فضولها وجعلها تلح عليه أن يتكلم. وعندئذ اختلق الغلام أكذوبة يصفها كاتو بالفطنة واللباقة. قال لها الغلام أن السناتو كان يتناقش فيما إذا كان من الأفضل للدولة أن يتزوج الرجل امرأتين أو المرأة رجلين. واستولى الذعر على الأم فانطلقت إلى ربات البيوت الأخريات لتقص عليهم الخبر. ولم يأت الصباح حتى كن قد احتشدن أمام دار السناتو وهن يبكين ملتمسات أن يكون من حق المرأة أن تتزوج رجلين لا أن يتزوج الرجل امرأتين. واستولت الدهشة على الشيوخ إلى أن بددتها الغلام الذي وقف وسط القاعة وروى قصته. ومنذ ذلك الحين لم يسمح لأي صبي بحضور مناقشات مجلس الشيوخ سوى هذا الصبي الذي كوفء على أمانته ولباقيه.

الدولة والتربية السياسية:

ومن هذه القصة القديمة الطريفة ننتقل إلى الشطر الثاني من موضوع هذا الفصل، ألا وهو تدريب المواطنين على خدمة الدولة. ولنتوقف هنا لحظة نبحث فيها فكرة الرومان عن الدولة ووظيفتها.

اتخذت الدولة في إيطاليا - كما كان الحال في بلاد الاغريق - شكل مدينة تلحق بها مساحة من الأرض تقتات منها. وقد تركزت حياة الدولة في قلب المدينة ولا مراء في أن انتقال الحياة من المزرعة أو القرية إلى المدينة - في بلاد الاغريق وإيطاليا على السواء - كان له اثر بالغ الأهمية بالنسبة للإنسانية، إذ أتاح للإنسان فرصة الارتقاء من مرحلة مجرد كسب القوت إلى مرحلة التقدم الأدبي والفكري.

وهذا هو الارتقاء إلى ما يسميه أرسطو «بالحياة الفاضلة» تميّزاً لها عن الحياة الفطرية. وكان يعني بذلك أن الإنسان لم يكن لديه في المرحلة الدنيا من تطوره الوقت أو الحافز للارتقاء بالفن والأدب والقانون والفلسفة لأنه كان ينفق كل جهده في الصراع والسعى وراء الرزق: الصراع مع الطبيعة تارة، ومع أعدائه الذين لم يكن لهم نداً تارة أخرى. ولكن دولة المدينة (Polis) لم تهيئ له فقط الفرصة ليعيش حياة أرقى، بل كفلت له أيضاً الغذاء اللازم لاستمرار هذه الحياة.

بيد أن الرومان لم يستمدوا أبداً من الحياة الاجتماعية الجديدة نفس القدر أو نفس النوع من الغذاء الذي استمده منها اليونان. لقد استمدت روما ما يكفي لتنمية أقوم جانب في أخلاقها والتأهب للرسالة العملية التي قدر لها أن تؤديها في العالم. لكن ما أن نفرغ من قراءة تاريخ روما حتى يتبيّن لنا أنها اضطرت - على نقىض معظم دول المدن اليونانية أن تقضي معظم حياتها بسبب الظروف التي واجهتها في صراع وكفاح مستمرٍ. فقد كان من العسير على روما دائماً أن تحفظ بكيانها وحريتها. ولم تمض عليها فترة - كما سرّى - دون أن تتهدها الأخطار الداخلية أو الخارجية. وكانت دويلات كثيرة في بلاد اليونان تجد متسعاً من الوقت للراحة والاستمتاع بتنمية مواهبها العقلية، وهو ما أدى إلى انتاج التحف الفنية والروائع الأدبية، كما وجدت أيضاً الفراغ للتفكير والبحث في الطبيعة سواء في نفس الإنسان أو في الكون المحيط به، مما أدى إلى ارتقاء الفلسفة والعلم لخير الإنسانية جماعة.

ولكن روما أنفقت كل جهدها في الصراع من أجل البقاء مما دفعها تدريجياً إلى الغزو والسيطرة. وكان من الممكن بعد أن آلت إليها زعامة إيطاليا - على النحو الذي فصلناه في الفصل السابق - أن تجد متسعاً من الوقت يتيح لها فرصة للتفكير والبحث والانتفاع بمواهب شعوب إيطاليا المختلفة من أتروسكين وغال واغريق وشعبها نفسه. ولكن الصراع الطويل الممرين الذي خاضته ضد قرطاجة،

وهو موضوع الفصل التالي، قضى على هذه الفرصة قضاء مبما. وقد خرجت روما من هذا الصراع منهكة القوى، فلما - تهيات لها الفرصة للراحة استعصى عليها التفكير. ومع هذا فقد أثمر مرانها الطويل على الكفاح العملي ثمرته، وظلت مبادئ الواجب والطاعة والقانون والنظام التي اجتازت بها شتى الأخطار ماثلة في أذهان الرومان فلم يتخلوا عنها تخلياً تماماً في يوم من الأيام. ولننتبغ الآن تطور تلك المبادئ في حياة روما بوصفها مدينة حرة أو مدينة - دولة.

الدستور في عصر الملكية:

إن أول ما يسترعى الانتباه عند دراسة الدستور الروماني هي السلطة المطلقة التي يتمتع بها الحاكم في جميع مراافق الدولة. فكلما كان رب الأسرة يتمتع بسلطة مطلقة على أفرادها، كان الملك يتمتع بمثلها على المواطنين. وقد عرفت هذه السلطة في الأسرة - كما ذكرنا - باسم بوتسناس (Potestas)، وأما في الدولة فعرفت باسم امبريوم (Imperium) وهي كلمة من أعظم الكلمات التي صيغت وما تزال موجودة حتى اليوم في كثير من الاشتقات اللغوية. وكانت هذه الكلمة أصدق تعبيراً في نظر الروماني من أي كلمة أخرى عن فكرة اطاعة النظام في الدولة، إذ كانت تؤكّد في ذهنه اعتقاده المتوارث بوجوب اطاعة السلطة الشرعية طاعة عمياً. وليس المقصود السلطة غير الشرعية المأخوذة غدرًا أو غصباً لأنّ كلمة «امبريوم» لا تدلّ أبداً على مثل تلك السلطة إنما تدلّ على السلطة التي تمنح مواطن من مواطني الدولة وتعتمدها آلهة الدولة. ولم تكن «الامبريوم» تمنح مواطن إلا بقرار من الشعب. وكان لا بد من أن تقرّها الآلهة باظهار فأل ميمون. وكان من الضروري أن تتم هاتان الخطوتان وهما إصدار القانون واستطلاع مشيئة الآلهة. (Auspicia) وفقاً بمراسم تقليدية معينة كان أي خطأ فيها يجعل اختيار الحاكم باطلًا. فإذا منحت سلطة «الامبريوم» للحاكم بالطريق الشرعي فليس

هناك سبيل إلى مقاومتها. وكانت تصحبه شاراتها الرمزية وأهمها الـ *fasces* وهي عبارة عن عصى محزومة بشرط أحمر (داخل المدينة) أو حول بلطة (خارج المدينة) كانت تحملها أمامه في أيديهم وفوق أكتافهم اليسرى ثلاثة من اثنى عشر حارساً يسمون *lictores* ويرافقونه أينما ذهب تذكيراً للمواطنين الرومان بأن واجبهم الأول هو اطاعة السلطة الدستورية⁽⁶⁾.

وكانت كلمة «أمبريوم» تدل على ثلاثة أنواع من السلطة:

أولاًً: كان الملك هو صاحب السلطة العليا في الشؤون الدينية لأنَّه كان مسؤولاً عن تحسين الصلات بين سكان المدينة من البشر وسكانها من الآلهة، أي كان مسؤولاً - على حد تعبير الرومان - عن «سلام الآلهة» (*Pax Deorum*) أي عن رضائهم. وكان من المعتقد أنه إذا لم يحتفظ بهذا «السلام» أو هذا العهد (*Fus Divinum*) بين الناس والآلهة، فلن يتحقق الرخاء للدولة التي تتوقف حياتها عليه. لكن ينبغي الآن أن يتتبَّع القارئ إلى نقطة بالغة الأهمية في تطور الحياة الرومانية العامة. ذلك أنَّ الملك لم يكن في وسعه أن ينهض وحده بواجبه الديني، إذ لم يوجد بين الناس من يستطيع أن يلم وحده إماماً كافياً بجميع دقائق العرف الديني القديم. ولذا كان يقوم بمساعدته مجلس صغير من المتفقين في الدين يسمون بالكهنة (*Pontifices*، وربما أيضاً مجلس آخر من العرافين *Augures*) الخبراء بتفسير الطواعي والتنبؤ بمشيئة الآلهة. وبذلك قيدت سلطة «الأمبريوم» في الشؤون الدينية وان كانت مطلقة من الناحية القانونية، وحيل دون أن تكون استبدادية أو متعارضة مع العرف المتواتر. فالمملُك يتمتع بسلطة دينية يزاولها طبقاً لمشورة فقهاء الدين.

ثانياً: أنَّ كلمة «أمبريوم» كانت تدل على السلطة المدنية أي الإدارية والقضائية العليا وذلك لكي يستتب السلام بين الأفراد من المواطنين⁽²⁾. وكان الملك يتمتع بسلطة غير محدودة لا في الفصل في المنازعات فقط، بل في توقيع

العقوبات كذلك ومن بينها عقوبة الموت. ولكن سلطته هنا أيضاً لم تكن استبدادية برغم أنها كانت مطلقة قانوناً لأن سلطان العرف على الدولة كان أقوى من سلطانه عليها، وكان واجبه يحتم عليه أن يعمل على أن يظل العرف مرعياً. وكان يعاون الملك في النهوض بهذا الواجب على خير وجه مجلس «السناتو» (Senatus) المؤلف من الشيوخ، وهم آباء الأسر الذين كان العرف يلزمهم باستشارتهم وإن لم يلزمه بقبول مشورتهم، وللحظ هنا كذلك أن ممارسة النظام اقترنت بالشعور بالواجب والالتزام كما هو الحال في حياة الأسرة، إذ كان السناتو في الدولة يقابل من حيث المبدأ مجلس الأقرباء في الأسرة.

وكان الرومان ينقسمون منذ اقدم العصور إلى ثلثين وحدة تسمى بالكورياتي (Curiae) أو «الأحياء»، لأنها كانت فيما يبدو تقابل في وقت من الأوقات أقسام روما المحلية. ويحتمل أن العضوية كانت في الحي وراثية، وأن كلا منها كان له عبادته الخاصة. وكانت كلها مندمجة في ثلاث وحدات أكبر تعرف بالقبائل (Tribus)⁽⁸⁾ تشمل كل واحدة منها على عشرة «أحياء» (بالمعنى السلالي أو العرفي). فإذا اجتمع أعضاء الأحياء تألفت منهم «جمعية الأحياء» (Comitia Curiata) وهي جمعية في وسعنا أن نعتبرها مجلساً أو جمعية شعبية لأنها كانت تضم الشعب بفئاته من أشراف وعامة. وكانت تتعقد بدعوة من الملك عندما يشاء إبلاغها مسائل تهم المجتمع كالتبني والوصاية ومنح الجنسية. ولم تتمتع هذه الجمعية القديمة باختصاصات تشريعية، غير أن المسائل إليها مأة كاعلان الحرب وتعيين ملك جديد كانت تقتضي موافقتها الرسمية⁽⁹⁾.

ثالثاً: أن كلمة «أمبريوم» كانت تدل على السلطة العسكرية المطلقة التي يزاولها القائد في الحرب. وهنا - كما هو متوقع - لا يتدخل العرف لتقييدها فقد كان الملك الروماني، وهو في ميدان الحرب، يعتبر خارج نطاق العرف السائد في دولته وفي منأى عن رعاية آلهته، واقعاً تحت رحمة آلهة مجهولة. وكان الجيش قبل

خروجه في حملة وقبل دخوله المدينة بعد عودته يقوم بطقوس دينية معينة تدل على ما كان يساور الرومان أنفسهم من مخاوف عندما كانوا يفارقون بلادهم وآلهتهم. فلم يكن للعرف سلطان في ميدان الحرب. ولهذا ظلت سلطة القائد فيه مطلقة إن لم تكن استبدادية طوال التاريخ الروماني. ولا ريب في أنه كان في وسع القائد أن يستشير - وكثيراً ما كان يستشير - غيره ويعمل بمشورتهم، بيد أنه لم يكن ملزماً حتى من الناحية الأدبية أن يفعل ذلك. لقد رأى الرومان أن الحكمة تقتضي أن يدعوا سلطة «الإمبريوم» في هذا الميدان العسكري (Militiae) مطلقة دون قيد⁽¹⁰⁾.

تلك إذن هي سلطة «الإمبريوم»، في يد الحاكم الأعلى، والتي كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء الحكومة في جميع فترات تاريخها. لكن ينبغي هنا أن نتساءل عن الشعب الذي أطاع تلك السلطة. من المؤسف أننا نكاد لا نعرف شيئاً عن الشعب الروماني حتى قرب نهاية العصر الملكي. نحن نعرف حقاً أنه كان ينقسم - كما كان الحال في كثير من الدوليات الأغريقية - إلى طبقتين احدهما متميزة عن الأخرى مما سنتعرض له بعد لحظة. ويكتفي هنا أن نبين كيف استجاب هؤلاء السكان لنداء الواجب والنظام.

ترجع أقدم معلومات لدينا عن هذا الموضوع إلى عهد سرفيوس تولليوس وهو الملك قبل الأخير في قائمة ملوك روما السبعة⁽¹¹⁾. كان جميع المواطنين الأحرار المنتسبين إلى الطبقتين الممتازة وغير الممتازة يخدمون في الجيش كواجب عليهم أن يؤدونه نحو المدينة، ويدفعوا من الضرائب ما يلزم مواجهة الأعباء العسكرية قبل أي شيء آخر، ولم تكن الخدمة مأجورة بل كان المشاة، وهو الجانب الأكبر من الجيش، يجهزون أنفسهم بالسلاح والعتاد. وأما الفرسان فكانت الدولة هي التي تزودهم بالخيول نظراً لغلائتها. وما كان كبار الملوك من المواطنين هم أصحاب المصالح العليا في الدولة، فقد ألقىت على عاتقهم أثقل أعبائها. ويتبين ذلك من

نظام الجيش عند خوض المعركة، إذ كان القادرون على تجهيز أنفسهم بالسلاح الكامل يقفون في المقدمة بينما كان المجهزون بالسلاح الضعيف أو الخفيف يقفون في المؤخرة. وكان ذلك هو المبدأ السليم الذي طبق في الجيش خلال فترة التوسيع والغزو في إيطاليا. كان الجيش أذن جيش المواطنين الذين يتتألف منهم الشعب (Populus)⁽¹²⁾. وكانت الخدمة فيه واجبة على جميع الذين كانوا مطالبين بدفع الضرائب كل على قدر دخله. وأما القيادة فكان يتولاها حامل سلطة «الامبريوم» ومن يعينهم من الضباط لتنفيذ أوامره.

هكذا كان الشعب الروماني بعد القضاء على الملكية في عام 510 ق.م مدرباً تدريباً كاملاً على الاضطلاع بالواجب واطاعة النظام. وكانت النتائج العملية التي تمخت عن هذا التدريب هي تأصل الطاعة في نفسه واحترامه السلطة الشرعية وذوي الخبرة والمعرفة، وتعوده على الثبات والهدوء في ساعة الخطر. ولم ينزع الشعب إلى الشغب سواء في الأزمات الداخلية أو الهزائم العسكرية. وكما أطاع حكامه فقد وثق بهم أيضاً. ولم ينشأ على حب الكلام فأنفق نشاطه في العمل. وما كان الكلام أدعى إلى اثارة النزاع من العمل فلم يجد النزاع سبيلاً إلى صفو الشعب. ومع أن روما مرت بأخطار سياسية وعسكرية كثيرة في الأجيال التالية إلا أن الدماء لم تسفك في شوارع المدينة إلا بعد انقضاء حوالي أربعة قرون من بدء تاريخها.

الدستور في عصر الجمهورية:

وينبغي أن نختتم هذا الفصل بعرض سريع موجز لتاريخ النظام السياسي في فترة التوسيع الروماني في إيطاليا لنبين كيف اكتسب المواطنون صفة الرزانة والاتزان في معالجة الشؤون الداخلية بالتدريب على الاضطلاع بالواجب واطاعة النظام.

تحولت الدولة الرومانية بعد طرد الملك الأخير إلى «رئيس بوبليكا» Res Publica وهي عبارة ترجمتها الحرفية «شيء عام» أو «مصلحة عامة» أي تحولت إلى ما يجوز لنا أن نسميه «دولة حرة» أو «جمهورية»⁽¹³⁾، وهذه العبارة الخالدة ورثتها اللغات الأوروبية الحديثة عن اللاتينية وما تزال تؤدي نفس المعنى الذي فهمه الرومان. وعندما كتب شيشرون في أواخر حياة الدولة الرومانية الحرة إلى صديق له قائلاً «لقد فقدنا آن Republica تماماً» فإنه كان يعني أنها انتقلت من «الحكم الجماعي» إلى «الحكم الفردي» أي انتقلت إلى أيدي حفنة من الأفراد غير المسؤولين أمام أحد فيما هي الخصائص الجوهرية التي تميزت بها هذه الدولة الحرة أو الجمهورية؟ هذه الخصائص نجدها كامنة في سلطة «الامبريوم» وهي حجر الزاوية في الدستور كما وضعه الذين أسسوا الجمهورية:

1 - كان إلغاء سلطة «الامبريوم» أمراً مستبعداً، فلم يخطر أبداً مثل هذا الشيء على بال الرومان، لأنه كان بمثابة تقويض أساس في بناء تم جانب منه. ولكن «الامبريوم» لم تعد تمنح لا مدى الحياة ولا لفرد واحد وإنما أصبحت تمنح في عصر الجمهورية لحاكمين بدلاً من حاكم، ولمدة سنة واحدة فقط يتخلى في نهايتها الحاكمان اللذان عرفا بعد فترة قصيرة من قيام الجمهورية في 509 باسم القنصلين Consules عن شارات الحكم ويتحيان عن السلطة ويعودان ثانية مواطنين عاديين، وينتخب بعدهما قصلان جديدان وفي الحق أنهما كانا بمثابة رئيسي الجمهورية». وكان الشعب يشتراك في انتخابهما باعتباره جيش المواطنين. وكان هذا الانتخاب يتم في جمعية تعرف بالجمعية المئوية (Comitia Centuriata) مرتبة في طبقات حسب اختلاف الثروة كما كان الحال في الخدمة العسكرية. فكان

لكل مواطن مطالب بإطاعة سلطة الامبريوم صوت في انتخاب صاحب هذه السلطة. غير أن أصحاب المصالح العليا في الدولة ممن كانوا يقفون في مقدمة الجيش في الحرب كان لهم بحكم كثرة وحداتهم المئوية *Centuriae* أصوات راجحة الكففة عند الاقتراع.

«الجمعية المئوية»

كان جميع المواطنين القادرين على تجهيز أنفسهم بالسلاح والعتاد مقسماً إلى خمس طبقات (Classés) حسب الثروة أي على أساس «تيموغرافي». وقد أصبحت هذه الطبقات نواة المجلس المئوي. أو الجمعية المئوية (Comitia Centuriata) التي يرجح أنها نشأت بعد عام 450 ق.م. وكانت كل طبقة تشتمل على عدد معين من الوحدات المئوية (Centuria) تحسب كل منها بصوت واحد عند الاقتراع. ولما كان أصحاب الثروات الكبيرة في الطبقة الأولى المؤلفة من 80 وحدة مئوية هم والفرسان المؤلفون من 18 وحدة يملكون وحدات مئوية أزيد من وحدات أصحاب الثروات الصغيرة في الطبقات التالية، فكثيراً ما كانت ترجح كفتهم لأن عملية التصويت كانت تتوقف بمجرد الحصول على الأغلبية بين عدد الوحدات المئوية البالغ عددها كلها 193 وحدة. وقد آلت إلى «الجمعية المئوية» معظم اختصاصات الجمعية القديمة المعروفة باسم «جمعية الأحياء» (Comitia Curiata). وكانت هي التي تصدر القوانين وتنتخب الحكام المتمتعين بسلطة «الامبريوم» وكذلك الكنسوريين (Censores)⁽¹⁴⁾ وتعلن الحرب وتبرم السلام. وكانت تجتمع خارج حدود المدينة pomerium، في ساحة الإله مارس (Campus Martius) في تنظيم عسكري وستتكلم بعد قليل عن علاقة هذه الجمعية «بالجمعية القبلية» التي نشأت فيما بعد.

2 - ولم تحدد فقط مدة مزاولة سلطة «الامبريوم» بل حيل كذلك بينها وبين أن تكون استبدادية بطريقتين، الأولى هي أن كلا من القنصلين كان يملك حق الاعتراض (Intercessia) على قرارات زميله⁽¹⁵⁾. وكانا يتناوبان في المدينة وفي ميدان الحرب ممارسة الامبريوم، والثانية هي أنه لم يكن في وسعهما إعدام مواطن في المدينة (Domi) دون اعتماد الجمعية الشعبية (المئوية). وأما في ميدان الحرب فقد رأى الرومان أن الحكمة تقتضي جعل سلطة «الامبريوم» مطلقة من غير قيد لادرائهم - كما ندرك نحن اليوم - أن النظام العسكري يتطلب عقوبة أردع مما يتطلبه النظام المدني⁽¹⁶⁾.

«السناتو»

وفضلاً عن هذين القيدين اللذين وضعوا على «الامبريوم»، فقد ظل السناتو البالغ عدده 300 عضو يعمل كهيئة استشارية للقنصلين اللذين كانا مع هذا يتمتعان بسلطة ملء المقاعد الشاغرة فيه من وقت لآخر ولو أن هذا الحق آل فيما بعد إلى حكام آخرين يعرفون «بالكنسوريين» أي المشرفين على التعداد أو الرقباء. ولا نعرف على وجه الدقة شيئاً عن طريقة تكوينه في ذلك الوقت، بيد أنه من المؤكد أن جميع من سبق لهم مزاولة سلطة «الامبريوم» كانوا يعينون أعضاء فيه نظراً لأنهم اكتسبوا من الخبرة أثناء خدمتهم ما يؤهلهم تماماً لاسداء النصيحة ونقد تصرفات من يخلفونهم في المناصب. وقد ظل هذا المبدأ الخاص بتعيين الحكام السابقين أعضاء في السناتو معمولاً به في كل العصور حتى صار هذا المجلس العظيم مع مرور الزمن أقدر مجلس عرفه العالم، مؤلفاً من أعضاء ذوي كفاية وخبرة بالحياة العملية. وهم الأشراف.

3 - يجب أن ننوه بحقيقة هامة وهي أن الرومان لم يتزددوا في رفع هذه القيود عن سلطة الحكم لفترة محدودة والرجوع إلى الحكم المطلق إذا رأوا أن سلامة الدولة تتحتم ذلك. وفي ساعات الخطر الداهم في الداخل أو في الخارج كان القنصلان أحدهما أو كلاهما يعييان بناء على اقتراح من السناتو رجلاً واحداً مزوداً بسلطة الامبريوم المطلقة ليتولى الحكم بدلاً منهما لمدة محدودة (أقصاها ستة أشهر). وليس معنى هذا أن القنصلين (أو غيرهما من الحكام) كانوا يتخلّيان عن منصبهما بل كانوا يبقيان في المنصب واضعين نفسيهما تحت تصرف «الدكتاتور» خاضعين لأوامره. ولم تكن «الجمعية الشعبية» تدعى للانعقاد في هذه الحالة لإقرار هذا التعيين مما ينهض دليلاً على الثقة الكبيرة التي وضعها الرومان في شيوخ الدولة. وإنما كانت تدعى «جمعية الأحياء» للمصادقة على قرار تعيينه على نحو ما كانت تدعى للمصادقة على تخويل الامبريوم للحكام المنتخبين، وبقرار انتخابهم قبل تقلدهم مناصبهم رسمياً. ولم يعرف هذا الحكم المفرد بلقب «ملك» (Rex)، ذلك اللقب الذي أصبح بغياضاً إلى قلوب الرومان، بل عرف بلقب شائع في لاتيوم وهو دكتاتور (Dictator)⁽¹⁷⁾. وينهض هذا النظام الذي عاد بأعظم النفع على شعب كان في حالة صراع وجihad مستمررين دليلاً على ما اكتسبه الرومان من خبرة عملية بالمران الطويل على النهوض بالواجب واطاعة النظام.

4 - وثمة ملاحظة هامة عن «الامبريوم». في بينما كان اليونان لا يفصلون ابداً منصب الحكم عن السلطة التي يخولها له المنصب، كان الرومان يعتبرون الحكم والمنصب والسلطة كعناصر متميزة أو كيانات ذاتية يمكن أن يوجد كل منها مستقلاً عن الآخر. فكانت كلمة «امبريوم» بوجه خاص تعني منذ البداية السلطة العليا المستقلة أي غير المرتبطة بالحكم أو الحكام الذين يمارسونها. وكانت

تعتبر سلطة متصلة غير قابلة للتجزئية أو الانقسام، أي كان عدد حامليها من الحكام ذوي المرتبة المتساوية، إذ أن كلا منهم كان يمارسها كاملة. وعندما تخلصت روما من الملكية وقسم المنصب الأعلى بين لقنصلين» وعندما أنشيء بعد ذلك (حوالي منتصف القرن الرابع ق.م) منصب «البريتور» (لتصريف شئون القضاء) الذي قسم بدوره بين حاكمين، فإن كلا من هؤلاء القنصلين والحكام القضائيين كان يمارس سلطة «الامبريوم» كاملة.

وأما الحكام الأدنى مرتبة كالأيديليس (المحتسبين) والكويستورييس (القائمين على الخزانة) وترابنة العامة (نقباء العامة) وحتى الكنسورييس (الرقباء) فكانوا لا يتمتعون «بالامبريوم»، بل يتمتعون بسلطة مختلفة أدنى منها تسمى «بوتستاس» (Potestas).
وعندما كانت «الامبريوم» العليا «أو المطلقة» (Imperium Maius) تركز في يد حاكم واحد يسمى دكتاتور (Dictator) في حالة الطوارئ والأزمات الخطيرة، فإن القيد الزمني - وهو ستة شهور - الذي كان يفرض عليه، لم يكن بأي حال ليحد من ممارسة «الدكتاتور» لسلطته دون قيد أثناء توليه هذا المنصب. وفي الأحوال العادلة عند الرومان لم يكن الضمان ضد الطغيان يكفله - كما في بلاد اليونان - تقسيم السلطة، بل يكفله ما يتوقع من إبطالها الناجم عن تضارب أو تعارض سلطات الامبريوم المتكافئة، إذ كان كل حاكم يملك امبريوم معادلاً لامبريوم زميله في المنصب، وكل منهما يملك حق الاعتراض على الآخر، وإبطال سلطته. وجدير بالذكر أن «أمبريوم» الدكتاتور لم يكن يسري عليه «اعتراض» نقباء العامة. ولم يسمح «بالظلم منه إلى الشعب» إلا منذ عام 300 ق.م.

5 - وكان «الامبريوم» يتضمن أصلاً صلاحيات عسكرية ومدنية (أي إدارية قضائية) كاملة في الداخل وفي الخارج. فلما أنشيء منصب البريتور آل

إلى هذا الحاكم الممتعن «بالمبريوم» السلطة القضائية أي أصبح، على الرغم من لقبه⁽¹⁸⁾، حاكماً قضائياً في الواقع. وقد أفضى هذا التقسيم في الاختصاص إلى الفصل بين صلاحيات الامبريوم المدنية في الداخل (Domi) وصلاحياته العسكرية في الخارج أي في ميدان القتال (Militiae). فأصبح البريتور يمارس الصلاحيات الأولى⁽¹⁹⁾، بينما كان القنصل (بالتناوب مع زميله) يمارس الصلاحيات الثانية.

وعندما أدت كثرة الحروب إلى ابتداع نظام التفويض أو «المناصب البديلة» حل هؤلاء المفوضون بالمناصب أو الحكام البلاء⁽²⁰⁾، محل الحكم الفعليين في النطاق العسكري أي في ميادين القتال. ومع هذا فإن الحكام الفعليين الممتعين بالمبريوم (القناصل والبريتوريين) كان في وسعهم أن يمارسوا الصلاحيات بنوعيها، بل انهم كثيراً ما مارسوها، على الأقل حتى أيام الدكتاتور سلا (82 - 79 ق.م.). وعندما كانت الظروف تقتضي وجود القنصلين معاً في ميدان القتال على رأس جيش واحد، كان الاثنين يتناوبان القيادة يوماً بعد يوم.

الترابنة العسكريين

وجدير بالذكر أنه في الفترة الواقعة بين 444 ق.م. و 367 ق.م. كان يحدث أحياناً أن يعين بدل القنصلين مجلس من ثلاثة أو ستة حكام مزودين بالسلطة العليا يعرفون باسم «الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية»⁽²¹⁾. ولعل ذلك يرجع إلى أن الموقف الحربي كثيراً ما تطلب وجوداً أكثر من حاكمين مزودين بالسلطة العسكرية والمدنية العليا أو إلى الرغبة في إرضاء العامة المحروميين من تولي القنصلية وإشراكهم في منصب يتمتع أصحابه بسلطة «المبريوم». ولكن هذا النظام ألغى فيما بعد وأعيدت القنصلية بصورة منتظمة في عام 366 ق.م.

وفي السنة نفسها (366) أنشيء منصب جديد وهو منصب البريتور (Praetor) أو الحاكم القضائي وذلك لتخفيض الأعباء عن كاهل القنصلين ومعاونتهما في تصريف الشؤون المدنية ولا سيما ما يتصل بالقضاء وكان البريتور (وهو بمثابة وزير العدل) يتمتع كالقنصلين بسلطة «الامبريوم» وقد رأينا كيف أدى التقسيم في الاختصاص إلى الفصل بين صلاحيات الامبريوم المدنية في الداخل وصلاحياته العسكرية في الخارج، وكيف آلت إلى البريتور في الواقع بحيث لم يعد للقنصل في العاصمة سوى مهام إدارية شكليّة، وبعض اختصاصات شرفية غير محددة. لكن الامبريوم كان يؤهل البريتور أيضاً لقيادة الجيوس عند الضرورة، وتولي حكم الولايات بعد انتهاء مدة خدمته السنوية. وكان البريتور يتولى منصبه لمدة عام واحد عن طريق الانتخاب في «الجمعية المئوية». وفي عام 242 أصبح يتولى هذا المنصب اثنان أحدهما هو البريتور المدني (Praetor Urbanus) الذي كان يفصل في القضايا التي تنشب بين المواطنين والأخر هو بريتور الأجانب (Praetor Peregrinus) الذي اختص بالقضايا بين الأجانب أو بين هؤلاء والمواطنين. وقد زيد عدد الحكماء القضائيين حتى أصبحوا ثمانية في عهد الدكتاتور سلا (82 - 79 ق.م.). وكان يرافق البريتور ستة حراس (Lictores).

وفضلاً عن ذلك فقد أنشيء منصب الكويستور (Quaestor) الذي كان في أول الأمر بالتعيين ثم أصبح منذ 449 وظيفة عامة (Magistratus) تشغّل بالانتخاب في «الجمعية القبلية». وكان يتولاها اثنان بالمدينة (Quaestores urbani) لمساعدة القنصلين في بعض الشؤون القضائية، لكن لم يثبت أن انحصر الاختصاص في الاشراف على الخزانة العامة (Aerarium) التي كان يودع بها الاحتياطي من الأموال وكذلك بعض السجلات الرسمية ودفاتر الحسابات.

وقد أضيف إليهما في عام 431 - بعد فتح باب المنصب للعامة - اثنان آخران لمعاونة القنصل في ميدان الحرب فكانا يقومان بالاشراف على التموين ومرتبات الجندي وبيع أسلاب الحرب وما إلى ذلك. وقد زيد عدد من يشغلون هذا المنصب إلى عشرين على أيام سلا. وكان منصب الكويستور (وهو بمثابة وزير الخزانة)، برغم أنه قديم، أدنى منصب في سلك المناصب العامة .(Cursus Jonorum)

ومنذ عام 367 أصبح أيضاً منصب الآيدييل (Aedilis) - الذي كان في الأصل مساعداً «لتربيون العامة» - أصبح وظيفة سنوية عامة عن طريق الانتخاب في مجلس العامة أو في «الجمعية القبلية». و«يشغلها أربعة»، اثنان من العامة (Aediles Plebeii). وآخران من الأشراف (Aediles curules) أو - كما حدث فيما بعد - من العامة أو الأشراف بالتناوب سنة بعد أخرى. وكان هؤلاء الحكام مختصين بالشؤون البلدية في روما فكانوا - إلى جانب حفظ قرارات مجلس العامة - يشرفون على المنشآت العامة والأمن العام والأعياد والمهرجانات ومراقبة المياه وتمويل الغلال وأهم من ذلك مراقبة الأسواق والأسعار والموازين. في الحق أن الآيدييل يشبه في اختصاصاته «المحتسب» أو «وزير الشؤون البلدية».

المجتمع والنضال بين طبقيتي العامة والأشراف:

وقد تعرضت الخبرة العملية التي اكتسبها الرومان لأكثر من امتحان عسير في الفترة التي أجملنا تاريخها في الفصل السابق. فلم تكن تقوم الجمهورية حتى نشأت مشكلة تطلب حلها عاجلاً. وكانت هذه المشكلة تحصر في تنظيم العلاقة بين الطبقة الممتدة بالامتيازات والطبقة المحرومة منها. ولا نعرف حتى الآن - وربما لا نعرف إلى الأبد - منشأ هذه التفرقة بين الطبقتين ويتجه الرأي الآن إلى أنه لم تكن هناك فروق جنسية أو عنصرية بين العامة والأشراف، وأن التفرقة التي نشأت بينهما وانقسامهما إلى طبقتين متتميزتين احدهما عن الأخرى إنما نشأت

نتيجة ظروف وعوامل اقتصادية في بلاد تعيش على الزراعة، إذ استطاع فريق أن يقتني بسرعة ثروات كبيرة بينما تخلف الفريق الآخر عن ذلك. ومع أن العشائر القديمة (Gentes) لم تقم بدور كبير في تاريخ روما الدستوري والسياسي إلا أنها أثرت تأثيراً كبيراً في تطور القانون والدين حتى بعد أن ألغى، بمقتضى «قانون كانوليوس» (Lex Canuleia)، حظر التزاوج بين العامة والأشراف⁽¹⁾، ذلك الحظر الذي أدى في وقت مبكر إلى انهيار كثير من عشائر الأشراف القديمة. فلما تحققت المساواة الاجتماعية بين الطبقةين، أنشأت أسر العامة الثرية عشائر على غرار الأشراف، التي يرجح أن بعض أسر العامة كانت قد اندمجت فيها. ولعل هذا يفسر وجود أسر من العامة وأسر من الأشراف في عشيرة واحدة، ووجود عشائر (أشراف) قديمة (gentes) وأسر من العامة (عشائر maiores).).

ويكفي هنا أن نقول أن أصحاب الامتيازات - وهم الذين كانوا يعرفون باسم الأشراف (Patricii) ويثلون الأسر المنتسبة إلى العشائر القديمة (gentes Maiores) - كانوا يعتبرون وحدهم القادرين على حفظ «السلام» بين المواطنين والآلهة أو بين المواطنين أنفسهم، ومن ثم كان في استطاعتهم وحدهم مزاولة سلطة «الإمبريوم» واستطلاع مشيئة الآلهة. وكانت الطبقةان تخدمان في الجيش وتصوتان في الانتخابات ولكن العامة (Plebs) كانوا عديمي الحيلة حيث لم تتح لهم فرصة مزاولة «الإمبريوم». وعلى أي حال فقد كان هناك من الأسباب القوية ما يحملهم على التذمر والسطح، إذ كان معظمهم من صغار الملوك الذين ليس لديهم رؤوس أموال أو لديهم منها قدر ضئيل، فكانوا يضطرون دائماً إلى الاقتراض حتى صاروا مدينين للأثرياء الذين كانوا عادة من الأشراف. وكان قانون الدين المألوف من قديم الزمن يتسم بطابع القسوة والهمجية.

وترتب على ذلك - وفقاً للقصة المتداولة - أن اعتصب العامة مرة أو

مرتين، فأضربوا عن العمل وانسحبوا جميعاً مهددين بالانشقاق وتأسيس مدينة جديدة على مسيرة بضعة أميال في شمال التiber. وكانوا يعلمون تماماً مدى احتياج الدولة إليهم في الحرب، وهي حقيقة كان يعلمها الأشراف كذلك. ومن حسن الحظ أن العامة أدركتوا أيضاً أنه ليس في وسعهم الاستغناء عن الدولة، مركز تقليد الدين والحكم والواجب والنظام. فلم يكن لديهم أي دراية بالصيغ أو الطقوس الدينية التي يجب اتباعها لحفظ السلام بين الآلهة والبشر. ولم يكن في مقدورهم أن يحملوا معهم آلهة المدينة الذين عاشوا هم وأجدادهم مشمولين برعايتها. فكان مثلهم كمن ركبوا قارباً بغير دفة أو مجذاف فتقاذفته الأمواج، وهو وضع كان من المستحيل احتماله. ولهذا عادوا إلى المدينة - كما تروي القصة - حيث توصل الفريقيان، العامة والأشراف، إلى تسوية كانت الأولى في سلسلة طويلة من التسويات التي جعلت من روما في النهاية دولة متماسكة متحدة، وأناحت لها أن تخرج ظافرة من صراع استمر ثلاثة قرون، وقصة هذه المنازعات والتسويات بين الطبقتين طويلة معقدة ولا يتسع المجال لسردها تفصيلاً ولكننا نستطيع أن نستعرض أدوارها بایجاز.

«نقباء العامة»

بعد الاعتصاب أو الانسحاب الأول (Secession) في عام 494 ق.م.⁽²²⁾ حصل العامة على حق انتخاب حكام من طبقتهم ليتولوا حماية أرواحهم وممتلكاتهم من تعسف سلطة «الإمبريوم». وكان هؤلاء «النقباء» يعرفون باسم ترابنة العامة (Tribuni Plebis) لأن انتخابهم كان يتم في أول القرن الخامس ق.م. عن طريق مجلس منظم حسب القبائل المدنية (Concilium plebis) المقصورة على العامة ويعرف بمجلس العامة (Tribus urbanae).

ثم أصبح هذا الانتخاب منذ عام 471 ق.م يتم عن طريق الجمعية القبلية (Comitia Tributa) - وهي التي اندمج فيها مجلس العامة وكانت القبائل تؤلف فيها وحدات انتخابية. ولا ريب في أن الحركة التي قام بها العامة لاكتساب حق تعيين حكام للدفاع عن مصالحهم كانت حركة ثورية أقسموا فيها اليمين على تحدي الأشراف وحماية الترابنة بأرواحهم ولذلك اعتبر ترابنة العامة تحت حماية الآلهة أي أصبحت أشخاصهم مصونة لا يجوز المساس بها (Sacrosancti)، فكان من يعتدي عليهم أو يلحق بهم أي أذى يتعرض لغضب السماء ويستباح دمه. وكان أهم حقوق تضمنتها السلطة التربونية (Tribunicia potestas). والتي تتمتع بها كل نقيب من هؤلاء النقباء - الذين ارتفع عددهم من أربعة إلى عشرة قبل عام 449 ق.م - هي:

- 1 - حق الاعتراض (Intercessio) على أي إجراءات يقوم بها الحكام (ما عدا الدكتاتور وربما الـ (Interrex) أو على أي مشروعات قوانين لا تروق له، أو على الانتخابات والقوانين، وتوصيات السناتو.
- 2 - حق حماية أرواح وممتلكات العامة (auxilium).
- 3 - حق اقتراح القوانين (Rogatio).
- 4 - حصانة الذات (Sacrosanctitas)، بمعنى عدم جواز المساس بشخص نقيب العامة أو الاعتداء عليه أو عرقنته أثناء تأديته لوظيفته.
- 5 - حق دعوة «مجلس العامة» و «الجمعية القبلية» (التي اندمج فيها هذا المجلس) إلى الانعقاد، واصدار قرارات من هذا المجلس أو تلك الجمعية (Plebisita)، وهي قرارات أصبحت قوانين نافذة سارية على كل الشعب في عام 287 ق.م. ثم حق تنفيذ قرارات العامة، وحقوق النقيب الخاصة به، عن طريق القسر (Coereilio) أي الاعتقال والعقاب الذي قد يصل - على ما يرجح - إلى فرض عقوبة الموت.

- 6 - حق الاستماع فقط إلى مداولات مجلس السناتو (حتى آخر القرن الرابع ق.م). لكن بعدها (منذ القرن الثالث ق.م). تمنع كل نقيب بحق دعوة ذلك المجلس إلى الانعقاد.
- 7 - أصبح منصب «نقيب العامة» منذ القرن الثاني ق.م. مؤهلاً كافياً للعضوية في مجلس السناتو.
- 8 - لم تكن «تربيونية العامة» في أول الأمر منصباً عاماً (Magistratus) حيث أنها أنشئت أصلاً لحماية العامة من تعسف أصحاب المناصب العامة ولا سيما القناصل والبريتوريين المتمتعين بسلطة الامبريوم. كانت تمثل ما نسميه اليوم «بالمعارضة» لكن «تربيونية العامة» لم تثبت أن دخلت في كادر المناصب العامة. ولم يكن نقيب العامة يتمتع «بالامبريوم» وإنما بالسلطة الأدنى المسماة بوتسناس (Potestas)، وتوصف بالسلطة التربيونية (Tribunicia) (potestas). ولم يكن له شارات أو علامات شرف أخرى. لكن سلطته كانت تتضمن حقوقاً كثيرة بل ضخمة كما رأينا.
- 9 - لا يجوز الترشح لمنصب نقيب العامة إلا من ينتمي أصلاً إلى عشيرة من عشائر العامة (Plebs). فكان المنصب محراً على كل من ينتمي إلى إحدى عشائر الأشراف (Gentes .patriciae)
- 10 - كان كل نقيب من نقباء العامة العشرة يملك حق الاعتراض (Intereessio) - أي الفيتو - على زميله. حيث أن الجميع يتمتعون بسلطة متكافئة. وكان هذا من شأنه أن يعرقل جهودهم المشتركة من أجل مصلحة طبقة العامة، وكان من السهل أن يستخدم أحد نقباء العامة لمناؤة وميل له أو كل زملائه، إذ يكفي أن يشهر في وجههم سلاح الاعتراض فيبطل كل إجراء أو مشروع فردي أو جماعي يهدف إلى تحقيق مصلحة لل العامة. كان من السهل على السناتو أو طبقة الأشراف أن تشتري ذمة واحد من نقباء العامة، وتستعمله لعرقلة

واحبط أي مشروع قانون لا يررق في نظر طبقة الأشراف أو السناتو أو أحد كبار الحكماء. لقد كانت «تربيونية العامة» إذا سلحاً ذا حدين، يستغل مصلحة العامة، وضد مصلحتهم، وسلاماً من السهل ابطال فاعليتها.

«الجمعية القبلية»

وعند هذا الموضع ينبغي التحدث عن «الجمعية القبلية» التي قامت إلى جانب «الجمعية المئوية»، وكانت ترتبط في نشأتها الأولى بالعامة ومجلسهم ونوابهم. وكانت أكثر ديمقراطية في تكوينها من «الجمعية المئوية» التي ذكرنا أنها كانت تقوم على أساس «تيموغرافي» أي على أساس الثروة، بمعنى أن حق العضو فيها عند الاقتراع أو الانتخاب يرهن بما يملكه من نصاب مالي، ومن ثم فإنه لم يكن للعامة فيها تأثير يذكر. وأما «الجمعية القبلية» فكانت نواتها الأولى هو «مجلس العامة» الذي كان مقصوراً عليهم وحدهم. لكنه لم يلبث أن اكتسب، مع ازدياد قوة العامة، صبغة جديدة فتطور واتسعت دائرته وأصبح بمثابة جمعية عمومية تمثل المواطنين جميعاً عامة واسراراً. ويقوم على أساس القبائل التي كان الشعب الروماني ينقسم إليها، ومن ثم فقد عرف «بالجمعية القبلية». ولكي نفهم ذلك لا بد أن نتعرف أولاً على هذه القبائل ونشأتها، وتطور عددها، ومعناها عند الرومان، وبالتالي نفهم طريقة تشكيل الجمعية الجديدة، ودورها، والفرق بينها وبين «الجمعية المئوية» التي ظلت قائمة بجانبها وتقتسم معها الاختصاصات.

بدأت هذه القبائل بثلاث قبائل عرقية سلالية (بالمعنى المألوف عند العرب) ثم ألغيت تقريراً وأنشئ بدلاً منها أربع قبائل «مدنية» نسبة إلى روما (Tribus Urbanae)، وعدد متزايد من القبائل «الريفية» (Tribus Rusticae) وكانت هذه القبائل الجديدة تقوم على أساس توزيع السكان الإقليمي، أي أنها كانت

بمثابة أقسام إقليمية أو إدارية بحثة للدولة الرومانية، وكان الغرض منها تسهيل عمليات التعداد (Census)، وجبائية الضريبة (Tributum) وتعبئة المواطنين للخدمة العسكرية (Dilectus)، وتقسيم المواطنين إلى مجموعات انتخابية أو «دوائر انتخابية». وكانت أقدم القبائل الريفية التي أنشئت، وعدها 16 قبيلة، تتألف من عشائر الأشراف. لكن رويدا زيد عدد القبائل حتى بلغ 35 قبيلة تضم الأشراف وال العامة وذلك في عام 241 ق.م. وتجمد عدد القبائل عند هذا الرقم برغم تزايد عدد المواطنين وعدد من اكتسبوا الجنسية الرومانية سواء في إيطاليا أو في الولايات. لكن عدد القبائل الرومانية ظل دون تغيير حتى في عصر الامبراطورية. وقد درجت العادة منذ القرن الأول ق.م. أن يقرن الروماني باسمه اسم القبيلة التي ينتمي إليها كدليل على أنه مواطن متمنع بكامل الحقوق. وعلى أساس هذه القبائل كان يقوم المجلس الدستوري أو الجمعية القبلية (Comitia Tributa) التي كان لكل قبيلة فيها صوت واحد. كانت القبيلة الرومانية إذن - من الناحية السياسية، أشبه ما تكون بما نسميه اليوم «الدائرة الانتخابية».

وكان العامة في المراحل الأولى من نضالهم ضد الأشراف يجتمعون في مجلس مقصور عليهم وحيث أنه لم يكن يمثل جميع المواطنين ولم يعترف به الأشراف فإنه لم يعتبر جمعية عمومية نظامية (Comitia plebis) بل اعتبر مجلس عامة (Concilium plebis).

وكان هذا المجلس يعقد بدعة من ترابنة العامة في السوق ويقوم بانتخاب هؤلاء الترابنة ومساعديهم. ولم تكن القرارات التي يصدرها مجلس العامة والمعروفة باسم (Plebiscita) تسرى على جميع المواطنين. ولكن بمرور الزمن اكتسب هذا المجلس صبغة جديدة ولم يعد يمثل العامة بل الأشراف كذلك، لقد أصبح في الواقع الأمر جمعية عمومية تمثل جميع المواطنين وتؤلف القبائل فيها وحدات انتخابية ولذلك عرفت باسم الجمعية القبلية (Comitia Tributa).

وسرعان ما تبين للقناصل - وخاصة بعد حصول العامة على حق تولي منصب القنصلية في عام 366 - أن دعوة هذه الجمعية أيسر من دعوة الجمعية المئوية ذات الاجراءات المعقّدة، فبدأوا يستعينون بها لاصدار القوانين. وأصبح من حقهم كنقباء العامة دعوتها للجتماع. وازدادت أهمية هذه الجمعية عندما صدر قانون هورتنسيوس (*Lex Hortensia*) في عام 287 ق.م. على أثر تهديد «ال العامة» بالانسحاب أي الانفصال عن الدولة الرومانية. وقد نص هذا القانون الشهير على أن تكون قرارات الجمعية القبلية نافذة بدون موافقة سابقة أو لاحقة من السناتو (Patrum Auctoritas) كما كان الحال من قبل، وأن تأخذ صفة القوانين وتصبح ملزمة للدولة بجميع طبقاتها. وبذلك أصبحت الجمعية القبلية هي الجمعية التشريعية الأولى. وانتقلت إليها كثير من اختصاصات الجمعية المئوية التي ظلت هي الجمعية الانتخابية الأولى.

على أن كلتا الجمعيتين كانت لها اختصاصات انتخابية وتشريعية وقضائية.

فكانـت الجمعية القـبلية تقوم بـجانب التـرابـنة والـAediles Plebis (ـبدـعـوـة من التـربـيونـ أيـ فيـ مجلسـ العـامـةـ) والـAediles curules (ـبدـعـوـة منـ القـنـصلـ)ـ أوـ أيـ حـاـكـمـ مـتـمـتـعـ بـالـامـبـريـوـمـ)ـ وكـذـكـ ضـبـاطـ الفـرـقـ المعـرـوفـينـ باـسـمـ التـراـبـةـ العـسـكـرـيـنـ)،ـ وـتـصـدـرـ القـوـانـينـ وـتـصـدـقـ عـلـىـ الـمـعـاهـدـاتـ،ـ وـتـنـظـرـ فيـ أحـكـامـ (Tribuni Militum a populo)ـ الـغـرـامـاتـ الـمـسـتـأـنـفـةـ.

وأما الجمعية المئوية - التي سبق الكلام عن تشكيلها واحتياطها قبل قيام القبلية⁽¹⁾ - فقد أصبحت هي التي تقوم بانتخاب القناصل والبريتوريـسـ والـكـنـسـوـرـيـسـ (ـالـرـقـاءـ)ـ وهيـ التيـ تـصـدـرـ الـقـرـارـاتـ الـخـاصـةـ باـعـلـانـ الـحـرـبـ أوـ عـقـدـ الـصـلحـ،ـ وـتـخـوـلـ «ـالـسـلـطـةـ الـكـنـسـوـرـيـةـ»ـ بـمـقـضـىـ قـانـونـ يـعـرـفـ باـسـمـ «ـقـانـونـ الـجـمـعـيـةـ الـمـئـوـيـةـ الـخـاصـ بـالـسـلـسـلـةـ الـكـنـسـوـرـيـةـ»ـ⁽²⁾ـ،ـ وـتـنـظـرـ فيـ التـظـلـمـاتـ منـ أحـكـامـ الـإـعدـامـ.ـ وـكـانـتـ لاـ تـنـعـدـ إـلـاـ بـدـعـوـةـ منـ حـاـكـمـ مـتـمـتـعـ بـالـامـبـريـوـمـ)ـ (ـكـالـقـنـصلـ أوـ

البريتور)، ولا تتعقد أيضاً إلا في «ساحة مارس» أي خارج سور المدينة.

وجدير بالذكر أن الجمعية القديمة، وهي «جمعية الأحياء (Comitia Curiata) فقدت أهميتها فيما عدا انفرادها بالمصادقة على منح سلطة الامبريوم للفائزين في الانتخابات من القناصل أو البريتوريين أو غيرهم وذلك بمقتضى قانون يعرف باسم «قانون جمعية الأحياء الخاص بالامبريوم» (Lex Curiata de imperio) لتشهد أو تقر مراسيم معظمها ذات صبغة دينية. وقرب نهاية عصر الجمهورية أصبحت جمعية شكلية ولم يعد يحضر جلساتها سوى ثلاثة مندوبي (Lictores) يمثلون الأحياء القديمة.

«قوانين الألواح الاثني عشر»

وكان العامة قد وجدوا علاجاً لجهلهم بالقانون العرفي وطرق اجراءاته. فدونت القوانين في اثنين عشر لوبا (Leges XII Tabularum) في 451 - 449 ق.م، متضمنة قواعد عرفية بعضها كتب لأول مرة وبعضاً الآخر جديد كان جانب منه - فيما يبدو - منقولاً عن أثينا. ولدينا اليوم من هذه القانونية المشهورة شذرات كثيرة يتضح منها أنها وضعت للمواطنين كافة على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية «فلا نلمس في المدونة فكرة التشريع لطبقة معينة. وهي ذات طابع روماني أصيل بما تتسم به من روح الحذر والحكمة واحترام الماضي الذي لا تتغافل عنه إلا عندما يتعارض العرف القديم مع قواعد المنطق، وبما يظهر فيها من اهتمال للتناسق الشكلي لا يخلو من الحكمة». وكانت المدونة - على حد تعبير المؤرخ تاكتيوس بعد ذلك بفترة طويلة - هي «اكتمال المساواة في الحقوق» كما أصبحت منبعاً لنهر القانون الروماني الفياض الذي ازداد ضخامة بمرور الزمن وما يزال يروي حقل الحضارة الأوروبية الحديثة.

وكان على العامة أن يكافحوا كفاحاً مريضاً طويلاً قبل أن يشقوا طريقهم إلى معقل الأشراف ويحصلوا على حق مزاولة «الإمبريوم»، ولكن ذلك تحقق لهم دون نشوب حرب أهلية أو ارقة دماء⁽²³⁾. وقد قام الأشراف - فيما وصلنا - بعده مناورات ملتوية العامة لاعتقادهم بأن الأمور لن تكون على ما يرام لو أساندت مهمة حفظ «سلام الآلهة» إلى قوم كان من المعتقد أن الآلهة لا يقيمون لهم وزنا. ولكن هؤلاء القنصلين وأعضاء مجلس الشيوخ من طبقة الأشراف كانوا مسؤولين عن كيان الدولة التي لم يكن في الامكان أن تبقى بغير تعاون العامة. ولذلك صدر في عام 445 قانون كانوليوس (Lex Canuleia) الذي أباح التزاوج بين الطبقتين. ومما يثير الدهشة أن القانون نفسه كان يحرمه حتى ذلك التزاوج بين الطبقتين. وما يثير الدهشة أن القانون نفسه كان يحرمه حتى ذلك الحين. وقد ترتب على ذلك أن ماتت بالتدريج روح التعصب الطبقي القديمة، وهي روح كانت أعنف بكثير مما هو مأثور بيننا.

وحوالي منتصف القرن الرابع وفي عام 356 ق.م. على وجه التحديد لم يعد من الجائز فقط بمقتضى قوانين ليكينيوس وسكستيوس (Leges Liciniae Sextiae) أن يكون أحد القنصلين من العامة بل من المحتم أن يكون أحدهما من تلك الطبقة⁽²⁴⁾. ولم ينته القرن الرابع ق.م. حتى كانت طبقة الأشراف القديمة قد بدأت تختفي وحلت محلها طبقة جديدة تقوم على نظرية «أداء خدمة جليلة للدولة»، إذ كان من يتولى القنصلية بغض النظر عن كونه من الأشراف أو العامة، يصبح نبيلاً (Nobilis) - وهي صفة معناها الحرفي لامع أو «مرموق» - وبالتالي تصبح أسرته «نبيلة». وكانت الطبقة الأرستقراطية الرومانية تتألف في الأجيال التالية من أحفاد الذين صاروا نبلاء بحكم تقلدهم المناصب العامة السامية

ومعنى هذا أن الأرستقراطية الرومانية (*Nobilitas*) لم تعد تستند إلى شرف الأصل بل إلى شرف المنصب. وكان أعضاء السناتو هم دعامة هذه الأرستقراطية وكان العرف قد جرى على أن من يتولى القنصلية أو البريتورية يدرج اسمه في السناتو فلما حصل العامة على حق تولي هذه المناصب أصبح من حقهم دخول السناتو. وبذلك أصبحت الأرستقراطية الرومانية تشتمل على أعضاء من طبقة الأشراف وطبقة العامة. وكان أعضاء المجلس من العامة يعرفون باسم (*Conscripti*) أي المدرجة أسماؤهم) تمييزاً لهم من الأعضاء من الأشراف المعروفين باسم (*Patres*) وكان المتكلمون يخاطبون أعضاء المجلس في العصور التالية بالعبارة الآتية:

.*Patres (et) Conscripti*

لقد حصل العامة على حق تولي الكنسورية التي سأتحدث عنها بعد لحظة في عام 351. ولم يكن يشغل هذا المنصب عادة إلا من سبق لهم تقلد منصب القنصلية، فهي في ذلك مثل الدكتاتورية كما لم يكن أي منهما منصبا سنوياً كسائر المناصب، ولذلك لم يعتبرها هذا المنصب ضمن سلك المناصب العامة (*Cursus honorum*) الذي يحدده شيشرون (*Certus*) *ordo magistratum*، بثلاثة مناصب مرتبة ترتيباً تصاعدياً على النحو التالي: الكويستورية فالبريتورية فالقنصلية. ولم تكن الأيدلية شرطاً ضرورياً للصعود في درج الوظائف العامة ولكنها كانت تشغل - إذا شغلت - بعد الكويستورية ولم تكن تربيونية العامة وظيفة رسمية (Magistratus) ولكنها بمرور الزمن اكتسبت هذه الصفة وصارت تشغل قبل الأيدلية فاصبح سلك الوظائف على النحو التالي: الكويستورية فالتربيونية فالأيدلية فالبريتورية فالقنصلية. وكانت جميع هذه المناصب تشغل مدة عام واحد عن طريق الانتخاب مع زميل أو أكثر، ولا يجوز الجمع بين اثنين منها في وقت واحد، ولا بد من

مرور مدة معينة بين الواحد والآخر. كما اشترط لتولي كل منها سن معينة. وكانت الكوبيستورية لا تشغله عادة قبل سن الـ 28 والقنصلية قبل حوالي سن الـ 43. ولم يكن يتمتع بالامبريوم (Imperium) سوى القنصل والبريتور وأما الباقيون فكانوا يتمتعون بسلطة البوتيستاس (Potestas) التي توصف بأنها أعلى Maior في حالة علو منصب حاملها. وكان كل صاحب منصب يتمتع بسلطة الاعتراض (Intercessio) على قرارات زميله.

«البروقنصل والبروبريتور»

وتجدر بالذكر أن تحديد مدة الوظيفة بعام واحد كان له مساوئه. إذ كان يحدث أحياناً أن تنتهي مثلاً مدة القنصل وهو ما يزال منشغلًا - وحده أو مع زميله - بمقاتلة الأعداء في ميدان الحرب فيضطر إلى التخلص من قيادة الجيش لمن يخلفه في المنصب مما كان يؤدي إلى الاضطراب العسكري واضعاف مركز القوات» المحاربة. ولذلك ابتكر الرومان في 327 ق.م. علاجاً لهذا العيب وذلك ببقاء القنصل الذي تنتهي مدة خدمته وهو في الميدان على أن يمنح لقب بروقнصل (Proconsul = Pro consul) - أي «مثابة قنصل» أو «قنصل مفوض»، أو «قنصل بديل»، وقد طبق ذلك في بعض مناصب الحكم الأخرى، فنسمع أيضاً عن بروبريتور (Propraetor) أي «بريتور مفوض» أو «بريتور بديل»⁽²⁵⁾.

«الكنسور»

وسأختتم هذا الفصل بكلمة موجزة عن نظام واحد غريب يوضح بجلاء نزعة الرومان بالواجب واطاعتهم للنظام. فقد انشئت خلال تلك الفترة في عام

443 - وفقا للتاريخ المتواتر - وظيفة عامة جديدة لم يقصد بها في أول الأمر سوى تخفيف الأعباء الثقيلة الملقاة على عاتق القنصلين اللذين لم يتسع وقتهم للنهوض بها في ذلك العصر الحافل بالحروب، ولكنها ستصبح بمرور الزمن مطمحًا أعلى من القنصلية نفسها. فقد تطلب تعلق الرومان بالنظام التأكيد من أن كل مواطن قد اكتسب حقوقه عن الطريق المشروع، وأنه يؤدي الخدمة العسكرية، ويدفع الضرائب وفقاً لتقدير صحيح لثروته. ولهذا تقرر إجراء «تفتيش» لتحقيق هذا الهدف في كل خمسة أعوام واختيار كنسورين (Censores) يتوليان منصبهما لمدة عام ونصف عام لكي يضطلعوا بهذه المهمة. ومع أن هذين الكنسورين لم يزودا «بالامبريوم» إلا أن سلطتهم كانت مطلقة وقراراً لهم لا معقب عليها. ولم يكن هناك سبيل إلى محاسبتهم على ما يتخذان من إجراءات رسمية. وكانوا يختاران غالباً، وفي العصور التالية دائمًا، من بين الشيوخ الموقرين الذين تقلدوا منصب القنصلية أي من بين أفراد كان الشعب يستطيع أن يثق بعدهم وحكمتهم ثقة تامة. وكم كانت الحاجة شديدة إلى مثل هذه الثقة لأن سلطة الكنسورين التفتيشية سرعان ما تجاوزت الاحصاء والتعداد إلى مراقبة السلوك الشخصي للمواطنين في كافة مرافق الحياة تقريباً. فقد يستجوبان جميع أرباب الأسر عن قيمتهم بواجباتهم العائلية، ويحاسبان من يقسوا على عبده قسوة صارخة أو يظلم تابعه أو يهمل أطفاله بإزالة اسمه من قائمة أفراد القبيلة، وكان ذلك يؤدي بـالحاق الوصمة به (Infamia) - وهي كلمة منكرة كان الرومان يخشها خشية شديدة.

وكان الكنسوران يتوليان تأجير أملاك الحكومة ويحصلان على الدخل الناتج من ذلك، وبمرور الزمن وقعت تحت طائلتهم شئون أخرى كاهمال الأرض أو غيرها من العقار والبذخ المفرط وسوء النية في التعاقد أو في الوصاية القانونية. ويراجعون قائمة السناتو وقد يرفعان منها اسم عضو من الشيوخ أو يستبعدان اسم شخص من قائمة الفرسان إن لم يعن بجواده الذي أمدته به الدولة أو إذا

ارتكب من الأفعال ما يجعله غير جدير بمركزه.

وقد يكون من العسير علينا أن نفهم كيف يرضخ المواطنون في دولة حرة مثل هذه السلطة التفتيسية. لكن إلى جانب تقدم سن من شغلوا هذا المنصب ومكانتهم ونزعه الرومان إلى اطاعة السلطة الشرعية، هناك حقيقتان نستعين بهما على فهم هذا الوضع. واحداًهما حقيقة بسيطة وهي أن الكنسorين أو «الرقيبين» كانا زميلاً (Conlegae) كالقنصليين يتمتع كل منهما بحق الاعتراض على قرارات زميله. فإذا لم يستعمل أحدهما هذا الحق ضد الآخر وافق الاثنين على إدانة أحد المواطنين فمن البديهي أنه لم يكن من المستطاع مقاومة قرارهما. وأما الحقيقة الأخرى فأعسر فهما علينا نحن المحدثين: إذا كان هناك جانب ديني في عمل «الرقيبين» اللذين كانوا يختتمان مدتهم باجراء تطهير ديني (Iustum) لمجموعة المواطنين، مصحوب بتقديم القرابين وإقامة الصلوات في «ساحة مارس» خارج أسوار المدينة. ولا سبيل لنا إلى معرفة حقيقة اعتقاد الروماني أو بالأحرى حقيقة شعوره أزاء هذه الطقوس الدينية وما يتربّ عليها. لكننا على يقين من أنه كان يعتقد أن حياة الدولة قد تتعرض للخطر بدون اجرائها وأن هذا الاعتقاد كان قوياً إلى حد جعله يرضخ لجميع هذه الاجراءات التي كان «التطهير الديني» تتويجاً لها.

هوامش ومراجع

-
-
- 1 - فهو رب أسرة (Paterfamilias) بالنسبة للزوجة والأولاد وهو سيد domitus بالنسبة للعبيد وهو راع أو نصيرPatronus بالنسبة للتابع.
 - 2 - وتعرف سلطته أيضاً، بالنسبة للزوجة باسم (Manus) (أي سيد) وذلك في حالة الزواج مع السيدة.
 - 3 - وكان عبيد المنازل يعرفون باسم (Vernae) تمييزاً لهم عن عبيد المحاجر والضياع الواسعة (Servi).

4 - عن كاتو الأكبر أو «الرقيب» (Cato censor) أنظر فيما تقدم.

5 - كانت هذه العذاري بنات صغيرات يختزن من بين الأسر الكريمة ليقمن على خدمة «فستا» ربة النار المقدسة في المعبد الخاص بها. وقد بلغ عددهن ستة في العصر التاريخي وكانت مدة خدمتهن ثلاثين سنة يبيقين أثناءها عذاري. وقد وكل أمرهن إلى «الكاهن الأعظم» الذي كان يوقع عليهم الجزاء في حالة اهمالهن النار أو ارتکابهن أي جريمة، وأما من تفرط في عفتها فكانت تدفن حية، راجع ما تقدم.

6 - كانت العصى «ترمز إلى حق الحاكم - بمقتضى الأمبريوم - في جلد المواطنين وترمز البلطة إلى حقه في اعدامهم. وكلمة فاشيزمو Fascismo الإيطالية فاشيزم Fascism الانجليزية كل منها مشتقة من فاسكيس Fasces اللاتينية تدل على نظام حكم دكتاتوري استبدادي «فاشي»، كالذي أقامه موسوليني في إيطاليا في 1922 وانتهى في 1943.

7 - كانت سلطة الأمبريوم المدينة أي التي تمارس في مدينة (روما) تسمى Imperium Domi .

8 - أسماء القبائل الثلاث الأولى هي Tities, Ramnes, Luceres وعن القبائل الرومانية وتتطور معناها وعددتها.

9 - وقد تضاءل شأن هذه الجمعية في عصر الجمهورية عندما حلت مكانها مجالس أو جمعيات دستورية تقوم على أسس جديدة.

10 - كانت سلطة الأمبريوم تعرف في ميدان الحرب باسم «Imperium Militiae» وفي رأي بعض الباحثين (لاكلهم) أن «الإمبريوم العسكري» نفسه لم يعد (بمقتضى العرف لا بمقتضى القانون)، سلطة مطلقة فاصلح يجوز للمواطنين في ميدان الحرب وفي الولايات التظلم منه.

11 - لا تزال معلوماتنا الوثيقة طفيفة عن العصر الملكي في روما الذي استمر حوالي قرنين ونصف القرن (753 - 510 ق.م) وإليك قائمة ملوك روما السبعة التقليدية:

- Romulus -

- نوما بومبiliوس Numa Pompilius -

- توللوس هوستيليوس Tullus Hostilius -

- أنكوس ماركيوس Ancus Marcius -

- لوكيوس تاركينيوس «بريسكوس» L. Tarquinius Priscus -

- سرفيوس تولليوس Servius Tullius -

- لوكيوس تاركينيوس «سوبريوس» L. Tarquinius Superbus (المتغطرس أو المتعالي):

12 - كانت كلمة «Populus» أي «الشعب» تعنى مجموعة المواطنين الرومان بغض النظر عن الطبقات والفوارات الاجتماعية. فكانت تشمل الأشراف Patricii والعامّة Plebs. غير أنها كانت Magister populi تعنى في الأصل المواطنين بوصفهم هيئة محاربة كما يتضح من اللقب

(أي رئيس الجيش ولا سيما المشاة) الذي كان يطلق على الدكتاتور Dictator وكان يعاون الأخير مساعد يعرف باسم رئيس الفرسان (Magister equitum). وقد تغير مفهوم الكلمة في العصور التالية.

13 - كانت المدينة الحرة أو «المدينة - الدولة» بمعنى مجموعة المواطنين والحقوق التي يتمتعون بها تعرف في اللاتينية باسم civitas (وفي اليونانية Polis أو Politeia)، وأما الدولة نفسها أي نظام الحكم فيها - دستورها Politeia فكانت تعرف في العصر الملكي باسم Regaum وفي عصر الجمهورية باسم Res Publica (في اليونانية Res Publica أو Polis). لكن بمرور الزمن أصبحت الكلمة Civitas ترافق الكلمة Res Publica فجمهورية أفلاطون مثلاً تعرف في اليونانية باسم Politeia، وفي اللاتينية بكلمتين Civitas أو Respublica على أن الكلمة Civitas قد تدل أيضاً على أي مدينة أو حتى جماعة قبلية.

14 - عن هؤلاء «الكنسوريين» أي المشرفين على التعداد وكذلك مراقبة الأخلاق العامة، ومراجعة قائمة السناتو، انظر الصفحات التالية.

15 - وهو ما يعرف اليوم في لغة السياسة بالفيتو (Veto) وهذه الكلمة أيضاً لاتينية معناها «أمنع أو أعتراض».

16 - ومع هذا فقد أصبح الامبريوم سلطة غير مطلقة حتى في ميدان الحرب وفي الولايات بمقدسي العرف لا القانون، على نحو ما يعتقد فريق من المؤرخين، راجع ما ذكرناه في ص 171، هامش 1.

17 - أول دكتاتور معروف هو تيتوس لاكريوس (T. Lacrius)، وليس من المحقق متى تولى منصبه وإن كان يرجح أحد hW في عام 501 أو 489 ق.م. ويلاحظ أن «الدكتاتور» كان بمجرد تعينه يقوم باختيار مساعد له يسمى «رئيس الفرسان» Magister Equitum وكان يتمتع بالامبريوم. وكانت ظروف معركة كنائي (216) في الحرب البوئية الثانية هي آخر مرة استخدم فيها منصب الدكتاتور للغرض الذي أنشئت من أجله في الأصل. وكان يرافق الدكتاتور 24 حارساً .Lictores

18 - بريتور معناها اللغوي «رئيس» وفي الحق أن هذا اللقب قد خلع على رئيس الجمهورية عقب الغاء الملكية. لكن لم يثبت أن حل لقب «قنصل» بدلاً منه.

19 - كان البريتور يسمى بالبريتور المدني (Praotor Urbanus) أي المختص بقضايا المواطنين الرومان. وبعدئذ أنشئ منصب «بريتور الأجانب» وكان «المدني له» الأولوية على الآخر.

20 - يسمى القنصل Consul ويسمى البريتور Praetor. وأما بروقنسنل Proconsul فمعناها بمثابة قنصل أي كالقنصل أو القنصل البديل، وهكذا في لقب «بروبريتور» فمعناه «البريتور المفوض» أو «البريتور البديل».

.Tribuni Militum consulari potestate - 21

وكلمة Tribunus تعني في الأصل قائد قوات القبيلة.

- 22 - تحدثنا المصادر القديمة عن عدة «انسحابات» (Secessiones) قام بها العامة كان أولها الانسحاب المذكور أعلاه والثاني في عام 449 ق.م، والثالث - هو المؤثوق بصحته - حدث في عام 287 ق.م.
- 23 - حصل العامة على حق تولي منصب «التبين العسكري ذي السلطة القنصلية» في عام 400 إن لم يكن قبل ذلك بمنطقة طويلة (في 444).
وحصلوا على حق تولي منصب القنصل في 366.
وعلى حق تولي منصب الدكتاتور في 356.
وعلى حق تولي منصب البريتور في 337.
- 24 - لم يراع هذا القانون بصفة مطردة إلا منذ عام 342 ق.م الذي يعتقد أن قانونا صدر فيه يجيز أن يكون أحد القنصلين من العامة. ومع أن هذا أمر غير مستبعد إلا أنه لم يحدث أن تولى القنصلية اثنان من العامة إلا منذ عام 272 ق.م.
- 25 - راجع فيما تقدم.

الفصل العاشر

روما وغرب البحر المتوسط

الصراع مع قرطاجة وهنريال⁽¹⁾

في أيامنا هذه يرى المؤرخون المتذمرون أن الحكمة تقتضي اغفال قصص الحروب والمعارك المعروفة، وتركيز الاهتمام في المسائل المتعلقة بالحياة الاجتماعية والاقتصاد القومي والفردي، وتاريخ تطور الديانة والأخلاق والبحث العلمي لكن هناك من الحروب القليلة ما هو صراع هائل بين أمتين سيظل يستوعب دائماً اهتمامنا البالغ، لأنه ذو طابع مثير من جهة وذو نتائج بعيدة المدى من جهة أخرى. ولا مراء في أن الصراع الطويل بين روما وقرطاجة كان نوعاً من هذه الحروب. فقد أبرز من ناحية قرطاجة رجلين من أفذادها، كان أحدهما ابناً للآخر ولا يفتأ التاريخ يتحدث بذكرهما. وأما من ناحية روما فهو يطلعنا على صورة حية من صور الصمود الرائع سنوات طويلة في وجه أخطار مدلهمة، مما لا نظير له في تاريخ أمة من الأمم. ولم يترتب على حرب مثل ما ترتيب على تلك الحرب من نتائج حسنة وسيئة في وقت واحد. فهي من ناحية قد أدمجت جميع أنحاء إيطاليا الواقعة جنوبي الألب في دولة متحدة تحت حكم روما، مما جعلها تنساق في تيار الفتح والغزو فيما وراء البحر المتوسط. كما وضعت أسس الإمبراطورية كما نتصورها اليوم بنظامها الرائع. لكنها تركت إيطاليا من ناحية أخرى في حالة من التردي الاقتصادي الذي لا ن جانب الصواب إذا قلنا أنها لم تنهض منه أبداً نهوضاً تاماً، وغيرت أخلاق الشعب الروماني، أغنيائه وفقرائه على السواء وغيرتها لا إلى

الموقف قبل نشوب الحرب:

ولكن نتبين بوضوح كيف نشبّت هذه الحرب، ينبغي أن نلقي نظرة على خريطة إيطاليا، ولا بأس من أن تكون خريطة حديثة، ولعل القارئ يذكر أن روما لم تكن قد سيطرت إلا على المنطقتين الوسطى والجنوبية من مجموعة الأراضي التي تتألف منها الآن الجمهورية الإيطالية، وأن منطقتين آخرين من تلك الجمهورية كانتا في أيدي أجنبية على الرغم من أنهما في نظر كل إيطالي معاصر جزء لا يتجزأ من بلاده. هاتان المنطقتان هما سهل البو (Padus) الغريني الفسيح وجزيرة صقلية (Sicilia)، وكلاهما يقع من الناحية الاستراتيجية على طرفي الأملاك الرومانية الشمالي والجنوبي على التوالي. فالدولة التي تسيطر على وسط إيطاليا يتحتم عليها لكي تؤمن الغزو أن تسيطر أيضاً على هاتين المنطقتين كما ثبت من سلسلة طويلة من الحروب بدأت بالحررين اللتين سنستعرضهما بعد لحظة. كان سهل البو الكبير الذي يمتد من جبال الألب إلى جبال الأبينين المطلة على خليج جنوا، ويعتبر أخصب الأرضي الإيطالية كلها، واقعاً تحت سيطرة قبائل من الغال المحبين للقتال استقرت هناك قبل انحدار فريق منها إلى الجنوب واستيلائه على روما نفسها على النحو الذي شرحناه آنفًا. وقد فطنت روما إلى احتمال تهديد الغال لها مرة أخرى وتحققت مخاوفها فعلاً في هذه الحرب. وأما صقلية فكانت مثار نزاع مستمر بين السكان الأغريق الذين شيدوا مدنًا كثيرة في موقع ملائمة على ساحل الجزيرة منذ زمن سحيق، وبين تجار قرطاجة المدينة الفينيقية الأصل التي تقع مواجهة صقلية على الساحل الأفريقي. وكانت صقلية غنية بمالاوي وغنية أيضاً كسهل البو بالقمح والزيتون والكرم. وقد تشبت الأغريق بممتلكاتهم فيها حتى سيطروا فترة من الزمن على كل الجزيرة تقريباً بفضل مساعدة بيروس الأخيرة،

ولكنهم تخلوا بحماقة عن بيروس في اللحظة الحرجية، فاسترد القرطاجيون الجزيرة كلها ما عدا سيراكيبوز (Syracusae)، المسمى «بسراقوسة» وهي مملكة هيرون (Hieron) التي امتدت على طول الساحل الشرقي في جنوب جبل آيتنا. وأخذت الأساطيل القرطاجية تطوف حول الجزيرة، وكثيراً ما شوهدت من سواحل إيطاليا ذاتها. الواقع أن قرطاجة كانت سيدة كل الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

وكانت قرطاجة (Carthago) في الأصل مستعمرة أُسستها في أواخر القرن التاسع ق.م. مدينة صور الكنعانية، أحدى مدن الشعب البحري المعروف في التاريخ باسم الفينيقيين (Punici) والذين دفعهم بنو إسرائيل أمامهم نحو الجنوب إلى ساحل فلسطين دون أن يخضعون لهم. وقد نبغ الفينيقيون في التجارة وساعد موقع قرطاجة الممتاز - وهو قريب من تونس الحديثة - والمنطقة الغنية بالقمح وراءها، ساعد أمراءها التجار ورجال حكومتها الأرستقراطية على أن يقيموا بالتدريج شبه إمبراطورية تستند إلى عدة مراكز تجارية ممتدة لا على طول الساحل الأفريقي وحده بل على ساحل سardinia وجنوب إسبانيا وشرقها وساحل صقلية كما رأينا. وكان على قرطاجة لكي تحمى هذه الإمبراطورية أن تحافظ بأساطيل ضخمة وأحواض كبيرة للسفن في مينائها. ولكن لما كان معظم سكانها الفينيقيين يشتغلون بالتجارة، فقد اعتمدت في تعبئته أساطيلها وجيوشها على الأهالي الأفريقيين الذين أخضعتهم أو على المرتزقة الذين استأجرتهم من بين الشعوب الأخرى المتصلة بها. ومع أن ذلك كان نقطة ضعف في جهازها الحربي، فإنها كانت أقوى دولة في البحار الغربية. وكانت على أي شعب آخر يطمع في السيطرة على هذه المنطقة أن يسوى حسابه معها. وكانت قرطاجة حتى ذلك الحين على علاقات ودية مع روما. ولدينا نصوص ثلاث معاهدات بين الدولتين تظهر في الأخيرة منها بوادر عدم الثقة بينهما⁽²⁾. فلم يكن في وسع شعب يحكم في

إيطاليا أن يسمح بوجود منافس له في صقلية يسيطر في نفس الوقت على البحر سيطرة تامة.

أسباب قيام الحرب:

قد حدث الاصطدام في عام 264 ق.م. نتيجة مباشرة لتقدير خاطئ ونية سيئة من جانب الرومان. وما كنا بحاجة إلى الخوض في ذلك لولا أنه يلقى ضوءاً على صفة في أخلاق الرومان أخذت تزداد وضوحاً بازدياد توسيع روما في علاقاتها السياسية مع الدول الأجنبية. ذلك أن نزعة النظام والطاعة في الداخل لم تولد في نفوس الرومان روح العدالة والشرف عند تعاملهم مع الأجانب لأن نظرتهم العملية إلى الحياة، وهي نظرة لا تتضمن تثقيف العقل أو تهذيب الشعوب، لم تساعد على تنمية السلوك النبيل إلا مع بني جلدتهم، وليس في معنى كلمة (Virtus)، التي تعبّر عن واجبات المواطن العملية، ما يوحي بشرف التعامل خارج دائرة المواطنين، فالمثل العليا تحتاج إلى شيء من الخيال لتجد لها مكاناً في الحياة العامة. وكان الطابع الغالب على الدبلوماسية الرومانية هو «الالتواء»، وستلمس دائماً روح الشدة: التي كثيراً ما تبلغ حد القسوة، في سلوك الرومان ازاء العدو المغلوب.

اضطربت الأحوال السياسية فجأة في جزيرة صقلية، فقد التحق بجيشه سيراكيوز جماعة من المرتزقة يعرفون باسم المامرتيني (Mamertini) أصلهم من كمبانيا ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عن سيراكيوز وهاجموا مدينة مسينا، (في الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة صقلية) واستولوا عليها عام 284 ق.م. واستأنفوا أعمال السلب والنهب وأصبحوا خطراً يهدد سلامة سيراكيوز التي تولى حكمها الملك الشاب هيرون في عام 265 ق.م فحاصر مسينا حتى أوشكت أن تسقط في يده. واستبد اليأس بالمامرتيني فاستنجدوا في أول الأمر بقائد الأسطول القرطاجي

المرابط في المياه الصقلية وتمكن من إنزال قوة من جنوده في مسينا لأن قرطاجة كانت تنظر بعين الحسد إلى أي توسيع تقوم به سيراكيوس في صقلية، ولكن برغم المساعدة التي تلقاها المامرتيني من قرطاجة فلم يكن لديهم أية رغبة في أن يربطوا مصيرهم بقرطاجة أو يصبحوا خاضعين لها، وأرسلوا إلى روما وفداً يطلب دخولهم في زمرة حلفائها. وأدرك السناتو من ناحية أن الاستجابة إلى هذا المطلب قد يؤدي إلى الاحتراك بقرطاجة، وأدرك من ناحية أخرى أن احتلال قرطاجة لمسينا يتبع لها السيطرة على مضيق مسينا ويجعلها خطراً يهدد جنوب إيطاليا والسفن الرومانية والإيطالية المارة بالمضيق فوتد العزم على أن يحول بينها وبين تحقيق ذلك.

على أن أعضاء السناتو المحافظين كانوا يخشون أن تؤدي الحرب مع قرطاجة إلى ظهور بعض الكفائيات الممتازة بين العامة فيرشح أصحابها أنفسهم للمناصب العليا التي تفتح لهم باب الدخول في السناتو وهكذا يزيد عدد أعضاء العامة في المجلس ولعل السبب نفسه جعل زعماء العامة يجدون سياسة التدخل في شؤون صقلية مهما كانت العواقب. لهذا كله تردد السناتو في اتخاذ قرار نهائي وأحال الأمر إلى الجمعية المئوية فيما يرجح. وبرغم أن الشعب كان لا يزال مجاهداً من اثر الحروب الماضية ولم يكن مت候مساً للاشتباك في صراع جديد، إلا أن زعماءه أقنعواه بعقد محالفه مع المامرتيني المرتزقة بحججة استخدام هؤلاء كخط دفاع أول ضد أي هجوم على جنوب إيطاليا في المستقبل - ولعل الشعب الذي كان أقصر نظراً من السناتو وأكثر ثقة بنفسه لما أحرزه من انتصارات في إيطاليا، لم يقدر جسامته الأخطار أو الصعوبات التي قد تنجم عن الاصطدام بقرطاجة، فقد كلف هذا القرار الذي ينطوي على سوء النية وسوء السياسة ثمناً كلف الرومان غالياً فخسروا حليفاً نافعاً واشتبكوا مع قرطاجة في حروب استغرقت الأولى منها ثلاثة وعشرين عاماً دون انقطاع.

حشدت روما جيشاً مؤلفاً من فرقتين لنجد ميسينا فاقتصرت طلائع هذا الجيش ميناء المدينة برغم مراقبة سفن قرطاجة في مضيق ميسينا، واستطاع المايرتيني أن يرغموا الحامية القرطاجية على الجلاء عن ميسينا، مما أثار غضب قرطاجة التي عقدت النيمة على استرداد المدينة عندما تناهى لها الفرصة، وأرسلت جيشاً إلى صقلية عهدت إليه تحقيق هذه المهمة. وسرعان ما انحاز هيرون، ملك سيراكيوز، إلى قرطاجة وعقد معها محالفه بقصد التعاون على محاصرة ميسينا. لكن القوات الرئيسية للجيش الروماني تمكنت من عبور البحر من رجب يوم إلى ميسينا وأوقعت الهزيمة بعد مفاوضات قصيرة غير مجده بغيرون ملك سيراكيوز، وبعدئذ بالقرطاجيين أيضاً. وهكذا أنقذت ميسينا، لكن روما وجدت نفسها في حرب مع قرطاجة وسيراكيوز (سراقوصة).

مقدمات الحرب (263 - 256):

في عام 263، أرسلت روما إلى صقلية جيشاً كبيراً يضم 40000 من المواطنين واللحفاء لمتابعة الحرب ضد هيرون، وقد ذعر الملك من الانتصارات الأولية للرومان الذين منحوه فرصة ليعقد معهم الصلح بشرط أن يدفع لهم تعويضاً حربياً قدره 100 تالنت فضية، فنقض اتفاقه مع قرطاجة وعقد محالفه مع الرومان لمدة خمسة عشر عاماً. وبفضل مساعداته ضرب الرومان الحصار على أجريجنتوم *Agrigentum*، وهي مدينة إغريقية⁽³⁾. حصينة واقعة على الساحل الجنوبي للجزيرة كانت قد انحازت إلى قرطاجة قبلت أن تحتلها حامية قرطاجية. ولما سقطت هذه المدينة في يد الرومان عام 262 ق.م. وطدوا العزم على طرد القرطاجيين نهائياً من صقلية.

ولكن الرومان أدركوا أن انتصاراتهم لا قيمة لها طالما أن قرطاجة تتمتع بالسيادة في البحر وتهدد بأسطولها سواحل إيطاليا نفسها. ولهذا قرروا بناء أسطول

ضخم يستطيعون بواسطته القضاء على سيادة قرطاجة البحرية والمحافظة على سواحل ايطاليا، ولم يكن لهم عند نشوب هذه الحرب أسطول: وهنا ظهرت مزايا الاتحاد الايطالي الذي مكن روما من التغلب على هذه المشكلة الكبيرة، فأمدوها الحلفاء بماللابحين وبناء السفن الاغريق والاتروسكيين فتمكنت روما من بناء أسطول يتالف من 130 سفينة من النوع المسمى (Quinqueremes)⁽⁴⁾. وكان بكل سفينة 120 مقاتلاً و 300 مجذف، إلى جانب أسطول الحلفاء. وقد استفادت روما من سفينة قرطاجية جنحت بالساحل الايطالي وووقيعت في يدها فاقتربت طرازها عند بناء أسطولها الكبير.

الحرب البونية الأولى (264 - 241 ق.م)

ولا يتسع المجال لسرد تفاصيل هذه الحرب المضنية وحسبنا أن نقول أن الحرب البونية الأولى كانت بداهة حربا بحرية بوجه عام. ولم يكن الرومان قد بنوا عند نشوبها أسطولاً قوياً. لكنهم استغلوا حلفاءهم في الاتحاد الايطالي لتذليل هذه الصعوبة بأن استعنوا بماللابحين وبنائي السفن الاغريق والاتروسكيين. وحدث أن ارتطمت بالساحل الايطالي سفينة حربية قرطاجية، فاتخذها الرومان نموذجاً بنوا على نسقها أسطولاً ضخماً سرعان ما نزل إلى البحر. ومما يشير الدهشة أن القواد الرومان استطاعوا بواسطته أن يطهروا البحار الايطالية والصقلية من العدو في غضون سنوات قليلة إذ انتصروا بقيادة القنصل دوبليوس في معركة بحرية عند ميلائي Mylae (256)، وفي معركة بحرية كبيرة أخرى بقيادة رجولوس عند اكتنوموس Ecnomus (256). واستطاعوا أن ينقلوا أيضاً أحد الجيوش عبر البحر لغزو قرطاجة في عقر دارها (256). وقد تمت هذه الانتصارات البحرية بفضل ابتكار حيلة آلية (عبارة عن خطافات corvi) من شأنها أن تشن حركة ملاحي العدو وتسهل نزول الجنود الرومان على ظهر سفنه لمقاتلته بالسلاح

الأبيض، كما جدد الرومان خلال الدور الأول من هذه الحرب محالفتهم مع هيرون، وفتحوا كل صقلية ما عدا مدينة ليليبيايم (Lelybaeum) الحصينة (وهي مرسala الحالية).

غير أن السناتو الروماني ارتكب حماقة أضاعت جميع هذه المكاسب. وكأن عبور البحر ودخول ميدان حرب جديد قد أفقد أعضاء هذا المجلس ما عرف عنهم من تبصر وترو وحكمة - تلك الصفات التي أحرزوا بها في الماضي زعامة إيطاليا. فقد حدث أن وصل إلى شمال إفريقيا جيشان تحت قيادة القنصلين مانليوس ورجولوس اللذين استطاعا أن يضيقا الخناق على قرطاجة حتى طلبت الصلح. لكن السناتو عرض عليها شروطاً قاسية يستحيل قبولها، واستدعي في الوقت نفسه أحد القنصلين مع جيشه إلى إيطاليا. وعندئذ انبعثت الروح الفينيقية القديمة في قلوب القرطاجيين فاستمатаوا في الدفاع عن الوطن، بعد أن أعاد تنظيم جيشهم أغريقي مرتزق يدعى أكسانثيبيوس (Xanthippus). ولم ينقض وقت طويل حتى كان الجيش الروماني المتخلف في إفريقيا قد أبيد عن آخره، ووقع قائده القنصل رجولوس (M. Atilius Regulus) أسيراً في يد القرطاجيين (255). وقد أصبح هذا الرجل محوراً لقصة من أشهر القصص الرومانية وأنشودة من أجمل أناشيد الشاعر هوراتيوس⁽⁵⁾. فقد روى أنه أعيد إلى روما على رأس وفد من بني قومه (عام 249؟) بعد أن وعد بالعودة إذا هو أخفق في حمل السناتو على قبول شروط القرطاجيين. فلما أخفق في مهمته - وكان هو الذي أقنع السناتو برفض الشرط - عاد كأسير إلى قرطاجة حيث قتل شر قتله. وينكر كثير من النقاد هذه القصة باعتبارها أسطورة دون أن يسوقوا أسباباً وجيهة. ومع هذا فليس من المستبعد أن تكون القصة صحيحة في جملتها. ومن المؤكد أنها استولت على لب الرومان. وهي تنهض دليلاً على شعور الرومان العميق بما للقسم من قوة ملزمة حتى لو كان هذا القسم للأعداء، لأن رجولوس كان قد أقسم بشرفه أن

القضاء على سيادة قرطاجة البحريّة:

وانقضت سنوات عديدة بذلت روما خلالها جهوداً هائلة قبل أن تفيق من هذه الهزيمة، ومن كارثة تدمير أساطيلها بفعل العواصف التي هبت من سوء الحظ عقب الهزيمة مباشرة (253 - 254) مما أتاح لقرطاجة فرصة السيادة على البحر مرة أخرى. كما وجدت قرطاجة قائداً نابغاً في شخص همليكار برقة (Hamilcar Barca) الذي كان يحقد على روما حقداً دفيناً زاده اشتغالاً رجحان كفتها بالتدرّيج، مما أثار في قومه روح موافصلة القتال في البحر (247) وأثار في قواته روح المقاومة المستميتة في قلعة عند جبل أريكس Eryx (244 - 241)، وهي قلعة منيعة تقع في شمال غرب صقلية على الجبل المعروف الآن بجبل سان جولياني المطل على دريبانا (Drepana) وهي «تراباني» الحديثة. وقد أنهك القتال الفريقين وكبدhem خسائر فادحة.

لكن روما صمدت مدة أطول واستطاعت بفضل تبرعات المواطنين أن تجهز مائتي سفينة جديدة ضربت بها الحصار على المدن الحصينة في غرب صقلية، التي كانت لا تزال في يد القرطاجيين مثل دريبانا وليليبيا يوم. وأخيراً دمر القنصل الروماني لوتابيوس كاتولوس أسطولاً قرطاجياً كبيراً عام 242 عند جزر أيجاتيس (Aegates) كان في طريقه إلى صقلية لنجدية القوات المحاصرة بالجزيرة وعندئذ قبل همليكار المفاوضة لعقد الصلح في 241. ونصت شروط الصلح على أن تتنازل قرطاجة لروما عن صقلية والجزر الصغيرة المتاخمة لها، وأن تدفع تعويضات حربية قدرها 3200 تالنت تقسّط على عشر سنوات⁽⁶⁾.

وبعد ذلك بفترة قصيرة انتهت روما فرصة حرب مريضة بين قرطاجة وجنودها المرتزقة فاستولت بنفس سياسة «الالتواه» التي أشرنا إليها على سardinia

عام 248. وما احتجت قرطاجة ردت روما عليها برفض التحكيم واعلان الحرب فرضخت قرطاجة، وسلمت لها كورسيكا أيضاً، ودفعت لها تعويضات اضافية قدرها 1200 تالت. ويتبين من ذلك أن السناتو أدرك أهمية هاتين الجزيرتين لأي دولة تريد السيطرة على البحار الغربية. غير أن هذا التصرف الجائر ترتبت عليه عاقبة وخيمة. وكان من الجائز أن يغفر همليكار العظيم لروما إساءاتها لبلده لو لا هذه الإساءة الأخيرة التي أوجبت في صدره حقده عليها وجعلته يغرس بدوره هذا الحقد في صدر ابنه هنبيل (Hannibal) الذي كاد يمحو عدوه محوأً بحقده الموروث. وذهب همليكار إلى إسبانيا في عام 237 لكي ينظم ممتلكات قرطاجة هناك حيث أخذ يتصرف كأنه ملك متوج، ولكي يتخد منها قاعدة لتحركاته العسكرية ضد الرومان في أي حرب مقبلة وقبل أن يغادر قرطاجة ألزم ابنه الصغير هنبيل - الذي رافقه إلى إسبانيا - ألممه بيمن مؤكدة على أن يمتن أعداء وطنه ما دام حيا⁽⁷⁾. وقد قام همليكار بعمل جليل إذ فتح جنوب إسبانيا وشرقها، وحصل على ثروة معدنية وثروة بشريّة، عوضتاه عن ضياع صقلية وسردينيا.

الحرب البونية الثانية (218 - 201 ق.م)

والواقع أن سيطرة روما على البحر بعد انتصارها في الحرب البونية الأولى هي التي فرضت على همليكار خطة غزو إيطاليا من إسبانيا، لأن قرطاجة لم يعد في وسعها أن تغزوها من أفريقيا دون أن تبذل مجهدًا ضخماً لاسترداد تلك السيطرة، وهو ما لم يكن أمراء قرطاجة التجار مستعدين لبذلها. وإذا كان هنبيل قد استطاع فعلاً أن يغزو إيطاليا عن طريق البر، فإن ذلك يعزى إلى عبرية أبيه ونفوذه الشخصي الذي مكنه من بناء مملكة قوية في جنوب إسبانيا عاصمتها قرطاجة الجديدة (Cartagena Nova)، وهي قرطاجنة الحالية (Cartagena). وفي

رأي بعض المؤرخين أن الأب كان أعظم من الابن، ولا مراء في أن البناء الذي اقامه همبلكار في إسبانيا كان عملاً مجيداً على أقل التقديرات، في حين أن مواهب هنريبال المتألقة ضاعت سدى في محاولته تحطيم الصرح الشامخ الذي شيدته روما في إيطاليا. وكانت المحاولة غير مجدية لأن الاتحاد الروماني الوطيد صمد في وجه جميع الهجمات التي شنها عليه أعظم قائد في العالم القديم. ولا ينبغي أن تعمى أبصارنا انتصارات هنريبال الباهرة عن هذه الحقيقة وهي أنه ارتكب خطأين جسيمين: فقد اعتقاد أن الإيطاليين يمقتون روما مقتها لها وأنهم سينضمون إليه لسحقها. وتوقع، إن لم يكن قد اعتقاد فعلاً، أن قرطاجة سترسل له إمدادات كبيرة. ولو صح تقديره في الأمر الأول لقضي على روما قضاء مبرماً، لكن الإيطاليين لم يفتر ولاؤهم أبداً نحو روما التي ربطتهم بها صلات القرابة ورأوا فيها زعيمة طبيعية لهم⁽⁸⁾. ولم ترسل له قرطاجة سوى إمدادات ضئيلة بلغته بعد فوات الفرصة. هكذا نرى في هذه الحرب الضروس مشهدًا غريباً يظهر فيه رجل عبقرى وهو يكافح بمفرده جميع إيطاليا المتحدة بمواردها العسكرية التي بلغت - وفقاً للمؤرخ اليوناني الدقيق بوليبيوس - حوالي 777,000 رجل قادر على حمل السلاح.

ولا مراء في أن هنريبال كان من أعظم القواد الذين عرفهم التاريخ. وقد ظلت خطة العسكرية مثار إعجاب القواد في الأجيال التالية. وكانت قيادته البارعة، واستراتيجيته الجريئة، ومقدراته على كسب ولاء جنوده والمرتزقة، وصلابة أخلاقه، كانت كلها صفات نادرة وبرغم محاولة الرومان الانتقاص من قدره، وتشويه سمعته، واتهامه بالغدر، فقد أصبحت سيرته حتى بين الرومان الذين ظلوا حتى بعد موته يفزعون من ذكر اسمه، أصبحت أشبه ما تكون بالأسطورة أو الملحمية الرائعة. ولا ينبغي أن ننسى أنه أثبت جدارته أيضاً كرجل من رجال الحكم والسياسة، إذ أدى لقرطاجة خدمات جليلة بعد الحرب، فحد

من شوكة الحكم الأوليجركي، وأجرى فيها اصلاحات دستورية، وعالج شؤونها المالية، وشجع التجارة والزراعة فيها.

لكن برغم اعجابنا بسيرة هنيبال، وابهارنا بانتصاراته المتلاحقة، وافتتاننا بشخصيته فإن الرأي المتنز لا بد أن ينتهي إلى أن ما فعله هنيبال كان أقل مما فعله عظماء غيره من أجل خير الإنسانية. ففي خلال الخمسة عشر عاما التي قضتها في إيطاليا أنزل بشبه الجزيرة الإيطالية خسائر فادحة، وزاد قلوب الرومان قساوة في جميع معاملاتهم المقبلة مع الأعداء. وعندما غادر إيطاليا في النهاية لم يكن في استطاعته أن ينقذ بلاده، وقضى سنواته الأخيرة في المنفى لا ينفك يتآمر على العدو الروماني الذي أفلت من يديه. ولم يكن يحركه طوال حياته سوى دافع الكراهة لهذا العدو والرغبة في الانتقام منه. ومن ثم فإنه لم يفرغ أبداً للتفكير فيما قد يكون أجدى من البغض أو للقيام بما هو أنفع للبشر.

وبينما كان هنيبال - الذي آلت إليه القيادة في عام 221 (وهو في سن السادسة والعشرين) بينما كان يعمل على كسب ولاء سكان جنوب إسبانيا وينظم قواته كانت روما منهمكة في بسط سيطرتها على الغال القاطنين بسهل البو (225 - 219) حتى تؤمن حدودها الشمالية مثلاً ففعلت بتأمين صقلية في الجنوب. بيد أنه لم يكن هناك سبيل في شمال إيطاليا إلى كسب ولاء قبائل الغال (البويين والأنسوبريين) الذين كانوا، فوق ميلهم إلى الشعب، يضمرون العداوة للرومان. وقد قاموا أخيراً - بعد مجىء أفواج جديدة منهم عبر الألب - بمحاولة جدية أخرى للزحف على روما وبلغوا مكانا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ولكنهم منعوا بالهزيمة في معركة كبيرة عند «تلامون» في سنة 225 وكانت الجيوش الرومانية ما تزال منهكمة في شق الطرق الموصلة إلى الشمال وفي تأسيس مستعمرتي بلاكتنيا (Placentia) وكريمونا (Cremona) في أراضي الغال وسهل البو عندما أنقض عليها هنيبال من الألب في عام

وكان القائد القرطاجي قد رد على مؤامرات الرومان في إسبانيا بتعجيل القتال، فضرب الحصار في عام 219 على ميناء ساجونتوم (Saguntum)، حلية الرومان، واستولى عليها بعد ثمانية أشهر غير عابء بالانذار الذي وجهته إليه روما عن طريق السفراء لاعتقاده أنها تتلمس الأعذار لطرد القرطاجيين من إسبانيا كلها. وسرعان ما أعلنت روما الحرب على قرطاجة، فعبر هنيبال البرانس (في أبريل عام 218) على رأس جيش قوامه حوالي 40,000 رجل، وبلغ الرون قبل أن يفطن السناتو إلى حقيقة مرماه، وأفلت من جيش يقوده قنصل أرسله السناتو لوقف زحفه. وعندئذ أصدر هذا القنصل وهو سكيبيو (P. Cornelius Scipio) مدفوعاً بسلفيته العسكرية الصادقة، الأمر لجيشه بمواصلة السير إلى إسبانيا حتى يقطع على هنيبال خط مواصلاته مع القاعدة الإسبانية التي أنفق في إعدادها زمناً طويلاً. ولم يسترد هنيبال هذا الخط إلا بعد عشر سنوات مما اضطره إلى تموين جيشه وملء صفوفه من إيطاليا نفسها.

ولا ريب في أن هذا الجيش كان من الناحية العسكرية البحتة من أعظم الجيوش التي عرفها التاريخ. وكان أغلبه يتتألف من مشاة إسبان مدربين خير تدريب يقودهم ضباط قرطاجيون، ويتعاونهم فرسان من أمهر فرسان العالم جندوا من نوميديا (Numidia)، وهي المنطقة الغربية من شمال إفريقيا (الجزائر على وجه التقرير). وكان الجيش القرطاجي أحد هذه الجيوش التي تستطيع أن تذهب إلى أي مكان وتفعل أي شيء باشرارة من قادتها لأن حافزها الوحيد على العمل هو ثقتها التامة فيه. كما كان جيشاً محترفاً وأداة كاملة للحرب وسلاحاً ماضياً للتدمير. ولكنه كانت تعوزه الروح الإنسانية ولا يفهم معنى القيم الحضارية التي تكسب النشاط والحيوية الدائمة. ومن حسن حظ روما أن هذا

الجيش كان عدده عند بلوغه «تورينو» قد هبط إلى حد كبير. ذلك أن طول المسافة، واضطرار هنيبال إلى ترك جانب من القوات في إسبانيا، ومحاولات الرهيبة لعبور الألب حيث تصافرت القبائل الوطنية مع الصخور والثلوج على ارهاقه⁽⁹⁾، هذه العوامل مجتمعة أنقصت عدد الجيش إلى أقل من 30,000 جندي.

معركة تريبيا:

ولم يسترح هنيبال بعد الرحلة الطويلة سوى يوم واحد استأنف بعده الهجوم على أقرب جيش روماني. وكان هذا الجيش يرابط على الضفة الشمالية لنهر البو تحت قيادة سكيبيو الذي عاد إلى إيطاليا من منطقة الرون. وأرغم هنيبال هذا الجيش على الانسحاب إلى مستعمرة بلاكتيا الجديدة حيث انضم إليه جيش القنصل الآخر لونجوس (Ti. Sempronius Longus)، ولكن القائد القرطاجي هزم الجيشين الرومانيين المتضادرين هزيمة ساحقة في ديسمبر عام 218 عند نهر تريبيا (Trebia) الصغير الذي ينحدر من الأبنين إلى تلك المستعمرة المعروفة اليوم باسم مدينة بياشنزا. وسرعان ما قوضت هذه الهزيمة النفوذ الروماني في سهل البو، فشرع القائد الظافر في الحال يعقد المحالفات مع قبائل الغال، بينما كان جيشه يستجم من وعثاء الطريق وكانت الجهد تبذل لسد الثغرات في صفوف قواته المرهقة. ولكنه لم يتلق مددات كبيرة من الغال الذين لم يجدوا باعتبارهم شعباً متقلب الأهواء، من الأسباب القوية ما يدعوهם إلى الترحيب بالفاتح بعد أن دخل أراضيهم. ولعل ذلك كان من حسن حظ هنيبال لأنه لو زحف على إيطاليا بوصفه قائداً لجيش من الغال لقوى بذلك روح المقاومة بين جميع مدن الاتحاد الإيطالي، ذلك الاتحاد الذي وطدت روما دعائمه، ولم تكن لدى القائد القرطاجي سوى فكرة مشوهة عن أسباب تضامن أعضائه.

وفي ربيع عام 217 عبر هنيبال الأبينين واجتاز المنطقة المتاخمة لنهر الأرنو الأدنى، وهي منطقة مليئة بالمستنقعات وموبأة بالملاريا، حتى قيل أنه فقد احدى عينيه بعد رمد أصابه - اجتازها مللاقة القنصل جايوس فلامينيوس (Flaminius)⁽¹⁰⁾ الذي أرسل مع جيش ضخم ليسد الطريق المؤدية إلى روما في وجه الغزاة. واستطاع هنيبال أن يروغ منه ثم أخفى جيشه وسط التلال والغابات الواقعة على الشاطئ الشمالي لبحيرة تراسيمينوس (Trasimenus) في إقليم أتروريا، والتي تجري السكة الحديدية الآن على ضفتها الغربية في طريقها من فلورنسه إلى روما. وهناك كمن هنيبال في مخبئه متربقاً فريسته. وفي صباح يوم كثيف الضباب من عام 217 وقع فلامينيוס في الشرك المنصوب له فأبيد جيشه عن آخره وخر قائده صريعاً. ولم يعد ثمة ما يعوق الفاتح عن الزحف إلى روما مباشرةً إذا شاء. لكن هنيبال لم يكن قد دخل حصار روما في خطته ولذلك لم يحضر معه معدات للحصار ولم يستطع في أي وقت أثناء الحرب أن يحصل عليها من قرطاجة أو أن يجهزها في إيطاليا. وكان هدفه الحقيقي هو استعماله الإيطاليين إلى جانبه وعزل روما وتحرير إيطاليا - حسب زعمه - من السيطرة الرومانية. ولهذا تحول عن روما وسار متمهلاً نحو الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي لوسيط إيطاليا متوجهًا صوب حقول القمح في إقليم أبوليا الذي استخدمه منذ ذلك الحين قاعدة رئيسية لعملياته العسكرية. وأصبح في وسعه أن يبلغ من ذلك المكان مينائي تارنتوم وكروتون الكبيرين، وأن يتصل مرة أخرى بقرطاجة، وربما أيضاً بدولة أخرى كان يأمل في أن يتلقى منها النجدة، وهي مقدونيا التي ارتقى عرشها فيليب الخامس في عام 221. لكن هنيبال أدرك لأول مرة فيما يبدو أثناء زحفه نحو الجنوب أن إيطاليا مزدحمة بالمستعمرات الرومانية واللاتينية، وأن

كلا منها كانت بمثابة حصن منيع مزود بالمئونة متأهباً لمقاومته، وتکاد تكون صورة مصغرة من روما تعمل على بث معاني الفخر والاعتزاز بالجنسية الرومانية بين الإيطاليين، وإحياء روح الوحدة الإيطالية تحت زعامة روما. وقد حاول أن يستولي على واحدة أو اثنتين من هذه المستعمرات ولكن محاولته باءت بالفشل. وعندئذ بدأ يدرك أن الحقد الدفين في قلب شخص واحد لا يمكن أن يكون نداً على مر الزمن للقوة الكامنة في شعب عملٍ منظم.

معركة كنّاي:

وكانت الفرصة الوحيدة أمامه هي أن يكسب معركة أخرى كبيرة حتى يرعب جنوب إيطاليا ويؤمن قaudته تماماً وينشر بالتدرج بذور السخط على روما في الشمال، وهو ما عقد أمله عليه. لكن هذه الفرصة لم تسنح له خلال عام 217. وكان السناتو الذي احتفظ باتزانه ورزانته قد طالب قنصلي تلك السنة بالتنحي وتعيين دكتاتور متزن رزين. وكان هذا الدكتاتور، وهو فابيوس مكسيموس (Fabius Maximus Q)، الذي لقب بالمرجع أو المتوازي (Cunctator)⁽¹¹⁾، يعرف أن جنوده من المواطنين الرومان، بما عهد فيهم من توان وبطء، ليسوا أبداً لجيشه محترف سريع الحركة ماهر القيادة. ولذلك ظل يرفض أن ينال العدو أو يلتاح معه في معركة فاصلة. وحتى عندما شق هنيبال طريقه شمالاً إلى سهل كمبانيا الخصيب وأخذ يستميل مدينة كابوا (Capua) الغنية إلى جانبه، لم يشتبك فابيوس معه، وإنما أخذ يتبع خطواته وأوشك مرة أن يوقعه في كمين، ولكن هنيبال أفلت منه بحيلة بارعة. وما ضاق الرومان ذرعاً بسياسة فابيوس ضربوا بجميع السوابق عرض الحائط ونصبوا مينوكوس (Minucius) - رئيس الفرسان Magister equitum⁽¹²⁾ - نصبوه دكتاتوراً ثانياً ليبادر إلى مهاجمة هنيبال. وعندما خاطر واشتباك مع القائد القرطاجي مني بالهزيمة ولم ينقد جيشه

سوى مبادرة فابيوس إلى نجده.

وفي العام التالي (216 ق.م) أرسل السناتو القنصلين الجديدين تيرينتيوس فارو (C.Terentius Varro) وأيميليوس باولوس (L.Aemilius Paullus) على رأس جيش لا يقل تعداده من 100,000 رجل مواجهة العدو في جنوب إيطاليا، حيث استطاع هنيبال أن يستدرجهم إلى القتال - على الرغم من عزوف أحدهما عن الالتحام - وذلك بأن استولى على مستودع هام للمئونة في بلدة كنائي (Cannae) التي تقع على مقربة من البحر في سهل أبوليا. ومع ضآلة عدد جيشه، فقد أفلح بخططه العسكرية المحكمة كل الأحكام أن يوقع الفرق الرومانية المتراءة في شرك وأن يستخدم فرسانه النوميديين سريعي الحركة للأطباقي عليها من الخلف ليسدوا عليها طريق الفرار. وتحولت المعركة إلى مجزرة، هلك فيها على ما يقال 80,000 جندي روماني⁽¹³⁾. لقد أُبيد في هذه المعركة أضخم جيش أنفذته روما إلى ميدان القتال على بكرة أبيه⁽¹⁴⁾، وبذا كأنها لن تستطيع الافلات من قبضة عدوها اللدود.

ولنتوقف برهة حيث بلغت انتصارات هنيبال ذروتها لنرى كيف تلقى السناتو نباً أفحح كارثة نزلت برومما. والحق أن الصفات الرائعة في أخلاق الرومان لم تبرز في أي فترة من فترات التاريخ الروماني مثلما بررت إذ ذاك. فقد كان على السناتو أن يعالج لا الأزمة العسكرية القائمة في إيطاليا فحسب، بل مشاكل الجيوش والأساطيل كذلك في كل من إسبانيا وصقلية وسهل البو. وكان عليه أيضاً أن يعالج في الداخل مشكلة في وسعنا أن نسميها مشكلة «الفزع الديني»، إذ بدأ الناس - وبخاصة النساء - يفقدون أعصابهم ويتوهمون أن الآلهة قد تخلت عنهم. وفي امكاننا أن نصدق المؤرخ الذي قال أن كارثة بهذه كفيلة بالقضاء على أي شعب آخر قضاء مبرما. غير أن السناتو المتزن انعقد لبحث الموقف دون أن تخطر له أبداً فكرة الاستسلام، فأقام الاستحكامات حول المدينة، وجنداً فرقاً

جديدة (كان من بينها بعض العبيد)⁽¹⁵⁾، وأصدر قراراً بشكر «فارو» وهو القنصل الباقي على قيد الحياة لأنه «لم يتأس من أمر الجمهورية»، ورفض افتداء الأسرى من قبضة هنيبال أو استقبال السفير الذي أوفده لهذا الغرض، ولم يتحرك للأنباء القائلة بأن سكان جنوب إيطاليا - في بروتيوم ولوكانيا وأبوليا ومعظم سمنيوم - قد انحازوا إلى العدو، وأن بلاداً متفرقة في الشمال قد تخلت عن روما، وأن فيليب المقدوني شرع يفاوض هنيبال تمهيداً لعقد معاهدة معه، وأن سيراكيوز التي مات ملكها هيرون، صديق الرومان، قد انضمت للعدو القرطاجي. كما فتحت كابوا ثانية مدن إيطاليا، أبوابها لهنيبال فتمكن بذلك من نقل قاعدته من أبوليا إلى سهل كمبانيا دون أن يترك عدواً وراء ظهره. ولكن السناتو لم يتأس. وأخذ الدكتاتور يملأ مقاعد المجلس التي خلت بمقتل أصحابها منذ قيام الحرب بأعضاء من خيرة المواطنين وأكثريهم خبرة، واتخذ كل التدابير الممكنة للاحتفاظ «بسلام الآلهة»، حتى أنه أوفد بعثة إلى مركز نبوءة أبوللون في دلفي ببلاد اليونان ليسأل الإله العظيم المشورة والنصائح. وسرعان ما انجلت موجة «الفزع الديني».

وقد اضطرت الحكومة الرومانية إلى اتخاذ إجراءات غير عادية لمواصلة الحرب، فاقترضت في عام 216 من هيرون، ملك سيراكيوز، بعض الأموال للانفاق على جيشها في صقلية، واستنجدت في 215 بوطنية بعض شركات جبائية الضرائب لمدتها بالمعونة لكي تحفظ بجيوشها في إسبانيا، وفرضت في 214 أعباء الزامية (Munera = leitourgiai) على ملاك الأراضي الأثرياء لتجهيز السفن بمالحين، واستخدمت في 209 أموال الاحتياطي المودع في «الخزانة المقدسة» منذ زمن طويل وهو حاصل ضريبة الـ 5% على عتق العبيد، كما ناشدت المواطنين التطوع والتبرع بمال والذخيرة فتبعد كثير من أعضاء السناتو بمقادير كبيرة من الذهب والفضة. وفي العام التالي وزع السناتو كعادته القيادات العسكرية على جيوش

صقلية وسردينيا واسبانيا، وكذلك على الأسطول الذي احتشدت وحداته في أosteia، وهو الميناء الواقع عند مصب التيبر. ولم تمض بضعة أشهر بعد الهزيمة الكبرى حتى كانت الأمور تسير في روما سيراً عادياً.

وكان هزيمة كنأي الساحقة لم يكن لها من أثر سوى أنها قادت الرومان إلى الانتصار - انتصار جميع الصفات المجيدة في أخلاقهم على لحظات الشك واليأس. وأن شعباً يستطيع أن ينهض من مثل تلك الكبوة ويستأنف الاصلاح في هدوء لم يكن من المحتمل أن ينمحي من الوجود حتى على يد قائد كهنيبال. وعلى الرغم من أن خطره بقي مخيماً على الأرضي الإيطالية عدة سنوات، إلا أنه فقد منذ ذلك الحين فرصة النصر النهائي. وقد مرت بروما بعد ذلك لحظتان عصبيتان ولكنها اجتازتهما بسلام. وجاءت الأولى في عام 211. عندما قام الرومان بمحاولة يائسة لانتزاع كابوا من يد هنيبال، فقام هذا القائد بزحف مفاجئ على روما ليُرغم حكومتها على رفع الحصار عن كابوا بعد أن أيقن من عدم وجود قوات رومانية تحول دون بلوغه العاصمة. ورابط عند نهر الأنيل على بعد ثلاثة أميال شمالي المدينة. ثم زحف على رأس فصيلة من الفرسان صوب أبواب المدينة، ولكنه رد على أعقابه، لأن السناتو كان قد حشد من القوات ما يكفي للذود عن أسوارها. وخرب هنيبال الأرضي الرومانية وانسحب ثانية كموجة تتكسر ثم تنحسر عن شاطئ صخري.

معركة ميتاورو:

وأما اللحظة العصبية الأخيرة فجاءت بعد ذلك بأربع سنوات في عام 207. وكان السناتو بثاقب فكره قد عمل منذ مستهل الحرب على توطيد النفوذ الروماني في إسبانيا فلم تبلغ هنيبال أية امدادات من تلك الناحية. وفي النهاية تمكّن أخوه هسدروبال (Hasdrubal) من الافلات من الجيش الروماني المرابط

هناك، واتخذ طريقةً جديداً - وهو طريق ولنجتون في «حرب شبه الجزيرة» - حتى يتتجنب أي مقاومة قد تتعرضه من جانب الرومان في شمال إسبانيا. وأخيراً أصبح الطريق ممهداً أمامه إلى إيطاليا. وكان هذا هو الطريق البري لا الطريق البحري الذي كان ينبغي لحكومة قرطاجة أن تبذل قصارى جهدها لتأمينه ببناء أسطول جديد. واضطر هسドروبال أن يعبر الألب واجتازها متحملاً خسارة أقل مما تحملها أخوه، نظراً لما توافر لديه من معلومات وخبرة. ثم اخترق أراضي الغال وبلغ بلدة أريمينوم (Ariminum) - وهي ريميني الحديثة - التي تقع على البحر الأدرياتيكي في إقليم أومبريا في شمال شرق شبه الجزيرة.

وكان هنيبال يرابط في إقليم أبوليا في الجنوب الشرقي حيث تصدى له أحد القنصلين وهو كلوديوس نيرون (Claudius Nero) الذي عهدت إليه في نفس الوقت مهمة تأديب بعض الإيطاليين المتمردين، وأما القنصل الآخر، وهو ماركوس ليفيوس (M. livius Salinator)، فكان يتربّب وصول الفاتح الجديد على الطريق الساحلي الكبير في جنوب ميناء أريمينوم. وبعث هسدروربال إلى أخيه برسل ليخبره بمقدمه ويقترح عليه خطط التعاون، فوقع الرسل في أيدي القوات الرومانية المنبعثة في كل مكان. وما وصل ذلك إلى علم نيرون، القنصل المرابط في الجنوب اتخذ خطوة - وإن كانت بدون إذن من السناتو - إلا أنها خلدت ذكره. فقد ترك قوة كافية لحجز هنيبال ثم تسلل خفية إلى الشمال مع 7000 من جنوده المختارين دون أن يكتشف أمره أكثر القواد دهاء. وبلغ معسكر ليفيوس، زميله القنصل، في المساء بعد رحلة استغرقت حوالي 200 ميل كان المخلصون من أهالي إيطاليا الوسطى يمدونه خلالها بالمؤونة ويدعون لجيشه بالنصر. ونشبت بعد يومين معركة حاسمة في الحرب على ضفاف المطاوروس (Metaurus)، وهو نهر صغير يجري في إقليم أومبريا من جبال الأبينين إلى البحر الأدرياتيكي جنوبي أريمينوم ببضعة أميال. وانتصر الرومان في هذه المرة انتصاراً تاماً ومزقاً جيش

الغزا شر ممزق. وسقط هسدروبال في الميدان وهو يقاتل حتى الرمق الأخير. وعاد نيرون بسرعة إلى مركزه الأصلي في الجنوب وألقى برأس هسدروبال - كما يروى - في معسكر أخيه. ولأول مرة بعد سنوات طويلة من بدء الحرب المريمة تغمر روما موجة من الفرح الشديد، ولأول مرة في تاريخها تقربياً، ينبعث منها شعور صادق بالشكر للآلهة على النعمة التي لا تقدر بثمن. ولم يكن العرفان بالجميل نحو الآلهة أو للبشر صفة بارزة في أخلاق الرومان، ولكن في تلك اللحظة التي تملّكهم فيها شعور ديني صادق كان أول ما خطر ببالهم هو العرفان بالجميل لأنهم استعادوا «سلام الآلهة» تماماً غير منقوص. وقرر السناتو إقامة عيد شكر رسمي لمدة ثلاثة أيام فاغتنم الرجال والنساء على السواء فرصة العيد وتذفّقوا زرافات على المعابد وبينهم الأمهات مرتديات أزهى الثياب والأطفال برفقتهن.

معركة زاما:

ولنتابع قصة الحرب البوئية الثانية التي أوشكت على النهاية. كان الرجل الذي أفلت منه هسدروبال في إسبانيا هو سكيبيو الأصغر⁽¹⁶⁾، ابن سكيبيو الذي أدى لبلاده خدمات جليلة ثم لقي حتفه بإسبانيا في عام 211. وكان شاباً قديراً فذا يكتنف شخصيته شيء من الغموض، ورومانيا من طراز جديد لا تنقصه ملكة الخيال. ولعل السنوات الطويلة التي قضتها في إسبانيا بمنأى عن المنافسين الذين قد يقفون في وجهه جعلته يعتد بشخصيته وينميها على نحو لم يتح من قبل لغيره من الأشراف المتحفظين أتباع المدرسة القديمة. وكان يثق بنفسه ثقة كبيرة، وذا مقدرة على جعل الآخرين يثقون به. فلما عاد إلى روما بعد معركة المتاوروس انتخب قنصلاً في عام 205 مع أنه كان ما يزال دون السن القانونية، وأُسنّدت إليه قيادة جيش ولاية صقلية حيث انتزع الرومان السيطرة بعد أن تقلب حظهم هناك

أكثر من مرة. واقتصر سكيبيو من فوره غزو أفريقيا حتى يرغم هنريخ على الجلاء عن إيطاليا، فأذن له السناتو بالشروع في الحملة مع أنه لم يكن في وسعه أو من رأيه أن يجاذب بقواته ضخمة.

وعبر سكيبيو البحر إلى أفريقيا في سنة 204. فبادرت الحكومة القرطاجية إلى استدعاء هنريخ من إيطاليا. وامتنع القائد الحزين للأمر على مضض منه. ثم التقى في عام 202 بالقائد الروماني في معركة على مقربة من زاما (Zama) في إقليم نوميديا حيث مني بالهزيمة، لأن القوات المرتزقة غير المدربة على الطاعة والنظام التي أمنته بها حكومته عجزت عن الصمود في وجه الجنود الرومان المحنكين. وعندئذ نصح هنريخ قومه بعقد الصلح وتولى المفاوضات بنفسه، حتى يعملا ما في وسعه لصلاح الضرر الفادح الذي نزل بقرطاجة في الحرب من جراء حقده الشخصي الدفين على روما. وقضت شروط الصلح (في عام 201) أن تسلم قرطاجة أسلوتها، وأن تتنازل عن إسبانيا للمنتصرين، وأن تدفع غرامة حربية 10,000 تالت مقطعة على خمسين عاماً متتابعة، وأن تشرف روما على سياستها الخارجية. ولم تعد قرطاجة في الواقع دولة مستقلة استقلالاً تاماً.

وهكذا أسدل الستار على الحرب البونية الثانية، ذلك الامتحان الرهيب لقوة الاحتمال الرومانية. فلم يحدث أن ابتلي شعب بمثل تلك المحنـة وخرج منها سالماً. والحق أن الرومان لم يتخلوا أبداً عن مبادئ الواجب والنظام خلال تلك الحرب. وكانوا هم واللاتين ومعظم الإيطاليين مستعدين لمواجهة الموت في أي لحظة دفاعاً عن بلادهم. لكن الحرب - وهي وبال دائم - في وسعها إذا طالت أن تزرع بذور الشر المستطير للمستقبل. ولا مناص من أن نعترف آسفين أننا لن نرى بعد اليوم إلا قليلاً من صفات البطولة التي انتصرت روما بفضلها في تلك الحرب الضروس.

- 1 - يعرف هذا الصراع في التاريخ باسم الحروب البونية (Bellum Punicum) والصفة Punicus في اللاتينية معناها «فينيقية» لأن قرطاجة كانت في الأصل مستعمرة أنشأتها مدينة صور الفينيقية على ساحل إفريقيا الشمالي (على مقربة من تونس الحديثة) في أواخر القرن التاسع ق.م. حوالي 814 ق.م وعلى ذلك ففي وسعنا أن نسمى هذه الحروب بالحروب الفينيقية، وتنقسم إلى ثلاثة أدوار وهي:
- (1) الحرب البونية الأولى 264 - 241 ق.م. وانتهت بهزيمة قرطاجة البحرية في جزر آيجاتيس بالقرب من صقلية.
 - (2) الحرب البونية الثانية 218 - 201 ق.م. وانتهت بهزيمة قرطاجة في موقعه زاما بشمال إفريقيا في 202 ق.م.
 - (3) الحرب البونية الثالثة 149 - 146 ق.م. وانتهت بتدمر قرطاجة وتحويلها إلى ولاية رومانية باسم «ولاية إفريقيا» (Provinica Africa).
- 2 - كانت الأولى معاهرة تجارية وعقدت بعد قيام الجمهورية في روما عام 508 ق.م. والثانية في عام 348 ق.م. عندما كانت روما مشتبكة مع اللاتين، وأما الثالثة فكانت في عام 280 ق.م. أثناء صراع روما مع بيروس الاغريقي.
- 3 - المسممة في اليونانية أكراجالاس (Acragas).
- 4 - كان من بين هذه السفن حوالي 100 سفينة من ذات المجاذيف التي يحرك كل واحد منها خمسة ملاحين وكان الملأحون يجلسون في صفين أحدهما على الجانب الأيمن، والآخر على الجانب الأيسر من السفينة.
- .Carmina 3, 5 - 5
- 6 - التالت عملة تساوي حوالي 350 جنيها (استرليني).
- 7 - القصة مشهورة وقد رواها لنا المؤرخ ليفيوس في كتابه العادي والعشرين - الفصل الأول. وقد ولد هنيبال عام 247 ق.م. وكان أكبر ابناء همیلکار.
- 8 - فيما عدا السمنيين في الجنوب الذين انحازوا إلى هنيبال بعد انتصاره في موقعه كنّاي في عام 216 ق.م.
- 9 - لا يعرف حتى الآن على وجه اليقين الممر الذي اجتازه هنيبال عند عبوره الألب، ويقول المؤرخ بوليبيوس أنه ممر «كيني»، ويرى بعض المؤرخين أنه ربما كان ممر «سان برنارد» أو ممر «جينيفر».

- 10 - وهو الزعيم الديمقراطي الكبير الذي كان أول من ناواً السناتو قبل تiberios جراكونس.
- 11 - وقد اشتقت من اسمه عبارة (Fabian Tactic) وهي مصطلح مأثور في فن الحرب ومعناه الخطط العسكرية التي تقوم على التأني وتجنب القتال تجنباً لا يخلو من الحكمة وإرجاء الالتحام مع العدو حتى يرهق ارهاقاً تماماً.
- 12 - راجع 172 هامش 1 فيما تقدم.
- 13 - وان كان العدد 50,000 يبدو أقرب إلى الصحة.
- 14 - ومع هذا فقد استطاعت بضعة آلاف أن تفر وتعود سالمة إلى روما.
- 15 - وكان هذا اجراء نادر الحدوث في العالم اليوناني - الروماني.
- 16 - وهو كورنيليوس سكيبيو الذي لقب «بالافريقي» أي «قاهر أفريقيا» بعد أن هزم هنيبال في معركة زاما بشمال

.P. Cornelius Scipio Africanus أفريقيا

الفصل الحادي عشر

روما والشرق الهليني

200 - 167 ق.م

أهم مصادرنا عن هذه الفترة: بوليبيوس (203 - 120)

ولد في ميجالوبوليس بإقليم أركاديا بالبلوبونيز. ويعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر معلوماتنا عن فترة التوسيع الروماني خلال القرن الثاني (200 - 144). كان أبوه قطباً سياسياً فبدأ بالاشتغال بالسياسة في سن مبكرة أثناء فترة حاسمة من تاريخ بلاده وهي احتدام النزاع بين عصبة أو «حلف آخين» والروماني. ذهب إلى روما كرهينة مع ألف منبني قومه حيث قضى عدة سنوات تعرف فيها على أخلاق الرومان ونظمهم وزعمائهم. سمح لها السلطات الرومانية بالتنقل بين أنحاء إيطاليا. وبعد تدمير كورنث (146) أسهم في تصفية الموقف مع بلاد اليونان. وكتب بوليبيوس تاريخاً عاماً أو عالمياً في 40 كتاباً عالج فيه الفترة الممتدة من 220 - 144. الكتب الخمسة الأولى (1 - 5) كاملة [وفيها يستعرض بيايجاز الحرب البونية الأولى، والأحوال في روما وقرطاجة والشرق خلال الفترة ما بين عام 264 وعام 216]، والكتب من (6 - 40) وصلتنا في شكل شذرات، فضلاً عن مقتطفات منها وردت ضمن مؤلفات ليفيوس وديودور الصقلي وأبيانوس وبلوتارخوس.

أهلته خبرته السياسية والعسكرية لأن يكون مؤرخاً كبيراً وقد رجع

بنفسه إلى السجلات الرسمية، فضلاً عن معرفته بالشخصيات الكبيرة، وإلهامه بالأحداث الجارية. ولقد راشه صعود نجم روما في أفق البحر المتوسط، وتأثر بقوتها وأعجب باستقرار نظمها السياسية، وبالدستور الروماني الذي وصفه بأنه دستور متوازن يجمع بين مختلف العناصر: الملكية أو الحكم الفردي الممثل في القنصلية، والأرستقراطية الممثلة في السناتو، والديمقراطية الممثلة في الجمعيات الشعبية ونقباء العامة. لكنه لم يفطن إلى أن هذا الدستور كان قد بدأ يختل في أيامه نتيجة للفتوحات والتوسع. أعجب بوليبيوس بأخلاق الرومان، وعوا هذا التوسيع إلى صلابة هذه الأخلاق ومتانة الدستور الروماني. لكن بمرور الزمن أحس بوليبيوس بأن تغييرًا طرأ على أخلاق الرومان نتيجة للتتوسيع، والثروة، والفساد فتخلى عن نظريته السابقة وبدأ يعزّز هذا التوسيع إلى قوة خفية هي الحظ أو التوفيق (Tyché)⁽¹⁾. كذلك توجد عدة نقوش معظمها يونانية تستقي منها معلومات عن هذه الفترة.

الحالة السياسية في الشرق في عام 200⁽²⁾:

استطاعت روما في غضون السنوات التي أعقبت معركة زاما (202) أن تفرض سيادتها على الجانب الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط مثلما فعلت في حالة الجانب الغربي منه نتيجة للحربين البوينية الأولى والثانية، أي أن روما بعد أن فرغت من الجانب الغربي ولت وجهها شطر الجانب الشرقي. ولكي نفهم أسباب تدخلها في الشرق، واتساع سلطانها بسرعة في تلك المنطقة ينبغي أن نلقي نظرة على أحوال الممالك الهلينistica الثلاث التي كانت قد قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر الأكبر وهي مصر ومملكة آل سليوكوس (أو سوريا كما يسميها الرومان) ومقدونيا. ولا يفوتنا أن نلم الماما سريعا بأحوال

القوى السياسية الأخرى كمملكة برجامون، وجمهورية رودس، والاتحادات أو الأحلاف في بلاد اليونان.

وأما عن مملكة مصر التي كانت تحكمها أسرة البطالمة المقدونية فكانت تشمل وادي النيل، وبرقة وساحل سوريا وقبرص وبعض المدن في جزر وسواحل بحر ايجه. وكان البطالمة أجانب يحكمون رعايا أغلبهم من المصريين. وكانوا يحتفظون بسيطرتهم عن طريق جيش قوامه من المرتزقة المقدونيين والاغريق، وعن طريق إدارة مركزية قوية جميع مناصبها في يد الاغريق. ولما كان الملك البطلمي قد استولى على مصر بحد السيف، فقد اعتبر نفسه المالك الوحيد للأراضي. وكان الأهالي المصريون - ومعظمهم فلاحون يكسبون قوتهم من زراعة الأرض، يشتغلون كمستأجرين للأراضي الملكية. وقد فرضت عليهم قيود كثيرة والتزامات جعلتهم في وضع لا يختلف كثيراً عن أقنان الأرض. وكان نظام الضرائب والاحتكار معقداً مرهقاً، وبفضله تمكّن البطالمة من تنمية الدخل واقتناء ثروة طائلة تحدث عنها الشعرا وعاشوا عيشة البذخ في عاصمتهم الاسكندرية، وساعدهم ذلك على متابعة سياستهم الاستعمارية.

وبعد عام 267 كانت سياسة البطالمة تهدف إلى توطيد سيادتهم في البحر الابيجي - وهو ملتقي أنظار المالك الهلنستية الثلاث - وجنوب بلاد اليونان، (التي كانت لا تزال قبلة أنظار ملوك العصر الهلنستي بوصفها أمّاً روحية، وموطناً للخبراء والجنود المرتزقة، وأداة للدعائية) وفيديقية الغنية بالأخشاب التي تفتقر إليها مصر. ولتحقيق هذه السياسة اضطر البطالمة إلى بناء أسطول للسيطرة على مياه الجانب الشرقي من البحر المتوسط، غير أن ذلك أدى إلى اصطدامها باستمرار بـمقدونيا ومملكة سليوكوس، إذ كانت احدهما تسعى دائماً إلى طرد البطالمة من البحر الابيجي، والأخرى تعمل على تطهير ساحل سوريا من نفوذهم.

في عام 242 تحطم الأسطول البطلمي على يد مقدونيا فضاعت سيادة

البطالمية البحرية، ولكنهم لم يتنازلوا عن ممتلكاتهم في سوريا والبحر الایجي. وفي عام 217 غزا الملك السليوكي مصر من الشرق فاضطر بطليموس الرابع (فيليوباتور) هو ووزراؤه إلى تجنيد المصريين في الجيش لأول مرة، وانتهت معركة رفح بانتصار البطالمية على العدو بفضل المصريين، وزال الخطر الخارجي، ولكن معركة رفح تعتبر نقطة تحول في تاريخ مصر البطلمية لأن هذا الانتصار زاد من اعتزاز الوطنيين بأنفسهم ودفعهم إلى المطالبة بحقوق وامتيازات كانوا محرومين منها، وانطلقت الحركة القومية فاشتد الاحتكاك بين العنصرين المصري والاغريقي، ونشبت الثورات، الأمر الذي أدى إلى انهاك قوى الأسرة البطلمية واضعاف مركزها، وزادها ضعفاً استحکام النزاع بين أفرادها، وهو نزاع لم تستفد منه سوى روما التي تزايد تدخلها في شؤون مصر الداخلية، وصار البطالمية غير قادرين على حماية ممتلكاتهم في الخارج، أو الدفاع عن مصر نفسها ضد الغزو في المستقبل.

وأما مملكة سليوكوس التي عرفها الرومان باسم «سوريا» فكانت عاصمتها أنطاكية على نهر العاصي (Orontes). وتعتبر أكبر الممالك الهلينستية وأكثرها سكاناً، وتلي مصر في الثروة. كانت في الواقع امبراطورية تمتد من البحر الایجي إلى حدود الهند، وتشمل جنوب آسيا الصغرى وببلاد ما بين النهرين، وفارس، وشمال سوريا. لكن اتساع رقعتها كان عملاً من عوامل ضعفها لتباعد المسافات بين ولاياتها المختلفة، وعدم تجانس الشعوب التي تسكنها. كانت أسرة سليوكوس (Seleucus) كأسرة بطليموس، تحفظ بسيطرتها عن طريق جيش من المرتزقة، وعن طريق المدن الاغريقية التي أسسها الاسكندر الأكبر وخلفاؤه لتكون مراكز اشعاع للحضارة اليونانية. غير أن هذه المدن التي كانت بمثابة الجزر الصغيرة وسط بحر فسيح لم تحدث إلا اثراً طفيفاً ولم تنجح إلا نجاحاً ضئيلاً في صبغ الأهالي بالثقافة الهلينية فظلوا خاضعين للغزاة لا يحفلون بهم أو يناصبونهم

العداء وقد زعزع من قوة مملكة آل سليوكوس الثورات المتكررة في الولايات الشرقية والمنازعات بين افراد الأسرة المالكة.

هذه العوامل أدت إلى تمزيق أوصال الامبراطورية لفترة امتدت حتى عام 220 عندما تحسن الموقف بفضل جهود ملك قدير عالي الهمة وهو انطيوخوس الثالث (Antiochus III) الذي أخمد ثورة حكام أقاليم ميديا وفارس وأسيا الصغرى وقام بعدة حملات موفقة (212 - 204) استرد بها ممتلكاته الآسيوية حتى باكتريا (Bactria) وهي تقابل شمال أفغانستان وجزءاً من تركستان الروسية. وكانت قد ضاعت من يد أسلافه، واكتسبته الانتصارات لقب «الأكبر».

وجدير بالذكر أن البحر الایجي كان موضع نزاع بين البطالمية وآل سليوكوس وكان كل من الفريقين يتطلع إلى بلاد اليونان ويعمل على التودد إليها. على أن النزاع بينهما كان على أشدّه من أجل الساحل الفينيقي أو بالأحرى من أجل ما يعرف «بجوف سوريا» (Goelô Syria). وكان البطالمية - على نحو ما ذكرنا - في حاجة شديدة إلى خشب لبنان لبناء الأسطول، وأدى الصراع على «جوف سوريا» إلى سلسلة من الحروب تعرف «بالحروب السورية» بين الدولتين^(*).

وأما مقدونيا - حيث كانت تحكمها أسرة أنتيغونوس (Antigonus) - فهي أصغر الممالك الهلنستية مساحة وأقلها سكانا وأضلاها موارد. ولكنها كانت أمّة قوية في الداخل، وأكثر تماسكاً من الممالك الأخرى. وقد احتفظت أسرة أنتيغونوس بطبع الملكية التقليدية، وعملت على إحياء الروح القومية بين المقدونيّين وكسب ولائهم، وتمسكت بالنظام والتقاليد العسكرية التي كانت سائدة في أيام فيليب الثاني وابنه الاسكندر الأكبر. وتهيأت ملوكها فرصة تكوين جيش من المقدونيّين فقط الذين لم يفقدوا صفاتهم الحربية، وكان هذا الجيش على صغره جيشاً وطنياً قديراً. وكانت مملكة آل أنتيغونوس تشمل إلى جانب مقدونيا،

ثيساليا وشرق بلاد الاغريق حتى بربخ كورنثة. وقد فشلت محاولات أسرة أنتيغونوس في السيطرة على جنوب بلاد الاغريق بسبب مقاومة الحلفين الآخي والأيتولي اللذين كانوا يتلقيان مساعدات ضخمة من البطالمة. غير أن المنازعات بين الدوليات الاغريقية أدت إلى انحياز الحلف الآخي (عصبة آخيا) إلى جانب مقدونيا. وفي عام 222 تمكنت مقدونيا من توحيد وسط بلاد اليونان والبلبوبيونيز في حلف أو عصبة تحت زعامتها. واستطاع فيليب الخامس، أن يحتفظ بمركز مقدونيا في بلاد الاغريق على الرغم من هجمات آيتوليا وبرجامون ورودس أثناء الحرب المعروفة بالحرب المقدونية الأولى (215 - 206). وكانت بلاد اليونان ذات أهمية خاصة بالنسبة لمقدونيا لوقوعها بالقرب منها مباشرة. ومنذ أن غزا فيليب والاسكندر بلاد اليونان لتؤمن ظهره قبل قيامه بالحملة على بلاد الفرس صار مقدونيا حق التدخل والتسلط، ولذلك عملت على تثبيت اقدامها في تلك البلاد باحتلال ثلاثة مراكز استراتيجية وهي ديميترياس وخالكيس وكورنثة التي اشتهرت باسم «أغلال بلاد اليونان». يلاحظ أيضاً أن محاولة تجميع بلاد اليونان في شكل حلف إنما هو تقليد قديم يرجع إلى أيام فيليب الثاني الذي أنشأ عصبة كورنثة تحت زعامته الشخصية.

* وتقع برجامون (Pergamon) في إقليم ميسيا بوادي نهر كايكوس (Caicus) الخصيب على بعد حوالي 15 ميلاً من الساحل الغربي لآسيا الصغرى. ويبداً تاريخها الحقيقي منذ القرن الثالث عندما حكمتها أسرة أتالوس (Attalus)، وصارت عاصمة مملكة هللينستية تلي مقدونيا ومصر ومملكة آل سليوكوس في الأهمية. كان دستورها على غرار دستور المدن اليونانية (Polis) حتى تحت الحكم الملكي. وقد أخضعت لسيطرتها المناطق المتاخمة لها. وكان قوام جيشها من الاغريق. ويعزى ثراء برجامون إلى مهارة ملوكها في استغلال مواردها الطبيعية التي كانت تتكون من مناجم الفضة، وحقول القمح، والمرايع الفسيحة حيث كانت تربى

الأغنام والماشية مما أدى إلى ازدهار صناعة المنسوجات الصوفية وصناعة الرق الذي كان ينافس البردي، وهي السلعة التي احتكر البطالمة صناعتها في مصر. ولم يُؤسس آل أتالوس مدنًا كثيرة ولكنهم جعلوا من برجمون نفسها مدينة من أعظم المدن اليونانية وأجملها. كانت بمبانيها العامة المشيدة على سفح تل منحدر وتنتهي بالقصر وحصون الأكروبول نموذجاً رائعاً لتنظيم المدن في العصر الهليني. وكان بها مجموعة من مشاهير المثالين، ومكتبة لا تفوقها سوى مكتبة الإسكندرية، وحظي الأدب والفلسفة والفن برعاية ملوكها.

كان أتالوس الأول (269 - 197) هو أول من رفض أن يدفع الجزية للجلاتين، وانتصر عليهم انتصاراً كبيراً حوالي عام 230، مما أكسبه صيتاً في العالم الهليني بوصفه منقذاً للتراث اليوناني من هؤلاء البرابرة. وقد خلد انتصاره باقامة النصب التذكاريية البدية، وبحمل لقب «المنقذ». ولعله حمل بهذه المناسبة لقب «الملك» لأول مرة. كان أتالوس قائداً فذاً وسياسياً بارعاً، استطاع أن يرفع برجمون إلى مصاف الدول الكبرى. وبهجومه المضاد على أنطيوخوس هيراكس (Hierax) الذي تعاون مع الجلاتين، استولى على ممتلكات السليوكيين في آسيا الصغرى ما عدا قيليقيه Cilicia (229 - 228) ولكن خلفاء هيراكس وبخاصة أنطيوخوس الثالث، الملقب بالأكبر، انتزع منه ثانية معظم هذه الفتوحات (216 - 214). ولعل موقع برجمون بين مملكة سليوكيوس من ناحية ومملكة مقدونيا من ناحية أخرى، جعلها تشعر كأنها بين شقي الرحى فعاشت في خوف مستمر من أطماع جارتيها فأخذت تتلمس العون من الخارج، وارتقت في أحضان روما.

وأما رودس (Rhodus) - تلك الجزيرة التي لا تزيد مساحتها عن 420 ميلاً مربعاً وتتاخم ساحل إقليم كاريا بآسيا الصغرى - فقد استعمرها الغريق دوريون منذ القدم وأسسوا فيها ثلاث «دول - مدن» وهي ياليسيوس وليندوس وكاميروس. وقد ترتب على الحرب التي نشب بينها وبين أثينا (411 - 407)

وبعض الظروف الداخلية أن قامت حركة اندماج سياسي بين المدن الثلاث في دولة واحدة لها عاصمة اتحادية جديدة عرفت أيضاً باسم رودس، وان كانت المدن الأصلية الثلاث ظلت محفوظة بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتي المحلي. وكان الحكم في رودس جمهورياً ديمقراطياً في أغلب الأحيان. وكان رخاؤها مستمدأً من التجارة وقد زادت تجارتها نشاطاً رواجاً عقب فتوحات الاسكندر الأكبر التي فتحت أمامها أبواب الاتصال المستمر مع مصر وقبرص وفينيقيا. ولم يأت القرن الثالث حتى كانت رودس أغنى «دول المدن» اليونانية. كذلك مكنتها تقسيم امبراطورية الاسكندر بعد وفاته عام 323 من تثبيت دعائم استقلالها، وانتهاج سياسة خارجية تتفق ومصالحها. وقد أثارت سياستها المستقلة غضب ديميتريوس المقدوني فضرب عليها حصاره الشهير في عام 305 - 304. وخرجت رودس من المحنة أقوى نفوذاً وأكثر ثقة بنفسها، واستطاعت في القرن الثالث أن تحافظ بكيانها دون الخضوع لضغط الدول الهellenistic الكبرى. وكانت رودس كأثينا من قبل مركزاً نشطاً للتبادل التجارى (تجارة الترانسيت) واستثمار رؤوس الأموال، وعدوة للقرصنة تعمل على تطهير البحار منها. وكانت تملك أسطولاً كبيراً على درجة كبيرة من الكفاية، وكان ربابة هذا الأسطول يختارون من بين الأسر العريقة، وأما الملاحون وعمال أحواض السفن فكانوا غالباً من فقراء المواطنين. وقد اشتهرت رودس «بقانونها البحري». وكانت تشارك برجامون مخاوفها من مقدونيا ومملكة آل سليوكوس، وتعتبر مسؤولة مثلها عن التدخل الروماني الأول في شؤون الشرق الهellenisti .(201)

كان نجم بلاد اليونان السياسي قد أفل بعد هزيمة أثينا وطيبة على يد فيليب الثاني، ملك مقدونيا، في معركة غايرونيا (Chaeronea) باقليم بويوتيا عام 338، الذي يعتبر بمثابة الحد الفاصل بين العصر الهليني والعصر الهellenisti. وفرضت مقدونيا نوعاً من الحماية على بلاد اليونان. وتضاءل شأن أثينا على الأقل

من الناحية السياسية (لا من الناحية الثقافية إذ ظلت مركزاً مزدهراً للدراسات الفلسفية) وكذلك شأن اسبرطة وطيبة. ولم تثبت أن ظهرت بدلأً من المدن الحرة قوى سياسية أخرى كان في مقدمتها «الحلف الآخي»، وهو في حقيقته دولة اتحادية (Sympoliteia) أنشئ في عام 280 باتحاد أربع مدن في آخيا Achaea (إلى جنوب خليج كورنث) ثم انضمت إليها المدن الآخية الأخرى واكتسب الحلف قوة وأهمية بدمج مدن غير آخية كانت تقبل فيه كأعضاء على قدم المساواة مع الآخرين حتى أن الدوريين والأركاديين ظهر من بينهم أقطاب وجهوا سياسة الحلف. وتعني الكلمة Sympoliteia في الأصل المشاركة في حقوق المواطنة أو الحياة السياسية وصارت تدل على معنى الدولة الاتحادية (وقد تسمى في الوثائق Ethnos أو Koinon أيضاً). وتتميز بتقسيم السلطة بين حكومة الاتحاد المركزية والحكومة المحلية في المدينة العضو، وازدواج الجنسية (فيما يتعلق بالحقوق المدنية فقط). وعندما قبلت مدينة «سيكيون» عضواً بالحلف بعد طرد طاغيتها عام 251، آلت قيادة الحلف إلى زعيمها أراتوس Aratus (213 - 271) الذي انتهج سياسة معادية لمقدونيا، وألحق الهزيمة بالحلف الآيتولي الذي تحالف مع أنتيغونوس جوناتاس، ملك مقدونيا (241). وعاد أراتوس إلى التحالف مع آيتوليا وكرر هجماته على أثينا وأرجوس (229 - 239) وقد أثار دخول مجالويوليس والمدن الأركادية الأخرى في الحلف عداوة اسبرطة ومهد الطريق لها دانة مقدونيا والتفاهم معها وقد طلب أراتوس نفسه المساعدة من مقدونيا وسمح للآخرين بالانضمام إلى الحلف الهلبييني Symmachia (الذي أنشأه أنتيغونوس دوسون، ملك مقدونيا 224). وقد ظل هذا التضامن قائماً حتى انحازت آخيا إلى جانب روما (198). وأدى هذا التحالف الجديد إلى ادماج كل البلوبونيز تقريباً في الحلف الآخي، لكنه أدى أيضاً إلى الاحتلال بالروماني. وانحل الحلف الآخي بعد تدمير كورنث في 146.

وأما عن الحلف الأيتولي (إلى شمال خليج كورنث) فنقول أن التنظيم القبلي الواهي للأيتوليين تطور في القرن الرابع إلى حلف أو بالأحرى إلى دولة اتحادية (Sympoliteia). وعلى عكس الحلف الآخري لم تخرج زعامة الحلف الأيتولي أبداً من يد الأيتوليين أنفسهم وذلك لأن الدوليات البعيدة عن آيتوليا لم تكن تقبل كأعضاء منتظمين في الحلف وإنما ارتبطت به فقط على أساس تبادل حقوق المواطنة أو ما يسميه اليونان Isopolitoia، وهي كلمة نشأت أصلاً عن إجراء منح الجنسية لمواطني جدد على أساس المساواة مع المواطنين القدامى، أي تعني منح حقوق المواطنة للأفراد أو لمجموعة مواطنى مدينة أخرى، أو تبادل حقوق المواطنة بين مدينتين مع احتفاظ كل منهما بكمال شخصيتها وبقائها تميزة عن الأخرى دون اندماج. وبمقتضى ذلك كان مواطنو مدينة معينة يصبحون مواطنين اعتباريين أو جوازيين بمدينة أخرى، ولا يصبحون مواطنين عاملين أو فعليين إلا بعد توافر شرط الاقامة والتسجيل. وحتى يتم ذلك كانوا يتمتعون بامتيازات في المدينة الأخرى بحق امتلاك الأراضي، والزواج كامل الأهلية، والتجارة مع الاعفاء من الرسوم الجمركية في حالة الاستيراد أو التصدير. وهكذا اقتصر حق المدن البعيدة عن آيتوليا والتي شاءت الانضمام إلى الحلف الأيتولي أو دولته الاتحادية اقتصر على قمة أبنائها بالحقوق المدنية (في مدن الاتحاد)، وحق حماية الاتحاد دون حق الاشتراك في إدارة شؤونه، حتى تثبت الاقامة ويتم التسجيل في احدى مدن الاتحاد العاملة أي المتمتعة بحقوق المواطن الفعلية. وقد اكتسب الحلف الأيتولي قوة كبيرة في آخر القرن الرابع وظل محتفظاً بها حتى في الفترة الأولى من التدخل الروماني. وقد فرض الأيتوليون نوعاً من الحماية على دلفي في القرن الثالث، ولما اتسعت دولتهم الاتحادية آلت إليهم السيطرة على الحلف الأمفكتيوني (الديني). وقد ناصبوا مقدونيا العداء، ولذلك كان من الطبيعي أن يكونوا أول حلفاء لروما داخل بلاد اليونان، وقد ساءت علاقتهم مع روما

بسبب تطرفهم فتعاونوا مع أنطيوخوس الثالث، وكان ذلك بداية انحلال الحلف الآيتولي.

هكذا كانت الأوضاع في الشرق الهلينيستي عند بداية التدخل الروماني. ولنسرد الآن

أسباب هذا التدخل.

في عام 203 مات بطليموس الرابع (فيليوباتور) فتولى عرش مصر طفل كان العوبة في يد حاشية فاسدة. وقد شجع هذا الوضع أنطيوخوس الثالث على تجديد المحاولة لانتزاع ممتلكات مصر في سوريا. وكانت انتصارات الملك السليوي في حملته الآسيوية التي استرد بها ما ضاع على يد أسلافه، قد أثارت الغيرة في قلب فيليب الخامس، ملك Macedonia، فهاجم فجأة بعض مدن على ساحل طراقيا تدخل في نطاق الحلف الآيتولي، وبعض جزر البحر الأيجي، وقام باحتلالها في عام 202. وقد قيل فيما بعد أنه كان هناك اتفاق سري أو توافق بين أنطيوخوس وفيليب على اقتسام دولة البطالمية أو على الأقل اقتسام ممتلكاتهم الموجودة خارج إفريقيا. غير أنها نشك في أن مثل هذا الاتفاق قد تم بين الملكين، لأن مصالحهما كانت متضاربة إلى حد أن قيام هذا الاتفاق يبدو لنا أمراً عسيراً مستبعداً. ولم يأت عام 201 حتى كانت اعتداءات فيليب على جزر البحر الأيجي قد أدت إلى اصطدامه ببرجامون ورودس اللتين استندا إلى روما نظراً لعجزهما عن وقف اعتدائاته. وهذه الخطوة التي اتخذتها ببرجامون ورودس هي التي أدت إلى تدخل روما في شؤون الشرق الهلينيستي وإلى قيام «الحرب المقدونية الثانية»⁽⁴⁾.

الحرب المقدونية الثانية (200 - 196):

لم يكن لروما سياسة شرقية محددة حتى عام 201. وأما اصطدام روما مع دول أخرى كالليريا ومقدونيا فقد نجم عن عدوان هذه الدول عليها أو على حلفائها، ولم ينجم عن سياسة عدوانية مرسومة من جانبها. وكانت طبقة ملاك

الأراضي الأرستقراطية في روما منصرفة عن بلاد الاغريق والشرق الهليني و لم تدخلهما بعد في نطاق مطامعها. وهناك أكثر من قرينة على أن روما كانت لاهية عن شؤون العالم الهليني ولا تكترث بها ولا تخشى أي خطر من جانبه، بدليل شروط الصلح السهلة التي فرضت على فيليب الخامس بعد الحرب المقدونية الأولى، وعدم تلبية السناتو نداء ايتوليا لنجدتها من عدوان فيليب في عام 202، وعدم اهتمامه بشكاوى مصر ضد أنطيوخوس ونواياه السيئة نحوها. غير أن السناتو بدأ يفيق من غفوته ويغير موقفه السلبي من الأحداث الجارية بالعالم الاغريقي، بل بدأت تساوره المخاوف على المصالح الرومانية تحت تأثير ادعاءات أتالوس الأول ورودس بأن فيليب وأنطيوخوس يتآمران سراً على اقتسام ممتلكات مصر. وكانت صورة الصراع القريب مع هنيبال لا تزال ماثلة في أذهان الرومان فساورهم القلق من احتمال غزو إيطاليا مرة ثانية، وارتباوا في أن تكون الحملة التي يقوم بها فيليب في طرقيا والبحر الأيجي ليست سوى مقدمة لغزو إيطاليا نفسها بمساعدة حليفه أنطيوخوس. لذلك قرروا العمل بسرعة للقضاء على فيليب قبل أن يزداد قوه. وتلمسوا ذريعة لأشهار الحرب عليه فاتهموه بالعدوان على مملكة حليفهم أتالوس دون مبرر مع أن أتالوس كان في الحقيقة هو المعتدى، وأن فيليب كان حريصاً على أن لا يتحرش بحلفاء روما في العام الاغريقي. ولم تقنع الجمعية المؤوية بقرار اعلن الحرب الذي أوصى به السناتو، ولم تصادر عليه إلا بعد تردد، وبعد أن أفهمها السناتو أن إيطاليا قد تتعرض لغزو جديد إذا لم يبادر بوقف عدوان فيليب. وكانت روما قد أوفدت سفراء إلى بلاد الاغريق لارهاب فيليب وتشجيع أعدائه هناك، ولم تثبت أن عهدت إليهم بتقديم انذار نهائي رسمي إلى الملك المقدوني الذي كان مشغولاً وقتئذ بحصار «أبيدوس» (Abydos) على الدردنيل. وتضمن الانذار المطالب التالية: الكف عن مهاجمة أي مدينة اغريقية وممتلكات بطليموس الخامس، وقبول مبدأ التحكيم في نزاعه مع برجامون ورودس.

وما رفض فيليب قبول الانذار بدأً الحرب. وعندئذ عهدت روما إلى سفارتها بالاتجاه إلى رودس ثم زيارة أنطيوخوس في سوريا للتوسط لديه من أجل مصر في الظاهر، ولتوكيد حسن نوايا الرومان نحوه في الواقع حتى لا ينصرف عن حملته ضد مصر، وينضم إلى فيليب.

وفي أواخر عام 200 عبر جيش روماني البحر الأدربياني إلى الليريا. وحاول التوغل في قلب مقدونيا ولكنه فشل في تلك السنة والتي بعدها على الرغم من المساعدات التي تلقاها من الحلف الآتيولي وبرجامون ورودس وأثينا، ولم يستطع أن يلحق بفيليب هزيمة فاصلة أو أن يغزو مملكته. لكن في عام 198 تغير الموقف بوصول القنصل فلامينينوس T. Quincvius (Flamininus) الذي استطاع أن يكسب الحلف الآخي إلى جانب الرومان، وأن يرغم فيليب على اخلاء مراكزه في ابيروس، والانسحاب إلى ثيساليا. وجرت مفاوضات لعقد الصلح انتهت بالفشل لأن الرومان أصرروا على جلاء الحاميات المقدونية عن كورنث وحالكيس وديميترراس، وهي القلاع الثلاث التي اشتهرت بأنها «الأغلال التي كان فيليب يكتب بها بلاد اليونان». وفي عام 197 استؤنف القتال في ثيساليا حيث جرت معركة كينوسكفلاء (رأس الكلب) (Cynoscephalae) التي انتصر فيها الرومان انتصاراً ساحقاً. ويعزى النصر إلى المساعدات الكبيرة التي قدمها الحلف الآتيولي، وبخاصة إلى تفوق الفرقة الرومانية (Legio) في تشكيلها العسكري المرن على الفيلق اليونياني الجامد (Phalanx). ولاذ فيليب بالفرار إلى مقدونيا. وكان الحلف الآتيولي يرغب في القضاء على فيليب قضاء تاما، ولكن فلامينينوس أدرك أهمية مقدونيا كسياج منيع يقي حضارة العالم الإغريقي من اغارات القبائل الكلتية الزاحفة من حوض الدانوب الأدنى، فلم يساير الآتيوليين في رغبتهم. وأملى السناتو على فيليب شروط الصلح التي قضت باستقلال بلاد اليونان، وتجريد مقدونيا من ممتلكاتها في بلاد اليونان، والليريا، وجزر البحر الأيجي

ودفعها، تعويضات حربية (صغرى) قدرها 1000 تالت، وتنازلها عن كل السفن الحربية تقريباً. وأذعن فيليب لهذه الشروط (196) بل صار حلifa للرومانيون بعد ذلك.

وفي حفل الألعاب الدورية الذي أقيم ببلدة استموس Isthmus (بالقرب من كورنث) عام 196 أذاع البروقنصل فلامينينوس «تصريحه» الشهير الذي يقضي باستقلال الشعوب التي كانت خاضعة لحكم مقدونيا. وأثار التصريح موجة من الحماس الشديد في معظم المدن اليونانية. وقضى فلامينينوس فترة ليقرب آثار تصريحه ويشرف على تنفيذ ما جاء به، ولينظر في مطالب المدن اليونانية. وعاد فلامينينوس إلى روما في عام 194 تاركاً للاغريق حرية التصرف، ويعيدوا أنه قد تأثر هو وغيره من القواد الرومان بالثقافة اليونانية. غير أن الرومان لم يكونوا مستعدين للتنازل عن ثمرات النصر التي جنوها في الحرب الأخيرة، وكانوا يريدون ضماناً ضد الغزو من الشرق، وبدأوا ينظرون إلى بلاد الاغريق كمنطقة نفوذ رومانية، ويأملون في ألا يتعارض ذلك مع الحرية التي منحوها للاغريق، وقد توقعوا أن يجدوا في بلاد الاغريق التي حرروها من سيطرة مقدونيا حلفاء موالين لهم، وسياجا يقيهم من عدوان فيليب أو أنطيوخوس.

الحرب مع أنطيوخوس والحلف الآيتولي (192 - 189):
أثار نشاط أنطيوخوس ريبة السناتو الروماني، وأصبح ينذر بالاحتلال واندلاع الحرب.
وكان الملك السليوي قد أتم غزو «جوف سوريا» Coelê Syria - وهي حوران وجزء من الأردن - في عام 198 ثم انتهز فرصة انشغال فيليب بالكافح ضد الرومان، وولى وجهه شطر آسيا الصغرى وطراقيا على أمل أن يسترد الممتلكات التي كانت في يد سلفه سليوكوس الأول (نيكاتور). وفي عام 196 عبر أنطيوخوس الدردنيل ليوطد أقدامه في طراقيا. وحاول الرومان اقناعه

بالانسحاب دون جدوى. وبعد حوالي سنتين دخل في مفاوضات مع السناتو على أمل أن يحصل على اعتراف الرومان بحقوقه في طراقيا وبعض المدن في آسيا الصغرى التي رفضت الاعتراف بسيادته اعتماداً على تأييد روما لها. ولم يفلح في ذلك لأن الرومان كانوا يرون في احتلاله لطراقيا خطراً دائماً على مصالحهم في بلاد الاغريق. وفي الحق أن أنطيوخوس كان لا يضم أي نوايا سيئة نحو روما، ولكنه لم يكن مستعداً للتنازل عن ممتلكاته الأوروبية وبدأ له أن يساعد العناصر المناوئة للرومان في بلاد الاغريق هادفاً بذلك إلى الضغط على روما فتسلم بمطالبه في أوروبا. وعلى ذلك فقد استقبل أنطيوخوس سفراء الآيتوليين الذين كانوا يحملون وقئذ لواء المعارضة ضد الرومان في بلاد الاغريق. وكانوا قد حالفوا روما في الحرب المقدونية، وبالغوا في قيمة المساعدات التي قدموها لها، غير أنهم لم يلبيوا أن انقلبوا ضدها وازداد حنقهم عليها لأنها لم توافقهم على تمزيق أوصال مقدونيا والقضاء عليها، ولم تسمح لهم بتوسيع رقعة أراضي دولتهم الاتحادية على حساب جيرانهم. وبالاجمال كان الحلف الآيتولي يطمع في أن يتبوأ المركز الذي كانت مقدونيا تتبؤه بين الاغريق من قبل. وكان يرى في الحرب وسيلة مشروعة لتحقيق أطماعه، وتنمية ثروته دون اعتبار مصالح الغير، وهو شيء لم تقره روما لأنه كان لا يتمشى مع سياستها التي تهدف إلى إقرار السلام في ربوع بلاد اليونان. وكان الآيتوليون قد بدأوا عقب معركة كينوسكفلائي يعملون على تقويض النفوذ الروماني بين الاغريق، فلما تبين لهم موقف أنطيوخوس من روما وما بينهما من جفاء وتوتر في العلاقات أخذوا يحرضونه على تحديها والاصطدام بها.

وفي عام 192 هاجم الآيتوليون بعض المدن المناصرة لرومما واستولوا على قلعة ديميترياس، وعرضوها على أنطيوخوس، ووعدوه - على غير أساس - بالحصول على مساعدة فيليب، ملك مقدونيا. واستناداً إلى هذه الوعود عبر أنطيوخوس البحر من آسيا إلى بلاد الاغريق. وعند وصوله انتخبه الآيتوليون

قائداً عاماً لقواته. كذلك أخذ هنبيال - الذي قد اضطر إلى الفرار من قرطاجة بسبب مؤامرات خصومه واللجوء إلى قصر انطيوخوس أخذ هو الآخر يحرسه على غزو إيطاليا! ولعل أنطيوخوس كان حكيمًا حين رفض أن يعمل بنصيحة القائد القرطاجي نظراً لتعذر تنفيذها، ولكنه أخطأ خطأ جسيماً بتفويته فرصة الانتفاع بموهبة هنبيال العسكرية. ولم يكن هنبيال أعظم قواد عصره فقط، بل كان أيضاً أحد أعداء الرومان.

ولم تقف روما مكتوفة اليدين فأنفذت في عام 191 جيشاً عبر البحر الأدربياني تحت قيادة القنصل جلابريو (A.Acilius Glabrio) الذي نزل ببلاد الاغريق والتحم بقوات أنطيوخوس وأنزل بها الهزيمة في موقعة ثرموبيلاي (Thermopylae). وفر الملك السليوي إلى آسيا وقد خاب أمله في الاغريق، إذ عجز الآيتوليون عن شد أزرهم وتعرضت بلادهم نفسها لخطر الغزو. وتبين له أن وعدهم كانت جوفاء لأن فيليب والحلف الآخي وقفوا إلى جانب الرومان، وانضمت سفن رودس ويومنيس (Eumenes)، ملك برجامون الجديد، إلى الأسطول الروماني.

وعندما لم يستجب أنطيوخوس لشروط الصلح التي وضعها الرومان قرر هؤلاء غزو آسيا الصغرى، وتمكنوا من تدمير أسطوله في معركتين بحريتين بفضل مساعدة رودس وبرجامون، وبالتالي من السيطرة على مياه البحر الایجي، مما سهل لهم مهمة عبور الدردنيل في عام 190 وكان الرأي في روما يميل إلى اسناد قيادة الحرب إلى سكيبيو قاهر أفريقيا الأكبر (P. Cornelius Scipio Africanus) غير أنه لم يكن من الجائز حينئذ إعادة انتخابه قنصلاً ليتولى هذه الحملة، ومن ثم فقد رأى السناتو أن يتخطى هذه العقبة بترشيح أخيه «لوكيوس» قنصلاً ليتولى القيادة على أن يرافقه أخوه بوبليوس كنائب مساعد له (Legatus) ويمارس بذلك الاشراف على الحملة من الناحية الفعلية.

وأحرز الرومان انتصاراً حاسماً في معركة مجنيسيا (Magnesia) في خريف عام 190

وجنح الملك السليوي للسلم ورضخ لشروط الصلح الذي تم في عام 188، وقضت بانسحابه من جميع الأراضي التي تقع شمالي جبل طوروس وغربي بامفيلي، وتسلّم كل فيلة الحرب وكل اسطوله ما عدا عشر سفن، ودفع غرامة حربية تعتبر من أفحى الغرامات التي فرضتها روما على عدو مهزوم، إذ بلغت 15,000 تالنت، على أن تسدّد على 12 قسطاً سنوياً، والكف عن هاجمة حلفاء روما، وتسلّم هنيبال (الذي أتاح له أنطيوخوس فرصة الهرب إلى بروسيا)، آثر القائد ملك بيثينيا، فلما انهزم الأخير على يد الرومان ورأى أن لا مفر من تسليم هنيبال، آثر القائد القرطاجي أن ينتحر بالسم على أن يقع في يد أعدائه، ومات في سنة 182، أي بعد سنة واحدة من موت خصمه سكيبيو افريكانوس ويلاحظ أن روما لم تعامل أنطيوخوس معاملتها لقرطاجة من قبل إذ تركت له حرية الدفاع عن مملكته ضد أي هجوم.

وكان من الطبيعي أن تكافئ روما حليفتها برجامون رودس وتسمح لها توسيع رقعة أملاكها على حساب الملك السليوي. ولا مراء في أن برجامون كانت المستفيدة الأولى من هذه الحرب وأن ملكها «يورنليس» هو الذي أوعز إلى الرومان بضرورة طرد أنطيوخوس من آسيا الصغرى ووزعت روما بينهما الأراضي التي انتزعـت منه هناك، فاستولت رودس على ليكيا وكاريا، واستولت برجامون على بقية الممتلكات السليوكية في آسيا الصغرى، ووضعت يدها على الدردنيل (شبه جزيرة غالاتوبولي)، والمدن اليونانية التي ادعى يورنليس ملكيتها لها من قبل، وتركت المدن الأخرى محتفظة باستقلالها . وشرعت روما في توطيد السلام في ربوع آسيا الصغرى بأن أخذضعت القبائل الكلتية في جلاتيا، وهم أعداء برجامون، وأرغمتهم على دفع غرامة حربية كبيرة. وجدير باللاحظة أن روما لم تحافظ لنفسها بأي أراضٍ في آسيا الصغرى، بل آثرت عملاً بمبدأ . فرق

«تسد». توزيعها بين الدوليات المتنافسة حتى لا تقوى واحدة منها فتتجرأ على تحديها أو مناوشتها في المستقبل.

وجاء دور الآيتوليين الذين جردت روما حملة عليهم في عام 191 سعوا بعدها إلى عقد الصلح وخاصة عندما هاجمهم أيضاً فيليب ملك Макدونيا. وطالبهم الرومان بالاستسلام دون قيد أو شرط. ورفضت الشروط فاستؤنف القتال. ومضى عام دون أن تتخذ روما ضدهم إجراءات حاسمة ثم أنفذت إليهم في العام التالي 189 جيشاً بقيادة القنصل نوبيليوس (Fuvivius) الذي مضى في قتالهم بهمة وشدد الحصار على قلعتهم الحصينة في أمبراكيا. لكن ازاء مقاومة الآيتوليين العنيفة، وواسطة الأثنين بين الطرفين، تنازل الرومان عن طلب الاستسلام غير المشروط، وعقد الصلح الذي نص على تنازل الحلف الآيتولي عن حقه في كل الأرضي التي استولى عليها أعداؤه في الحرب، وعقد محالفه دائمة مع الرومان على غير قدم السماواة مع الالتزام بمساعدة روما ضد جميع أعدائها، وتسلیم قلعة أمبراكيا. وقد نهبت هذه القلعة واحتلت القوات الرومانية جزيرة كفاللينيا (Cephallenia)، وكر القرصنة.

الحرب المقدونية الثالثة (171 - 167):

لقد وطدت المحالفه الأخيرة بين روما والحلف الآيتولي أقدامها في بلاد الاغريق بصفة مستديمة، وكان انتصارها في الحرب على أنطيوخوس معناه أنها تزاول نوعاً من الحماية على العالم الاغريقي. ومع هذا فإن السناتو لم يجد منه أنه يرغب في نقض سياسة غلامينيوس، فبقيت الدوليات الاغريقية صديقة لروما طالما كانت تتمتع باستقلالها السياسي. غير أن هذه العلاقات الودية لم تستمر طويلاً واعتراها فتور أعقبه توتر شديد، مما دفع روما إلى التدخل في شؤون الاغريق والقضاء في النهاية على استقلالهم الظاهري. وكان السبب الجوهرى في

ذلك التغيير هو أن روما كانت تفسر استقلال الاغريق بمعنى حرية التصرف بشرط ألا يتعارض ذلك مع تنظيمات روما ورغباتها بينما كان الاغريق يفسرونها بمعنى تمتع الدوليات المستقلة بالحرية المطلقة. ومن ثم فإنهم كانوا يبغضون أي انتهاك أو مساس بحقوقهم. وازاء هذا التضارب في وجهات النظر، لم يكن هناك مناص من قيام المشاكل ووقوع الاصطدام.

والأسباب الرئيسية التي أدت إلى تغيير سياسة روما هي المتابعة التي أثارها الحلف الآخي، وتجدد أطماع مقدونيا. كان هذا الحلف (أو الدولة الاتحادية) يضم دوليات كثيرة على غير ارادتها فكانت تسعى إلى استرداد استقلالها ، ولكن الحلف كان يقاوم هذه النزعات الانفصالية. وقد ساءت علاقات اسبرطة بالآخرين بسبب سياستهم نحوها في مسألة إعادة المنفيين الاسبرطيين، مما دفعها إلى الاستنجاد برومما. وقد جرح القرار الروماني كبرىاء الاتحاد الآخي دون أن يحسن هذه المشكلة، وأثار تشبت الاتحاد بحقوقه حنق الرمان. وقد ظهر في الاتحاد الآخي حزبان، حزب يناصر سياسة روما ولا يرى غضاضة في الإذعان لأوامرها، وحزب قومي يصر على التمسك بحقه في حرية التصرف. وكانت روما قد عمدة منذ عام 180 إلى تقوية الأحزاب الأرستقراطية في الدوليات الإغريقية لإدراكها بأن هذه الأحزاب أثبتت على الولاء لها وأكثر تمشياً مع سياسة السناتو. وترتب على ذلك أن الأحزاب الديمقراطية بدأت تبحث عن المعونة الأجنبية، فولت وجهها شطر مقدونيا.

وفي ذلك الوقت كانت علاقات فيليب قد بدأت تسوء مع الرومان لأنهم رفضوا مطالبه بضم الأراضي التي فتحها عندما كان يعاونهم ضد أنطيوخوس في الحرب السورية. وكان الرومان يخشون من توسيع مقدونيا ويؤثرون بقاءها ضعيفة حتى لا تصبح خطراً عليهم مرة أخرى. ويتحول فيليب بسبب موقفهم منه إلى عدو لدود، ويكرس جهوده لتقوية جيشه حتى ينawiء سيطرة الرومان

في بلاد الاغريق مرة ثانية. غير أن فيليب توفي في عام 179 تاركاً وراءه جيشاً يتراوح عدده بين 30,000 و 40,000 مقاتل، ورصيداً في الخزانة قدره 6000 تالت. وخلفه على عرش مقدونيا ابنه برسيوس (Pereusos) الذي ورث منه كراهيته للروماني، وسياسته في توثيق العلاقات مع أعداء روما في كافة أنحاء بلاد الاغريق. ولم تخف نوايا برسيوس على السناتو الروماني الذي كان مطلعاً على تدابيره، فبادر إلى افسادها قبل أن تتم وإلى إرغامه على القتال - مثلما أرغم أباه من قبل - قبل أن يستكمل استعداده. وكان يومنيس الثاني ملك برجامون يعمل كأبيه أتالوس على تشويه سمعة ملك مقدونيا والوشية به والإيقاع بينه وبين السناتو الروماني. أوفد إليه السناتو سفارة رومانية لتقديم إليه بعض مطالب كان قبولها معناه القضاء على استقلال بلاده. وكان من الطبيعي أن يرفض برسيوس هذه المطالب. وعادت السفارة إلى روما حيث أعلنت الحرب على مقدونيا في عام 171. ولما تبين لبرسيوس أن الرومان جادون في عزهم، حاول تلافي الخطر بتهيئة خواطرهم واسترضائهم. ولكن دون جدوى، إذ نزلت قوة رومانية في بلاد الاغريق عام 171، واتجهت نحو تساليا. لكن في حملات هذه السنة والتي تلتها لم يستطع القواد الرومان أن يحرزوا أي تقدم. كذلك لم يظهر برسيوس أي مقدرة على استغلال الفرص التي ستحت له، وحال بخله وتقديره دون الحصول على مساعدة قبائل الكلت والدرانين والجيساتي التي تقطن على حدود مملكته. ولم يتلق سوى مساعدات ضئيلة من جمهورية ابيروس الاتحادية، وأحد زعماء الليريا وبعض مدن في اقليم بوبيوتيا. وأخيراً أSENTت قيادة الجيش الروماني إلى رجل قدير، وهو القنصل آيميليوس باولوس (L.Aemilius Paullus) الذي رفع روح الجنود المعنوية وانتصر على برسيوس انتصاراً ساحقاً في معركة بيدنا (Pydna) عام 168. ولاذ الملك المقدوني بالفرار ثم أرغم على تسليم نفسه، ونقل إلى روما حيث عومل معاملة مهينة ومات في الأسر، وانهارت مقدونيا،

وُقُسِّمت أراضيها إلى أربع جمهوريات مستقلة منعت من تبادل حق التعامل (Commereium) والزواج كامل الأهلية (Conubium)، وفرضت عليها جزية سنوية قدرها 100 تالنت. واستولت روما على المناجم والضياع الملكية. وأغلقت مناجم الذهب والفضة لفترة من الزمن.

وكافأت روما أنصارها وعاقبت خصومها، وكان القتل أو النفي جزاء زعماء الأحزاب المعارضة لها في كل مكان (وقد وجدت السلطات الرومانية أسماءهم في أوراق برسيوس التي سقطت في يدها). ومع أن الآخرين لم يبدر منهم شيء يدل على عدم ولائهم للروماني، فقد أمرت السلطات بترحيل 100 زعيم من زعماء آخرين إلى روما بحجج اتاحة الفرصة لهم لكي يدافعوا عن أنفسهم أمام مجلس الشيوخ الروماني، وكان من بينهم المؤرخ الشهير بوليسيوس. وكان الغرض الحقيقي هو الاحتفاظ بهم كرهائن في إيطاليا ضماناً لسلوك الحلف الآخري في المستقبل. وحتى رودس التي كانت قد حاولت التوسط بين روما وبرسيوس لحسن النزاع بالطرق السلمية، أرغمت على التنازل عن ممتلكاتها في آسيا الصغرى، وأصبحت تجارتها بضررية قاسمة عندما جعل الرومان من ديلوس ميناء حرمة. وأما يومنيس ملك برجامون الذي اثار بتصرفاته ارتياح الرومان في ولائه، فقد عاملته روما معاملة مهينة وإن تركته يحتفظ بملكنته سليمة. لكن مصير أبيروس كان أسوأ، إذ نهبت مدنها السبعين، وبيع أهلها البالغ عددهم 50,000 في أسواق الرقيق.

وبالاجمال صارت روما منذ ذلك الحين السيد الحقيقي في الجانب الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط. ولم يعد حلفاؤها وأصدقاؤها يتمتعون إلا بالاستقلال المحلي، ولا يملكون إلا إطاعة أوامرها. وليس أدل على تلك الحال من قصة «دائرة بوبيليوس»، وهي قصة شهيرة. ففي أثناء الحرب المقدونية الثالثة غزا أنطيوخوس الرابع ملك سوريا، الديار المصرية (168)، فلما

انتهت روما من الحرب مع برسيوس، أوفدت إلى مصر سفارة برئاسة بوبيلوس لانياس (C. Popilius Laenas) لكي تطلب إلى الملك السليوي الجلاء عن مصر. والتقت السفارة بالملك عند ضاحية اليوسيس (الحضره أو النزهة) قرب الاسكندرية، حيث سلم بوبيلوس الملك قرار السناتو. وقرأ الملك القرار ثم طلب مهلة ليتدبر الأمر مع مستشاريه. ولكن السفير الروماني رسم بعصاه دائرة على الرمل حول الملك الواقف أمامه، وأمره بالاجابة على رسالة السناتو قبل أن يغادر الدائرة. وذهل الملك من لهجة الأمر العنيفة، ثم رضخ قائلاً بأنه سيعمل ما أمر به السناتو. وعندئذ فقط مد بوبيلوس يده إليه مصافحاً كصديق وحليف للشعب الروماني.

وقد تضخمت ثروة روما بفضل الغنائم التي استولت عليها في الحرب المقدونية إلى حد أنها ألغت منذ عام 167 ضريبة الأموال المفروضة على المواطنين الرومان (Tributum) civium Romanorum). وأتاح ازدياد الدخل الناتج من كافة الامبراطورية للحكومة إعفاء المواطنين الرومان من كل الضرائب المباشرة.

وجدير بالذكر أنه أثناء الحروب ضد مقدونيا وسوريا كان الرومان منهمكين أيضاً في دعم سيطرتهم في شمال إيطاليا وفي إسبانيا. وكان الجانب الأكبر من غالة الواقعة جنوب الألب او غالة القريبة (Gallia Cisalpina) قد ضاع من يد الرومان منذ غزو هنريبال لها، فاستردها الرومان بعد حرب مع قبائل الانسوبريوس (Insubres) والبويين (Boii) بين سنتي 198، 191. ومد الرومان طريق فلامينيوس (Via Flaminia) وهو الطريق العسكري الكبير، الذي شق في عام 220 ليصل بين روما وأريينوم، مدّوه حتى بلاكتنيا (مارا بمستعمرة بونونيا) تحت اسم جديد، وهو طريق ايميليوس (Via Aemilia). وشقوا طريقاً آخر وهو طريق كاسيوس (Via Cassia) في عام 171 ليربط

روما بحوض البومارا بأتروريا. وبنيت حصون جديدة: في مستعمرتي بونونيا (Bononia) وأكيولياً (Aquileia) في عام 183. وبذلك وطدت روما سيادتها على «غالة القرية»، وأصبح الطريق ممهدًا لنشر الثقافة اللاتينية في هذه المنطقة الواقعة بين الأبينين والألب.

وخلال الفترة نفسها أخضعت روما الليجوريين الذين سببت أغاراتهم على حدود الأرضي الرومانية مضائقات شديدة للرومان. واستطاع الرومان تدريجياً بعد عدة حملات استمرت حتى 172 أن يسيطروا سيطرتهم على القبائل الليجورية، وامتدت هذه السيطرة إلى ماسيليا (Massilia) وهي مرسيليا الحالية. وإقرار السلم في هذه المنطقة رحل الرومان حوالي 40,000 ليجوري من مواطنهم إلى أماكن أخرى خالية بجنوب إيطاليا. وأسسوا مستعمرة لاتينية في لوكا (عام 180)، وأخرى خاصة بالمواطنين الرومان في لونا (عام 177). وبين سنتي 176، 181 قامت قبائل سردينيا بثورة قمعها الرومان وبذلك أتموا اخضاع الجزيرة.

وكانت روما قد نظمت في عام 197 الأرضي التي كسبتها من قرطاجة في إسبانيا كولايتين (Provinciae) أحدهما باسم «إسبانيا القرية» (Hispania Citerior) والأخر باسم «إسبانيا البعيدة» (Hispania Ulterior). غير أن القبائل الحليفة والخاضعة لروما، لم تكن قد روضت تماماً على السيادة الرومانية ولم تألف رؤية المحتلين الرومان، فقامت بثورات خطيرة. وقد تم اخماد إحدى هذه الثورات على يد كاتو (M. Porcius Cato) في عام 196، وأخرى على يد أيميليوس باولوس (L. Aemilius Paullus) بين عامي 191، 189، وثالثة على يد سمبرونيوس جراكوس (T. Sempronius Grachus)، وهو أب الأخوين الشهيرين، في سنتي 179، 178. وقام الأخير بتسوية مشكلات كثيرة وأجرى تنظيمات أدت إلى اقرار السلم هناك سنوات طويلة. وقد أسس

الرومان في إسبانيا أولى مستعمرات لهم خارج إيطاليا، وأهمها إيتاليكا (Italica) على مقربة من أشبيلية عام 206، وكارتيا (Carteia) عام 171، وكانت كلتاها - من ناحية الوضع القانوني - مستعمرة لاتينية.

هوامش ومراجع

- 1 - عن بوليبيوس وغيره من المؤرخين الذين كتبوا عن فترة التوسيع الروماني في شرق البحر.
- 2 - التواريخ كلها قبل الميلاد إلا إذا قرنت بما يفيد غير ذلك.
- 3 - أي جنوب سوريا: حوران والبقاع وجذء من الأردن.
- 4 - عن «الحرب الأولى»، أنظر فيما بعد.

الفصل الثاني عشر

السياسة الاستعمارية الجديدة

(167 - 133)

تنقسم هذه الحقبة من علاقات روما الخارجية إلى فترتين، فترة كانت فيها سياسة روما الخارجية ترمي إلى الاحتفاظ بسيطرتها في أرجاء حوض البحر المتوسط بالوسائل الدبلوماسية وقد تجنبت فيها الحرب وضم أراضٍ جديدة لأنها تكبّد خزانة الدولة نفقات طائلة وتخلق مشاكل إدارية صعبة، وفترة أخيرة عدلّت فيها روما عن هذه السياسة وانتهت سياسة عدوانية استعمارية، لم تتردد فيها عن اللجوء إلى القوة لإدماج الأراضي المفتوحة في الإمبراطورية. ويعزى سبب تغيير السياسة الرومانية أولاً إلى نفوذ فريق من أعضاء السناتو كانوا يطمعون في تولي قيادة الجيوش في الخارج، والحصول على شرف الاحتفال بانتصارهم بعد العودة (Triumphus) وغنم أسلاب الحرب، كما يعزى ثانياً إلى فريق من غير طبقة السناتو وهم رجال الأعمال وأرباب المصالح المالية الذين كانوا يطمعون في فتح ميادين جديدة لاستغلالها واستثمار أموالهم فيها. هذا إلى أن روما شعرت بأن بعض الدوليات التي كانت تحت حميّتها لم تعد تكترث بأوامر السناتو، مما يؤدي إلى الانتقاص من هيبيتها، فرأى أن لا علاج لهذه الحال إلا بحرمان حكومات هذه الدول من حرية التصرف. وقد تمّضت هذه الاتجاهات الجديدة التي بدأت

تظهر منذ عام 150 عن (أ) حروب طويلة في إسبانيا (ب) ضم قرطاجة ومقدونيا إلى الممتلكات الرومانية. (ج) فرض السيطرة المباشرة على بلاد الاغريق. (د) الاستيلاء على مملكة برجامون في آسيا الصغرى.

الحروب الأسبانية (154 - 139):

في عام 154 نشبت ثورات في ولايتي إسبانيا القريبة وإسبانيا البعيدة ترتب عليها حروب دامية. وقد طال أمد هذه الحروب بسبب عدم كفاية القواد الرومان وقسواتهم وغدرهم بالاسبان. وقد أرهقت هذه الحروب موارد روما العسكرية، وبلغ من عنف القتال أن قل الاقبال على الخدمة العسكرية في إسبانيا حتى أن السلطات الرومانية لقيت صعوبات جمة في تعبئة القوات اللازمة لحملتي سنة 151 وسنة 144. وكان يحمل راية الجهاد ضد روما القبائل الكلتية - الأيبيرية في إسبانيا القريبة، وقبائل لوسيتانيا في إسبانيا البعيدة. وفي عام 150 قتل البروونصل غالبا (Ser. Servilius Galba) غدرا 8000 رجل من بعض قبائل اللوستياني التي استسلمت له وباعهم في أسواق الرقيق (وقد حكم غالبا في روما بعد عودته وبرئت ساحته). وقد أدت المذبحة إلى استئناف القتال تحت قيادة فيرياثوس (Viriathus) وهو قائد إسباني قدير في حرب العصابات استطاع أن يتحدى روما حوالي ثمانين سنوات (147 - 139). وأرغم في آخر الأمر على الإسلام، ثم اغتيل أثناء الهدنة على يد خونة بتحريض من القائد الروماني. وأعقب ذلك مباشرة اخضاع لوسيتانيا. وقد نشب الحرب مرة أخرى بعد فترة من الزمن في عام 143 بولاية إسبانيا القريبة حيث تركز القتال حول مدينة نومانتيا (Numantia). ولا يعنينا منه سوى ما حل بالروماني من خزي، إذ عقد أحد قوادهم صلحًا مع أهل نومانتيا في عام 140 ثم نبذه بعد ذلك. وتتجاهل

السناتو اتفاقه. وبلغ عزوف الناس في روما عن الخدمة في الميدان الاسباني مبلغًا اضطر معه نقباء العامة إلى التدخل في عام 138 لحماية بعض الأفراد المتهربين من الجنديه. وعندما تجاهل القنصلان وساطتهم، زج نقباء العامة بهما في السجن فترة من الزمن. وفي عام 137 استسلم القنصل مانكينوس (C. Hostilius Mancinus) هو وجيشه البالغ عدده 20,000 جندي روماني لأهل نومانتيا بعد أن عقد معهم معاهدة لإنقاذ حياة جنوده. غير أن السناتو الروماني رفض المعاهدة المؤكدة باليمين وغدر بالقائد الروماني جاعلاً منه كبش الفداء، وسلمه مقيداً بالأغلال لأهل نومانتيا الذين أبوا تسلمه. ولما ضاق الرومان بالهزائم أعادوا انتخاب سكيبيو آيميليانوس (P. Cornelius Scipio Aemilianus) - وهو قائدتهم المحنك، مدمر قرطاجة في عام 146 وأملقب «بقاهر افريقيا الأصغر» - أعادوا انتخابه قنصلاً لسنة 134 كي يتولى القيادة العامة في إسبانيا. وأعاد سكيبيو آيميليانوس النظام الصارم إلى الجيش، وحاصر نومانتيا 15 شهراً، وضيق الخناق عليها حتى استسلمت جوعاً، ثم دمرها تدميراً تاماً. وبذلك اكتسب أيضاً لقب قاهر نومانتيا (Numantinus). وأوفدت روما كعادتها في مثل هذه الظروف لجنة من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ لإعادة تنظيم إسبانيا التي أقبلت على عهد سلام طويل.

تمهيد قرطاجة (الحرب البونية الثالثة) 149 - 146:

كانت المعاهدة التي أبرمت عند نهاية الحرب البونية الثانية تحريم على قرطاجة القيام بالحرب خارج افريقيا أو داخلها بدون موافقة روما. وقد نصب روما في الوقت نفسه عدواً لقرطاجة يدعى ماسينيسا (Masinissa) أميراً على مملكة متاخمة لحدودها. وكان هذا الوضع ينذر بالاصطدام وتدخل روما في أي

لحظة ومع هذا فقد نعمت قرطاجة بفترة من السلام. وكان يتولى مقايد الأمور فيها حزب مناصر للرومان وكان يركز كل جهوده لانعاش التجارة القرطاجية واستعادة حالة الرخاء السابق. غير أن هذا الرخاء بدأ يثير حقد السناتو الروماني وحسد أصحاب المصالح المالية في العاصمة، مما جعل روما تتلمس المعاذير للقضاء على غريمتها القديمة. وقد سنت الفرصة عندما احتدم النزاع بين قرطاجة وماسينيسا الذي جدد المطالبة ببعض أراضٍ قرطاجية كان يدّعي ملكيتها. ولم يسع قرطاجة إلا أن تستتجد برومما لحمايتها من هذا الأمير. غير أن اللجان التي أوفدتتها روما لجسم النزاع بين الطرفين كانت تنصر ماسينيسا على قرطاجة، بل ان كاتو (M. Porcius Cato) الذي اختير عضواً في إحدى اللجان بحث الشكاوى الخاصة بالاعتداء على الحدود، والذي كانت صورة الصراع الرهيب بين روما وقرطاجة لا تزال ماثلة في ذهنه منذ الشباب، عاد من مهمته منزعجاً أشد الانزعاج من حالة الرخاء المادي الذي كانت تنعم به قرطاجة فكان يختتم خطبه دائمًا في مجلس الشيوخ بالعبارة المأثورة عنه: «لا بد من تدمير قرطاجة Dekenda est Carthago»، وقد أدى الاحتكار المستمر بين قرطاجة وماسينيسا إلى نشوب الحرب بينهما. وأصيّبت قرطاجة بهزيمة فادحة. ولما كانت قد نقضت شرطاً من شروط المعاهدة مع روما بدخولها في حرب دون استئذان فقد استعد الرومان للحرب في الحال. وأحس القرطاجيون بأنهم تجاوزوا حقوقهم وأوجسوا خيفة من الانتقام. لذلك عرضوا الاستسلام بلا قيد أو شرط علىأمل أن يصفح عنهم الرومان. وأمنهم السناتو على حياتهم وأملاكهم ونظام حكمهم. ولكنه طالبهم برهائن، وتنفيذ أوامر القنصليين اللذين عبرا البحر إلى إفريقيا على رأس جيش روماني. وما أن وصل القنصلان حتى طلبا إلى القرطاجيين تسليم أسلحتهم وجميع معدات القتال. وامتثل القرطاجيون

للأوامر رغبة منهم في تهدئة خواطر الرومان واسترضائهم بأي ثمن. ثم جاءهم الانذار الذي ينص على ضرورة رحيلهم عن مدينتهم والسكنى على بعد عشرة أميال من البحر على الأقل. وكان ذلك بمثابة الحكم بالاعدام على المدينة التجارية القديمة. واستولى على القرطاجيين جنون اليأس، فبادروا إلى صنع أسلحة كيما اتفق، وحصنوا أسوار قرطاجة، وتحدوا الرومان. وانقضت سtan دون أن تحرز القوات الرومانية أي انتصار. وازاء هذا الاخفاق والخوف من العدو القديم. طالب الشعب الروماني بانتخاب سكيبيو آيميليانوس قنصلًاً. وقد أظهر كفاية ممتازة كتبيون عسكري (Tribunus militum) ولم يكن قد شغل سوى الأيديلية فقط. ولم تتوافر فيه بعد شروط الترشيح للقنصلية. ولكن الجمعية القبلية أصدرت قانوناً بابطال القيود الحائلة دون ترشيحه، وانتخب سكيبيو آيميليانوس قنصلًاً لعام 147 وأسندت إليه قيادة الحرب ضد قرطاجة. ولم يلبث أن أعاد النظام إلى الجيش الروماني وهزم القرطاجيين في الميدان وشدد الحصار على المدينة التي هلك كثير من أهلها جوعاً وسقط كثير من جنودها صرعى. وفي ربيع عام 146 اقتحمتها الرومان واستولوا عليها بعد قتال مرير في الشوارع والبيوت. وبيع من بقوا من سكانها أحيا في اسوق الرقيق. وسويت المدينة بالأرض. واعتبر مكانها ملعونة. وتحولت أراضي قرطاجة إلى ولاية جديدة باسم ولاية أفريقيا وأسدل الستار على آخر فصل في قصة الصراع المثير بين الدولتين. Provincia Africa

ضم مقدونيا وحل الحلف الآخي (149 - 146):

الحرب المقدونية الرابعة (149 - 148):

اضطربت روما ازاء المنازعات بين الدوليات الاغريقية إلى التدخل

واستعمال العنف وخاصة ضد الأحزاب المناوئة لها في هذه الدوليات. وقد أثار ذلك استياء فريق كبير بين الاغريق من سياسة روما وجعلهم يتحينون الفرصة للتخلص من سيطرتها. وحدث وقتئذ أن ادعى ولية العرش في مقدونيا رجل يسمى اندريسكوس (Andriscus) ونصب نفسه ملكاً عليها (149). ودحر طلائع القوات الرومانية التي أرسلت لقمع حركته، ولكنه اندحر في العام التالي على يد البريتور ميتيللوس (Q. Caecilius Metellus) عند بيدنا (Pydna)، مكان المعركة القديمة، واستردت روما مقدونيا، وألغت الجمهوريات الأربع، وجعلت من كل مقدونيا ولاية رومانية (Provincia Macedonia) في عام 148.

وكان الشعور بالضيق من «الحماية الرومانية» يزداد يوماً عن يوم وبخاصة بين مدن «الحلف الآخي» وقد زاده التهابا عودة من بقوا أحياء من المنفيين السياسيين (وعدهم 300) الذين كانوا قد أخذوا إلى روما كرهائن في عام 167. وكان يسيطر على شؤون الحلف وقتئذ الحزب المناوئ لروما والذي كان يلقى تأييداً من العناصر الديقراطية في مختلف المدن اليونانية. واصطدم الحلف الآخي باسبرطة بسبب احتدام النزاع على الحدود من جديد عام 149. وقد أحيل النزاع على السناتو لتسويته، ولكن الحلف الآخي لم ينتظر قرار الناتو، هاجم اسبرطة وهزمها، مستغلًا فرصة انشغال الرومان بالحروب في ميادين إسبانيا وأفريقيا ومقدونيا ورأى السناتو تأديب الحلف أن يفصل بعض المدن من عضويته. لكن الجمعية العمومية للحلف (Synkletos) - وهو اتحاد كونفدرالي - رفض الادعاء لمطالب السفراء الرومان على الرغم من أن «الحرب المقدونية الرابعة» كانت قد انتهت، واستعدوا للحرب استناداً إلى تأييد الحلف البويوتي وبعض دوليات أخرى في وسط بلاد اليونان. كذلك لقي الحلف تأييداً من

جانب الطبقات الفقيرة في مختلف المدن التي كانت ترى في الثورة الاجتماعية فرصة لتحسين أحوالها الاقتصادية. ومضى عام دون أن يستجيب الحلف لأوامر الناتو. وعندئذ أرسلت روما ضده أسطولاً وجيشاً تحت قيادة القنصل موميوس (L. Mummius). وكان ميتيللوس - قاهر مقدونيا - قد أخضع بلاد اليونان الوسطى. فجاء موميوس وفرق شمال قوات الاتحاد الآخي في موقعه ليوكوبترا (Leucopetra) عند الخليج الكورنثي عام 146. ونهبت كورنث، ودمرت بالنيان، ونقلت كنوزها الغنية إلى روما وبيع أهلها في سوق الرقيق، وضمت أراضيها - كأراضي قرطاجة - إلى الأراضي الرومانية العامة. وأوفدت روما لجنة من أعضاء الناتو لتحل الحلف الآخي والمنظمات السياسية المشابهة كالحلف البويوتي والحلف الفوكي. وعقدت روما معاهدات منفردة مع المدن الاغريقية. ولم تحتفظ بوضعها السابق كحليفات لروما إلا تلك المدن التي وقفت إلى جانبها مثل أثينا واسبرطة، وأما المدن الأخرى فقد أخضعت وفرضت عليها الجزية. ولم تنظم روما بلاد اليونان على شكل ولاية، وإنما وضعتها تحت اشراف حاكم ولاية مقدونيا.

ضم مملكة برجامون (133):

في عام 133 مات أتالوس الثالث، ملك برجامون، الذي انقرضت أسرته بموته، وقد ترك أتالوس وصية أورث فيها مملكته للشعب الروماني. ولعله اتخذ هذه الخطوة لادراكه بأنه لو لم يفعل ذلك لأدى التطاحن من بعده على العرش إلى تدخل الرومان وغزو مملكته: فرأى أن يتجنب بلاده الويلات وإراقة الدماء. وقبل الرومان التركية. لكن قبل أن يضعوا أيديهم عليها ظهر مطالب بالعرش ادعى أنه ابن غير شرعي للملك يومنيس الثاني، واحتل هذا المدعى المسمى أرسطونيوكوس

(Aristonicus) جزءاً من المملكة، وهزم القائد الروماني وقتله في سنة 130، ولكنه انهزم وأسر بعد ذلك في بلدة ستراتونيكييا باقليم ليديا على يد القنصل ببربنا (M. Perperna).

وفي عام 129 جعل الرومان من مملكة برجامون ولاية باسم «ولاية آسيا» (Provincia Asin). وباحتلال هذه المنطقة تصبح روما سيدة على ساحلي البحر الایجي، وتكتسب نقطة ارتكاز ملائمة للتوسيع شرقاً. غير أن ادماج برجامون في الامبراطورية الرومانية كان نكمة لا نعمة على رعايا أتالوس الذين عانوا الأمررين مدة طويلة من سوء الإدارة والارهاق الضريبي بسبب تطاحن الأحزاب السياسية في روما.

الفصل الثالث عشر

أثر الحروب والفتحات في الحياة الرومانية

(روما وإيطاليا والولايات)

133 – 264

تمحضت عن سيادة روما على معظم أقطار البحر الأبيض المتوسط نتائج خطيرة بعيدة المدى أثرت في الدولة الرومانية نفسها. وكانت الحروب السالفة الذكر هي التي أدت إلى الأزمة التي انتهت بانهيار الجمهورية الرومانية. وقبل الكلام عن التغيرات التي حدثت والمشاكل التي نجمت عن هذه الحروب والفتحات، يجدر بنا أن نستعرض الشكل العام للحكومة الرومانية خلال تلك الحقبة.

1 - سيطرة طبقة السناتو الأرستقراطية على الإدارة الحكومية:
لم يطرأ على الدستور الروماني خلال فترة التوسيع سوى بعض تعديلات قليلة أهمها:
(أ) استبعاد نظام الدكتاتورية دون الغائه قبل نهاية الحرب البونية الثانية، وهي خطوة تتفق وسياسة السناتو الذي كان يعمل على عدم تكين أي حاكم شغل مركز يجعله مستقلًا عنه في تصرفاته. ولالمعروف أن «أمبريوم» الدكتاتور كان أعلى من أي «أمبريوم» آخر، ولم يكن له زميل يحد من تصرفاته، كما أن اعتراض

أي من «ترابنة العامة» لم يكن يسرى عليه.

(ب) انشاء منصب بريتور الأجانب (Praetor peregrinus) في سنة 243 للفصل في المنازعات بين الأجانب أو بين الرومان والأجانب. وقد زيد عدد البريتوريين (الحكام القضائيين) إلى أربعة في عام 227 ثم إلى ستة في عام 197، وذلك لتنصيبهم حكامًا على الولايات المتزايدة، وقد تجنب السناتو زيادة عدد هؤلاء الحكام باستخدام القنائل بعد انتهاء مدتھم السنوية (Pre Praetore) والبريتوريين بعد انتهاء مدتھم السنوية (Pro consule) حكام على الولايات بعد عام 148. ويلاحظ أن حكم الولايات كان لا يسند إلا إلى حاكم سبق له أن مارس سلطة «الأمبريوم».

(ج) انشاء آخر قبيلتين ريفيتين (أي منطقتين إداريتين) في عام 241 لقييد المواطنين الجدد فيصير عدد القبائل 35. ويتجمد عددها عند هذا الرقم إلى ما بعد قيام الامبراطورية. ومن ذلك الحين جرت العادة عند تأسيس مستعمرات جديدة أو منح الجنسية الرومانية لشعوب جديدة، على إلحاق المواطنين بأي قبيلة من القبائل القديمة. وأصبحت العضوية في القبائل وراثية بصرف النظر عن تغيير محل الاقامة.

(د) تغيير نظام «الجمعية المئوية» في تاريخ يرجح أنه عام 220، إذ وزعت الوحدات المئوية على اساس القبائل (Tribus) وخصص لكل قبيلة عدد متساو من وحدات الشبان والشيوخ في كل طبقة (Chassis) (ويبدو أن الطبقة الأولى أصبحت تشتمل حينئذ على 35 وحدة من الشبان و 35 وحدة من الشيوخ. وما كنا لا نعرف عدد الوحدات التي صارت تشتمل عليها كل طبقة من الطبقات الأربع الأخرى، فنحن لا نعرف وبالتالي ما إذا كان العدد الاجمالي لوحدات «الجمعية المئوية» قد زاد أم ظل ثابتاً عند الرقم 193⁽¹⁾.

وب رغم جهلنا بالتفاصيل فإنه يبدو أن الاصلاح كان ديمقراطي الطابع لأنه قلل من أهمية الطبقة الأولى في الجمعية وسلب من وحدات الفرسان حق الأولوية عند التصويت (إذ صار هذا الحق يمنح لوحدة تختار طريق القرعة في كل جلسة)، كما أنه جعل السيطرة في الجمعية المئوية في يد جماعة أقل ثراء عن ذي قبل، وقوامها ملاك الأراضي القاطنون بالريف الإيطالي.

ومع هذا فقد صارت كل من الجمعيتين الأساسيتين في الشطر الأخير من القرن الثاني، آلية عديمة الجدوى كأدلة للتعبير عن إرادة الأغلبية وذلك لأنه مع انتشار المواطنين في شتى أنحاء إيطاليا، والبقاء على الجاليات الرومانية في الولايات، واقامة كثير من المواطنين الرومان هناك أو في غيرها من الأماكن خارج شبه الجزيرة، لم يعد يحضر جلسات أي من الجمعيتين (المئوية والقبلية) إلا أقلية من الناخبين. لقد كانت كل من الجمعيتين جهازاً دستورياً يصلح فقط لمدينة أو مدينة - دولة. وكان عجز الرومان عن ابتكار بديل عن هذا النظام يلائم التوسع الجديد، هو المسؤول إلى حد كبير عن فقدان الشعب سلطة السيادة، وقد ترتب على ذلك أن آلت السيطرة في الجمعية المئوية إلى يد فئة صغيرة من ملاك الأراضي، وفي الجمعية القبلية إلى دهماء المدينة الفقراء وهي طبقة لا تصلح لتمثيل كل المواطنين الرومان.

وكان انتصار العامة في حركة الكفاح ضد الاشراف قد قضى على احتكار الاشراف للسلطة السياسية، ومخض عن نظم تبدو كأنها ديمقراطية في الظاهر. لكن نظام الحكم لم يصبح أبداً ديمقراطياً في الواقع. إذ ظلت الحكومة - على الرغم من التسلیم بأن الشعب هو صاحب السيادة - على وضعها القديم قبل عام 287 أي في يد طبقة أرستقراطية. غير أن هذه الطبقة نفسها كانت تختلف عن طبقة الاشراف القديمة (Patricii) اختلافاً كبيراً. ولا مراء في أن العشائر الشريفة (Gentes Particiae) كانت تؤلف عنصراً هاماً في الطبقة الجديدة، وظللت تمد

روما بعدد كبير من زعمائها السياسيين فترة طويلة، وتتمتع بنفوذ اجتماعي ضخم. غير أن الأرستقراطية الجديدة كانت تشمل، إلى جانب الأشراف (Patricii)، مجموعة كبيرة من عشائر العامة (Plebs) التي كان بعضها قد تزعم حركة الكفاح من أجل المساواة السياسية، وبعضها الآخر كانوا مهاجرين وآفدين على روما ينتهيون إلى العشائر الأرستقراطية المحلية في بلدان إيطاليا المتمتعة بالحكم الذاتي (Municipia) التي اكتسبت حقوق المواطنة الرومانية. وقد انضمت أفراد العشائر العامة هذه إلى صفوف الأرستقراطية القديمة عن طريق بلوغ المناصب العليا، وادراج أسمائهم في مجلس السناتو نتيجة لذلك، ومنذ ذلك الحين كان اشتراك المصلحة والمصاهرة والتبني تعمل على دعم روح التضامن بين جميع طوائف الطبقة الحاكمة. لكن لما كانت العشائر الشريفة (Gentes Patriciae) تضم حل تدريجياً، فقد كانت الطبقة الأرستقراطية تكتسب بالتدريج طابعاً عامياً واضحاً. وبينما كانت كل العشائر التي سبق لأحد أسلافها أن عين عضواً في السناتو في وقت من الأوقات، تعتبر ضمن الطبقة الأرستقراطية، فقد كان يوجد داخل هذه الطبقة نفسها فوارق تقوم على درجات المناصب التي كان يشغلها الأسلاف. وكانت أرفع طائفة في هذه الطبقة هي تلك الطائفة الضيقه من الرجال الذين يسميهم الرومان بالنبلاء (Nobiles) أو بالطائفة النبيلة (Nolilitas)، وهي تسمية لا تنطبق - إذا توخيينا الدقة - إلا على سلالة مَنْ مارسوا مرّة سلطة «الإمبريوم العلّي» كالدكتاتور والقنصل .(Tribuns militum consulari potestate) والtribunus العسكري المتمتع بالسلطة القنصلية كانت الأرستقراطية الجديدة تمثل في الوقت نفسه أرستقراطية الثروة وأرستقراطية المنصب. وخلال القرن الثالث استطاعت طائفة الأسر السناتورية (أسر أعضاء السناتو) التي توسيعه بدمج بعض العشائر من العامة على النحو الذي شرحناه، أن تحتكر المناصب العامة (Magistratus) وبالتالي مقاعد

مجلس الشيوخ، حتى صارت أميل إلى أن تكون طائفة ضيقة أو دائرة مغلقة. كما استطاعت الاحتفاظ بهذا الاحتياط والحيلولة دون توسيع دائتها لأسباب كثيرة من بينها (1) النفقات التي يتطلبها شغل المناصب العامة. لأن هذه المناصب كانت غير مأجورة (*Honores*) (2) المصاروفات الباهظة الالزمة للدعائية في الانتخابات. (3) مقتضيات التفرغ الكامل للمنصب وعضوية مجلس الشيوخ التي كانت عائقاً دون السعي وراءها إلا بالنسبة ملـن كان لديه ثروة كافية. (4) الصعوبات التي يلاقيها مغمورو الأصل في الفوز في الانتخابات ضد منافسيـن ينتـمون إلى عـشـائر شـهـيرـة تـولـت مـقـالـيد الأمـور في رـومـا مـنـذ عـدـة أـجيـال. (5) التـطـور الكـبـير الذي حدث في نظام التـبعـيـة الاختـيـارـية (*Clientela*) نـتيـجة لـتـغـيـر الأـحوال الـاقـتصـادـية، وـتـكـوـين الـائـلـافـات أو الـمحـالـفـات (*Socii, amici*) السـيـاسـة القـوـيـة الأـثـر والنـفوـذ، والـدـعـاءـية الشـخـصـيـة لـكـسـب اـصـوات الـأنـصـار من ذـوـي النـفوـذ. جـمـيع هـذـه العـوـامـل كانـت تـرـجـح كـفـة المـرـشـح الذي يـنـتمـي إـلـى عـشـيرـة ثـرـيـة أو بـيـت عـرـيق (6) أـضـف إـلـى ذـلـك أـنـ الـحاـكـم الـذـي كانـ يـرـأس الجـمـعـيـة في يـوـم الـاـنـتـخـابـات كانـ يـجـوز لهـ أـنـ يـسـتـبـعـد أـيـ مرـشـح لاـ يـرـوـقـ لهـ. وـازـاءـ هذهـ العـقـبـاتـ كانـ مـنـ العـسـيرـ علىـ المـرـشـحـ الـذـي لاـ تـرـضـيـ عنـهـ غالـيـةـ أـعـضـاءـ السـنـاتـوـ أـنـ يـفـوزـ بـمـنـصبـ الـكـوـيـسـتـورـ (*Quaestor*) وـهـوـ أـوـلـ منـصبـ فـيـ سـلـكـ الـوـظـائـفـ الـعـامـةـ (*Cursus*) يـفـتحـ الطـرـيقـ إـلـىـ دـخـولـ السـنـاتـوـ. لـأـعـجـبـ اـذـنـ أـنـ صـارـتـ الـقـنـصـلـيـةـ وـهـيـ سـمـةـ الـنـبـالـةـ الـحـقـةـ، عـسـيـرـةـ الـمـنـالـ عـلـىـ مـنـ لاـ يـنـتمـيـ إـلـىـ طـبـقـةـ السـنـاتـوـ. وـحـسـبـكـ أـنـ تـعـلـمـ أـنـهـ مـنـ بـيـنـ 108ـ قـنـاصـلـ اـنـتـخـبـواـ بـيـنـ 200ـ وـ 146ـ كـانـ هـنـاكـ 8ـ فـقـطـ يـنـتمـيـ إـلـىـ عـشـائرـ لـمـ يـسـبـقـ لهاـ أـنـ تـقـلـدـ هـذـاـ الـمـنـصـبـ، وـلـمـ يـبـلـغـ الـقـنـصـلـيـةـ إـلـاـ أـفـرـادـ قـلـلـ ذـوـوـ كـفـاـيـاتـ أـوـ قـدـرـاتـ نـادـرـةـ مـثـلـ كـاتـوـ الـأـكـبـرـ، وـمـثـلـ مـارـيـوسـ وـشـيشـرونـ -ـ فـيـ فـتـرـةـ لـاحـقـةـ -ـ وـالـذـينـ اـجـتـازـوـ هـذـهـ الـحـواـجـزـ وـالـعـقـبـاتـ وـارـتـقـواـ أـعـلـىـ مـنـصـبـ فـيـ الدـوـلـةـ، وـكـانـ أـمـثـالـ هـؤـلـاءـ الـأـفـرـادـ يـطـلـقـ عـلـىـ الـواـحـدـ مـنـهـ اـسـمـ

«الرجل الجديد» (*Novus homo*) أو «الرجل العصامي». هذه بالاجمال كانت الطبقة الأرستقراطية التي كان السناتو يتتألف من أعضائها، والتي كانت عن طريق السناتو تحكم العالم الروماني.

ومنذ صدور قانون هورتنسيوس (*Lex Hortensia*) في عام 287 إلى تربيونية تيبيريوس جراكوس، كان السناتو يسيطر على التشريع والادارة وجهاز الحكم سيطرة تامة. فكان يستطيع توجيهه أو عرقلة أعمال الحكم ونقباء العامة والجمعويتين المئوية والقبلية. وقد أتيح له ذلك بفضل طريقة تشكيله (إذ كان يتتألف من الحكام السابقين وجميع الحكام الذين تعلو مناصبهم الكوبيستورية) وغرابة تنظيم الجمعويتين الشعبتين، والقيود التي تعرقل نشاطهما وتعقد شكليات انعقادهما في بعض الأحيان. وفي الحق أن كبار الحكام كانوا بمثابة لجنة سناتورية منتخبة من احدى الجمعويتين. وكانت مصالحهم مشتركة مع صالح السناتو، وكان العرف الدستوري يحتم عليهم استشارته في كل المسائل إلها مة. وكان السناتو هو الذي يحدد للقنصل والبريتوريين مهامهم ويعين نوابهم ويوزع عليهم القيادات العسكرية. ولم تكن العقود التي يبرمها الرقباء (*Censores*) تصبح نافذة قانوناً إلا بعد مصادقة السناتو عليها. وكان السناتو أقوى ما يكون أثناء غيبة القنصلين عن روما إذ كان يهيمن على جميع أوجه الصرف من الخزانة العامة. ومع أن البريتور كان يتمتع أيضاً بالامبريوم، إلا أن هيبة الامبريوم البريتوري لم تبلغ أبداً مستوى هيبة الامبريوم في يد القنصل. ولم يكن القنصل حتى بعد عودته إلى روما هو الذي يسير دفة الأمور، على الرغم مما كان لسلطته العليا من هيبة مبعثها وجوده الشخصي بالمدينة، وإنما السناتو هو الذي كان يبيت في المسائل الهامة لأن خبرته بالشؤون العامة وشجاعته التي لا تعرف أبداً الخضوع أو الاستسلام هي التي قادت روما وسط العواصف والانواء إلى بر الأمان. وحتى سلاح التربيونية وهو حق الاعتراضي (*Intercessio*) - أو حق الفيتو - الذي نشأ في الأصل للحد

من سلطة السناتو والحكام، أصبح أداة طيعة في يد السناتو استطاع بواسطتها أن يكبح جماح نقباء العامة (الترابنة) أنفسهم. وتفسir ذلك أنه بعد عام 287 صار العامة يؤلفون شطرًا كبيراً من أعضاء الناتو. فلم يعد من العسير على هذه الهيئة أن تستميل أحد الترابنة ليستعمل حق الاعتراض ضد أي اجراء أو مشروع لا ترضى عنه سواء أكان المتقدم به قنصل أم تربيون. وما كانت أي من الجمعيتيں لا تصوت إلا على المشروعات التي يعرضها الحاكم رئيس الجلسة (ولا تنتخب إلا أسماء المرشحين الذين يقبلهم ذلك الحاكم) فإن السناتو بفضل نفوذه على الحكام ونقباء العامة كان يسيطر أيضًا على نشاط الجمعيتيں التشريعي والانتخابي.

وكان السناتو فضلاً عن ذلك يهيمن على السياسة الخارجية. وكان على نقيض الحكم السنويين هيئة مستديمة من السهل انعقادها بدعوة من القنصل للنظر في كافة المسائل التي تهم الرأي العام. كان طبيعياً إذن أن يستأثر مجلس الشيوخ الروماني بالشرف على السياسة الخارجية بشرط أن يحصل بداعه على مصادقة الجمعية المئوية في حالة اعلان الحرب أو عقد الصلح. وهكذا صار من حقوقه المكتسبة تنظيم الولايات وإدارتها. كذلك كان السناتو هو الذي يعالج الأزمات الطارئة التي تهدد كيان الدولة كانتشار جمعيات باكخوس (Bacchanalia) التي أصدر قراراً بحلها في عام 186 (S. C. de Bacchanalibus) سواء لخطرها على الأخلاق أو للارتياب في سريتها ونشاطها الهدام⁽²⁾. وأخيراً فإن الناتو ادعى لنفسه حق اعلان حالة الطواريء بإصدار ما يعرف باسم قرار السناتو الأخير أو النهائي (Senatusconsultum ultimum)، وهو قرار كان يخول القنصلين أن يتخدوا من التدابير ما يكفل تجنب الدولة الضرر أو حمايتها من الخطر. Res Publica ne qui detrimenti caperet) وهو بمثابة اعلان الأحكام العرفية. وهكذا نرى أنه على الرغم من رأي المؤرخ بوليبيوس في أن الدستور الروماني كان مزيجاً متوازياً من الحكم الملكي والحكم الأرستقراطي

والحكم الديمقراطي إلا أن الدولة الرومانية كانت في الواقع محكومة بالسناتو. كانت سلطة السناتو تستند إلى العرف والتقاليد، وإلى هيبة المجلس كهيئة ونفوذ أصحابه كأفراد (Auctoritas Patrum) لا إلى سلطة مستمدّة من القانون. صحيح أن السناتو لم يكن دائمًا صاحب السيطرة المطلقة على الموقف، مثلما حدث بين سنتي 217، 233 عندما استطاع الزعيم الشعبي جايوس فلامينيوس (C. Flaminius) كتربيون وقنصل وكنسor أن ينتهي سياسة ديمقراطية مخالفة لرغبة السناتو فوز اراضي «بلاد الغال» على الفقراء من المواطنين الرومان برغم معارضة السناتو. لكن ما أن قضى نحبه حتى استرد السناتو سيطرته بل صارت أقوى مما كانت من قبل.

وليس أدل على مدى نفوذ السناتو من موقفه إزاء آل سكيببيو، ومنه نتبين كيف كان يقف دائمًا بالمرصاد لأي فرد يحاول أن يكون له السيطرة في الدولة. ذلك أن سكيببيو «قاهر أفريقيا الأكبر»، استطاع أن يساعد أنصاره السياسيين على الفوز في انتخابات القنصلية الهلينية خلال تلك الفترة. وقد انتخب هو نفسه قنصلًا للمرة الثانية عام 194. لكنه كان يواجه حتى خلال تلك الفترة صعوبات كثيرة. وكانت طلباته تقابل أحياناً بالرفض، إذ طالب مثلاً ببقاء هنيبال - الذي كان يعطّف عليه - في قرطاجة، فطردته منها لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ. ومرة أخرى نرى سكيببيو وأخاه لوكيوس يستدعيان من الشرق عند نهاية قنصلية الأخير عام 190 مع أن العادة جرت علىبقاء القائد الموفق في قيادته حتى ينهي حملته العسكرية. وكان يتزعّم حركة مناواة سكيببيو رجل عنيد متزمت وهو كاتو (M. porcius Cato) - الشهير «بالكنسor» أي الرقيب الذي عارض التدخل الروماني في بلاد الاغريق، وعارض المؤثرات اليونانية ونبه إلى خطّرها على أخلاق الرومان ووقف لها بالمرصاد⁽³⁾. وقد بدأت حوالي عام 190 سلسلة من الاتهامات السياسية على يد كاتو وآخرين لمحاولة تقويض نفوذ «رابطة سكيببيو» وأدين بعض أصحابها

بتهم كالرشوة وغيرها من الجرائم. وأخيراً أوعز كاتو بطالبة لوكيوس شقيق سكيبيو، بأن يقدم حسابات للسناتو عن مبلغ 500 تالت كان الملك أنطيوخوس الثالث قد دفعها له كقسط أول من الغرامات الحربية التي فرضت عليه عقب هزيمته في معركة مجنيسيا عام 190. واعتراض سكيبيو على ذلك بدعوى أن القائد ليس مضطراً إلى تقديم حساب عن أسلاب غنمها في الحرب وذهب إلى أبعد من ذلك ومزق دفاتر الحساب أمام مجلس الشوخ. غير أن خصومه ادعوا بأن هذا المبلغ لا يمكن أن يعتبر جزءاً من أسلاب الحرب. وفي عام 18 طالب أحد نواب العامة لوكيوس سكيبيو بأن يقدم حساباً عن أعماله أمام الجمعية القبلية، لولا مناشدة أخيه «افريكانوس» للشعب لما سقطت الدعوى مؤقتاً. وفي اجتماع لاحق عقدته الجمعية القبلية فرضت غرامة باهظة على لوكيوس لادانته بالاختلاس. وما رفض أن يقدم ضماناً أو يدفع المبلغ المختلس أوشك أن يزج به في السجن لولا تدخل نقيب لل العامة من أنصاره، وعلى الرغم من وقف الدعوى إلا أن نفوذ آل سكيبيو تقوض تماماً حتى أن بوبليوس سكيبيو «قاهر أفريقيا» اعتزل الحياة العامة إلى نهاية حياته في عام 183.

وكان السناتو منقسمًا منذ وقت مبكر إلى عدد من الطوائف المنافسة التي يتكون كل منها من أسر متحالفه تسعى بقدر المستطاع إلى احتكار المناصب العليا وألقاب الشرف والتكرير في الدولة. لكن طالما كانت روما مهددة بالأخطار وكان مصير الصراع مع الأعداء من أجل السيادة العالمية لا يزال معلقاً، فإن السناتو برغم تلك المنافسة بين طوائفه - قد أظهر من الصفات العالية كالكفاية والذات والتضحية ما يعزى إليه انتصار روما في النهاية. كما أظهر مهارة فائقة في توجيه السياسة الخارجية وتنظيم العلاقات مع الدول الأجنبية. وما زالت الأخطار الخارجية حتى بدأت تظهر بين صفوفه المطامع الشخصية، والمصالح الطائفية حتى على حساب قوميته وهويته. وأصبح شغل المناصب العليا وما يصاحبها من

فرص لتولي الحكم في الولايات، واستغلال الشعوب المقهورة وقيادة الحروب المربحة، وسيلة في يد أعضاء السناتو وأصدقائهم لاقتناء الثروات لكي يحتفظوا بمستوى معيشة الترف والبذخ التي بدأت ترور في أعين الطبقة الحاكمة في روما. وكان أعضاء السناتو يسعون سعيًا حثيثاً وراء المناصب العليا بالذات لأنهم كانوا ممنوعين - وفقاً للعرف السائد - من ممارسة الأعمال المصرفية أو قبول العطاءات الحكومية، وكان محظوراً عليهم بمقتضى قانون «كلوديوس» الصادر في عام 218 حيازة السفن ذات الحمولة الكبيرة للمتاجرة عبر البحار. وترتب على ذلك أن احتمم التنافس من أجل المناصب احتداماً شديداً وتدهورت الدعاية الانتخابية لكسب الأصوات إلى رشوة للأفراد والجماهير، ومن مظاهر ذلك محاولة الترفيه عن الجماهير وتسلیتهم باقامة الحفلات والمهرجانات الفاخرة سواء في المسرح أو في ساحة مصارعة الوحش. ومع هذا فقد كان الشعور بالمسؤولية ما يزال قوياً بين أعضاء السناتو كهيئة ومن ثم فإنها عملت على استصدار تشريعات لوقف تيار المفاسد والقضاء على المساوىء. ففي عام 180 صدر قانون فيليوس (*Lex Villin annalis*) الذي رتب الوظائف العامة ترتيباً معيناً: الكويسنورية فالبريتورية فالقنصلية. ولم تكن الايديلية ضرورية للصعود في سلم الوظائف ولكنها كانت تشغل عادة بعد الكويسنورية لأن صاحب هذا المنصب (الأيديليس) كان يدخل في اختصاصه الإشراف على الأسواق العامة والأعياد والمهرجانات مما يتيح له فرصة التقرب من الجماهير وارضائهم. وأما التربية فلم تعتبر وظيفة عامة (*Magistratus*) لأنها كانت مقصورة على فريق واحد من الشعب وهم العامة ونشأت أصلاً للحد من سلطة الحاكم الممتع بالامبريوم. لكن بمرور الزمن دخلت في اطار الدستور الروماني وصارت كأي وظيفة عامة وكانت تشغل بعد الكويسنورية وقبل الايديلية. وأما الكنسورية فكانت وفقاً للعرف المتبع تأتي بعد القنصلية. واشترط القانون سن 28 كحد أدنى لشغل الكويسنورية، وانقضاء

مدة سنتين بين كل وظيفة والتي تليها. وفي فترة لاحقة حوالي 151 حرم إعادة الترشيح لنفس المنصب. وفي عام 181 مرة أخرى في 159 صدرت قوانين تنص على عقوبات رادعة ضد رشوة الناخبين. وقامت محاولة أخرى لاستئصال الفساد بأن تقرر أن يكون الاقتراع سرياً في الجمعيتيين. ونص قانون صدر في 139 على التصويت السري في الانتخابات، ثم صدر قانون آخر بعد سنتين يقضي بجعل التصويت سرياً في المحاكمات التي تجري أمام الجمعيتيين، وأخيراً تقرر في عام 131 استخدام الاقتراع السري على المشروعات المقدمة إليهما.

إن هذه القوانين لم تحقق الغرض المنشود منها لأنها كانت تتناول أعراض الداء لا أصله، إذ كان السناتو يتدهور في الكفاية وفي الأخلاق، ويواجه مشاكل إدارية وعسكرية واجتماعية لعله لم يستطع أن يجد لها حلًا أو فهم هذه المشاكل وأغمض عينه عليها. وقد أظهر السناتو عجزاً فاضحاً حيال هذه المشاكل. أكبر الظن لأنه لم تكن لديه أي دراية بعلاج مثل هذه المفاسد الاجتماعية أو لم تتوافر لديه الرغبة في دراستها. كان أعضاء مجلس الشيوخ الروماني رجالاً من نفس الطراز يستهدفون نفس المصالح السياسية أو الشخصية، وينتمون في حقيقة الأمر إلى أسر نبيلة معدودة وقلما كانوا يُدخلون في صفوفهم عناصر أجنبية. ولئن كانوا جميعاً قد انتخبوا في وقت من الأوقات على يد الشعب لشغل المناصب، فإن ذلك يرجع إلى أن اختيار الشعب كان يقع دائماً أو غالباً على أبناء الأسر العريقة المعروفة. ويبدو أن الناخب الروماني سيطرت على ذهنه الفكرة القائلة بأن سليل الأسرة التي أدت للدولة خدمة جليلة، يتحمل أن يؤدي هو الآخر نفس الخدمة. وترتب على ذلك أن صار السناتو بالتدريج - على الرغم من مقدرته الفائقة في تصريف الأمور - هيئة أولجركية تمثل مصالح طبقة واحدة في المجتمع. والمبدأ لا غبار عليه في بعض أدوار التطور الاجتماعي. ولكنه كفيل بأن يبرز على مر الزمن عيوب الأولجركية وهي النفور من التغيير أياً كان نوعه، وضيق الأفق الاجتماعي،

وعدم العطف على الطبقات الأخرى أو الرغبة في فهم مطالبها. وسنترى كيف انتهت هذه الهيئة الأولجركية إلى نهاية مخزية. لقد أنقذ السناتو الدولة من ألد أعدائها ووضع أساس الامبراطورية، ولكنه أخفق أخفاقاً ذريعاً في تحقيق العدالة الاجتماعية. وحتى في ميدان السياسة الخارجية تعثرت خطواته أثناء المراحل الأولى من الحروب المقدونية، وال Herb البوئية الثالثة، والحملات الإسبانية التي تكبّدت فيها روما خسائر فادحة. وكانت هيبة السناتو تقوم أساساً على نجاحه في السياسة الخارجية ولكن هذه العثرات بدأت تسيء إلى سمعته فلا عجب أن بدأت طبقة رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال الجديدة تنازعه حقه في الاستثمار بتوجيه السياسة الخارجية منذ حوالي منتصف القرن الثاني.

روما وحلفاؤها الإيطاليون:

في وسعنا أن نقول بوجه عام أن روما كانت تحترم الحلفاء التي نصت عليها المعاهدات معهم سواء أكان هؤلاء الحلفاء من اللاتين أو من الإيطاليين. ومن ثم فنحن لا نسمع إلا عن حالات فردية قليلة اعتدي فيها على الاستقلال الذاتي المحلي لهذه المدن اللاتينية أو الإيطالية. وإذا كان قد حدث شيء من هذا القبيل، فإن ذلك مرده إلى تصرف بعض الحكام الرومان الذين تجاوزوا حدود سلطتهم بأن فرضاً مطالب تعسفية على هذه المدن الحليفـة كإجبار الأهالي على تقديم المئونة للجيش وإيواء الجنود عنوة في مساكنهم أو الترحيب بالقوات الرومانية المارة بأراضيهم أو إزالة عقوبات بهم لعصيانهم الأوامر أو عدم ابدائهم مظاهر الاحترام. ولا شك في أن الحلفاء قدموا خدمات عسكرية أكبر من خدمات الرومان أنفسهم أثناء النضال من أجل السيطرة وتكوين الامبراطورية. غير أنها كانت تتناسب وتعداد سكانهم. وفي تعبئة الجيوش خلال القرن الثاني كانت نسبة عدد قوات الحلفاء إلى قوات الرومان 2:1 وهي نسبة كانت سائدة

أيضاً قبل الحرب البوئية الثانية. وفي الحق أن عبء الخدمة العسكرية قد وزع منذ عام 193 توزيعاً أكثر عدالة من قبل، إذ عدل عن النظام القديم الذي يلزم كل مدينة حلية بتقديم عدد الرجال المنصوص عليه في معاهدتها مع روما، وصارت كل مدينة تمد القوات الرومانية بعدد من الكتائب يتناسب وعدد مواطنها من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 45 سنة. وأما عن غنائم الحرب التي كان القواد أنفسهم يقومون بتوزيعها على الجنود، فإن قوات الحلفاء كانت تناول نصيباً معاذلاً لنصيب القوات الرومانية المزاملة لها في السلاح. وليس هناك ما يؤيد الرأي القائل بأن في توزيع الأراضي العامة على المستعمرين كانت الاقطاعات التي تمنح مواطني المدن الحلية أقل مساحة نسبياً مما كانت عليه من قبل. ومع هذا كله فلم يكن هناك مناص من أن يكون لازدياد قوة روما أثر مضاد على وضع حلفائها إذ ازدادت الهوة بين الفريقين اتساعاً من الناحية الواقعية إن لم يكن من الناحية القانونية. وأحس الحلفاء أنهم صاروا في وضع أدنى بكثير من الرومان. وقد زاد من شعورهم بالنقص والحظة أنه لم يكن لهم أي نصيب في إدارة شؤون الامبراطورية، ولم يكونوا في مركز يمكنهم من الحصول على المكاسب المالية التي يحصل عليها المواطنين الرومان من استغلال أراضي الولايات خارج إيطاليا. كذلك زاد من حدة هذا الشعور أن حركة صبغ إيطاليا بالحضارة الرومانية كانت تسير باطراد حتى أصبح اندماج كافة سكان شبه الجزيرة في مجموعة المواطنين الرومان أمراً لا مندوحة عنه في النهاية.

ومع هذا فإن الحلفاء لم يجاهروا بالمطالبة بالجنسية الرومانية قبل عام 133 بل انهم، على النقيض من ذلك، كانوا حتى عام 150 أكثر حرصاً على الاحتفاظ بشخصيتهم واستقلالهم منه بالاندماج في صفوف الشعب الروماني الحاكم. وقد أرغمت الأزمة الاقتصادية وحالة الفقر التي تفشت بين صغار المزارعين في جميع أنحاء إيطاليا خلال القرن الثاني كثيراً منهم على مغادرة مواطنهم والهجرة إلى روما

ما أدى إلى نقص عدد السكان في مدن الحلفاء وخاصة في عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية، وقد احتجت هذه المدن لدى السناتو على ادماج مواطنها في مجموعة المواطنين الرومان وطالبت باعادتهم إليها. ولم تكن روما تزيل من قائمة المواطنين أسماء المهاجرين الالatin، والايطاليين الذين اكتسبوا الجنسية الرومانية في القرن الثاني بالحق أو بالباطل إلا نزولاً على رغبة حكومات المدن الحليفة. وكان الرومان لا يشعرون وقئذ بأنهم في مركز أسمى من الحلفاء حتى ينتهجو سياسة ترمي إلى عدم اشراك الحلفاء في حقوق المواطن الرومانية ففي عام 189 رد أهل كمبانيا إلى سابق وضعهم بعد أن كانوا قد حرموا من بعض حقوق الجنسية في عام 210. وفي العام التالي منحت الجنسية الرومانية الكاملة لثلاث مدن وهي فوندي، وفورميسي، وأربينوم على حدود ليتوم الجنوبية وكانت من قبل لا تتمتع بالجنسية إلا قليلاً. وتراخي الكنسوران (الرقيبان) تراخيا شديداً عام 169 في تنفيذ القانون ضد الحلفاء الذين انتحلوا الجنسية الرومانية زوراً، وظل الالatin محتفظين بحق الحصول على الجنسية الرومانية إذا هم تقلدوا مناصب حكومية في مواطنهم.

إدارة الولايات:

باستثناء الحلفاء الايطاليين والمدن أو الجماعات القبلية التي رأت روما لسبب أو آخر أن تعاملها معاملة هؤلاء الحلفاء، كان سكان الولايات الرومانية يعاملون معاملة الرعايا الخاضعين لا معاملة الحلفاء حتى ولو أطلق عليهم أحياناً هذا الاسم فكانوا لا يتمتعون إلا بالحقوق التي يرى الغزاة منحها إليهم. وكانت السمة التي تميزهم هي التزامهم بدفع ضريبة أو أداء جزية للرومان، وعدم دعوتهم لشرف الخدمة العسكرية إلا في الأحوال الاستثنائية. وقد حاول الرومان في البداية إدارة الولايات (Provinciae) عن

طريق حكام العاصمة العاديين (Magistratus). وعندما لم تنجح المحاولة خصصوا لإدارة الولايات حكاماً جدداً بمرتبة البريتوري. ثم عدلوا عن هذا النظام واستقر الأمر على تعيين القنصلين السابقين والبريتوري السابقين حكاماً على الولايات، على أن يحمل كل منهم لقب بروقنسيل (Pro Consule) أو بروبريتور (Pro Praetore)، أي «القنصل البديل» أو «البريتور». ويعزى هذا العدول إلى معارضة طبقة النبلاء في خلق وظائف جديدة من درجة البريتورية (حتى لا يزيد عدد المرشحين سنوياً لمنصب القنصلية) ومعارضتهم وبالتالي للزيادة المقابلة في عدد الكويستوري. ولما كانت الكويستورية هي أول درجة تتيح لصاحبها الارتقاء في سلم الوظائف، فإن تعدد شاغليها يزيد من فرص «الرجال الجدد» أو «العاصاميين» (Novi homines) في دخول السناتو نفسه. وكان النظام الجديد في إدارة الولايات يتيح لحكام المدينة (روما) الفرصة لتعيينهم حكاماً بالولايات بعد انتهاء مدة خدمتهم السنوية بالعاصمة، وما يصاحب ذلك من فرصة لاقتناء الثروات. وكان السناتو هو الذي يحدد الولايات التي يتولاها القنصلين البلديين أو «البريتوريين البلديين» (أي الولايات القنصلية والولايات البريتورية). على أن توزيع الولايات على المرشحين الذين يقع عليهم الاختيار كان يتم عن طريق القرعة أو بالاتفاق الودي بين المرشحين أنفسهم. وفي بعض الأحيان كان حكم الولاية يسند إلى قنصل لا يزال يشغل منصبه، وذلك عن طريق تشريع خاص من الجمعية القبلية.

وجرت العادة على أن يعهد إلى لجنة من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ وضع ميثاق أو قانون للولاية (Lex Provinciae)، ويصادق عليه السناتو ويحدد حقوق سكان الولاية وواجباتهم. وكانت كل ولاية تتالف من طائفة من الجماعات (Civitates) بعضها ذات تنظيم مدني، وبعضها الآخر ذات تنظيم قبلي، ولا تربطها أي وحدة سياسية سوى وجود ممثل السلطة الرومانية. وكانت

هذه الجماعات (سواء في شكل مدن أو جماعات قبلية) على ثلاث فئات.
تتألف كل ولاية من ثلاث فئات (طوائف) هي:

(أ) مدن أو جماعات قبلية حرة مرتبطة مع روما بمعاهدات (Civitates liberae et foederatae)

وكانت هذه الجماعات القليلة على الرغم من قيامها داخل نطاق الولاية لا تتبعها في الواقع لأنها كانت حليفات حرة لروما، وتحدد وضعها السياسي المعاهدة الدائمة المعقودة مع الدولة الرومانية.

(ب) مدن أو جماعات حرة معفاة من الضرائب (Civitates liberae et immunes)
وهذه أيضاً كانت قليلة وكان حق اعفائها من الضرائب ينص عليه في ميثاق أو قانون الولاية، ويملك السناتو سحبه إذا شاء.

(ج) جماعات خاضعة للضرائب والجزية (Civitates Stipendiaria)
وكانت هذه أكثر عدداً من غيرها وعليها يقع عبء الضرائب المقررة على الولاية
وكانت كل مدينة أو جماعة قبلية تتمتع بدستورها وقوانينها القديمة تحت رقابة السلطات
الرومانية.

وعلى رأس كل هذه الجماعات الموجودة بالولايات كان يقوم الحاكم بمرتبة القنصل
البديل (Pro consule) أو البريتور البديل (Pro praetore) وكانت مدة ولايته سنة واحدة قابلة
للزيادة أبداً بالاطالة أو لعدم تعين خلف له. وكانت اختصاصات الحاكم أو الوالي عسكرية وإدارية
وقضائية، فكان هو القائد العام لقوات الاحتلال المرابطة بالولاية لحفظ الأمن وحماية الحدود، وينظم

العلاقات بين الجماعات المختلفة، ويشرف على الإدارة الداخلية، وعلى جباية الجزية أو الضرائب ويفصل في القضايا إليها مة التي تنشب بين سكان الولايات وجميع القضايا بين هؤلاء والرومان أو بين الرومان أنفسهم. وكان الحاكم عند توليه مقايد الأمور يصدر منشوراً (Edictum) على نسق المنشورات التي أصدرها الحكام السابقون للولاية أو على نسق «المنشور البريتوري» في روما، محدداً المبادئ القانونية العامة التي سيعمل بمقتضاها أثناء مدة ولايته. وكانت الولاية مقسمة إلى ثلاث دوائر قضائية (Conventus) وينتقل المجلس القضائي إلى كل منها للفصل في المنازعات التي تثور فيها على أن يحدد المكان والوقت ليعرفه المتقدضون وأصحاب الشكاوى.

وكانت الهيئة التي تساعد الحاكم في الولاية تتألف من:

- أ) كويستور (Quaestor) ليتولى الادارة على الخزانة ويسلمه دخل الولاية الناتج من جباية الضرائب.
- ب) ثلاثة مساعدين (Legati) وهم من أعضاء السناتو وكان الحاكم يرشحهم ويصادق السناتو على الترشيح. وكانوا بمثابة مجلس استشاري له، وينوبون عنه عند الضرورة.
- ج) عدد من الرفقاء (comites) وهو عادة من شباب الأسر الصديقة له. وكانقصد من مرافقتهم له اتاحة الفرصة لهم للاستفادة من التجارب والتمرس على الإدارة ومعرفة اصول الحكم في الولايات أو لتكتيليفهم ببعض المهام الرسمية أحياناً.

د) حاشية الحكم وهم الكتبة والخدم ولم يكن حاكم الولاية يتلقى مرتبًا، ولكنه كان يمنح مبلغاً كبيراً من المال لتغطية نفقاته ونفقات الهيئة الإدارية التي تساعده.

كان الغرض من جبایة الضرائب من الولايات في أول الأمر أن تغطي نفقات الاحتلال والدفاع عنها. ومن هنا سميت الضريبة المباشرة باسم *stipendium*. (وهي كلمة تعني في الأصل راتب الجندي)⁽⁴⁾. وقد طبق الرومان بوجه عام نظام الضرائب الذي وجدوه سائداً في كل ولاية قبل احتلالها . وكما يجرون من الولاية اما ضريبة سنوية محددة ثابتة (*stipendium*) كما كان الحال في ولايات اسبانيا وافريقيا ومقدونيا أو ضريبة مباشرة غير ثابتة بل متناسبة مع مقدار المحصول السنوي كالعشور (*Decuma*) كما كان الحال في لاتيبيا صقلية وأسيا. ولم تكن الضريبة التي فرضها الرومان على أي ولاية أعلى بل عادة أقل من التي كان يجبها الحكام السابقون. وأما الأراضي والمناجم والملاحات والغابات العامة أو «الملكية فقد أدمجتها روما في أراضيها العامة (*ager publicus*) وكان حق تأجير هذه الأراضي أو استغلالها يمنح للأفراد أو الشركات نظير إيجار معين⁽⁵⁾ . وكانت روما تحصل أيضاً ضرائب غير مباشرة تسمى كل منها (*Vectigal*) وأهمها المكوس والعوايد الجمركية (*Portoria*) التي كانت تجبى على السلع في الموانئ وعلى الحدود الواقعة بين الولايات، وضريبة المراعي العامة (*Scriptura*). وكانت طريقة جبایة الضرائب تختلف باختلاف الولاية ونوع الضريبة. ففي حالة الضريبة المحدد الثابتة (*Stipendium*) جرت العادة على توزيع المقدار المطلوب على المدن أو الجماعات على أن تتولى كل منها تحصيل نصابها بوسائلها الخاصة، وتقدمه إلى الكويسنور. لكن في حالة الضريبة المباشرة المتغيرة المسمى دائمًا بالعشور (*Decuma*), اتبع الرومان النظام السائد في إيطاليا وأقطار البحر الأبيض المتوسط ألا وهو تأجير حق جبایة الضريبة في مناطق معينة للشركات

الأهلية أو محترفي جبایتها من الملزمين (Publicani) الذين كانوا يتقدمون بأكبر عطاء للحصول على هذا الامتياز، على أن يقدموا للحكومة المقدار المتفق عليه في العقد، ويحتفظوا بما يزيد على ذلك كربح صاف لهم. واتبعت نفس الطريقة في جبایة الضريبة غير المباشرة (Vectigal) كالمكسوس والعوايد الجمركية (Protoria)، وضريبة المراعي (Scritura) وايجارات الأرضي العامة التي آلت إلى روما في الولايات. وكان طوائف الملزمين (Publicani) وأهمها طائفة ملتزمي جبایة ضريبة العشور (Decumani) تؤلف شركات مساهمة (Societates publicanorum) لها مكاتب رئيسية في روما، ووكلاء في الولايات ويقوم على رأسها مدير عام (Magister) ومجلس من الشركاء. وكان موظفو الشركة ينتمون إلى طبقة الفرسان. وكان المستخدمون والعمال مواطنين رومان من الطبقة الدنيا أو إيطاليين أو سكانا من الولايات، معتقدين أو عبيدا.

كان نظام جبایة الضرائب عن طريق «شركات الالتزام» سبباً من أسباب الظلم الذي عانى منه سكان الولايات. وفي الحق أنه كان من أجسم العيوب التي شابت الإدارة الرومانية هناك، فلم يكن يعني ملتزمي جبایة الضرائب سوى جني أرباح طائلة من مضارباتهم المالية، وكانوا ينتحرون شتى المعاذير ويلجأون إلى التهديد ويستعملون العنف كي يبتزوا مقداراً من الضريبة أكبر من المقدار المشروع. وكان واجب حاكم الولاية يحتم عليه كبح جماح الملزمين الجشعين. لكنه قلما كان يقوم بواجبه على الوجه الأكمل أما عدم عطفه على أهالي الولاية المظلومين أو لرغبته في تحاشي إغضاب رجال الأعمال الرومان ذوي النفوذ، أو لاستجابة فرض رقابة صارمة على جبایة الضرائب. وكان أولو الأمر في روما يعرفون حقيقة ما يحدث في الولايات ولكنهم لم يتخذوا أي إجراءات حاسمة لمعالجة الحالة. يحدثنا المؤرخ الروماني ليفيوس (4018045) بأنه حينما يكون الملزمون، تنتهك القوانين العامة، فقد الحلفاء حريتهم. وكان من بين عوامل

النظام أيضاً ذلك النشاط الذي كان يمارسه الصيارة والمربون الرومان المعروفون باسم «المربون»: Negotiatoros الذين امتلأ بهم الولايات وبخاصة مدن ولايات الشرق الهلينستي حيث كانت الأزمة الاقتصادية حادة مما هيأ لهم فرصة إقراض الأموال بفوائد فاحشة. وكان الصيارة المربون ينتمون إلى نفس طبقة ملتزمي الضرائب وهي طبقة الفرسان (Ordo Equoster) لكنهم كانوا في أحوال كثيرة وكلاء لأعضاء السناتو الذين كان محراً عليهم عقد صفقات أو الاشتراك المباشر في عمليات مالية من هذا النوع. وترتب على ذلك أنه عندما كان المربون يلجأون إلى حاكم الولاية لمساعدتهم في تحصيل ديونهم، لم يكن يتزدّد في أغلب الأحيان عن الاستجابة لهم خشية من نفوذهم السياسي. فكان يضع تحت تصرف هؤلاء الدائنين جنوده أو يأمر المدن المقصرة في أداء ديونها بایواده هؤلاء الجنود في منازلها لارغامها على الوفاء بالديون، ولو كان في ذلك القضاء التام على هذه المدن أو الجماعات. وسبب آخر من أسباب سوء الإدارة والظلم في الولايات هو جشع الحاكم ورجاله. كانت السلطة المطلقة (Imperium) في يديه اغراء لا يقوى على مقاومته. ولقد ظهر بين الحكام الرومان في الولايات من كانوا على خلق قوي، وقدر كبير من النزاهة، يراعون أسمى التقاليد الرومانية في الحكم، لكن غالبية الحكام كانوا يسيئون استعمال هذه السلطة سعياً وراء المال. وكان قصر مدة الحكم حائلا دون إمام الحاكم بأحوال الولاية إلاما تماماً. وكان قصر المدة يزيد أيضاً من شرامة الحاكم الجشع الذي كان في أغلب الأحيان رجلاً مثقلًا بالديون بسبب ما أنفقه من أموال في دعايته الانتخابية للفوز بالبريتورية أو القنصلية، فكان يحاول ابتزاز أكبر مقدار من المال من جيوب أهالي الولايات التعساء في أقصر مدة ممكنة. وكان أضعف من أن يرفض الهدايا والرشاوي، ولا يتورع عن الأذى والاغتصاب والابتزاز والمصادرة في سبيل اقتناه ثروة كبيرة قبل عودته إلى روما.

وما كان الإشراف على إدارة الولايات يدخل - وفقاً للعرض المتابع - في اختصاصات السناتو، فقد كان هذا المجلس يتولى رقابة تصرفات الحكام. وعند عودة الحاكم إلى روما كان السناتو يفحص حساباته. ويناقش قراراته وأعماله، وينظر في طلبه الخاص بالحصول على شرف دخول روما في موكب نصر صغير (Ovans) أو كبير (Triumphus) احتفاء بانتصاراته العسكرية. وفي نفس الوقت كانت تصل إلى روما وفود من أهالي الولاية لتقديم للسناتو شكاواها ضد الحاكم أو لتشكره - كما كان يحدث غالباً - على جهوده لأنه كان قد ضغط عليها وأوعز إليها بذلك. وكان أهالي الولاية يجدون أحياناً بين اقطاب الرومان أنصاراً يتطلعون للدفاع عن قضيتهم. وكانت الشكاوي تعرض على المحاكم المختصة بالنظر في قضايا التعويضات أو تتخذ أساساً لإقامة الدعوى أمام الجمعية القبلية. غير ان هذه الوسائل تبين أنها غير مجدية ولم تفض على الفساد أو توقف تيار الظلم. وعندما ازدادت الحالة سوءاً استيقظ ضمير الشعب الروماني في آخر الأمر وأدرك فداحة الغبن الواقع على الولايات فصدر في عام 149 قانون كلبورنيوس (Lex Calpurnia) بإنشاء محكمة دائمة للفصل في قضايا استرداد الأموال من الحكام المداناين بالابتزاز في الولايات (Quaestio de repetundis)⁽⁶⁾. وكانت هذه المحكمة تتألف من 50 محلفاً من أعضاء السناتو، ويرأسها بريتور. ويعتبر إنشاؤها سنة جديدة وخطوة هامة في اجراءات القانون الجنائي عند الرومان، لأنه حتى ذلك الوقت كان المتهمون بالجرائم الخطيرة يقدمون للمحاكمة أمام أحد الجمعيتيين الشعبيتين أو يستأنفون أمامها الأحكام الصادرة ضدهم من أحد الحكام. واكتفى السناتو بإنشاء هذه المحكمة (محكمة الابتزاز أو استرداد الأموال المبتزة أو التعويضات) لاعتقاده بأنها وسيلة كافية لردع حكام الولايات الجشعين. لكن هيئات، لأن هذه المحكمة لم تتحقق الغرض المنشود للأسباب الآتية:

أ) النفقات الطائلة للسير في اجراءات المحاكمة الطويلة في روما.

- ب) صعوبة الحصول على الأدلة أو الشهود لادانة الحكم المتهם.
- ج) اقتصار العقوبة على أن يدفع الحكم بعد إدانته تعويضاً عن الضرر.
- د) الخوف من انتقام الحكام الذين يتولون حكم الولاية من بعده.
- هـ) ضعف الأمل في كسب القضية لتحيز المحلفين إذ كان الحكم المتهم ينتمي إلى طبقتهم.
- جميع هذه العوامل كانت لا تشجع المنكوبين من أهالي الولايات على المطالبة بالتعويضات عن خسائرهم. وهكذا ظلوا يعانون جميع ألوان العسف على يد الحكام وملتزمي الضرائب حتى آخر عصر الجمهورية.

أثر الحروب في الحياة والتطور الاقتصادية والاجتماعية

لقد طرأت تغيرات هامة خطيرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وإيطاليا خلال الفترة ما بين 264، 133، إذ ترتب على التوسع السياسي الروماني في عالم البحر الأبيض ازدياد اتصال الرومان بالاقطارات ذات الحضارات القديمة، وبالنظام الاقتصادي المتقدم في الشرق الهلنستي. وتأثر الرومان وحلفاؤهم الإيطاليون بمظاهر الحضارة الهلنستية، الحسنة منها والسيئة. وأفادت الزراعة في إيطاليا من ادخال أنواع جديدة من الفواكه والخضروات وألات زراعية أفضل، وأساليب فنية مبتكرة في فلاح الأرض. كذلك بدأت روما تتبع في سك العملة قاعدة النقد الفضية بدلاً من البرونزية، متأثرة بالممالك الهلنستية. وذلك لسد حاجيات الامبراطورية.

على أن أهم التطورات التي حدثت أثناء تلك الفترة في إيطاليا نفسها هي:

- أ) نشأة الضياع الواسعة (Latifundia) التي يقوم العبيد بزراعتها أو رعي الماشي فيها.
- ب) اضمحلال طبقة صغار المزارعين الأحرار في الريف الإيطالي.

ج) تضخم الطبقة الفقيرة من سكان روما.

د) ظهور طبقة متميزة من رجال الأعمال والتجارة.

هـ) انحراف مستوى المعيشة إلى الترف والبذخ بين أثرياء روما.

وأما عن الضياع الواسعة (Latifundia) فكانت هناك عوامل كثيرة أدت إلى نشأتها وفي

مقدمتها:

أ) نظام توزيع الأراضي العامة.

ب) خراب المناطق الريفية في جنوب إيطاليا بسبب الحرب البونية.

ج) عدم قدرة صغار الملاك على العناية بمزارعهم بسبب دعوتهم للخدمة العسكرية أو

منافسة الضياع الواسعة.

د) وفرة الأيدي العاملة الرخيصة من العبيد لكثرة عدد أسرى الحروب.

وكانت العادة قد جرت منذ القدم على توزيع ذلك الجانب من الأراضي العامة Ager

(Publicus) الذي لا يخصص لانشاء مستعمرات على المواطنين الرومان أو مواطني الحلفاء

لزراعته أو رعي الماشي فيه، وذلك في مقابل دفع إيجار للحكومة الرومانية تختلف قيمته

باختلاف نوع محصول الأرض. وقد زادت مساحة الأراضي العامة التي يمكن توزيعها على الأفراد

زيادة كبيرة كنتيجة لحملة هنبيل على إيطاليا التي دمرت بلاداً كثيرة وأهلكت أعداداً كبيرة

من الناس الذين تركوا وراءهم أراضي مقرفة أولاً أصحاب لها، فآلت إلى يد الحكومة الرومانية.

كذلك كانت الحكومة قد صادرت مساحات واسعة من أراضي المدن عقاباً لها على انجيازها

لهنبيل. وقد ظل الجانب الأكبر من الأراضي العامة في جنوب إيطاليا شاغراً وفي متناول الأفراد

لاستغلالها . وكان أول من استغلها هم ملوك الأرضي الأثرياء الذين كان لديهم الأيدي العاملة

اللازمة لاستصلاح مساحات واسعة للزراعة، ولديهم رأس المال الكافي لتزويد المزارع بالحيوانات

الزراعية وشراء قطعان كبيرة من الماشي لتربيتها في المرعى. وكان شاغلو الأرضي العامة أو

المستحوزون عليها عن طريق وضع اليد (Possessores) بعد مرور عدة أجيال يعتبرونها جزءاً من أملاك الأسرة. وفي أحوال كثيرة كانت تختفي السجلات القديمة الخاصة بظروف ملكية الأرض وبالحدود الفاصلة بين الأقطاعات. ولم تعد الإيجارات تدفع للحكومة. وفي القرن الثاني جدت ظروف ساعدت أيضاً على ازدياد الضياع الواسعة ذلك أنه منذ عام 218 أصبح محظياً على أعضاء السناتو الاشتغال المباشر بالأعمال التجارية خارج إيطاليا وكانت الأعمال المصرفية والعطاءات تعتبر غير لائقة بمكانهم في المجتمع، بينما كانت الزراعة - هي قوام الاقتصاد الروماني - تعتبر أشرف المهن المربيحة. لذلك اضطر أعضاء السناتو والطبقة الحاكمة إلى استثمار أموالهم التي كسبوها في الحروب أو من الولايات في الزراعة ودفعهم ذلك إلى شراء مزيد من الأراضي العامة، بل وشراء مزارع صغار الملاك حيثما استطاعوا. وكان الملاك أو الفلاحون قد استدعوا للخدمة العسكرية وتغيبوا عن مزارعهم فترات طويلة. ولعل بعضهم لم يعودوا أبداً أو عادوا غير لائقين أو زاهدين في ممارسة مهنة الزراعة أضف إلى ذلك أن الاتجاهات الجديدة في الزراعة التي ارتقت باقتباس الأساليب المتبعة في المملوك الهلينستية كانت ترجح كفة كبار المزارعين أصحاب رؤوس الأموال على جيرانهم من صغار المزارعين. وحدث أن تناقص محصول الأرض في الحبوب أما لتأكل التربة أو لاجهادها أو لشدة الطلب في الأسواق الرومانية. فاستحدثت محاصيل جديدة أوفر ربحاً، وحلت بدل الحبوب كالقمح مثلاً بساتين الكرم والزيتون والفواكه والخضروات، وحلت بدلها في جنوب إيطاليا المراعي الفسيحة. وأصبحت زراعة هذه المحاصيل وتربيبة الماشية عملية تجارية مربيحة، وتحسن أساليبها، وتقدر مصاريفها وأرباحها تقديرأً دقيقاً. ولم يعد الانتاج كافياً لسد حاجات الاستهلاك المحلي فقط، بل كافياً أيضاً للتصدير إلى الأسواق الخارجية. وكان متوسط مساحة الضياع الرومانية يتراوح بين 100 و 240 فدانأً رومانياً (Iugera)⁽⁷⁾ بينما كان متوسط مساحة

المزرعة التي تملكها الأسرة العادية يتراوح بين 4، 8 أفدنة... وكان كثير من كبار ملاك الأراضي يملكون عدة ضياع متناثرة في شتى أنحاء إيطاليا. وكانت الضيعة البالغ مساحتها 100 فدان روماني تتطلب حوالي 16 عبداً لفلاحتها، إلى جانب عدد آخر من الأجزاء للقيام بأعمال متصلة بها. من السهل أن ندرك إذن لماذا لم يكن في استطاعة الفلاح الإيطالي الذي لا يملك سوى أدواته الزراعية البسيطة ومجهود أسرته، أن ينافس مالك الأرض الغني. وهل كان في وسعه أن يشرع في غرس بستان من الكروم أو الزيتون ثم ينتظر سنوات طويلة قبل أن ينتج محصولاً مربحاً؟ أو هل كان في وسعه أن يوفر المرعى الصيفي في التلال، والمرعى الشتوي في السهول الواطئة على السواحل، وكلاهما لازم لرعى الماشية رعيًا مربحاً؟

ولكي تستثمر الضياع الواسعة بنجاح كان لا بد من توافر الأيدي العاملة الرخيصة باستمرار. وكان أهم مورد للعبيد (Servi) في القرن الثاني هي الحروب التي كانت تتم روما بأعداد ضخمة من الأسرى، فتغرق بهم أسواق الرقيق الموجودة في منطقة البحر الأبيض. ومورد آخر للعبيد وهو غارات القرصنة على السواحل الشرقية في العالم الاغريقي، حيث كان يختطف السكان ويباعون في أسواق الرقيق. وقد بلغ عدد العبيد الذين أحضروا إلى إيطاليا حوالي 250,000 أسير بين سنتي 200, 150. هذا بالإضافة إلى العبيد الذين كانوا يربون في الضياع الواسعة حتى ينتفع بهم سادتهم. ولما كانت أثمان العبيد زهيدة، فإنهم كانوا يفضلون على الأجراء الأحرار، لأن العبيد كانوا غير ملزمين بالخدمة العسكرية، ولأن رعي قطعان الماشية في الضياع الفسيحة لم يكن بحاجة إلى مهارة أو خبرة كبيرة، وكانوا يستغلون دون رحمة وبلا خوف من العواقب.

وقد ورد في بحث كاتو «الرقيب» عن «الزراعة» أن العبيد كانوا يعاملون معاملة السوام بل كان من رأيه أنه ينبغي تجوييعهم حتى الموت عندما يصيرون عديمي النفع. وكان عبيد الضياع الواسعة يقيدون بالأغلال. وفي الليل يحبسون

في جحور أو أقبية تحت الأرض، حتى أن هؤلاء التعسّاء لم يروا في يوم من الأيام أي بصيص من الأمل في الخلاص، ولم يحدث أن اهتم مواطن حر بحالتهم أو فكر في الخطر الاقتصادي الناجم عنهم. ولم يفطن الرومان إلى خطر العبيد عندما يكون عددهم غفيراً وتساء معاملتهم. ولقد فوجئوا بثوراتهم، مرة في عام 135 عندما ثار حوالي 70,000 (حرب العبيد الأولى في صقلية) وتحدوا الرومان زهاء ثلاثة سنوات. وتواترت ثورات العبيد بعد ذلك في إيطاليا، وهي ثورات كانت روما تقمّعها بقسوة بالغة. وكان العمل يقوم على سواعد العبيد حتى في الضياع المتوسطة التي لم تكن رعوية بحثة. ويتبّع من بحث كاتو في «الزراعة» أنه برغم الاستعانة بالأيدي الحرة في بعض الفصول كفصل الحصاد مثلاً، فإن الدعامة الاقتصادية للعمل ارتكزت على سواعد العبيد. وليس ثمة شك في أن المزرعة الصغيرة والمزارع الحر كلاهما بدأ يختفي بسرعة ازدياد رؤوس الأموال وانخفاض سعر العبيد. وكان عدد عبيد المنازل (Vernae) يزداد في مدينة روما التي تدفقت عليها جموع غفيرة من العبيد من مختلف الأجناس. وقد استخدمهم الأثرياء ورجال الأعمال في شتى الحرف. وكان كثير منهم كالاغريق مثقفين. وفي أماكنهم القيام بالأعمال الكتابية والحسابية والتعليم. وقد أتيحت لهؤلاء بمضي الزمن فرصة الحصول على الحرية فأصبحوا عتقاء (Liberti).

لكن غالبية العبيد كانوا مخلوقات وضيعة فاسدة، لا معيار خلقي لديهم سوى اطاعة سيدهم ولا جزاء أدبي سوى العقاب. ومع أن تناقض عدد السكان الأحرار كان داء وبيلاً إلا أن العلاج كان أكثر منه وبala. فالعبد الذي ينتزع من الأرض التي كان يعيش فيها راضياً بموطنه الأصلي، ويحرم من أسرته، ويفقد ثروته، ويتجبرد من دياناته، لا بد أن يصبح في معظم الأحوال شخصاً منحلاً ميؤوساً منه. ولا نسمع أي نغمة اشراق على العبيد حتى في الأدب اللاتيني في تلك الفترة. ويرسم بلاوتوس (Plautus) الشاعر المسرحي الكوميدي الكبير

في تلك الفترة (255 - 184) صورة حالكة للعبد، فيصوره كذاباً أشراً ولصاً مجرداً من الضمير. وكانت عواقب الرق وخيمة أيضاً بالنسبة لأخلاق مالك العبيد. وان لم تظهر بوضوح لأول وهلة. فالسيد الذي يقوم على خدمته عشرات من العبيد، وهم بشر مثله، ولكنهم تحت رحمته يفعل بهم ما يشاء، هذا السيد يصبح عرضة لأن يتبدل بالتدرج احساسه بالواجب، إذ ليس عليه التزامات نحو العبيد، وإنما له حقوق عليهم. وبذلك يصبح عرضة لأن يتبدل أيضاً احساسه نحو اخوانه من المواطنين الأحرار، لأن ما يكتسبه من طبع في معاملة العبيد يؤثر بداهة على طريقة معاملته لغيرهم من الناس. وهكذا غدت الأخلاق الرومانية، وهي بطبيعتها أخلاقياً صلبة، غدت في أواخر عصر الجمهورية أكثر صلابة، بل غدت أكثر شراسة. ويوضح ذلك من القسوة البالغة، والاستهتار بالأرواح، والغلظة في معاملة المقهورين والشعوب الخاضعة اثناء القرن الأخير من عصر الجمهورية. لقد صارت الأخلاق الرومانية الخشننة بتأثير الرق أخلاقاً وحشية وقد يأبى أديب كبير كشيشرون التفرج على العبيد وهم يتصارعون في ساحة المصارعة، أو يرق قلب كاتب رقيق مثل بلينيوس الأصغر فيعاف رؤية الدماء ويستهجن ار gam العبيد على مصارعة الوحش الضاربة. لكن هذا لا يكفي لتبرئة الرومان من هذه الوصمة. علينا أن ننتظر مجيء المسيحية قبل أن نرى مظاهر الاشفاف على هذه الجموع البائسة من المخلوقات البشرية المستعبدة التي زخت بها الامبراطورية الرومانية.

اضمحلال طبقة صغار المزارعين في ايطاليا:

لقد ترتب على انتشار الضياع الواسعة نقص عدد صغار المزارعين، وقضت منافسة هذه الضياع على المزارع الصغيرة وجعلتها غير مرحبة ملاكها. وكان كبار ملاك الأراضي يلجأون إلى وسائل غير مشروعة لطرد صغار المزارعين

من الاقطاعات الصغيرة التي منحت لهم من الأراضي العامة، بل كانوا يتحينون الفرص لشراء الأراضي الخاصة (Ager Privatus) التي يمتلكها صغار الفلاحين. وثمة عامل آخر هام وهو الخدمة التي كان صغار المزارعين مطالبين بادئها. ولما كان المواطنون ذوو النصاب العقاري البالغ قدره 4000 آس as وحدهم المعرضين للخدمة العسكرية، وكان معظمهم من صغار المزارعين، فإن عصب الجيوش الرومانية كان يتكون من فلاحي الريف الإيطالي، ولما صارت الحروب تدور في إيطاليا بل جهات منطقة البحر المتوسط خارج إيطاليا، وأصبح من الضروري الاحتفاظ بحاميات في بعض الولايات المفتوحة، لم يعد في وسع الحكومة الرومانية أن تسرح الجنود في الخريف وتعيد حشدتهم للحملات العسكرية في الصيف. لم يعد في وسعها أن تفعل واستحال على الجنود الفلاحين العودة إلى مزارعهم ليباشروا على الأقل جانباً من الأعمال الزراعية الضرورية فكان الجندي، بمجرد انخراطه في سلك الجيش، يرحل بعيداً عن وطنه لسنوات متتالية، تاركاً حقوله عرضة للتلف والخسارة، وكان طول مدة الخدمة العسكرية إلى جانب ما تهيئه من فرص للكسب المؤقت من غنائم الحرب وأسلابها، من العوامل التي جعلت الجندي الفلاح غير لائق للقيام بالأعمال الزراعية المجهدة الرتيبة، كان الجنود المسرحون (Veterani) يعودون إلى مزارعهم فيجدون أن أسراتهم قد رهنت الأرض لتسد رمقها أثناء غيابهم، وعندئذ يضطر هؤلاء الفلاحون إلى بيع مزارعهم لجيرانهم الأغنياء إما لعجزهم أو لعزوفهم عن كسب قوتهم من مزارعهم الصغيرة المرهونة. ولم يكن هناك مجال لهؤلاء الجنود الفلاحين ليشتغلوا كمستأجرين في أراضي غيرهم، لأن العمل في المزارع كان موسمياً وغير مضمون. ولذلك نزح كثير منهم إلى روما فتضخم بذلك عدد الدهماء المتعطلين. كما هاجر بعضهم إلى غالة القريبة حيث كانت الأراضي الجديدة لا تزال ميسورة لصغار المزارعين. ولا ينبغي إغفال الخسائر في الأرواح أثناء الحروب التي

استنزفت أعداداً غفيرة من طبقة صغار المزارعين الإيطاليين (ولا سيما الحملات الإسبانية بين سنتي 154 - 133).

وبغض النظر عن تدهور الحياة الأسرية، فإن قوائم التعداد الخاصة بها بالمواطنين الرومان البالغين سن الجندي، قد سجلت هبوطاً مستمراً في العدد بين عامي 164 - 136. ففي خلال هذه الفترة هبط الرقم من 337,000 إلى 317,000 أي بنقص قدره حوالي 10,000، في حين أن العدد كان ينبغي أن يزيد 50,000 اسماً على الأقل. وازاء هذه الظروف أصبح من العسير تعبئة القوات اللازمة، والتجأت الحكومة إلى وسائل القهر والارغام حتى أن نقابة العامة كانوا يتدخلون في كثير من الأحيان لاعفاء الفلاحين من الخدمة العسكرية. وقد حل بصغار الفلاحين في ريف أراضي الحلفاء ما حل بالفلاحين الرومان، ويتبين ذلك من هجرتهم زرارات ووحدانا إلى روما مما دفع مدنهم إلى مطالبة السناتو بإرغامهم على العودة إلى مواطنهم. هكذا أصبح السناتو يواجه مشكلة خطيرة، فأما أن يرجع عن السياسة الاستعمارية العدوانية ويتخلى عن الممتلكات الخارجية، أو يستمر في تعبئة الجيوش حتى تستطيع متابعة الحروب وحماية الولايات والدفاع عنها. فكيف يتسعى له القيام بهذه الالتزامات العسكرية المتزايدة بينما يتناقص عدد الرجال القادرين على حمل السلاح تناقضاً مستمراً؟

ولم تكن الحكومة الرومانية غافلة تماماً عن العواقب الوخيمة. المترتبة على ازدياد الضياع الواسعة. فمنذ حوالي عام 362 - إذا صحت رواية المؤرخ ليفيوس - حدّدت ملكية الفرد من الأراضي بـ 500 فدان روماني (Iugera) وملكيته من المواشي في المراعي العامة. لكن المحاولة باءت بالفشل لأن قانون تحديد الملكية تراخت السلطات في تنفيذه أو ضرب به عرض الحائط. كما وضع بعض الأفراد أيديهم على المراعي العامة. وبين عامي 180، 170 صدر قانون آخر يمنع الفرد من أن يمتلك أكثر من 500 فدان من الأراضي العامة أو يحتفظ بأكثر من

100 رأس من المواشي (الثيران والعجول) أو 500 من الأغنام (الخراف والماعز والحيوانات الأولية الأخرى). هذه المحاولة فشلت أيضاً لخلو القانون من أي نص جزائي أو عقوبة على المخالفين. وفي عام 173 خول السناتو أحد القنصلين السلطة لتعيين الحدود بين الأراضي العامة والأراضي الخاصة في كمبانيا حتى لا يجوز أصحاب الأخيرة على الأولى. فلم تجد المحاولة فتيلا لأن السناتو وجد في عام 162 أن كل منطقة قد وقعت في أيدي أصحاب الأرض الخاصة. ولم يستطع استرداد سوى 50,000 فدان وذلك عن طريق شرائها ثانية من الذين وضعوا أيديهم عليها. وانتصر كبار ملاك الأرض.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن إيطاليا لم تتأثر بتوسيع الضياع بدرجة واحدة. إذ كانت الضياع الواسعة منتشرة فقط في جنوب إيطاليا وكمبانيا ولاتيوم واتروريا، وأما في وسط إيطاليا، وفي أومبريا فقد ظل صغار المزارعين الإيطاليين، وهم طبقة تتصرف بالقوة وشدة المراس محتفظين بأراضيهم.

تضخم طبقة الدهماء الفقيرة في روما:

ترتب على الفتوحات أن صارت روما المركز السياسي والاقتصادي لعالم البحر الأبيض المتوسط وقد بلغ عدد سكانها في عام 133 نصف مليون نسمة على أقل تقدير، فاصبحت تنافس العواصم الهلينستية الكبرى كالاسكندرية وانطاكيه، ومع أن روما لم تكن مدينة صناعية كبيرة إلا أنها كانت دائماً سوقاً هاماً. وكانت شوارعها تعج وقتئذ بالتجار والباعة من جميع الأحياء. وبالعبيد التابعين للبيوتات الكبيرة، وبالمعتقدين الذين يشتغلون بحسابهم أو لحساب سادتهم، وبال فلاحين الذين تركوا مهنة الزراعة لأسباب مختلفة سعياً وراء الرزق في العاصمة معتمدين على الموارد غير الثابتة أو على سخاء بعض السادة

(Patroni)، بعد أن يرتبوا بهم كأتباع (Clientes) بمحض اختيارهم. ولم يكن بالمدينة منشآت صناعية تستطيع أن تستوعب الأيدي العاملة ولم يكن هؤلاء الفلاحون يعرفون أي مهنة سوى الزراعة التي زهدوا فيها.

وكانت الولائم والمهرجانات والهبات التي توزع في الأعياد القومية والمعارك الانتخابية هي التي تجذب هذا العنصر من الناس وتشجعه على التسкур والبطالة. وقد احتملت مشكلة تموين العاصمة بالمواد الغذائية بسبب بطء وسائل النقل برأً، ومخاطرها بحراً، وافتظاظ المدينة بالسكان إذ كان أي ارتفاع في أسعار الغلال أو تأخر وصول شحنات القمح من صقلية يعرض فقراء المدينة للمجاعة، وكان لهذا العنصر أثر سييء على الجمعيات الشعبية، إذ كان دهماء المدينة (Plebs urbana) الذين كانوا ما يزالون مسجلين في قبائلهم الريفية ويتمتعون دائمًا بحق حضور الجلسات يسيطرون على الجمعية القبلية بالذات. وكانت قرارات هذه الجمعية تؤثر بداعه بمصالح هذا الفريق من المواطنين الشخصية وبرغباته المتطرفة الجامحة وكذلك كان يباح للمواطنين وغير المواطنين على السواء حضور تلك الاجتماعات العامة (غير الرسمية) المسماة (Contiones) للاستماع إلى الخطاب السياسية، فكانت من وسائل اثارة حماس الغوغاء لارهاب الجمعيات الدستورية (Comitia) التي كانت تبادر إلى الموافقة على المقترنات والمشروعات التي من شأنها تحقيق نفع مادي لهم. وكان في الامكان تجنب هذا الخطر لو أن الدستور الروماني كان يتضمن بنوداً تنص على اتباع وسائل كافية لحفظ الأمن. وكان حفظ الأمن خارجاً عن اختصاص الحكماء ومساعديهم. وفيما عدا الأيديليس الذين أنيط بهم مراقبة الأسواق، ولم يكن هناك في الواقع أشخاص مخولين سلطة حفظ الأمن بالمدينة. ولم يكن للقناصل حق ممارسة السلطة العسكرية داخل نطاق البوميريوم (Pomerium) ولذلك لم توضع تحت تصرفهم أي قوات عسكرية.

ظهور طبقة رجال الأعمال (= طبقة الفرسان):

كان من نتائج القيود التي وضعها القانون والعرف على نشاط أعضاء طبقة السناتو في ميدان العمل والتجارة أن ظهرت طبقة من رجال الأعمال الأثرياء الذين لا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة. ومنذ حوالي منتصف القرن الثاني كانت الحكومة تبرم العقود (بعد المناقصات أو المزايدات) مع أصحاب رؤوس الأموال الذين يتبعدون ببناء المنشآت العامة، أو استغلال مناجم إسبانيا ومقدونيا، أو تحصيل الإيجارات عن الأراضي العامة في إيطاليا، أو المكوس والعوايد الجمركية في إيطاليا وصقلية وإسبانيا. وكان هؤلاء الأشخاص الذين ترسو عليهم العطاءات يسمون (Publicani). ولم يكونوا دائمًا أصحاب رؤوس أموال كبيرة لأنه كان يجوز لهم تكوين شركات مساهمة. ولم تكن هذه الشركات تقدم للحكومة إلا ضمانات محدودة مما كان يساعدها على تحصيل رأس المال اللازم من صغار المساهمين وكبارهم. كذلك كانت الأعمال المصرفية التي تشمل اقراض الدين بالربا إحدى ميادين النشاط المربحة في كل من إيطاليا والولايات وكان الصيارة (رجال البنوك) يدفعون فوائد على الودائع مما يدل على أن الفرص كانت مهيئة لهم لاستثمار أموالهم. ولا ريب في أن رجال الأعمال الرومان كانوا يسيطرون على جانب كبير من تجارة روما المحلية: كانوا يشتغلون أيضًا بأعمال الشحن والتغليف، وبخاصة بنقل الغلال المحصلة كضرائب من صقلية وسردينيا وأفريقيا إلى العاصمة الرومانية.

وكان الأثرياء بين رجال الأعمال ينتمون إلى الطبقة التي عرفت باسم طبقة الفرسان (Equites = ordo equester). وكانت هذه الطبقة تتألف من هؤلاء الأفراد الذين كانت أسماؤهم مسجلة في وحدات الفرسان الثماني عشرة بالجمعية المئوية ويشملون:

أ) الـ 1800 فارس الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 45 سنة وكانت الدولة تدهم بالخيول على نفقتها.

ب) الآخرين من نفس السن الذين كان في مقدورهم شراء خيولهم على نفقتهم الخاصة.

ج) الشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن 45 سنة وصاروا غير لائقين للخدمة الفعلية بسلاح الفرسان ولكنهم يملكون النصاب العقاري المطلوب لتسجيل أسمائهم في وحدات الفرسان. وكانت وحدات الشبان أ، ب تضم بين صفوفها أبناء أعضاء السناتو الذين لم يتقلدوا بعد منصبا ساميا يؤهلهم لدخول السناتو. فكان هؤلاء بمجرد تقلدهم أحد المناصب السامية، أو بمجرد تجاوزهم سن الـ 45 تسقط أسماؤهم على الفور من قائمة الفرسان لكن بازدياد عدد ملاك الأراضي ورجال الأعمال، قلت نسبة الأعضاء المنتسبين إلى طبقة السناتو بين الفرسان حتى أصبحت الطبقتان تمثلان مصالح مختلفة متضاربة. وكان الفرسان بوجه عام يؤيدون سياسة العدوان الخارجية مع استغلال الأراضي المفتوحة دون رحمة لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة.

المستوى المعيشي الجديد:

أثناء الحملات العسكرية في صقلية وافريقيا وببلاد الاغريق وآسيا الصغرى اتصل الرومان اتصالاً مباشراً بحضارة أعرق من حضارتهم وأرقى حيث كان المجتمع أكثر ذوقاً وأناقة ودماثة من المجتمع الروماني. وقد أظهر الغالون استعداداً للاقتباس من المغلوبين، وبدأوا ينقلون إلى روما كل مظاهر الترف. غير أن أقطاب الرومان لم يعمروا بالمثل الاغريقي القائل «بالاناقة في غير بذخ» وأخذوا كأغنياء الحرب ومحدثي النعمة يتنافسون في أظهر ثرائهم الفاحش. وقد تغير تبعاً لذلك المنزل الروماني تغييراً تاماً. كان المنزل في الأصل بسيطاً يحتوي

على قاعة كبيرة تسمى (Atrium)، وتستعمل كمطبخ في الوقت نفسه، وعلى حجرة جلوس، وغرفة نوم. تغير ذلك وأصبح «الاتريوم» قاعة استقبال مزدادة بالأعمدة الرشيقية، وأضيفت إليها حجرات لاستعمالها في الأغراض المنزلية الأخرى (كما أضيف في فناء «الاتريوم» فناء تحيط به أعمدة من الطراز الاغريقي. وصار المنزل يزخر بالتماثيل الشمينة والتحف الفنية التي نهبتها أصحابها من المدن الاغريقية أو اشتروها من هناك. وصارت أفخر أنواع الأطعمة وأندرها تقدم في المآدب الأنيقة على صاحف من الفضة. وامتلأت بيوت الأغنياء بأسراب العبيد الذين كان كل منهم مدرباً على عمل معين من الأعمال. وكانت مغازل الشرق قد الرومان بالملابس الجميلة المنسوجة نسجاً دقيقاً. واتسعت الهوة بين حياة الأغنياء وحياة الفقراء. وقد لقي هذه التغيير في مستوى المعيشة معارضة شديدة من أنصار مذهب البساطة في الحياة الرومانية، الذين رأوا في مظاهر البذخ والاناقة الجديدة خطراً على صلابة الرومان وأخلاقهم. وكان زعيم حركة البساطة والتقاليف رجلاً محافظاً رجعياً متزمناً وهو كاتو الأكبر الملقب «بالكنسor» - أي «الرقيب» وقد جدد أثناء توليه هذا المنصب في عام 184 أسعار أدوات الترف، والعبيد بعشرة أضعاف أسعارهم في السوق، وفرض عليهم ضريبة باهظة. غير أن هذا الإجراء كان يجافي روح العصر، فأغفل خلافاً في المنصب قوانينه المشددة. وأخفقت كذلك كل المحاولات لوقف انتشار الترف عن طريق التفريع. كما أن قانون أوبيوس (Lex Oppia) الذي صدر تحت وطأة الظروف للحد من بذخ النساء وترجّهن في الملبس والزينة في عام 215، ألغى بعد سنوات قليلة في عام 195 وذهبت عبثاً كل المحاولات التالية لاصدار تشريعات لمكافحة الاسراف والترف والخلاعة في أعوام 181، 161، 143.

هوامش ومراجع

- 1 - راجع فيما تقدم.
- 2 - راجع فيما تقدم.
- 3 - عن كاتو «الأخير» أو «الرقيب»، راجع ص 165 هامش 1، ص 128 هامش 2 فيما تقدم.
- 4 - وأما الكلمة Tributum (التي أصبحت في عصر الامبراطورية أو حتى قبل بداية ترادف الكلمة Stipendium أي ضريبة مباشرة ثانية) فكانت في عصر الجمهورية تعني ضريبة على أملاك المواطنين الرومان تفرض من وقت لآخر لمواجهة أعباء الحرب. وكانت تعتبر قرضاً اجبارياً أكثر منه ضريبة مباشرة، وقد يسدها المواطنين من غنائم الحرب. لكن منذ عام 167 ق.م. أصبحت الكلمة Tributum لا تطلق إلا على الضرائب المباشرة في الولايات. ولم يكن المواطنين في عصر الامبراطورية خاضعين لأية ضريبة مباشرة Tributum إنما كانوا يخضعون لضرائب غير مباشرة (Vectigalia).
- 5 - تسمى أيضاً إيجارات الأراضي العامة، والمناجم والملاحم باسم (Vectigalia).
- 6 - وتعرف أيضاً باسم Quaestio rerum Repetundarum
- 7 - الفدان الروماني = 5 الفدان المصري.

الخلاصة

في عام 133 كانت الدولة الرومانية تواجه طائفة من المشاكل التي خلقت في مجموعها أزمة خطيرة. وكان الأساس الاقتصادي للمجتمع الروماني غير سليم وكانت روما تعيش إلى حد كبير على استغلال الولايات وكان الدخل من هذه الموارد يذهب معظمه إلى أيدي الطبقة الأرستقراطية صاحبة المناصب. وبعضه إلى أيدي طبقة رجال الأعمال. ولم تستفد الطبقة منه إلا قليلاً وتدهرت أحواها بالتدريج باتساع الامبراطورية. وحدث نفس الشيء في حالة معظم حلفاء روما في إيطاليا. أصبحت الحاجة شديدة إلى اصلاح اقتصادي شامل ليقضي على مشكلة البطالة بين الفقراء وذلك بتوفير فرص العمل في ميدان الصناعة والتجارة أو يجعل ميدان الزراعة محباً إلى نفوس صغار المزارعين مرة أخرى. كما أصبحت الحاجة ملحّة إلى اصلاحات سياسية، إذ غدت الجمعيات الشعبية (Comitia) والأداة الحكومية (Magistratus)، وهي الأجهزة التي كانت تلائم بالأمس ظروف «مدينة - دولة» غدت هذه أجهزة عاجزة عن معالجة مشاكل امبراطورية شاسعة وظهرت بوادر التذمر بين الحلفاء اللاتين والإيطاليين. كما كانت موارد الدولة العسكرية في طريقها إلى النضوب والانهيار بينما كانت أعباءها العسكرية آخذة في الازدياد. وكان خطر ثورة الدهماء والمجاعة يتهدّد روما نفسها. وقد احتدمت الأزمة في وقت بدأت تظهر فيه على الطبقة الحاكمة أعراض التدهور الخلقي في الحياة العامة، وبدأت طبقة السناتو تصطرب مع طبقة الفرسان من أجل السيطرة على الأداة الحكومية.

فهرس

الفصل الأول:

جغرافية إيطاليا وأثرها في تطورها التاريخي 7 - 20

الفصل الثاني: إيطاليا قبل التاريخ 21 - 41

العصر النيوليثي 21

العصر الخالكوليسي 26

عصر البرونز 27

عصر الحديد 32

شعوب إيطاليا في القرن السادس ق.م 34

الفصل الثالث: الأتروسكيون والإغريق 42 - 58

الأتروسكيون 42

الإغريق 53

الفصل الرابع: الآلهة الرومانية 59 - 93

مقدمة الآلهة اليونانية 59

جوبيتر 62

جونو 65

بلوتو ونبتونوس وفستا وكيريس 66

مارس 67

فولكانوس وميبرفا 68

أبوللون وديانا ومركوريوس 69
فينوس 70
ديونيسيوس زاجريوس 76
ديونيسيوس باكخوس 79
عبادة ديميتير ذات الطقوس السرية 80
الثالوث الالهي في اليوسبيس 82
فاونوس - سيلفانوس 83
هيراكليس (هركوليس) 84
قائمة بأسماء آلهة اليونان والرومان 91
الفصل الخامس: تأسيس روما - آينياس 94 - 139
فرجيل والآينياد 94
نشأة أسطورة آينياس كمؤسس لروما 99
آينياس ومخامراته في البحر 105
آينياس و «ديدو» 106
آينياس في العالم السفلي 110
نزول آينياس في إيطاليا وحروبها 120
مغزى الأساطير في قصة آينياس 131
الفصل السادس: تأسيس روما - روميلوس 140 - 150
رومليوس وريموس 140
المغزى التاريخي لأسطورة روميلوس وريموس 144
الفصل السابع: صفات الرومان وميزات روما 151 - 169
النزعه العملية في التفكير الروماني 151
ميزات موقع روما 165

الفصل الثامن: روما سيدة إيطاليا.....	202 - 170
طرد الاتروسكيين وقيام الجمهورية	170
المعاهدة بين روما والعصبة اللاتينية	172
غزو الغال روما وانسحابهم	178
حل العصبة اللاتينية	179
استسلام كمبانيا	183
الحروب السمنية	184
اخضاع الاغريق في الجنوب	189
عوامل رجحان كفة روما	193
روما زعيمة الاتحاد الإيطالي	195
الفصل التاسع: الأسرة والدولة والمجتمع.....	238 - 203
الأسرة والتربية الخلقية	204
الدولة والتربية السياسية	208
الدستور في عصر الملكية	210
الدستور في عصر الجمهورية:	214
الامبريوم (والجمعية المئوية والسناتو والدكتاتور)	215
سلك المناصب العامة (Cursus honorum)	221
المجتمع والنضال بين طبقي العامة والأشراف	222
نقباء العامة	224
الجمعية القبلية	227
قوانين الألواح الاثني عشر	230
اكتمال المساواة الاجتماعية والسياسية	231
البرو قنصل والبرو بريتور	233

الكتسور	233
الفصل العاشر: روما وغرب البحر المتوسط	262 - 239
الصراع مع قرطاجة وهنيبال	239
الموقف قبل نشوب الحرب	240
أسباب قيام الحرب	242
مقدمات الحرب (163 - 256 ق.م)	244
الحرب البونية الأولى (260 - 241 ق.م)	245
القضاء على سيادة قرطاجة البحرية	247
الحرب اليونية الثانية (218 - 201 ق.م):	248
غزو هنيبال ايطاليا	251
معركة تريبيبا	252
معركة تراسيمينوس	253
- معركة كنّاي	254
- معركة ميتاوروس	257
معركة زاما	259
الفصل الحادي عشر: روما والشرق الهلليستي	294 - 263
أهم مصادرنا: بوليبيوس	263
الحالة السياسية في الشرق عام 200 (ق.م)	264
الحرب المقدونية الثانية (200 - 196 ق.م)	273
الحرب مع أنطيوخوس والحلف الأيتولي (192 - 189 ق.م)	276
الحرب المقدونية الثالثة (171 - 167 ق.م)	280
الفصل الثاني عشر: السياسة الاستعمارية الجديدة	294 - 287
الحروب الاسپانية (154 - 133 ق.م)	288

289	تمدير قرطاجة (الحرب البونية الثالثة: 149 - 146 ق.م)
291	ضم مقدونيا وحل الحلف الآخي (149 - 146 ق.م)
293	ضم برجامون (133 ق.م)
329_295	الفصل الثالث عشر: أثر الحروب والفتوحات في الحياة الرومانية
295	سيطرة طبقة السناتو الأرستقراطية على الأداة الحكومية
306	روما وحلفاؤها الإيطاليون
308	إدارة الولايات
316	أثر الحروب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية
316	نشأة الضياع الواسعة - وتضخم العبيد وتأثيرهم
321	اضمحلال طبقة صغار المزارعين في إيطاليا
324	تضخم طبقة الدهماء الفقيرة في روما
326	ظهور طبقة رجال الأعمال (طبقة الفرسان)
327	- المستوى المعيشي الجديد - الترف والبذخ
330	الخلاصة:
331	الفهرس: